إريك إيمانويل شميت

يرى من خلال الوجوه

ترجمة: وليد أحمد الفرشيشي

رواية

ساحر الكتب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

عنوان الكتاب الأصليّ المعتمد في هذه الترجمة

L'Homme qui voyait à travers les visages

Eric-Emmanuel Schmitt

إيريك إيمانويل شميت

يرى من خلال الوجوه

ترجمة: وليد أحمد الفرشيشي

مسكلياني

الكاتب: **إريك إيمانويل شميت**
عنوان الكتاب: **يرى من خلال الوجوه**
ترجمة: **وليد أحمد الفرشيشي**

خط الغلاف: سمير بن قويعة
تصميم الغلاف: خالد سليمان الناصري

ر.د.م.ك: **978-9938-24-047-4**
الطبعة العربية الأولى: 2019

© Editions Albin Michel - Paris 2016

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

مسكيلياني للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: (+216)21512226 أو (+216)93794788
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

-1-

- هل أنت نائم؟

أودُّ أن أصرخَ بكلمةِ «لا» ناحية الصوت الذي يخاطبني، لكنّي أصمتُ مُبقيًا على عينيّ مغلقتيْن. إنّ نُطقَ كلمةٍ واحدة سينتزعني من الحلم الذي يأسرني.

داخل مرجٍ يغمره الضوءُ، ثمّة رجلٌ عجوز ذو لحية في بياض الطبشور، يهديني سوسنةً ويعيّنُ لي حصانًا بإصبعه. فأقفزُ على ظهر الحصان الأشقر مندهشًا من نفسي -كنتُ أجهل مقدرتي على ركوبه دون سرج بل كنتُ أجهلُ أنّي أجيد ركوب الخيل- ثمّ أعِدُ العجوز بإنجاز المهمّة التي عهد بها إليّ. يبتسمُ وتُطلق شفتاهُ الرقيقتانِ، إذْ تنفرجان، تغريدَ العصافير. وتتلألأ الشمس.

- هل هو نائم؟

أنتظرُ بضع ثوانٍ. إذا ما طالت فترةُ الرّاحة، سأتابعُ مسعاي وأبلغ القصر. كنتُ أُدرك، وقد أصابني التوتّر، والزمامُ في يدي، أنّي مُعلّقٌ بين عالمين، عالم محسوس وفيه تضغطُ ربلتا ساقيّ على الصدر السّاخنِ لحصانٍ، وعالم مجرّد أجازف فيه بصعوبة بترك عينيّ مُغلقتيْن وأذنيّ غافلتيْن.

أمامي، يُميلُ الدرويش رأسه على كتفه شاعرًا بخيبةِ أملٍ لأنّي لم أتحرّك من مكاني. أوه، لكم يزعجني هذا الصوت، هذا الصوت يشلّني، ولو واصل إلحاحه سيقذفني إلى مكان آخر!

لحسن الحظّ، يمتدُّ الصمتُ... فأهدأ، وأغرقُ مجدّدًا في الكونِ الذي يندفعُ فيه حصاني عبر الغابة. أحبّ سرعته وخِفّتهُ وتلك الأناقة التي يتخطّى بها البرك، ويراوغ العقبات وينحني ليتفادى الأغصان. حوافره لم تعد تُلامسُ الأرض.

همس الصوتُ وقد لان فجأةً:

- هل أنت نائم، يا عزيزي؟

رعشةٌ مّا تُشعرني بالدفء. يبدو لي أنّي تعرّفتُ هذه النبرة. في السّماء، وراء رؤوس الأشجار، يُطالعني وجه أمّي شاسعًا، حنونًا، مُشعًّا، متعاطفًا. تُشجعني وتحثّني على الإسراع. يا لسعادتي... إنّ حضورها يداعبني وأنا أركض.

- انهض، أيّها الأحمق!

أتلقى ضربةً على كتفي. أترنّحُ. أفقدُ توازني.

في العالم الأوّل، أسقطُ من صهوة الحصان، وفي العالم الثاني، أنزلقُ من مقعدي. تُخلّفني السّقطةُ تائهًا، مُخدَّرًا، جافَّ الفمِ، متورّم المؤخّرة.

جفناي ينفتحان. وداعًا أيتها الطريقُ، وداعا أيّتها الغابة، وداعًا أيّها السّاعي! حولي، أجد مجدّدًا المكتب الضيّق الذي خصّصوه لي في هيئة تحرير «الغد»، الصحيفة اليومية لمدينة شارلوروا[1]. لقد اختفت

---

(1) شارلوروا (Charleroi)، مدينة بلجيكية تقع في الإقليم الوالوني في مقاطعة هينو. (كلّ الهوامش في هذه الرواية من وضع المترجم).

أمّي -فهي بالتأكيد ماتت عند ولادتي- تاركةً مكانها لسحنة فيليبار بيغارد المحمرّة. كان ضخمًا، قويًّا، دمويًّا، مُنتفخًا من الغضب مثل ثور. يقيسني المديرُ بعينيه في احتقار، وهو يحرّكهما من الأسفل إلى الأعلى، دونَ أن يراني.

- أوغسطين، نحنُ لا ندفع لك أجرًا لكي تنام!

وأنا أنهضُ من سقطتي، أتخيّلُ أني أردُّ عليه قائلاً إنّي لا أتقاضى أجرًا عن عملي متدرّبًا في الصحيفة، ولكنّ الخجلَ يمنعني من الردّ بينما يمزّقُ ألمٌ وخّازٌ عصعصي، فأدلّكُ عجيزتي.

- أنا آسف، سيّد بيغارد.

تجلجلُ الضحكاتُ من الغرفِ المجاورة.

يشيحُ رئيسي ببصره مُطلقًا زفرةً مُتأفّفة، وكذلك زملائي المُنتشون بالمشهد. فأنا أُثير اشمئزازهم.

أقلبُ مقعدي مجدّدًا، محاولاً الجلوس، فأقع في شرك متابعتهم المقيتة لي.

- أوه، آسف، آسف...

همستُ معتذرًا للكرسيّ، وحالتي تزداد سوءًا.

أبدو مثيرًا للازدراء، أعرفُ ذلك... لفرط طولي وشدّة نحافتي أكاد لا أملك جسدًا بل ساقَ نبتةٍ، ساقًا يحنيها ثقلُ جمجمتي. كانت هيئتي، بقفاي المتورّم وعنقي المائل تُذكّر من يراني بشكلِ المشجب. حتّى في استقامتي تجدني مائلاً إلى الجانب. وكانت نحافتي المفرطة تتجاوز رقّةَ العود، حتّى إنّي عندما أنشر ذراعيّ أكشفُ عن أوتارهما، فلا يُرى أثرٌ

لأيّ عضلة فيها. وفي المسبح -مكان التعذيب الذي أتفاداه- حيث يعرض الناس العاديون عضلاتهم المنتشرة على صدورهم ومؤخّراتهم، لا أعرض أنا غير تجاويف في تلك المواضع. وإذا ما نزعت جواربي، أعرضُ قدمين هزيلتيْن تستطيع أن تعدّ عظامهما الستّة والعشرين. أمّا عند التعرّي الكامل... فليس لي سوى لونٍ واحدٍ، هو لون الرمل. الجلد رمليّ ولبدة الشعر رمليّة وقزحية العين رمليّة وشعر الصدر رمليّ. بل إنّي على خلفيّة رمليّة أصبحُ شفّافًا. ويصبح عدم الانتباه لي مضمونًا!

ومع أنّي لم أتوقف عند ذلك كثيرًا، فإنني بحثتُ من حين إلى آخر في المرآة عمّا يمكنُ أن يعجبَ الآخرينَ فيّ، لكنّ شيئًا من الضيق كان دائما يُنهي المحاولة قبل أن أحصل على نتيجة.

حسب الأخصائية الاجتماعية التي يجبرونني على لقائها، أنا لا أحبُّ نفسي، وهذا عين الخطأ... ذلك أنّه يسرّني أن أحبّ نفسي، ولكنّ الآخرين هم الذين يلفظونني! ضآلتي تعلنُ عن نفسها، فأنا أُضايقُ وأُزعِجُ وأُغضِبُ، وسخافتي تثيرُ التعليقات حولها. وعندئذٍ أتمنّى أن أحجب عن الأبصار فألتصق بالجدران، لكنّ الناس يلاحظونني، فيتأمّلونني ثمّ يُطلقونَ -مع ابتساماتهم الخبيثة- البصقة والإهانة. «رأس صالحٌ للّطم»، هكذا لخصّ بعض المعلّمين الأمرَ عندما بلغتُ السادسة عشرة. وها إنّي في الخامسة والعشرين، أؤيّدُ وجاهة تعريفه.

لسببٍ مّا لا أدركهُ، يفترض النّاس أنّي مذنبٌ بسبب حالتي الجسدية، ويلومونني لأني أبتليهم بجحودي. فأظلُّ الضحيّة التي يتّهمونها دونَ أن تظفر منهم بذرّةٍ من التعاطف. ربّما كان من الأفضل، بالنسبة إليّ، لو رُميت بعاهةٍ حقيقية؟ لو نُعتّ بالأعمى، بالكسيح، أو

بالأكتع، لكنت باعثًا على الاحترام... أحيانًا، أُخمّن أنهمُ يدركونَ أيضًا جُبني...

- حسنًا، ماذا تقترحُ علينا يا أوغسطين؟ متدرّبٌ شابٌّ يلتهمه الطموحُ، سيكون طافحًا بالأفكار، أليس كذلك؟ آمل ألاّ تعتبر مكوثك هنا فرصةً كي تنعم بالنوم في مكانٍ دافئ، مع أنها المرّة الثالثة التي أضبطك فيها مُتلبّسًا بالجرمِ المشهود.

يستخدمُ فيليبار بيغارد بصوته الشبيه بصوتِ البوق، لهجةً مُهدِّدة، مقتنعًا بأنّي لن أردّ الفعل. أرى الشّرك الذي ينصبهُ لي. هل سأسقطُ فيه؟ سيسعدهُ ذلك.

أمام صمتي، يشعرُ بالمتعة. في حقيقة الأمر، لئن كان مُحبَطًا منّي، فإنّه منبهرٌ بنفسه.

- لقد فكّرتُ في إجراء بعض المقابلات الصحفية...

ينتفضُ وقد أدهشهُ أنيّ تأتأتُ ببضع كلمات...

- معذرة؟

- يمكننا أن نجري استجوابات للشخصيّات المحليّة وأن نأخذ آراءها حول وضعيّة العالم، والأزمة وانعدام الأمن والـ...

- نحن؟

- الصحيفة.

- أنت؟

- ولم لا؟

شحبتُ، وقد أدركتُ أنّي بالغتُ في جرأتي. والمديرُ يُناجي الصحافيين:

- يجبُ أن تخافوا على مواقعكم، يا أصدقائي، فمتدرّبنا الهزيلُ يعتزمُ التشاورَ مع كبار هذا العالم. وقريبًا، لن تعملوا في صحيفةٍ يوميّةٍ ذات إشعاع دوليّ فحسب، صحيفة لا تشبهُ هذه الجريدة البائسة التي تسمح لكم بتسديد فواتير الغاز، وإنّما ستحالون على البطالة لأنّ السيّد أوغسطين تروليبه سيحلُّ محلّكم.

هو لا يمنحُ صفة «السيّد» لأحد، إلاّ حين يريد أن يسحق مخاطبه.

قال وهو يزدريني مقطّبًا جبينه:

- ومن ذا الّذي سيحاورُه حضرةُ المدّعي؟ اعرض مفكّرة عناوينك حتّى نستفيد من شبكة علاقاتك! من؟ البابا؟ ملك القمر؟ هل أعدت الحياة إلى ديغول أو غاندي أو جنكيز خان؟ لم يسبق لك أن استجوبت أيّ شخص مهمّ يا دودة الأرض البائسة!

أفتحُ فمي لأجيبه ولكن لا يخرجُ من بين شفتي أيُّ صوت. أتجمّد في مكاني بتراخٍ. البلّورُ المقابل يرسل إليّ، في قسوةٍ، انعكاسَ طلعتي المغفّلة. دائما ما تدورُ المشاحنات بهذه الطريقة: عندما تؤثّر فيّ الإهانة، أحبسُ أنفاسي، وأضغطُ على إيقاع تنفّسي وأرجعُ لساني إلى الخلف... ولكنّ الردّ يرفضُ أن يخرج. جسديًّا، كلّ شيء لديّ يعمل، أمّا ذهنيًّا، فإنّ الاستجابة تأخذُ وقتًا. أمتلك القوسَ، ولكنّ السهم يعوزني.

يزمجرُ المديرُ وقد غلبه الاهتياج:

- هيّا، إلى الشارع!

يغرقُ الزّملاء في أعمالهم بعد أن توقّفوا عن مراقبتنا، واحدٌ في شاشة حاسوبه، والثاني في مقاله والآخرُ في ملفّاته، فقد عاشوا إهانة الشّارع ويخشون أن يشملهم هم أيضًا ذلك الأمر الذي أصدره بيغارد.

- لا خبرة لي في الشّارع، يا سيّدي!

- بل لا خبرة لك في أيّ مكان. هيّا، إلى الرّصيف! واجلب لنا ما ستعثرُ عليه في قعر بالوعة. التقط أيَّ قمامةٍ، فهذا أمرٌ يمكنك النجاح فيه، أليس كذلك؟

عليّ أن أطيعه وأن أستجيب بسرعة قبل أن يبتكر عقابًا أشدّ قسوةً. وأنا أُمسك بمعطفي الواقي من المطر، وقبّعتي وقفازيّ الصوفيّيْن، أودّ أن أشرح لهُ لماذا تُبلِّدُ الحرارة ذهني ولماذا غفوتُ ولماذا في الأيام الأخيرة...

ولكنّ بيغارد كان قد رحل بالفعل.

أبقى واقفًا بهيئتي المزرية على السّجاد البالي. أمّا الجدرانُ فليست تردّدُ سوى صدى الصمت المطبق. عندما أمرُّ من أمام مكاتب زملائي يخفضون رؤوسهم، يغرقونها بين أكتافهم، ويتضاءلون. إنهم يحمون أنفسهم منّي كما لو أنّي أحملُ فيروسًا ضارًّا، سوءَ الطالعِ، ربّما...

أندفعُ إلى الرّواق، أنعطفُ نحو المراحيض، أُفرغ بألمٍ بضع قطرات غامقة جدًّا من مثانتي، ثمّ أتوقّف عند المطبخ الصغير. هنالك، أتردّد في الدخول. تتسارعُ دقّات قلبي. ألا يوجد أحد في الجوار؟ ربّما لايزال ثمّة ما يؤكل، لوح شوكولاتة أو بسكويت أو كسرة خبز أو قطعة حلوى... منذ متى لم آكل شيئًا؟ ألقي نظرة على الرّفوفِ ثمّ على المَجْلى:

لا يوجد شيء. أفتحُ باب الثلاّجة بتكتّمٍ وأعثرُ على علبة جعّة مفتوحة. لِمَ لا؟ إنّ الجعة تحتوي على سعرات حرارية أكثر من الماء، مع أنّ أقلّ قطرة كحول، في حالتي تلك، قد...

تهبطُ يد سمينة مرصّعة بالخواتم على العلبة. تسترجعُ المنظّفة علبتها وتحملها إلى فمها العريض الذي يشقّ رأسًا يفتقرُ إلى عنق، وكأنّه مثبّت بالبراغي فوق جذعها مباشرةً. ودون أن يرفّ جفناها اللّذان تنسحق تحتهما زينةٌ زرقاء دهنيّة، تبتلعُ السائل في جرعةٍ واحدة، تُطقطق بلسانها، تمسح شفتيها، وتتنهّدُ بارتياح، ثمّ تتجشّأ...

بعد أن تفرَغَ مدمنةُ الكحول من نوبتها العصبيّة، تركّز عينيْها عليّ وكأنّها تراني من بعيد –والحال أنّي أقف على بعد خمسين سنتمترا منها– وترسمُ ابتسامةً باهتة على شفتيها، ثمّ تمسك أدوات التنظيف وتغسل الأرضية بالممسحة، وخطواتها مترنّحة وحذاؤها متثاقل وجواربها مُلولبة. إنّ مشاهدة الطريقة التي تمسكُ بها عصا الممسحة، تُشعرني بأنّ المكنسة صُمّمت لحمايتها من التعثّر لا للتنظيف.

لقد تأكّدتُ من أنّها نسيتني بالفعل، أخرجُ العلبة من صندوق القمامة الذي رمتها فيه، وألعقُ ما تبقّى فيها. يعيدُ المذاقُ المرُّ للجنجل[1] ترطيب لساني الجافّ وتعبرُ موجةٌ من المتعة حلقي، موجة عارمة تتعارض والقطرات الضئيلة التي أثارتها. آه، لو اكتشفتُ أين تخفي أمّ كلثوم الملعونة مخزونها...

أتطلّعُ إلى موظّفة صحيفة «الغد». غالبًا عندما أركّزُ بصري على شخصٍ مّا أكتشف أسراره. لكني عمومًا أتجنّب التجربة، لأنّي عرفتُ

(١) الجنجل أو عشبة الدينار: نوعٌ نباتي من الفصيلة القنّبية يُستخدمُ في صناعة الجعّة.

كثيرًا من الفظاعات كان يمكن أن أعفي نفسي من معرفتها بيُسر، ولكنّي اليوم جائع إلى درجةٍ تجعلني لا أتردّد في الأمر.

أغرسُ عينيّ في رقبتها السّمينة.

يكرّرُ عقلي وهو يتمعّنُ في تفاصيلها: «أين تخفين مخزونك من الجعّة؟»

ولكنّ «أمّ كلثوم» تتمنّعُ عنّي.

أفشلُ في انتزاعِ أيِّ معلومةٍ.

جسمٌ مُربَّعٌ يساوي عرضُهُ طولَهُ تقريبًا، ملفوفٌ في فستانٍ متخفّفٍ من النسيجِ ومزركشٍ بالزنابق، يجعل هيئتها كتلةً واحدة يستحيلُ فكّ شفرتها. يُبقيني الكحولُ الذي ثملَتْ به على مسافةٍ، ففي كلّ الأحوال، ثمّة خطرٌ في الاقترابِ من برميل ممتلئ.

أُصرُّ.

تعتمدُ بذقنها على مقبض الممسحة، تغلق عينيها، تتوقّفُ عن فرك الأرضية، وتهزُّ وركها الأيسر هزّاتٍ خفيفةً. لا بدّ أنّها تحلمُ بنفسها ترقص. حولها، لا أُميّز غير الموسيقى، أقواس كمنجات تنزلق، ونقرات على آلة القانون، دفوف تقرعُ في نعومة، وبعض الكلمات ذات معنًى باطنيّ، «حيّرت قلبي معاك»، «فات الميعاد»... حتمًا هي تغنّي بداخلها، وهذه الأغنية تحمي أسرارها وتحوّلها إلى قلعة منيعة.

تبسطُ أمّ كلثوم سطوتها عليّ. بل إنّها تبسط سطوتها على كلّ الموظفين هنا، مع أنّها تحتلُّ أسفلَ السُلّمِ الوظيفي. ولئن كانت تلمّعُ الأرضيّة بطريقةٍ سيئة وتجيبُ على الهاتفِ في شرود -وهما مهمّتاها

الوحيدتان- فإنّ بيغارد لا يوبّخها مطلقًا. يعلمُ أنّها تُغفل تنظيف الغبار في الزوايا وتنسى تفريغ صناديق القمامة وتستخفّ بالمكالمات الواردة على الصحيفة، ولا تشكرُ السُّعاةَ، ومع ذلك يصمت.

قبل شهر، عندما التحقتُ بأسرة التحرير، سرعان ما سألت الزملاء: «لماذا تحظى أمّ كلثوم بامتياز الإفلاتِ من استبداد المدير؟»

«لا علم لنا. إذا أخبرَتْك بسرّ ذلك، فتعال سريعًا لتخبرنا».

وهذا بالضبط ما أجبتُ به الموظف المبتدئ الذي جاء اليوم يستفسرني.

ما تزالُ أمّ كلثوم أحجيةً، أحجية تجعلها المعلومات النادرة عنها أكثر غموضًا.

وُلِدَتْ أمّ كلثوم صبيًّا، كان اسمها في البداية «روبرت بيترس». وذات صباح، في عامه الأربعين، وبينما هو يلعبُ «الضامّة»[1] في حانةٍ بجهة «شاتيلينو»[2] والمذياع يبثّ أغنية «اذكريني»، أدرك بغتةً أنّه في حياة سابقة كان امرأة ولكن ليس أيَّ امرأة. لقد كان أُمَّ كلثوم، المطربة العربية التي لا تضاهى، كوكب الشرق، بلبل القاهرة، الخالدة، تلك التي يطلقُ عليها اسم «الهرم الرّابع»! وإذ بَلبلهُ هذا الاكتشاف، تغيّر بين عشّية وضحاها، فانتعل الأحذية ذات الكعوب العالية وارتدى الفساتين وأحاط جمجمته بمنديل ثمّ اعتنق الإسلام وغادر مهنة صنع البراميل إلى وظيفة أكثر أنثوية. ولا أحد يعرفُ ما إذا أُجْرِيَتْ له عمليّةٌ

(1) لعبة الضامة أو الداما: لعبة لَوْحيّة شعبيّة بسيطة. وهي لعبةٌ عربيّة دخلت عن طريق الأندلسيين إلى أوروبا شأنها شأن لعبة الشطرنج.

(2) بلدة تنتمي إلى مدينة «شاتيلي» البلجيكية.

لتغيير الجنس. وليس ثمّة من يرغب في التحقّق من ذلك، هذا لأنّ أمّ كلثوم باستثناء جرأتها وملابسها وتسريحة شعرها ومساحيقها، الملفتة للانتباه، لا تمتّ للأنوثة بصلة: جسدٌ ممتلئ شبيه بجسد سائق شاحنة، وذراعان مشعرتان، ولحية زرقاء تثقبُ في نهاية اليوم طبقة طلاء الوجه البنّي الذي يحجبها، وكرشٌ مدمن كحول وصوتٌ شرطيّ. يؤكّدُ لافوين الأصهب المكلّف بالصفحات الرياضية عندنا، أنها احتفظت بِسِماتها الذكوريّة ولم تحقن نفسها بحقن الهرمونات الأنثويّة.

تُهيمن أمّ كلثوم على هيئة تحرير صحيفة «الغد». وهي تتربّع على عرشها وراء النضْد العالي المصنوع من خشب الماهوجني، تتأمّلُ بعين شاردة، لكن متسلّطة، أيَّ شخص يدخلُ أو يخرجُ. ومن يعبرُ منطقتها يجدُ نفسه مضطرًّا لتحيتها -بل والانحناء لها في توقير- تحيّةً لا تردُّ عليها مطلقًا. وعندما نطلبُ منها أمرًا مّا، فإننا نفعلُ ذلك باحترام، بل وبشيء من الخنوع، حتّى إنّه في حضرتها، سرعان ما يكفّ هذا الـ «أمرٌ مّا» عن كونهِ واجبها ليصبح معروفًا تمنحهُ أو تضنّ به. وعندما يرنّ الهاتف، تتطلّعُ إليه باستنكار وتنتظر الرنّةَ الخامسةَ عشْرَة قبل أن ترفع السمّاعة، لتتأكد فقط من أنّ الدخيلَ متمسّكٌ حقًّا باتصاله.

لا شيء بإمكانه أن يربك «أمّ كلثوم». ولمّا كان النّاسُ الذين يسمعونها في الهاتف ينادونها بـ«السيّد» بمجرّد أن يتردّد صدى صوتها، فإنّها تصحّحُ لهم بالطريقة نفسها قائلةً: «السيّدة!» بهدوء مترفّع.

ذات يوم، قال لها لافوين بمكر: «إنّه لمن المحبط أن تفسّري لكلّ متصّلٍ أنّك امرأة، أليس كذلك؟». فكان ردُّها: «لقد حدث معي الأمر نفسه في حياتي السّابقة».

أين تعيش بعد أن تنهي دوامها؟ ومع من؟

وسط الرّواق الضيّق، أحتكّ بها وأنا ألتحق بباب الخروج. عندما ألمسها، تقفزُ مذهولةً لأنّ إنسانًا تسلّل إلى حُلم يقظتها، تتفحّصني بهيئتها المتصلّبة، تبحثُ للمرة المائة عمّن أكون، ثمّ تتراجعُ عن ذلك وتبسط الممسحة على الأرضيّة المشمّعة.

قبل أن أصل إلى الردهة أقتربُ من مكتب المدير وقد نسي صاحبه أن يغلق بابه. أبطئ الخطو متسائلاً: فيمَ يشغل وقتهُ عندما لا يكون بصدد الصراخ في وجوهنا؟

يدخّنُ السيد بيغارد سيجارًا كوبيًّا، واضعًا مؤخّرته على طاولة مكتبه، ومحدّقًا في الشارعِ عبر النافذة التي تؤطّرها ستائرُ مخمليّةٌ داكنة. هو يعتقد أنّه وحيدٌ في هذا العالم. عندما لا يوبّخ مرؤوسيه، يجلسُ متأمّلاً. يرتفعُ الدخانُ بهدوء من السيجار البنّي المُنتهي بحلقة من الرّماد الأبيض. لا يعبّ منه نفسًا كي لا يُسرّع من اشتعاله ولا يرفعهُ إلى فمه بل يتركهُ يحترقُ ببطء، ذلك أن هدفه هو أن يتركه على حاله لأطول وقتٍ ممكن.

أتوقّف، مُرغمًا، أمام هذه اللّوحة العجيبة.

وأنا أدقّقُ النظر، أدركتُ أنّه لم يكن مُلتفتًا صوب النّافذة وإنما صوب صبيّة صغيرة تقفُ في الظلمة، صبيّة في السّابعة من عمرها لها ضفائر شقراء وترتدي تنّورة من القماش الأسكتلندي. وبينما يبتسمُ لها، ترسلُ له إيماءات متغنّجة.

من تكون؟ لا يُسمح بوجود الأطفال في الصحيفة...

تكتشفُ الصبيّة وجودي فترسل ناحيتي إشارةً مرحة.

أردّ بعفوية:

- صباح الخير.

ترفعُ الطفلة الصغيرة يديها إلى فمها، مفزوعة، كما لو أني ارتكبتُ خطأً فادحًا، قبل أن تختفي وراء صدر بيغارد. يدورُ هذا الأخير بجذعه في اتجاهي:

- أيّ ذبابة قرصتك؟ لماذا تقول لي صباح الخير؟

- أوه، لم أقلها لك، بل للطفلة الصغيرة.

وبإصبعي أشرتُ إلى الصبيّة الواقفة خلفه، رغم أنّها لم تعد في مجال رؤيتي الآن.

يصرُّ بيغارد:

- أيّ طفلة صغيرة؟

- الطفلة الصغيرة التي تجلس إلى جانبك، تلك التي تختبئ.

أين هي؟ أطنبتُ في الميل يمينًا ويسارًا، بل إنّي تقدمتُ خطوةً إلى داخل الغرفة علّني أعثرُ على المكانِ الذي تختبئ فيه. لقد زاغت. هذا لا يُصدّق! لا أعثر عليها في أيّ مكان. أنزل على أطرافي الأربعة، أتفحّصُ الجزء الخلفي من طاولة المكتب، وما تحت الكرسيّ، وأزيحُ السّتائر.

- أوغسطين، هل جُننت؟

من المستحيل معرفة أين رحلت وكيف.

- كان ثمّة طفلة صغيرة، هنا! طفلة صغيرة في السابعة من عمرها، ذات ضفائر شقراء وترتدي تنّورة من القماش الأسكتلندي!

يتحوّل وجه بيغارد إلى اللّون الأرجواني، تظلمُ عيناه وترتعشُ يداه. ويغمغم:

- «هل تمزح؟».

- مطلقًا. ما لا أقدرُ على تفسيره هو كيف اختفت.

- وكيف اختفت؟

بينما أقتربُ لأكشف هذه الخدعة السحريّة، يوقفني بيغارد ويمسكني من رقبتي. ينتابني الخوف، فقد أصبح كتلةً خالصةً من الغضب. يتملّكني الاضطراب، وأشعرُ بأنّه سيقومُ بخنقي.

- كيف تجرؤ؟

إنّه منزعجٌ للغاية حتّى إنّه أخذ يتحدّث بصعوبة.

- كيف تجرؤ!

وهو يهتفُ بهذه الجملة، يرفعني، يمضي بي إلى باب المكتب، ويرميني في الردهة.

- ستدفع ثمن ذلك! ستدفع ثمن ذلك غاليًا...

أعتقد أنّي ألمحُ دموعًا في عينيه. يستديرُ ويصفق الباب تاركًا إيّاي على الأرض.

يدورُ المفتاحُ في القفل، وتبتعدُ خطوات بيغارد نحو النافذة في قاع الغرفة.

يخيّم الصمت.

لم أفهم ما حدث للتوّ، وجودَ الصبيّة، اختفاءها، وردّةَ فعل بيغارد...

وأنا أنهضُ، أحاولُ ترتيب ملابسي. ومن وراء الباب، تُسمع أصواتُ شهقات وبكاء. ألصقُ أذني بالباب.

هل يمكنُ أن تكون الطفلة قد عادت؟

تتوضّحُ الأصواتُ، ثمّة تنفّسٌ ثقيلٌ، وشهقاتٌ تخرجُ من صدرٍ عريض، ونواحُ رجلٍ، إنّ بيغارد هو من يبكي لا الطفلة المجهولة. إذا اكتشفني واقفًا هناك، شاهدًا على ضعفه، سيعدمني على الفور. لذلك أغادرُ المكان.

في الخارج، تقذفني رطوبة ميدان أودان بمئزرٍ باردٍ على وجنتيّ. ومع أنّها لم تمطر، ثمّة نوع من الطّلاء يصبغُ بلاط الشّارع.

هناك سكّيرٌ يجلسُ متثائبًا على مصطبة. وبعض ربّات البيوتِ بصدد الانتهاء من التسوّق. ومراهقان يرتدي كلّ منهما قميصًا بغطاء للرأس ينفخان في أيديهما تحت شرفة. وجود المتسكّعين في الساعة الحادية عشرة صبَاحًا أمرٌ نادر. ثمّة كلبٌ يتمطّط. «إلى الشارع!» كذا صرخَ بيغارد في وجهي، كما لو أنّني كنتُ سأنضمّ إلى حشدٍ نشيطٍ يضجّ بالرغبات والإثارة والطموحات، يختلط فيه آلاف البشر الذين يعيشون بسرعة مائة كيلومتر في السّاعة. هرجٌ ومرجٌ فيه غِنًى لا ينضب، منه أستخرجُ الدُّرَر الجديرة بالظهور على أعمدة الصحيفة. لكنّ شارلوروا ليست باريس أو لندن أو نيويورك. بعد أن تسهر، تخلد مدينة شارلوروا للنوم. ترمشُ بعينيها في وقت الغداء، تظهرُ فترات قصيرة من النشاط عند العصر، أمّا في ساعة الذروة، فحتّى إذا تراصّت السيّارات بعضها إلى جانب بعض، فإنّها توحي بأنها متوقّفة أكثر ممّا تشي بنفاد صبر سائقيها. لقد استوطن الجمودُ شارلوروا منذ فترةٍ طويلة، شأنه شأن السّحب البيضاء والأمطار البطيئة.

أنظرُ حولي. ثمّة حمامةٌ تطيرُ حزينة.

أيّ معلومات سأجمع؟

يجدرُ بي الدخولُ إلى حانة، والاتكاء على الدكّة، والاستمتاعُ بكأسٍ وأنا أُصغي إلى القيل والقال المُقطَّر من مدير المحلّ والزبائن. كل ما في الأمر أنّ هذه العمليّة تستوجبُ أن أخصّص لها بضع يوروهات. لكنّ جيوبي تتثاءب، فارغةً. وليست جيوبي فقط من تتثاءب بل بطني أيضًا.

ينتهي الرّصيفُ دون أن أفطن إلى ذلك ويلتوي كاحِلي.

أسقطُ أرضًا.

آه، لوكان في مقدوري أن أفقد وعيي! أن يوقظني رجال المطافئ وأُحملَ إلى غرفة الطوارئ وهناك يطعمونني شطيرةً أو حساءً أو عصيرَ التفّاح...

أفركُ قدمي. لا شيء ممّا فكرتُ فيه حدث. أشعرُ بالألم ليس أكثر. وهذا الألمُ سيزولُ. سيزولُ أسرع من جوعي.

أنهضُ. أمامي، على بعد عشرين مترًا، ثمّة امرأة أنيقة، تُخرج تفّاحة من سلّتها وتقضمها. يرنُّ هاتفها. تضعُ التفّاحة الذهبيّةَ على حافّة مصطبةٍ كي تجيب. هل أنتهزُ غفلتها وأسرقُ الثمرة؟

- أوغسطين، تمالك نفسك.

إنّ ضميري يفضّلُ الجوع على العار.

- جِدْ المعلومات وعُدْ إلى الصحيفة بالأخبار، وإلاّ...

ذاك الجزء الشرّير داخلي يرغبُ في الاعتراضِ على ضميري:

- وإلاّ ماذا؟ أنا لا أتلقّى أجرًا ولا اعترافًا. وهذا التدريب لن

يؤدّي إلى شيء. سيكون من الأفضل لو تسوّلتُ...

أهزّ كتفيّ، وأعود أدراجي إلى الميدان. الأجراسُ تُقرع. ثمة قدّاسٌ بصدد الانعقاد في ساحة شارل الثاني.

تذهبُ خطاي في هذا الاتجاه لأنّ هنالك محلًّا للوجبات السّريعة يحاذي الطّريق. بالتأكيد لن أدخله ولكن -من يدري- ربّما أَلْقَى أحدُهم وهو خارجٌ، برقائق البطاطا المقليّة أو بنصف شطيرة «همبرغر» في القمامة. لقد تغذّيت بنفس الطريقة يوم أمس، فالتقاط الفضلات لا يقزّزني.

رجلٌ مّا يدفعني.

كدتُ أسقط ولكنّه لم يُولني مجرّد انتباه.

وأنا أتراجعُ عن مطالبته بالاعتذار -إذ سأكون عاجزًا عن العراك- أستندُ إلى واجهةٍ وأدلّك كتفي.

محمومًا، يعبرُ الرّجل الشارعَ بحدّة. أميّزهُ على نحو أفضل: هو في العشرين، يرتدي معطفًا سميكًا وضخمًا فوق جسدٍ نحيلٍ، له شعرٌ تحت قلنسوته، ولحية كثّة ولكنها مشذّبة، وعينان سوداوان واسعتان قليلاً. يُلقي نظرات قلقة ورأسه يدورُ دون توقّفٍ يمينًا ويسارًا.

إنّه يثيرُ اهتمامي.

ما الذي يوجدُ وراءه، على مقربة من كتفه؟

يتوقّفُ عن التقدّم ويتلمّسُ ساعته. أرى جيّدًا ذلك الطائر الذي يرفرفُ حوله.

ما نوعه؟ غراب؟ شحرور؟

أُمعنُ النظر.

هل هو دابّةٌ ذات ريش؟

أكاد أجنُّ... هل يتلاعبُ بي خيالي؟ إنّي أرى رجلاً مصغّرًا مكان الحيوان، شكلاً بشريًّا يرتدي جلبابًا في لون الفحمِ ويحرّك ذراعيه بطريقة غاضبة.

أبتلعُ ريقي وأضغطُ براحتيّ على جصّ الواجهة التي أستندُ إليها كي أتحقّق من أنّي أمام حقيقة واقعة.

أمامي، يمسحُ الشابُّ جبينه، يرتعشُ، يتردّدُ ثمّ يقرّر أن يعود أدراجه. فوق كتفه، يبدأ القزمُ في الرفسِ، والتكشير والصّراخ.

لا أفهمُ ما يقوله ولكنّي أدركُ أنّ المخلوق الضئيل يوبّخُ الشاب.

يشدُّ الشاب قامته ويقفُ جامدًا. يستمعُ إلى ما يقوله له المخلوق الذي يرتدي الجلباب، يغلق عينيه ويجذبُ نفسًا. ها هو الآن يهزّ رأسهُ استحسانًا ويوافقُ. بعد مضيّ دقيقة، يعودُ إليه الهدوء ويغمره. أمّا المخلوق، وقد استشعرَ أنّه ربحَ، فيخفت حنَقُه ويتكلّمُ بدفَقٍ منتظم وبثقة أكبر في سطوته مع كلّ لحظة.

يبتسمُ الشّابُ وقد انتفخت أوداجه، ويقول له شيئًا.

تعودُ الأمورُ إلى نصابها ويتّفقان.

ويتوقّف قرع الأجراس.

يراجع الشّابُ ساعته ويعبُّ نفسًا عميقًا في تصميم. ويواصلُ التقدّم في طريقه بخطواتٍ عملاقة ثمّ ينعطف.

أتبعه. بالتأكيد، هذا لن يوفّر لي أيَّ أخبارٍ ولكن المخلوق الذي

بحرسهُ يثيرُ فضولي وهو ينزلق في الجوّ مثل طائرةٍ ورقيّة في سماءٍ بلا نسيمٍ.

يصلُ الشابُّ إلى ساحة شارل الثاني، ذات الشكل المسدّس. تحت شرفة كنيسة سانت كريستوف، تتجمّعُ العائلات المكلومة وهي تخرجُ من القدّاس.

ثمّة نعشٌ يظهر.

يواصلُ الشاب طريقه ويحاذي المدرّجات التي يقف عندها الحشدُ.

بينما أدخلُ السّاحة أنا أيضًا تجلب انتباهي جزئيّة: على يساري، ثمة علبةٌ من رقائق البطاطا المقليّة مطروحة فوق حاوية نفايات. يبدو أنّها ماتزال ساخنة، وموضوعة للتوّ.

أعجز عن المقاومة، فأتخلّى عن التعقّبِ وآخذها ملء اليد ثمّ أحشرها في فمي.

لا أجرؤ على التفكير في أنّي، بعد دقائق، لن أظلّ جائعًا بعد الآن. تسحقُ أسناني اللبّ النشويّ. أحيا من جديد. أو بالأحرى، سأحيا من جديد.

بالمناسبة، أين هو رَجُلي ومخلوقه الطائر الغريب؟

أستديرُ فألمحهُ، وراءَ مياهِ النافورة على مسافةِ مترٍ من متعهّدي الدفن وهُمْ يُدخلون النعش في سيّارة ليموزين.

عندئذٍ، يفتحُ معطفه السّميك، يصرخُ بجملةٍ مّا بصوتٍ متقطّعٍ ويقومُ بحركةٍ مباغتة.

يُدوّي انفجارٌ.

آ

ثمّة شيء مّا يمحوُ السّماءَ.
ترفعني موجة هوائية.
أطيرُ.
ثمّ أسقطُ.

-2-

- إنّه يستعيدُ قُواهُ...

- إنه يستعيدُ وَعْيَهُ...

أسمعُ أصواتًا. للمرّة الأولى في حياتي لم أكن أحلمُ، بل أرتاحُ داخل هوّةٍ سوداء بلا جدران هي عبارة عن كتلةٍ نقيّةٍ من الظلمات أطفوُ فوقها برِضًى.

- سيّدي!

جسمي متوقّدٌ داخل ليلي. لا شيء يثقلني، لا أعضائي ولا أفكاري. لم أعد أنا نفسي بعد أن تجرّدتُ من جسدي وروحي. هذا التخفّفُ يعجبني.

- افتح عينيْك!

مرّةً أخرى...

- افتح عينيْك!

أتبيّنُ القلقَ في العبارات الموجّهة إليّ. هل سأتمكّنُ من التفاعلِ معَها؟

- افتح عينيْك!

- حقًّا؟...

– من فضلك!

كي أتحرّر من جوّ الهلع هذا، أشرعُ في المناورة، شاعرًا بأنّي أستطيع تنفيذ الأمر.

– افتح عينيْك، من فضلك.

– هل تعتقدُ أنّه يسمعنا؟

أي نعم، أسمع. أجل، أفتحُ عينيّ. قليلاً من الصّبر. سأفعلُها... أكرّس جهدي لذلك.

– سيّدي، هذا ليس أوانُ الاستسلام، هيّا استجبْ!

أمام إصرار الأصوات، أقيسُ وَهَني. جفناي يقاومان مثل صفائح رصاصيّة جامدة، ساخنة ومتوهّجة. يتطلّب رفعهما طاقة ربّاعٍ[1]. أعبُّ الهواء و... ها! أبذلُ جهدًا أخيرًا.

حسنًا!

يغمرني الضوءُ.

ثمّة وجهان مائلان نحوي يتقاطعان تحت سماء رماديّة.

– جيّد جدًّا، سيّدي.

– أحسنت!

– كيف تشعر؟

أحاولُ أن أتهجّى إجابةً ولكنّ حنجرتي ترتدّ، مثقلةً ومضطربة. أشعرُ برغبة في التقيّؤ.

---

(1) الربّاعُ: رياضي يحملُ الأثقال امتحانًا لقوّته.

وكردّة فعلٍ، أرسمُ على وجهي ابتسامةً ودودًا.

يشكرني الوجهان وهما يردّانِ بابتسامة.

- هل تستطيع التنفّس بشكلٍ عاديّ؟

أركّزُ على تنفّسي، قلقًا، أستنشقُ، أزفرُ، أعيدُ العمليّة ببطءٍ، أحشدُ أضلاعي وصدري وأنفي كما لو أنّي أعيدُ اختراع عمليّة التنفّس.

- هل تشعرُ بضيقٍ في رئتيْك؟

أحرّك رأسي سلبًا.

- بألمٍ في صدرك؟

أجيب بالنّفي.

يعبّر الوجهان عن ارتياحهما. لديّ انطباعٌ بأنّي أُشعرهما بالرّضا. وها إنّي أميّزُ بوضوحٍ شديدٍ ملامحَ منقذيّ: للشابّ وجهٌ مُدوّرٌ كوجه مراهق محبوب، أمّا الفتاة الشاحبة والرّشيقة فتلتهمني بقزحيّتيها الشبيهتيْن بالخزف الأزرق. كم أتوقُ إلى أن يتلفّظا باستفساراتٍ جديدة كي ألبّي طلَباتهما!

- هل يمكنك التحدّث؟

أردتُ أن أقول «نعم»، لكنّ الكلمة لم تخرج من فمي. يدهشني ذلك. أكرّرُ:

- امم.

تلك الدمدمة الأنفيّة هي أقصى ما توصّلتُ إلى إصداره. لم يفزعني ذلك. أمّا الوجهان، فقد تقبّلا الأمر بحذر.

- آسف لإزعاجك سيّدي، ولكن، في الأوقات العاديّة هل تتكلّم؟

أبتسمُ.

- هل تؤكّد لنا أنّك في الواقع لستَ أبْكمَ؟

تتّسعُ ابتسامتي...

- هل هو تأثير الصّدمة؟

- أو ألم...

- ...يمنعك من الكلام؟

أفكّرُ ثمّ أستديرُ نحو الشابّ الذي تلفظّ بكلمة «صدمة».

- هل باستطاعتك الوقوف على قدميك؟

لا رغبة لديّ في الوقوف. ومع ذلك أحدسُ أنّ الأمر مهمٌّ بالنّسبة إلى هذين الوجهين اللّذيْن تغلّفهما الطيبة.

وأنا أعيدُ ربط أعضائي بإدراكي، أشرعُ في إقامة جذعي.

تساعدني أذرعهما على الجلوس.

- أحسنت!

- هذا رائع.

- استمر.

- هيّا، على قدميْك!

- لا تفزع. لا تخش شيئًا، نحن نساعدك.

لقد مضى زمن طويل لم يعاملني فيه أحد بمثل هذا اللّطف.

أقرّرُ النهوض مُستنفرًا إرادتي إلى أقصى حدٍّ، مثلما فعلت في الماضي، عندما قمتُ بقفزتي الأولى إلى المسبح، وأنا في السّادسة من العمر.

-هيّا، تشجّع!

يرتعشُ فخذاي وتتخاذلُ ركبتاي وتَتَدَلْدَلُ ذراعاي، ولكنّ ملاكَيّ الحارسيْنِ يُسندان ظهري... أنجحُ أخيرًا. وهأنذا أقفُ على قدميّ.

ما أكتشفهُ أمامي يُذهلني: شظايا زجاج، حطام، ركام، دماء، أجسادٌ على الأرض، بعضها يئنّ وأخرى ملفوفة في أكفان، عربة الموتى المحترقة ومن حولها رجال الإطفاءَ في حالة استنفار، محطّة الحافلة المتلفة، واجهات زجاجية مبقورة، غبار، حاملو نقّالات يأتون ويذهبون، سيّارات إسعاف تنطلق، رجال شرطة يحدّدون المناطق، أعوان يصوّرون، وبعيدًا وراء الحواجز الأمنيّة، يتجمهر المتفرّجون بكثافةٍ. ثمّة رائحة شيء محترق تهاجمُ الأنوف. ورماد أبيض، عالق في الهواء، يرفض أن يستقرّ على الأرض. تندفعُ الأصواتُ نحوي، تأوّهات المصابين، أوامرُ رجال الشرطة، بكاء الأطفال، ودويّ صفّارات الإنذار. وفي ثانية واحدة، أفهم ما حدث. إنّ ساحة شارل الثاني لم تكن هكذا من قبل. لقد أعادت القنبلة تشكيلها.

يلاحظُ المسعفان اضطرابي.

- هل لديك أغراض هناك؟

- أو معك؟

أحرّك رأسي نفيًا.

لم أنتزع عينيّ من عربة الموتى. أبحثُ عمّا عساه أصبح عليه الرّجلُ الذي تسبّب في هذه الكارثة، ولكنّ الحركة الدائريّة لرجال الإطفاء وأكوام رغوة مكافحة الحريق والملاءات والفوضى، تعيقني. فجأةً،

أرصدُ ذراعًا ممزّقةً على الأرض.

إنّها لهُ. وبدافعٍ من العاطفة، أشعرُ بألمٍ في كتفي.

- آيْ!

- سيدي، هل تشعرُ بألمٍ؟

لم يسبق لي أن رأيتُ ذراعًا يتيمةً ملقاةً بعيدًا عن جسدها. أشيحُ ببصري.

- لماذا تصرخ؟

أودّ أن أجيب، ولكنّ رؤيتي تتشوّشُ والدموعُ تنهمر على وجنتيّ.

- سنحملك إلى المستشفى.

فَلْيَتْركوا لي الوقت كي أفكّر، وأحسّ! هم لا يريدون سوى التفاعل، التفاعل المستمرّ، بتركيز وفعالية. ثمّة سوء تفاهم خطير يُتداولُ حول ملائكة الرّحمة: نحنُ نعتقدُ أنّهم يعتنون بنا كي يعالجوا قلقنا في حين أنّنا نحنُ في الواقع من يجبُ عليه أن يطمئنهم.

يقومان بإسنادي ويتوجّهان بي إلى سيّارة الإسعاف ذات اللون الأصفر اللّيموني. ثمّة أشخاصٌ يسرعون لمقدم ثلاثتنا. يمدّدونني فوق نقّالة قابلة للطيّ ثمّ يدخلونها مؤخّرة المركبة.

وقبل أن تغلق الأبواب أرى فيليبار بيغارد وصحافيّي هيئة التحرير في مُستوى قصر البلديّة على مسافة عشرة أمتار من يساري، وقد احتجزهم رجال الشرطة وراء حزامٍ أمنيٍّ على الرغم من احتجاجاتهم القويّة.

يراني بيغارد فيتجمّد في مكانه. لا يتعرّف عليّ فورًا. للحظة، يبقى وجهه خاليًا من التعبير ثمّ يرتسم عليه الابتهاجُ. إنّه يشعُّ. وفي لمح البصر،

أصبحُ ورقةً رابحةً. وبلطفٍ متكلّفٍ، يوجّه لي إيماءة تعني في الوقت نفسه «هل أنت بخير؟» و«هل نلتقي بعد قليل؟». يفركُ يديه فوق بطنه. إنّه يبتهج. ثمّة مراسلٌ لصحيفة «الغد» كان موجودًا في مسرح الجريمة وسيروي ما حدث رواية حصريّة! من المؤكد أنّ بيغارد يبحثُ الآن عن العنوان المناسبِ في أعماق دماغه.

تُغْلقُ الأبواب.

تشغّلُ سيارة الإسعاف صفّارتها، تهتزّ، و تسيرُ ببطءٍ حذِرٍ بمحاذاة ساحة شارل الثّاني متفاديةً عواميد الإنارة المُقتَلَعَة من أمكنتها. أتأمّلُ الفوضى عَبْرَ بلّور السيّارة. وإذ يُطبق عليّ الشعور الذي أحسستُ به قبل قليل عند رؤية الذراع اليتيمة أُجيل النظر في الأرض، بين سيول السّخامِ والدّماء وخبراء الشرطة الفنّية القرفصين أو الأطبّاء وهُمْ يفحصون المصابين.

بدخولنا شارع فوبان، البعيد عن مكان الكارثة، تحصلُ لديّ قناعةٌ: بين الرّكامِ، ليس ثمّة أيّ أثرٍ للمخلوق الذي كان يرتدي جلبابًا، ذاك الذي كان يرفرفُ فوق كتف الإرهابي.

في غرفة الطوارئ، يلقون بي -ممدّدًا على النّقالة- في إحدى الزّوايا وسط رواقٍ زمرّديّ. وكما جرَت العادة لا أحد يهتمّ لأمري. وكما جرت العادة أيضًا، أقنعُ أنا بذلك. وإذْ ألتقط بضعَ شذراتٍ من الأحاديث الدائرة، وأسجّل، في الأثناء، ملاحظات الممرّضات المرتبكات، أدركُ أنّ الفِرَق الطبيّة تُغيثُ أوّلاً الـ «م.م.م» -المصابين، والمسحوقين والمحترقين- وهي مجموعة الحالات الخَطِرة، ولستُ أنتمي إليها. حولي يتدفّق الضّحايا المتضرّرونَ بشدّة. لقد ضاعفت موجة الانفجار من

الخسائر. وعلى الرّغم من قدرة الجسد البشريّ الرّخو والقابل للتشكّل على مقاومة موجات الصّدمة بشكلٍ أفضلَ من الأجسام الصّلبة فإنّ عددًا كبيرًا من الأشخاص أُصيبَ بالشّظايا والمسامير والطّلقات والبراغي والصّفائح المعدنيّة والألواح الخشبيّة، تلك التي أمطرتهم، بل واخترقت لحومهم. أسمعهم يتحدّثون عن محاجر العيون الممزّقة والبطون المبقورة والسيقان التي ستقطع. «أعطني العاصبة، بسرعة!»، «إلى غرفة العمليّات!»، «اتّصلوا بمستشفى نوتردام أو سانت تيراز لمعرفة ما إذا كانت لديهم أمكنة شاغرة!»، «علينا أن نَبْتُرَه!»، «أعطني العاصبة!»... يرتفعُ الضغطُ ويُستنفر أطبّاء المستشفى جميعهم، حتّى أولئك الذين كانوا ينالون قسطًا من الرّاحة أو يتمتّعون بإجازاتهم. وتُضافُ إلى الإدارة الفنيّة الإدارةُ البشريّة، والمرضى يزمجرون ويصرخون ويطالبون. فلئن لم يضرب الهجوم الإرهابي في ساحة شارل الثاني فعليًّا كلّ الأجساد فإنّه نفذ إلى جميع القلوب. وعند البعض، يفوقُ الإحساس بالرّعبِ الشعور بالألم فيجعلهم يهذون من المعاناة.

كانت الأجهزةُ اللاّسلكيةُ تُخشخشُ باستمرارٍ وهي تعلنُ عن قائمةٍ بالوفيّات لا تنفكّ ترتفعُ. والطاقم الطبي يشتكي من عدم كفاية المعدّات، ومحدوديّة غرف العمليّات، ومن الحاجة إلى الأدوية، ومن ثَمَّ يشرع في الاتّصال بالمستشفيات الخاصّة. وبين الفينة والأخرى تُعلمنا صرخةٌ مكلومةٌ قادمةٌ من غرفة الانتظار أنّ أُمًّا فقدت ابنها للتوّ.

أشهدُ كلّ هذا، صامتًا ومرتجِفًا وقد انتابني الرّعب.

ثمّة نقّالة تحتكّ بي. فوقها يرقدُ رجلٌ عارٍ، تغمره الدّماء، جلده محترق وممزّق، وقد بدا مُتصلّبًا، تهزّه التشنّجات ويُقلّب عينيه من الذعر.

أحدس أنّه، في قرارة نفسه، يقاومُ. «لا، ليس أنا! -يصرخُ وجهه- ليس أنا! ليس هنا! ليس الآن!».

إنه يخوضُ صراعًا داخليًا عنيفًا. تحملهُ الممرّضات المهتاجاتُ مسرعات.

أصبح الأمر لا يطاقُ. أُديرُ وجهي إلى الحائط، وظهري إلى الفوضى، مرعوبًا ممّا رأيتُ أكثر من رعبي ممّا تخيّلت.

أتوقّفُ عن الحركة ضامًّا ركبتيّ. ثمّة من يلمسني من كتفي بين فينة وأخرى كي يُذكّرني بأنيّ لم أُنسَ. أحبُّ أن أشعر بهذه الشجاعة وهذا الثّبات وبسخاء هؤلاء الرّجال الذين يكرّسون أنفسهم لخدمة أقربائهم. يشعرني هذا بالسّلام. ومثل ظلِّ جبلٍ يغطّي حقلاً، يغمرني الخَدَرُ، فأستسلمُ له.

عند نهاية الظهيرة، أيقظني طبيبٌ متربّص لبنانيّ، أسود الحاجبين:

- هلمّ!

يُدخلُ نقّالتي إلى إحدى الوحدات ويسألني. أعطيه اسمي وعمري وعنوان صحيفة «الغد» ثمّ أتركُ نفسي لفحصه السّريع والدقيق. بعد كلّ عملية جسّ وقياس، يملأ الخانات في ملفّ. وعلى الرّغم من إرهاقه، لا يهملُ أيّ تفصيلٍ.

- «أنا جائع»، قلتُ له.

- مريم، جهّزي طبقًا لهذا السيّد!

لقد كان الأمرُ بسيطًا للغاية... لماذا لم أطلبْ ذلك قبل الآن؟

تسحبُ مريم، المرأةُ البشوشُ، السّتار كي تسألني عمّا إذا كنت آكل

اللّحوم فأهزّ رأسي موافقًا. وإذ تُضيف: «كلّ اللحوم؟» أؤكّدُ إجابتي.

- «سننقلك إلى غرفة في الطّابق الثالث». يقول الطبيبُ المتربّص اللبنانيّ في الختام.

لا أعرفُ أكان عليّ أن أفرح لأجل ذلك أو أن أقلق.

- لكن... لماذا؟

- إنّه إجراء احترازيّ. نودُّ أن نحتفظ بك تحت المراقبة. حسب فحصي الأوّلي، ليست لديك أعراض الهلع، وفي المقابل لديك انخفاض في الضّغط وضعفٌ ناتجٌ عن الصّدمة. مع ذلك، نفضّلُ أن نتأكّد من أنّك لا تعاني من إصاباتٍ داخليّةٍ.

- مثل ماذا؟

- التّهتّكات في الجهاز الهضمي، إذ أنّ تشخيصها يحتاج إلى وقتٍ طويل.

أودُّ أن أصرخ في وجهه قائلاً إنّ ما تعاني منه بطني، هو أنّها منذ زمنٍ طويلٍ لا تجدُ ما يسدُّ رمقها، ولكنّي أتمالكُ نفسي. يجب ألاّ يعرف أحدٌ لماذا أستمتع بالبقاء هنا.

- قبل أن تلتحق بغرفتك، هل تريد أن تمرّ على خليّة الأزمة النفسيّة؟

- بعد الوجبة، ربّما ؟

- نعم، آسف، أرجو المعذرة.

يساعد اللّبنانيّ مريم لدَلْقِي من النقّالة إلى كرسيّ متحرّك، ثمّ تحملني الممرّضة إلى الغرفة رقم 313.

بعد غرفة الطوارئ، تبدو بقيّة أقسام المستشفى هادئة. لا شيء

يعكّرُ سكينة الممرّات الواسعة غير الصّرير الذي يفرضهُ مشمّع الأرضيّة الناعمُ على أخفاف الممرّضين وعلى عجلات النقّالات. نواصل التقدّم في عالم مائي.

نصل الطابق الثالث. ثمّة صور لمناظر طبيعيّة في جبال الآلب تزّينُ الجدران التي تضيئها المصابيح الخافتة باعتدال.

- ها نحنُ في الغرفة رقم 313.

وإذْ تدفعُ الممرّضة البابَ، أجد نفسي أمام فيليبار بيغارد. كان جالسًا في انتظاري على الكرسيّ المحاذي للسّرير وفي يده باقةُ وردٍ وعلى محيّاه ابتسامةٌ متملّقة. تحدّقُ مريم في وجهه ثمّ تسأله.

- هل أنت من العائلة؟

- «أنا صديقه ومشغّلهُ». يؤكّدُ بيغارد بتسلّطه المعتاد.

وما إن ينطق جملتهُ حتّى يتّخذ هيئةً متواضعة تعبّرُ عن عاطفةٍ صادقة.

- «بخلاف أفراد العائلة أو الشرطة، لا يحقّ لأيٍّ كان أن يتحدّث مع الضّحايا». تذكّره الممرّضة بصرامةٍ.

- أوغسطين ليس لديه عائلة!

تلتفتُ إليّ كي أؤكّد لها المعلومة فأخفضُ بصري.

- «سيكونُ من المؤسف حقًّا أن يعبر هذه المحنة وحده». يُعقّب بيغارد ثمّ يُتابع «أمّا المفتّش تيرليتي، فإنّه يعرفني ولقد أرسلني لرعاية أوغسطين. أقدّمُ لك نفسي: فيليبار بيغارد، مدير صحيفة الغد».

تقرّر الممرّضة ألاّ تتدخّل، فهي من قرّاء صحيفة المدينة، وهي علاوة على ذلك منشغلة بأمورٍ أهمّ عليها إنجازها، لذا تهزّ كتفيها وتضعني في مكاني. وإذ يهرعُ بيغارد مرارًا لمساعدتها أو بالأحرى لإظهار أنّه مستعدّ للقيام بذلك، تصدّه في كلّ مرة.

- «ما هو تشخيص حالته؟» يهمسُ.

- اسأل الطبيب. في الوقت الرّاهنِ، يحتاجُ السيّدُ إلى الرّاحة والبقاء تحت الملاحظة. لا ترهقه. سأجلبُ طبق العشاء.

تخرجُ.

يتّخذ بيغارد ملامح حانية.

- كيف حالك؟

أتردّدُ... ماذا لو أطلتُ خَرَسي؟

- هل أنت مصدوم؟

أشعرُ بأنّ عليّ أن أجيب بـ«نعم». لذلك أومئ برأسي موافقًا وأردفُ على الفور:

- أنا جائع.

- ستأتي لك بالعشاء بعد قليل. هل كنت بعيدًا عن مكان الانفجار؟

فأتفاجأ مستغربًا لأنيّ، طوال ساعات، لم أفكّر مطلقًا فيما حدث، كأنّ ذكريات الهجوم الإرهابي طُرحت في إحدى غرف ذاكرتي وأُغلق بابها.

- كنتُ في مدخل الساحة.

- كنت بعيدًا بشكل كاف إذن. أوف... هذا من حسنِ حظّك. وهل رأيته؟

- ماذا؟

- الانفجار.

- لقد رأيتهُ وسمعتهُ وسقطتُ. وعلى الأرضِ فقدتُ الوعي.

وأنا أقول هذا، رحتُ أتساءلُ عمّا حدَث لرقائق البطاطا المقليّة، تلك الرقائق المقرمشة التي شرعتُ في التهامها.

يشهرُ فيليبيار بيغارد باقة الورود بسعادة كي أفهم أنّها لأجلي، ثمّ يختفي داخل الحمّام، ينقلُ الموجودات، يتبرّم، يلعن، يصبُّ الماء، ثمّ يعودُ بِمَبْوَلةٍ حوَّلها إلى مزهريّة.

- لا تشكرني. احكِ لي ما حدث.

يُعاوِد الجلوس على المقعد بحزمٍ: لم يعد نادمًا على مجيئه ولا على ثمن الباقة الذي دفعه.

- لقد التقيتُ بالإرهابي في ميدان أودان. كان مضطربًا جدًّا حتّى إنّه دَفعني وهو يعبر. هنالك، على الرّصيف المقابل، قمتُ بدراسته.

- كيف كان سلوكه؟

- كان مضطربًا وغريبًا.

- ما الغريب فيه؟

- كان ينظر إلى ساعته أكثر من مرّة في الدقيقة. ومنطقيًّا، مرّة واحدة تكفي.

يُخرِج بيغارد دفترًا من معطفه الواقي من المطر ويُدوّنُ ما أخبره به.

- وبعد؟

- رغم أنّه كان نحيفًا جدًّا، وذلك ما تشي به ساقاه ورأسُه، فقد

كان يرتدي سترةً ضخمةً وغيرَ متناسبةٍ مع جسَده.

– مردُّ ذلك إلى أنّها كانت تخفي الحزام النّاسف. كم عمره؟

– عشرونَ سنة.

– لديه لحية؟

– أجل.

– سوداء؟

– أجل.

– شخصٌ ذو سحنة مغاربيّة؟

– أجل.

يُظهرُ بيغارد أمارات الرضى كقطٍّ ابتلعَ فأرًا لتوِّه.

– هل كان وحده؟

أنظرُ إليه بتمعّن. التوقيتُ مهمّ. هل باستطاعتي أن أقول له كلّ شيء؟ ماذا لو حاولت؟

يكرّرُ بصوتٍ ناعم وجذعه إلى الأمام وعيناه مغرورقتان:

– هل كان وحده؟

– لا.

وعلى الفور يُشرق وجه فيليبار بيغارد: أخيرًا ثمّة خبر حصريّ! إنّه يمتلك معلومة لا تعرفها الشرطة. فجأةً، يُلقي نظرةً خاطفة وراءه لعلّ هناك من يسمعنا.

– من كان يرافقه؟

أتردّدُ مرّةً أخرى... هل سيصدّقني؟ أقولُ بحذرٍ:

- رجلٌ يرتدي جلبابًا. وهو أكبر منه سنًّا.

- طويلٌ أمْ قصير؟

أفكّرُ ثمّ أنطقُ ببطءٍ:

- قصير.

- سمين أم هزيل؟

- لا هذا ولا ذاك.

- جيّد. واصل. ماذا كانا يفعلان؟

أتلوّى في سريري. تبدو لي المحادثةُ غيرَ مريحة، ذلك أنّي أعترفُ وأخفي ما رأيته في آن واحد. إلى أين سيحملني كلّ هذا؟

- أوغسطين، ماذا كانا يفعلان معًا؟

- كانا يتكلّمان ولكنّي لم أسمعهما. لقد بدا أنّهما يتشاجران وأنّ الرجل الأكبر سنًّا يحاولُ إقناع الشابّ. حسنًا، أعتقد أنّ الشاب كان بصدد التراجع.

- إذن، الشيخ هو المحرّضُ.

- بوسعك أن تقول ذلك...

- نعم، قطعًا هو من جنّدَهُ وغسل دماغه وأشرف على العملية. كم من الوقت استمّرت المناقشة؟

- دقيقتيْن أو ثلاثًا. ثُمّ ربح المسنُّ وتوجّه الشابّ إلى ساحة شارل الثاني.

- وحده؟

- لا، كان المسنّ يتبعه...

- أوه؟ هذا غريب...

أودُّ لو أعترفُ لبيغارد بأنّ هنالك عناصر أخرى أكثر غرابة، مثل حجم الشيخ، وحقيقة أنّه كان يطير. ولكن لو رويت ذلك لما صدّق بعدها ما أقول.

- إذن، ذهبَا معًا إلى السّاحة؟

- نعم، لقد توجّها إلى كنيسة سانت-كريستوف. كان النّاسُ يخرجون من القدّاس. وثمّة نعشٌ يُحملُ إلى عربة موتى.

- وبعد؟

أفركُ يديّ. تتجمّدُ عينايَ على الملاءات. لا أجد رغبةً في كشفِ بقيّة القصّة، ولكنّ بيغارد يشجّعني:

- أوغسطين، إنّ روايتك بالغة الأهميّة. أنا أدركُ أنّ تذكيرك بهذه الحقارة يزعجك وأنّ الأمر... مؤلم، ولكن يجب أن تساعدنا، نحن الصّحافيين ورجال الشرطة والسّياسيّين والمواطنين والبلد والعالم. فقد تكون الوحيدَ الذي يعرفُ حقيقة مَا حدث...

- حسنًا...

لن أصفَ له حادثة رقائق البطاطا، فلو كاشفتُه بأنّي لا أجدُ ما أسدّ به رمقي، فقد يكتشفُ البقيّة.

- ركّز يا صغيري أوغسطين.

يا له من ممثّل بارعٍ هذا المدعوّ بيغارد! ففي هذه اللّحظة، أكادُ

أصدّقُ إشفاقه عليّ.

- ثمّة مشهدٌ، على يميني، شتّت انتباهي... أحدهم أخذَ يشتم لأنّه انزلق على براز كلب...

- لا!

- بلَى.

- لا!

كيف يحدسُ بيغارد أنّني أكذب؟ أقويّ هو إلى هذه الدرجة؟ أم أنّي ممثّل سيّئ للغاية؟

ينهضُ من مكانه، يدورُ حول السّرير محمّر الوجه، مُطلِقًا زفرات قصيرة وهو يعبثُ بسيجاره.

- لا، لا تقل لي إنّك فوّتَّ أهمّ ما في الأمر بسبب براز كلب! لا تقل لي إنّك فوّتَّ الهجوم!

- لا، لقد رأيته!

- آه!

وعلى الفور يجلسُ، يُمسكُ دفتره، يعقدُ رجليه ويميلُ نحوي في شبه خضوع:

- اروِ لي كلّ شيءٍ، يا عزيزي أوغسطين!

- بعد بضع ثوانٍ، اقترب الشّاب من الحشد المتجمهر قرب عربة الموتى، فتح سترته، صرخ بجملة مبهمة و...

- الله أكبر!

- أرجو المعذرة؟

- لقد صاح بكلمة «الله أكبر». إنّي أعرفُ معناها بالفعل، فهي تعني أنّ الله أكبر من كلّ شيء في هذا الوجود.

- آه، حسنًا... وبعد ذلك، فَرَدَ ذراعيه بحركةٍ مفاجئة ووقع الانفجار.

- والشيخ؟

- أيّ شيخٍ؟

- الشيخ الذي كان يرافقه.

- لم أرَه بعدها.

-هل كان قرب عربة الموتى؟

- لا.

- هل هرَب في آخر لحظة؟

- لا أعرف.

- ولكن بعدها، هل رأيته بين الجثث؟ هل لمحت جلبابه؟ أو قِطَعًا من القماش؟

تغمرني الدّهشة لطرحه هذا السّؤال عليّ.

كيف خطر له أنّ المخلوق استحوذ عليّ إلى درجة أنّي بحثتُ عنه وأنا أغادرُ السّاحة.

- سيّد بيغارد، لقد فقدتُ الوعي. وعندما تمّ إنعاشي، كنتُ منشغلاً بأمرٍ آخر عدا تفحّصِ ما...

- أنا متأكّدٌ أنّك قمت بذلك!

مرّةً أخرى، ألتزمُ الصّمتَ مذهولاً. بينما يصرُّ هو على رأيه وقد عقَد حاجبيه.

– أنا متأكّد من ذلك! هل تعرف لماذا؟ لأنّك صحافيّ حقيقي! نعم، مثلي أنا! أنت رجلٌ ذكيّ يضعُ مشاعره في جيبه كي يتصرّف مثل محترفٍ قبل كلّ شيء. هل أنا مخطئ؟

أغمغمُ خافضًا رأسي بشيء مّا يظهرُ وكأنّه موافقة.

– إذن؟، يستأنفُ حديثهُ دون انتظار.

– لم يكن هنالك!

– جيّد. لقد تبع المحرّضُ الشابّ المتطرّفَ إلى مكان العمليّة الإرهابية ثمّ فرّ عندما تأكّد أنّ الهجوم سيحدث. هذا مذهل! ها هي طريقة مستحدثة لم يتحدّث عنها أحد مطلقًا.

يضرب الأرض بقدميه ويصفّقُ منتشيًا من السّعادة. ففي نظره ليس للموتى والمصابين جرّاء هذا العمل الشنيع أيّ أهمّيةٍ. إنّه يبدو كحفّار قبورٍ يستمتعُ بانتشار وباء.

– ماذا؟ ما زلت هنا؟، تقول مريم متعجّبةً وهي تدلفُ إلى الغرفة.

يتّخذ بيغارد بكتفيه المُتهدّلين هيئة صبيٍّ نادمٍ مُسِكَ وأصابعه في علبة المربّى.

– أنا أحاولُ أن أرفع من معنويّات صديقي.

تضعُ مريم طبق الطعام على سريري.

– هذا ما سيرفعُ من معنوياته!

تُوجّهُ لي ابتسامةً جميلةً، فأبادلها الابتسام.

- «لقد وضعتُ لك قطعتَيْ مرّطبات.» تهمسُ لي.

ثمّ تدورُ حول نفسها، في صرامة، وتهدّد بيغارد:

- هيّا، إلى الخارج! لا أريدك أن ترهق مريضي.

يعيدُ فيليبار بيغارد دفترهُ إلى جيبه متظاهرًا بالطاعة.

- معك حقّ سيّدتي العزيزة. إنّ من يملكُ القدرة هو من يقرّر. أنا ذاهبٌ. إلى الغد، أو غسطين.

- «هو ذا، إلى الغد». تكرّرُ وهي تدفعه.

تغلق الباب وراءهما. ثمّ يتردّدُ صدى خطواتهما في الرّواق.

أتنهّد.

أمامي، يلتمعُ كنز الكنوز، طبقٌ يضمُّ -بالإضافة إلى قطعة الخبز- سلطة بطاطا بالمخلّلات، وشريحة ديك روميّ مع الأرز، ولبنًا وعصير الكمّثرى. أشعرُ بنقرات في معدتي. أخيرًا سأستمتعُ بوجبة!

تفلتُ منّي ضحكةٌ مجلجلة. صحيحٌ أنّني أشعرُ بالخجل لضحكي بينما هناك أناس ماتوا وآخرون يبكونهم، ولكن مهلاً، لو لم أَنْهَرْ، لما أكلتُ، أليس كذلك؟

كم تبدو الغريزة مخادعة... فعلى الرّغم من لهاثي وذهولي، أنا موجود، أنا هنا، والدمُ يجري في شراييني، لم تدمّرني الصّدمة، وشهيّتي مفتوحة. أخلاقيًّا، وبدافعِ من التعاطفِ، كان يتوجّب عليّ أن أنهار، ولكنّي لا أفكّرُ إلاّ في الطعام. لقد ضربَ البرقُ عقلي لا لحمي. إنّ قوّة جسدي الحرون تفوقُ كلّ اشمئزازٍ أو مشاعر. ولا أعرفُ هل سألامُ أم سأُشكرُ على هذه الأنانيّة الحيويّة، ذلك أنيّ سأتركُ نفسي لها. فهي تشهدُ

عل حكمة كونيّة أكثر أهميّة من حكمتي الضئيلة.

أهجمُ على الطّبق. ودون إرادة منّي تقريبًا، تحملُ يدي الخبز إلى فمي.

وأنا أرفعُ رقبتي، أرى طفلةً تجلسُ فوق الكرسيّ. إنّها الصبية الصغيرة التي قابلتها في مكتب بيغارد. تبدو جادّةً، صامتة ومحبطة.

- ولكن... ماذا تفعلين هنا؟

تُوجّه عينيها الكبيرتين والصافيتين نحوي وتقول:

- لقد نسيني.

- من؟ السيّد بيغارد؟

تومئ برأسها إيجابًا وهي تتفحّصُ السّقف. فأُحاول أن أستزيد منها:

- هل يعاملك السيّد بيغارد بلطف؟

تجزم دون تردّد بصوت نايٍ مُختنق:

- أوه، نعم.

ثمّ، تهزُّ رعشةٌ لا إراديّة كتفها، وتُحرّك أخرى عضلة خدّها الأيسر فتطرفُ عينها. وكي تستعيد سيطرتها على جسدها، تمدُّ ساقيها، وتثبّتُ بصرَها في حذائها اللاّمعِ وهي تُملّسُ تنّورتها فوق فخذيها.

- ولكنّه غالبًا ما ينساني...

أتأمّلُ طبقي في ضجر.

- يجب أن تلحقي به سريعًا، وإلاّ سيشعرُ بالقلق.

بعد أن أقضم كسرة الخبز الليّنة، أستديرُ مجدّدًا نحو الطفلة الصغيرة،
وإذا بالكرسيّ فارغ.

-3-

هل أصبحتُ شخصيّةً مهمّةً؟

منذ الفجر والزياراتُ تتتابعُ. لقد مرّ موكبٌ كامِلٌ من أمام سريري، ممرّضة مساعدة تحملُ فطورَ الصّباح، وطبيبٌ رئيسٌ محاطٌ بفريقٍ من الأطبّاء قيد التدريب المتعطّشين لأخذ العيّنات، وفي الأخير مفتّشانِ قدّمتُ لهما روايتي فما انفكّا يحمرّانِ كلّما حدّثتهما بالتفاصيل، ثُم شكراني بحرارة مُؤكّديْن أنّ تقريرهما سيُرفع سريعًا إلى رئيسهما.

إذ يُغلَق الباب أبتسمُ للسّقف. ما يثيرني هو أنّ الجميع يَعدُّ هذه الغرفة غرفتي: يدخلون إليها بهدوء، يعتذرون عن الإزعاج، يقفون منتصبين أمامي ويغادرونني متمنّين لي الشفاء العاجل.

بي توق إلى زيارة مملكتي.

على الرغمِ من الحظر المفروض من الطبيب، أنزلقُ خارج سريري. وما إن أقف على قدميّ حتّى تتملّكني قشعريرة، ذلك أنّ القميص الرقيق الذي أُجبرتُ على ارتدائه يُربطُ من الخلف بطريقة تُبقي مؤخّرتي وظهري مكشوفيْن عارييْن.

أذهب إلى غرفة الاستحمام وأكتشفها ببطءٍ (أنا المُتعوّد على استخدام المرافق الجماعية ذات المظهر المريب التي أخشى فيها أن أوسّخ نفسي قبل استعمال الحمّام وبعده) أجدها فخمةً بصورة مذهلة: واسعة

ونظيفة ومجهّزة بشكل عالٍ، وهي مخصّصة لي مع أنّي لا أكادُ أستخدمها. أمّا المرآة التي تعلو المغسلة، فإنّي أتجنّبها. لنكن واضحين، إنّ إقامة أثرياء لن تمنحني بُنيةَ رجلٍ ثريّ.

وأنا أعود إلى غرفتي، أقتربُ من النافذة ذات الزجاجِ المزدوجِ. أسفل المبنى، ثمّة امرأة ذات معطف بقلنسوّة تجرُّ صناديق قمامة على الباحة المبلّطة. بعيدًا، يحثُّ المترجّلون الخطى تحت أمطار باردة ودهنيّة بينما تسلك الشاحنات، غير مبالية ببرك الماء، جسور الطرقات السّريعة التي تشكّلُ شبكةً من المخارج. لهذا أيضًا، أستلذُّ الامتياز الذي أعيشهُ: في الخارج، كلّ واحد يكافحُ داخل عالم قاسٍ بينما أتكاسلُ في قميصي داخل غرفتي الخاصّة ناعمًا بالسّكينة والدّفء.

أتثاءبُ.

وعلى الرّغم من سعادتي بتعافيّ، قضّيتُ ليلةً عصيبةً، إذ كانت الرّوحُ مُعذّبة من مشاهد يوم أمس. لم أعرف هل الأفضل أن أنام أم أن أسهر. فالسّهرُ يعيدني إلى الانفجار والأطراف الممزّقة والوجوه التي خطّها الرّعب، والنومُ يتركني لخيالي فيُضخّم من حالة الرّعب زارعًا التهيؤات داخل الذكريات الحقيقيّة.

وهكذا، رأيتُني مُلقًى داخل عربة جثث. ومع أنّني حيٌّ عُوملتُ كميّتٍ، إذ راحوا يرمون فوقي بالجثث والملح والرّماد والتراب. أختنقُ، أصرخُ، ولكن لا أحد ينتبه لي. وكلّما خرجتُ من هذا الكابوس مبلّلاً والعرقُ يغمرُ جبيني، طفقت أجاهد لفتح عينيّ ودفع النعاس عنّي وأنا مقتنع بقدرتي على ذلك إلى أن تظهر عربة جثث أخرى وتدهسني.

في السّادسة صباحًا، سمعت أجراس برج الكنيسة تقطّرُ نغماتها الرخيمة. تنهدتُ وفتحتُ عينيّ شاعرًا بالارتياحِ لانقضاء اللّيل وموكب فظاعاته.

كان ثمّة شيخ في منَامةٍ مخطّطةٍ يقفُ أمامي، فيما الضوءُ البرتقالي القادم من الشوارع يحفر في الظلمات كاشفًا عن الجانب الأيمن من رأسه الأصلع والمتغضّن، وأنفه القويّ ومحجريْه الغائرين. لبث يحدّق فيّ، بوجهه المتوتّر ونظرته المتفحّصة، كما لو أنّه ينتظرُ منّي شيئًا مّا.

- ماذا تريد؟

لم يرمش البتّة. هو ضئيلٌ وهشٌّ إلاّ أنه مخيفٌ. وعلى الرّغم من سنواته المائة، فإنّ فيه شيئًا مّا طفوليًّا، ذلك أنّ يديه كانتا تختفيان تحت الكُمّينِ بينما حُشرت كتفاه الضيّقتان في القميص القطنيّ بصعوبة.

- اخرج من غرفتي!

ما من ردّة فعل. واصَل الشيخ المدبّب الذقن تساؤلهُ الأبكم، ولفرطِ ما تساءَل غدَت سحنته غير مُعبّرة. لقد جمّدَ وجودُه السّاكن الدّم في عروقي. هل كان الأمر يتعلّقُ بمريضٍ مجنونٍ، تائهٍ داخل المستشفى؟ أم أنّي كنتُ غافيًا؟

أوه، أجل، تمنّيتُ أن ينتمي الشيخ صاحب الوجهِ الخالي من التعبير إلى أحلامي. كيف يمكنُ التخلّص من حلم؟ بالمرور إلى حلم آخر! أسبلتُ جفنيّ وقرّرتُ تركهما مغمضين لعدّة دقائق. واحد، اثنان، ثلاثة... أعدّ حاسبًا الثواني... تسعة وخمسون... ستّون... في البداية، حبستُ أنفاسي... مائة وخمسون، مائة وواحد وخمسون... سمعتُ

صوت تنفّسي لا تنفّسه هو... مائتان وثلاثون... هل كان يتوجّه نحوي ليخنقني؟

في المائتين والأربعين فتحتُ عينيّ: لم يكن الشيخ موجودًا. وسواء كان حقيقيًّا أم لا، فقد تخلّصتُ منه.

بلغ أذنيّ صوتٌ رتيبٌ، صوتٌ مألوف لم أميّزهُ على الفور، غير أنّي حين اكتسى بلّور النافذة بالقطرات أدركت أنّ المطر كان ينقر الجدران. لففتُ رأسي بالوسادة الرّقيقة المرنة، وغرقتُ في النوم.

في هذا الصّباح، ولئن تلقّيت كلّ تلك الزيارات فإنّ شيئًا مُبهمًا بقيَ داخلي. من أين جاء ذلك المجهول؟ أضعُ صدغي على بلّور النّافذة، ثمّة مزرابٌ من الزنك تتسربُّ منه قطرات على الجانب الأيمن من البناية. في الخارجِ، لا سماء، لا ألوان، لا شيء سوى الماء المتجمّدِ.

يتردّدُ صدى خطوات واضحة وقويّة في الرواق.

أحدهم يطرقُ الباب.

أقفزُ في سريري، أغطّي نفسي بالملاءة وأقول بصوتٍ منتحبٍ:

– نعم؟

تدخلُ امرأة محشورة في معطفٍ واق من المطر.

– يا له من طقسٍ سيّءٍ... إنّه مناخ يناسبُ الضّفادع لا البشر!

تعتمر المرأة قبّعة من القماشِ المشمّعِ تجعلُ وجهها أكثر طولاً وضيقًا، ولكنّها لا تلبث أن تنزعها، حال إلقائها بمحفظتها على الكرسيّ، وهي تهزّ رأسها كي تحرّر شعرها البنّيّ كاشفة عن سحنةٍ مهملة تعلو فيها عينان بنيّتان بالغتا الاتّساع، أنفًا مدبّبًا.

- صباح الخير، أقدّم نفسي: كلودين بواترونو، قاضية تحقيق. وهذا مساعدي، ماثيو ميشان.

يبرزُ من ورائها شابّ طويل القامة، أخرق ومحنيّ الظهر، يُحيّيني وكأنّه يعتذر.

- «حسنًا، لقد تعارف الجميع». تُصرّح المرأة.

صوتها خشنٌ مثل بنيتها الجسدّية. لم تكن قد أمعنت فيّ النظر، وذلك راجع إلى أنّ مطريّةً صغيرةً تقطرُ فوق حذائها كانت تعيق رؤيتها. ومن ثَمَّ يسارعُ مساعدها إلى الإمساكِ بالمطريّة المذنبة وهو يغمغمُ قائلاً:

- سأضعها في غرفة الحمّام كي تجفّ.

تشكره دون أن تظهر عليها سيماء الشكر، مُقطّبةً الجبين وقد بدا عليها الانشغال بما سيتلو ذلك. أشعرُ أنّ اقتحامها غرفتي شبيهٌ بالاجتياح.

ترفع رأسها، ثمّ تمدّ ذقنها في اتّجاهي وهي تُضيّق عينيها:

- إذن، هل هو بخير؟ هل قضّى ليلةً جيّدة؟

ودون أن تنتظر إجابتي، تتقدّمُ وتغرسُ نظراتها في عينيّ:

- هل قرأ الصحف؟

- لا.

تخرجُ من محفظتها حوالي عشرين صحيفة يوميّة تضعها فوق فخذيّ:

- إنّ الأمر مزعجٌ قليلاً، أليس كذلك!

تستديرُ نحو مساعدها المنهمك في فتح حاسوبه.

- هذا عار! ببساطة، هذا عار! لا أجد كلمة أخرى...

تفتّشُ صادقةً عن مصطلحٍ آخر، ثمّ تتخلّى عن ذلك وتتنهّد.

- بسببك أنت، يا سيّدي، نحن نبدو مثل الحمقى. لا سيّما أنا، لقد صرتُ ملكة الحمقاوات، وهو لقبٌ كنتُ سأعفي نفسي من الحصول عليه، وهذا أمرٌ في مقدروك أن تصدّقه. أليس كذلك، ميشان؟

كي يتفادى المساعدُ الخانع الاشتراك في الحديث، يراجعُ الورقة المثبتة أسفل سريري، وقد دوّنُوا عليها درجة حرارتي.

وراءهما، تنزُّ السّماء.

تعودُ إليّ، ترفع حاجبيها وتشيرُ إلى الصّحف.

- الصّحافة تعرفُ أكثر من العدالة. العالم انقلب رأسًا على عقب.

أتصفّح العناوين فألفيها تُركّز في البداية على الهجومِ وأعداد الضّحايا، ثُمّ تتحدّث أيضًا عن الإرهابي.

تضعُ القاضية بواترونو إصبعها الملمّع على مقالٍ عنوانه كالآتي: «موتُ متطرّفٍ. وشريكه في حالة فرار». ثمّ تشيرُ إلى عنوان آخر: «العقل المدبّر حشَا رأس الانتحاريّ إلى حين مقتله». ثمّ إلى عنوان ثالث: «المتشدّد الثّاني في حالة فرار».

- الثّاني! لم نكن نعرفُ أنّ هنالك اثنين. وإلى حدود يوم أمس، كان تحليلنا قائمًا على فرضيّة «الذئب المنفرد»[1]. فنحنُ نرتاب في وجود تنظيمٍ وراء هذه العمليّة حتّى لو لم نستبعد هذا الاحتمال.

---

(1) الذئب المنفرد: هو الشخص الذي يرتكب أعمال عنف دعماً لمجموعة، أو حركة، أو لأيديولوجيا، ولكنّه يفعل ذلك وحده، خارج هيكل القيادة ودون مساعدة ماديّة من أحد.

آه، إنّنا نبدو مثل الحمقى، أليس كذلك ميشان؟

تتراجعُ إلى الخلف وهي تقرصُ وجنتها اليسرى.

- أوغسطين تروليبه، أنا لستُ بصدد توبيخك، حتّى لو كنتُ في مزاجٍ سيّئ، وإنّما أنا غاضبة من المفتّشين الذين تأخّروا في الاستماع إلى روايتك. فأنت، على الأقلّ، أبديت ردّ فعل مهني سليم عندما اتّصلت برئيسك.

تلقي بصحيفة «الغد» بين يديّ. ومثلما توقّعت، كان فيليبار بيغارد قد ضخّم المعلومة التي بحوزته دون غيره. بعدها تجلسُ فوق سريري وتواصل الحديث:

- إنّها دعاية رائعة لصحيفتك، كلّ وسائل الإعلام العالمية ذكرتها. وغدًا سيذكرونني أنا، كلودين بواترونو، قاضية التحقيق الغبيّة التي علِمت من الصّحف ما كان يجبُ أن تعرفه قبل الجميع.

- سيّدتي، أنا لم أتّصل بأيٍّ كان. حين كانت الممرّضةُ تنقلني من غرفة الطوارئ إلى هنا، وجدتُ رئيسي في انتظاري. ومن الطبيعي أنّه عندما استجوبني...

- الحقير! ما فعله لا يدهشني! آملُ أنّك لم تصدّق أنه جرّ جثّتهُ وجاءك حرصًا عليك؟

- السيّد بيغارد لا يفعل شيئا مطلقًا دون مقابل.

«باستثناء انتداب متدرّبٍ دون أجر»، أودُّ أن أضيف لكنّي أتراجعُ لِكَيْلاَ أعرّض سمعتي الجديدة للخطر.

- كم عمرك؟

- خمس وعشرون سنة.

- هل تسمحُ لي برفع الكلفة بيننا؟

إنّها تطيحُ بي، فما دمتُ لا أردّ بشيء هي تعتبر ذلك موافقة.

- ماذا كنت تفعل هناك، أوغسطين؟

- لقد أرسلني السيّد بيغارد إلى الشارع لأجمع المعلومات.

- ما المقصود بـ«إلى الشارع»؟

- «إلى الشارع»، هي عبارته. أن تذهب وتجيء مع النّاس، وتسمع ما يضايقهم. بعبارة أوضح: أن تمارس صيد الأخبار الحصريّة.

- «إلى الشارع»... ولِمَ لا يقول «فوق الرّصيف». ولكن تلك هي لغة القوّادين. يا لبيغارد الحقير! إذن نزلت إلى الشارع، هائماً على وجهك، فاصطدم بك أحدهم، رأيت الشّاب والشيخ، قمت بتتبّعهما و... كلّ ما قرأته في الصّحف. هل تحافظ على أقوالك؟

- أجل.

- ميشان علينا أن نبني القضيّة على أسس مُغايرة.

تُصرّح مستاءةً، بنبرةِ امرأةٍ يتوجّب عليها أن تعيد الحياكة من جديد، ثمّ تُردف:

- أرغب في التدخين.

تصمتُ لوهلةٍ ولا تلبث أن تُضيف:

- لا ينبغي أن أفعل ذلك. لقد أقلعت.

تتذمّرُ:

- كم يزعجني ذلك! وأنت، هل تدخّن؟

- لا.

- جيّد جدًّا. لا تدخّنْ أبدًا!

- فيما يخصّ الدّخان، سأكتفي بحضور عمليّات التفجير.

يرتجُّ كتفاها من الضحك. ثم تتوجّه إلى مساعدها جاعلةً منه شاهدًا:

- إنّه مضحك، هذا الولد.

تستدير، وتميلُ نحوي:

- حسين بدويّ، هل تعرفه؟

- حسين بدوي؟

- الشابّ الذي فجّر القنبلة. هل سبق لك أن التقيته؟

- كلاّ.

- مطلقًا، مطلقًا؟

- مُطلقًا.

- مع أنّ مدينة شارلوروا ليست كبيرة، حتّى إنّ كلّ الضفادع فيها تلتقي.

- أنتِ أيضًا لم يسبق لي أن التقيتُك.

تتأمّلني لثوانٍ.

- «هذا دهاء منك!». تُعلّق.

- كيف عرفتِ اسمه؟

- كان يحملُ أوراقه في سترته، تصوّرْ. يبدو الأمر غريبًا، أليس

كذلك؟ أنا لو أردتُ أن أقضّ مضجع العالمِ بأسره عبر تفجير قنبلة لما قمتُ بالتوقيع على جريمتي، على الأقلّ لن أفعل ذلك على الفور، كي أزيد من انزعاج رجال الشرطة والعدالة والصّحف والضّحايا والعائلات، وباختصار، المجتمع بأسره. وأنت، ألن تفعل هذا؟

- أوه... نعم...

- في الوقت نفسه، لا أنتَ ولا أنا، في مقدورنا أن نلهو بالقنابل. إذن، نحن بين أن نقول هذا أو ألاّ نقول شيئًا... بمثل هذه الأفكار أجعل من نفسي غبيّة، أليس كذلك ميشان؟

يشغلُ مساعدها نفسه بتدوين ملاحظاته. أمّا هي فتنهضُ وتذرع الغرفة سائلةً:

- هل لك أن تصف الرّجل الذي يرتدي جلبابًا؟

أنغلقُ على نفسي. هل عليّ أن ألتزم الصّمتَ أم أعترف بأنّ الرجل الذي يرتدي جلبابًا لم يكن سوى مخلوقٍ له هيئة غراب يرفرفُ فوق كتف الانتحاريّ؟

- سترسلُ لك الشرطة أحدهم كي يرسم صورةً تقريبيّة.

أُفرقعُ مفاصل أصابعي.

- هل لديك شكوك حول قدرتك على تعرّفه؟ تتساءلُ وهي تجلسُ قربي.

- أجل.

- هل تعجز عن وصفه؟

- ليس... تمامًا.

- لا بأس، حاول!

تنهضُ وتمسحُ تنّورتها وكأنّ غرفة المستشفى وسّختها.

- حسنًا، ليس لأنّي أشعرُ بالسّأم، ولكن ثمّةَ ثلاثة آلاف طنّ من الملّفات تنتظرني. لا مجال لأيّ تلكّؤ. علاوة على ذلك، فإنّ زملائي يرمون بقشور الموز تحت قدميّ... إنّها لتبدو فرصة رائعة أن يضطلع المرء بالتحقيق في قضيّة ضخمة كهذه. ميشان، ألم تكن معي مطريّة حين دخلتُ؟

- تركتها تجفّ في غرفة الحمّام، سيّدتي القاضية.

- يا لي من خرقاء! لم أستطع مطلقًا منع نفسي من تبليل المطريّات.

ترتدي معطفها الواقي من المطر وتعيدُ قبّعتها إلى رأسها، فتتجهّمُ وهي تتخيّلُ الهيئة الكارثية التي تضفيها عليها، تمسكُ محفظتها بحزمٍ وتقبضُ على المطريّة وقد جلَبها مساعدُها لها. عند عتبة الباب، تتوقّفُ وتقول:

- سأتركُ لك الصّحف، موافق؟

- شكرًا.

- ماذا تريدُ أن تفعل في الحياة، أوغسطين؟

- أن أصبح كاتبًا.

- لا صحافيًّا؟

- لا. الصّحافة لتحصيل لقمة عيشي.

- الصحافيُّ لا يجني شيئًا! أعرفُ ما أقولُ. فقد سبق لي أن خطبني

صحافيّ. كان خالي الوفاض كحقلِ قمحٍ بعد الحصاد.

لم أتجرّأ على أن أؤكّد لها مدى وجاهة حجّتها. ولكنّها أومأت برأسها:

- كن كاتبًا، يا أوغسطين، ولكن رجاءً ابحث لك عن عملٍ آخر كي تسدّد إيجار مسكنك. لو كنت مكانك، لتقدّمتُ بطلب وظيفة في مغازةٍ لا تبيعُ شيئًا، متجر لوحاتٍ، على سبيل المثال! إنه مخبأ مثاليّ للتفكير. حتّى إنّي في كلّ مرّة أدخلُ فيها إلى معرض لوحاتٍ، أخشى أن أُزعجَ شاعرًا بصدد كتابة «الملهاة الإنسانية»[1] أو «البحث عن الزمن المفقود»[2].

- هل تعرفين كثيرًا من تُجّار الأعمال الفنيّة في مدينة شارلوروا؟

- معك حقّ، إنّها تفتقرُ لذلك. الضفادعُ ليست من هواة جمع التّحف. لكن سأنصحك بما يعادلُ ذلك، ثمّةَ بضعُ متاجر بلا بضائع أو حرفاء، تُستعمل كستار لعمليّات تبييض الأموال، وهي -على عكس الأخرى- بصدد التكاثر، لكنّها لن تنتدبك مطلقًا ما لم تكن لديك واسطة داخل عصابات المافيا. سنتحدّث عن ذلك لاحقًا...

تخرجُ ثمّ تعاودُ الظهور.

- هل أنت مُتأكّد من أنّك لا تعرف حسين بدوي؟

- متأكد.

(1) الملهاة الإنسانية هي سلسلة أعمال الكاتب الفرنسي أونوريه دي بلزاك (1799-1850).

(2) بحثًا عن الزّمن المفقود هي رواية مطوّلة من سبعة أجزاء ألفها الكاتب الفرنسي مارسيل بروست (1871-1922).

- أنت تخفي عنّي شيئًا مّا لكنّي لا أعرف حتّى الآن ما هو. لا بأس، سنوضّحُ هذا عندما أعود، إذ أنّنا مازلنا في بداية تعارفنا.

يُغلَقُ البابُ وراء القاضية ومساعدها.

يتردّدُ صدًى وقع أحذيتهما ذات الأعقاب الحديديّة طويلاً داخل الرواقِ قبل أن يخيّم الصّمتُ من جديد.

يعتريني اضطرابٌ مّا: ألستُ بصدد توجيه العدالة ورجال الشرطة إلى مسار خاطئ، نتيجة عدم كشفي لما شاهدتهُ بالضبط؟ لا مجال للعودة إلى الوراء، ذلك أنّ هذا سيظهرني كاذبًا أو غبيًّا. لقد سبق لي أن عشت التجربة مرارًا.

عندما كنتُ أشيرُ، وأنا طفلٌ، إلى الكائنات التي أراها أحيانًا حول النّاسِ، كلّ ما كنتُ ألقاه هو اللاّمبالاة، فَمن سيأبه لثرثرة يتيم وحيدٍ وهزيلٍ، ينتقلُ من منزلٍ إلى آخر، ومن مركز رعاية اجتماعيّ إلى أسرة حاضنة؟ ولّما كنت مُصرًّا على ذلك انتهى الأمر بأن طلبت منّي بعض المعلّمات أن أحدثّهنّ بالمزيد، عندئذ أدركتُ، من أسئلتهنّ، أنهنّ لم يرين ما كنت أراه. لا هنّ ولا رفاقي، بل لا هنّ ولا أحد. ذات يوم، وبينما كنتُ منزعجًا لأنّ أحدًا لم يُلاحظ الوجه الدّامي الذي يبكي باستمرار فوق إيّما -وهي طفلة عمرها أربع سنواتٍ- فسّرت لي المعلّمة أنّي أريدُ أن أصدّق كلّ ما يُنتجهُ خيالي وأن عليّ أن أتوقّف عن التحدّث بشأن ذلك وأذهب إلى كارين مايو، الأخصّائيّة النفسيّة... لكن لا هي ولا أنا فهمنا ما كان يجري معي. لو كنتُ قد اخترعتُ هذه الوجوه، لوجدتُ لها معنى أو وظيفة. ولكنّي كنتُ أصطدمُ بها، أكتشفها وألتقيها. وبعيدًا عن فكرة اختلاقها، كنتُ أتعرّض لها مثلما نتعرّض لكلّ ما يأتي من الخارج، ومثلما

نستقبلُ الحقيقة... ولقد وجدَت المعالجة النفسيّة متعةً في كلّ ما أحضرهُ لها، فراحت تعيدُ نقل حكاياتي على دفترٍ وتطالعُ شتّى أنواع الدّراسات. كنتُ أحبّ الأوقات التي نقضّيها معًا في مكتبها الحسن الإضاءة والمغطّى برسوماتٍ ملوّنةٍ لصناديقَ تفيضُ باللّعب. ذات صباح، أعلمتني كارين الجميلةُ ذات البشرة الناعمة والفم الأحمر الممتلئ الذي كانت بي رغبة جامحة في التهامه كحبّة كرز، أنّها ستغيّرُ الطريقة: فطالما أنّها تصدّقني، ستتوّقفُ عن تحليل شخصيّتي، وبدلاً من ذلك، ستتحقّق من الأشخاصِ الذين تظهرُ الوجوهُ حولهم.

- أوغسطين، من المؤكّد أنّ هذه الأطياف تصدرُ عنهم لا عنك.

أخيرًا، ثمّة من يأخذ ما أقول على محمل الجدّ. أظلّ لساعات طوالٍ بالقرب من كارين، من كنزتها المصنوعة من نسيج الموهير[1]، ومن ضفائرها العبقة برائحة السوسن. والحقّ إنّي لم أجد الوقت الكافي لأختبر هذه الوضعية الجديدة، ففي اليوم التالي، صدَمت شاحنةُ الأجبان كارين. وتذوّقت مرارة الحزن لأوّل مرّة. لم أبكِ أحدًا في السّابقِ ولا سبق لأحدٍ أن أحبّني. ولئن كنتُ مدفوعًا تلقائيًّا إلى حبّ النّاسِ، فإنّهم لم يُبادلوني هذا الحبّ، باستثناء كارين. أثناء جزعي العظيم، ربطتُ بين موتها وحقيقة أنّها منحتني ثقتها... شعرتُ بأنّي مسؤول عن وفاتها، بل أسوأ من ذلك، شعرتُ بأنّي مذنبٌ. إنّ أيّ شخصٍ يسمعني أتحدّث عن الأطيافِ يفقدُ حياته. وهكذا، منذ ذلك الوقت، التزمتُ الصّمت.

- مرحبًا، اسمي سونيا.

يُذعن البابُ لممرّضة شقراء بدينة تحملُ لي وجبةً.

(1) الموهير: نسيج أو خيوط مشابهة للحرير مصنوعة من شعر ماعز الأنغورا.

- لا تتحرّك، سأضعُ كلّ شيء في مكانه.

تثبّتُ طبق الطعامِ على لوح طاولةٍ مُتحرّكٍ ثمّ تشيرُ إلى وعاءيْن من البلاستيك الشفّاف داخل الطبق.

- هل أخبرك الطبيبُ بأمر أخذ العيّنات؟ إذن، عليك بهذيْن الوعاءين. هذا للبول. والآخرُ للبراز. أنت تعرفُ كيف تفعلُ ذلك؟

يحمرُّ وجهي.

- أوغسطين، هذا ضروريّ. نحنُ نريد التأكّد من عدم وجود نزيف. وحتّى إن لم تكن ترغبُ في ذلك، أجبر نفسك! أنا أعوّلُ عليك!

- حسنًا.

أشعر بالضّيق من هذه المُحادثة.

- جيّد. سأمرُّ عليك مرّةً أخرى وآملُ أن تفكّر فيّ.

لعجزي عن تحمّل نظرتها، أتفحّصُ غذائي ريثما تغادرُ الغرفة: ثمّة سلطة جزرٍ مبشورٍ وشريحة سمكٍ محشوّة بالسّبانخ وجبن الكامامبير[1] وتفّاحةٌ. أحاولُ أن أستمتع بوجبتي متناسيًا هوَس الإطار الطبّي المهتمّ بالإفرازات المعويّة لوجبتي أكثر من اهتمامه بمذاقها. بعد التهامي كلّ شيء، بدأت عيناي ترقّان. فبالنظر إلى ندرة الولائم في الآونة الأخيرة، يشعرني الشّبعُ بالإرهاق. إنّ عمليّة الهضم تستنفرُ طاقتي. أعودُ إلى النومِ شاعرًا بغبطة لطيفة.

---

(1) كامامبير: نوع من الأجبان الفرنسية الطريّة الدسمة المصنّعة من حليب البقر.

أثناء قيلولتي، أشعرُ فجأةً بوجود غريبٍ. أفتحُ عينيّ، وإذا بالشيخ هنا!

يقتربُ منّي ويداه العظميّتان متعلّقتان بالحاجزِ المصنوع من معدن «الكروميوم»، يقترب أكثر ممّا فعل في اللّيلة السّابقة، وعلى وجهه تعبير ينمّ عن السّؤال. إنّه يرعبني.

أنتصبُ رافعًا الغطاءَ إلى ذقني:

– ماذا؟ ماذا تريدُ منّي؟

لكنّه لا يتحرّكُ، بل يكادُ لا يتنفّسُ، بينما تواصلُ عيناه اللّتان يطغى عليهما البياض استجوابي.

نتواجهُ صامتيْن.

كلّما تفرّستُ فيه، يبدو لي غير حقيقيٍّ. ثمّة الكثيرُ من التّجاعيد، والكثير من البقع، والكثير من الثآليل، والكثير من التغضّنات الزرقاء والحمراء والبنفسجيّة المتداخلة على نحو يجعلُ بشرته رخاميّة. إنّه يشبهُ رسمًا هزليًّا أنتجته قريحةٌ بلهاء أكثر ممّا يشبه شيخًا: طيّات بارزة في الذّقن، وجلد شمعيٌّ رقيقٌ ومترهّلٌ يتدلّى فيبدو حينًا أصفرَ وأحيانًا رماديًّا. وشعرٌ يحتشد في الأذنين بينما تتوهُ شعيراتٌ رماديّةٌ نادرةٌ في مساحة الجمجمة. وإذ أواصلُ فحص المكوّنات الظاهرة لملامحه، أشكُّ في وجوده.

بعد أن هدَأ روعي، أقرّرُ أن أتجاهله، فأتمدّد على جانبي، وأدسّ رأسي تحت الملاءة وأحاولُ أن أعود إلى النوم.

طبعًا، إن تيسّر لي ذلك. إذ أنّي سرعان ما أتفاجأ بأربعة أعوان شرطة يقتحمون الغرفة.

- لقد قدِمنا من أجل الصّورة التقريبيّة.

أستوي جالسًا في فراشي. حسنًا، السّاعة تشيرُ الآن إلى الرّابعة مساءً.

يشرحُ لي المفتّش تيرليتي مدى الحاجة إلى القيام بهذا العمل. والمفتّش رجلٌ أسمر، يُرجَّحُ أنّه من أصولٍ إيطاليّة، له سالفان عريضان ووجنتان حليقتَان سرعان ما تتحوّلان إلى لون الفحم لكثافة شعر وجهه، كما هو الحال لدى أبناء البحر الأبيض المتوسّط.

عندما يتحدّث بالقرب منّي مستخدمًا يديه المرنتيْن، تنبعثُ منهُ رائحة سجائر قويّة، رائحة تقنعني بمهارته: هذا الرّجل يحرصُ على إظهار مهنيّته مثلما يحرصُ على إظهار فتوّته، إنّه ذلك المثابرُ الصّامتُ الذي لا يفلتُ فريسةً أو دليلاً، السّاخطُ الذي ينتظرُ طوال اللّيل داخل حانةٍ أو سيّارةٍ ظهورَ المجرم، ساحقًا أثناء ذلك أعقاب سجائره الواحد تلو الآخر. لذا فإنّ هذه الرائحة النفّاذة، إضافةً إلى صوته الأجشّ، تجعلني أثملُ وأُلزم نفسي على الفور بألاّ أخيّب ظنّه.

يخرجُ تيرليتي مع رجلين، ويتركني برفقة مارك، وهو شابّ في مثل سنّي ذو وجه على شكل زاوية حادّة.

يسحبُ مارك كرسيًّا ويلصقه بالسّرير، يجلسُ بموازاتي ويضعُ الحاسوب بيننا.

- قل لي ما الذي جذب انتباهك في هذا الرجل، تبعًا للتسلسلِ الذي تريده. صِفْ لي عينيه، جبينَه، تسريحةَ شعره... وبعدها، سأسلّمكَ عددًا من الرسومات التقريبية. لا يهمّ إن أخطأنا أو عدنا أحيانًا إلى الوراء، سنتقدّمُ في عملنا حسبَ نسقنا.

أنبش ذاكرتي مُقلّبًا مُحتوياتها. شكل الوجه، سمك الأنف، عرض الذقن، المسافة بين فتحتي الأنف، منابت الشعر، حجم الشفتين، شكل الحاجبين، نسب المكوّنات المتوزّعة بينهما... عليّ أن أختار بين خمسة وعشرين فمًا، وأن أتخيّل تركيبة الجمجمة بشكلٍ مستقلٍّ عن الشّعر، أن أوضّحَ وأعتّمَ وأنقل وأكبّر وأصغّرَ، وألاّ أكتفي فقط بالرّسمِ وإنّما يتوجّب عليّ أن أعرضه دائمًا على ذاكرتي...

من حينٍ إلى آخر، تظهَر الممرّضةُ قائلةً:

- هل فكّرتَ فيّ؟

أودُّ لو أقول لها إنّ التبوّل أو التغوّط لا يشكّلان طريقتي في التفكير فيها، ولكنّي أمتنعُ مُؤكّدًا لها، في كلّ مرّة، أنّي سأفعل لأنكبّ مجدّدًا على عمليّة تصميم الرّسمِ الشاقّة.

بعد ساعتيْن، أعلنُ لمارك وقد أُنهكتُ أنّ الشّاشة تعرضُ الآن وجهًا يشبه ذاك الذي رأيته، دون أن أعلم أصحيحٌ هو فعلاً أم أنّي أرغب في إقناع نفسي بأنّه كذلك.

يغادرُ المفتّش الغرفة، فأنتهزُ الفرصة وأسارعُ إلى غرفة الحمّام. ومثلما اتّفق، أحاولُ أن أنهي واجباتي كمريضٍ. لم يعد هنالك شيء ينتمي إليّ، لا جدول مواعيدي، ولا جسدي، ولا ذاكرتي ولا حتّى إفرازاتي.

على غير المُتوقّع، لم أشعر كثيرًا بالاشمئزاز من التشنّجات التي سلّمتُ لها نفسي، كلّ ما في الأمر أنّي تفاجأتُ من السّخونة الهائلة لإفرازات جسدي.

وعندما مرّت سونيا مُجدّدًا قدّمتُ لها الوعاءين في انتصارٍ، فبدت راضية تمامًا.

أتردّدُ الآن في العودة إلى النّوم، ذلك أنيّ أخشى ظهور الشيخ مجدّدًا.

يعودُ المفتّشُ تيرليتي ومعه مارك وزملاؤه. يعيّنُ لي جهاز حاسوب قائلاً:

– سيُريكَ مارك مجموعةً من الصّور فإذا تعرّفت على الرّجل، نرجو الإشارة إليه. موافق؟

– «حسنًا». قلتُ مقدّرًا حيويّته.

يعطي مارك حقيبةً ويقول لي:

– حسنًا، بعد أن تنتهي من ذلك، من المُفترض أن تقوم بتصفّح ألبوم صور عائلة بدوي، وحالمًا تحصلُ على قرينة، أنت تعرفُ أين تجدنا.

يغادرُ تيرليتي ومعاونيْه الاثنين الغرفة، إلاّ أنّها تظلّ تفوحُ حتّى بعد خروجهم برائحة منفضة سجائر.

يمرّرُ مارك أمامي ملفّات المشتبه بهم. سرعان ما أشعرُ بالملل بعد أن كنتُ في البداية شديد التركيز. فسحناتهم لا تقدّمُ سوى تعبيرين، الحِلم أو العدوانيّة، والذين يَبْدُون مُسالمين هم في الحقيقة الخطيرون، إذ أنّ من يراهم يحدسُ وجود عنفٍ افتراضيٍّ كامنٍ فيهم، عنف أكثر تفجّرًا من ذلك الذي يعلنه العدوانيّون صراحةً. فضلاً عن النوعين المذكورين ثمّة فئة ثالثة هي فئةُ مدمني المخدّرات ذوي السّحنات المنطفئة والأعين التي لا ترى ولا تفصحُ عن شيء، أولئك الشبيهين بأسماكٍ حقيقيّة لها أفواهٌ متورّمة وحدقات متّسعة.

- «ألم تجد شيئًا؟»، يقول مارك بإصرارٍ.

- لا شيء!

كلّ ما يحتوي عليه ألبوم العائلة صُوَرٌ تظهر فيها الغرفة نفسها والطاولة نفسها والأريكة نفسها. من الواضح أنّ عائلة بدوي، لا تستخدمُ آلة التصوير إلاّ في أيّام أعياد الميلادِ والمناسبات، إذ لا شيء يتغيّرُ في ديكور الغرفة سوى الأشخاص الذين يكبرون، فيزداد الشبابُ طولاً والمسنّون عرضًا. يُذكر أيضًا أنّ وميض آلة التّصوير إذْ جَعَلَ حدقات الأعين في الصّور تبدو حمراء، قد خلَق أخويّة مدمنين. إنّ الذين يتّخذون وضعيّاتٍ بعيْنها أثناء تصويرهم، تكون ابتساماتهم إمّا خرقاء أو ذكيّة، ولكنّها ليست صادقةً البتّة، حتّى إنّي أشعرُ بالسّعادة لأنّي بلا عائلة.

وإذا كان يتوجّب عليّ أن أتأثّر بهذا النوع من...

- إنّه هو!

صرختُ.

لقد كان الرّجلُ الذي رأيته في ميدان أودان يظهر في إحدى الصّور جالسًا على كرسيٍّ وقد وضَع صبيًّا صغيرًا فوق ركبتيْه. وثمّة صورة أخرى أيضًا تُظهره لي وحدهُ، بعيدًا عن أريكة غاصّةٍ بالنّساء والأطفال. وصورة ثالثة في الأخير -وهي صورة شخصيّة بأتمّ معنى الكلمة- تظهره باهتَ النّظرات وبصدد تدخين سيجارة بلا مصفاة.

- أنا متأكّد. إنّه هو.

يندفعُ مارك خارج الغرفة. بعد خمس دقائق، يعودُ مع المفتّش تيرليتي وبقيّة زملائه.

- إذن، من يكون؟

أشيرُ إلى الصّور الثلاث.

يُظلمُ وجه المفتّش وهو يحكُّ ذقنه:

- هو؟

- هو!

- ما من شكّ في ذلك؟

- مطلقًا.

يحكُّ وجنتيه محدثًا صوتًا كصوت المِبشَرَة.

- إنّه الأب، مصطفى بدوي.

يتصلّبُ الثلاثةُ الآخرون.

- والد الإرهابيّ؟

- الأبُ الذي يلقي بابنه إلى التّهلكة...

- ويرافقهُ ثمّ يتخلّى عنه في اللّحظة الأخيرة؟

- يا للوغد الحقير!

بدا واضحًا أنّ الرغبة في فعل شيء مّا تلتهمهم فطفقوا يتوثّبون.

- سنقبض عليه، أيّها الرئيس!

- سأتّصلُ بالقاضية.

- سنذهبُ إلى هنالك بأنفسنا، لا نحتاجُ إلى تعبئة فريق.

يوقفهم تيرليتي بلهجةٍ آمرة:

- اهدؤوا. لا أحدَ يتحرّك. ليبْق الجميع هنا.

- ولكن لماذا؟

- مادام الشابُّ متأكّدًا؟

- «متأكّدٌ، وأكثر من متأكّد» أصرخُ بحماس.

يُسكتنا المفتّشُ تيرليتي وهو يرفعُ يديه إلى جانبيه ثمّ يحدّقُ فيّ بحدّةٍ، مقطّبًا حاجبيه ومنخراه يرتعشان:

- مصطفى بدوي ماتَ قبل عشر سنواتٍ بمرض السّرطان.

-4-

- أوغسطين، هل ترى الموتى؟

تُميلُ القاضية بواترونو رأسها نحو كتفها الأيمن وكأنّها بهذه الزاوية المائلة ستسبر أغواري على نحوٍ أفضل. بعد برهة من الصّمت، تكرّرُ بصوتٍ تُجيد التحكّم فيه، وهو صوتٌ واثقٌ وقريب من المريح:

- هل ترى الموتى؟

إنّها لا تسخرُ منّي بل تطرحُ عليّ السّؤال حقًّا، كما فعلت معي كارين في طفولتي. إنّها تطرحُ على نفسها أيضًا السّؤال ذاته مادامت تفكّرُ منتظرة إجابتي. أتأمّل وجهها البيضاويّ، ألفيه عاديًّا وخاليًا من السّمات المحدّدة، والعينان فيه كأنّهما زرّان مدوّران خِيطَا فوق دميةٍ من قماش، عينان لا أرى فيهما أيّ عدوانيةٍ. قرب سريري يعكسُ المصباحُ الخافتُ فوقنا ضوءًا هادئًا لمسافة متر ثمّ يختفي بعدها تاركًا الظلمة تتمدّد. لقد بلغنا منتصف اللّيل، وهو ما خلَق لديّ انطباعًا، تحت ثِقل الظلمةِ والصّمت العميق، بأنّنا الوحيدان اللّذان يُواصلان السّهر في هذا المستشفى النّاعس.

- هل ترى الموتى، يا أوغسطين؟

يظلّ السّؤالُ هنا، يخفقُ بيننا، في هواء الغرفة.

هل أقولُ الحقيقة؟

قبل ساعاتٍ قليلةٍ، انتهت المقابلةُ التي جَمعتني بالمفتّش تيرليتي إلى الفشل الذريع. في جملة واحدة سقطتُ من مرتبة الشاهد الرئيس إلى مرتبة الكذّاب.

- «أين تعرّفتَ على حسين بدوي وأبيه؟» سَألني.

- في ميدان أودان.

- «في ميدان أودان، لم يكن بإمكانك أن ترى غيْرَ حسين، ذلك أنّ مصطفى يمصُّ جذور الحشائش البريّة[1]!» قال بصرامةٍ وقد تجمّد في مكانه شاعرًا بالنفور.

كنتُ أعرفُ أنّ مصطفى بدوي لا يتشاركُ طبيعة الحياة نفسها مع تيرليتي أو زملائه أو معي أنا... وكان يتوجّب عليّ ولا شكّ أن أشيرَ إلى أنّ مصطفى بدوي كان طوله ثلاثين سنتمترًا عندما رأيته في الميدان. لكنّي تخيّلتُ ردّة فعل المفتّش أمام هذا الاعتراف: «ثلاثون سنتمترًا؟ هل يرى السيّد رجالاً بطولِ ثلاثين سنتمترًا؟ ويتنقّلون مُرفرفين؟ اتّصلوا برئيس القسم وانقلوا هذا الولدَ إلى جناح الأمراض النفسيّة!»... ربّما سيكونُ محقًّا إن فعل هذا... فقد عدلتُ منذ زمنٍ طويل عن طريق المنطق، وسلكتُ دروبًا سيسمّيها الكثيرُ من الأطبّاءِ هلاوسَ. ومع ذلك، خلافًا للمجنونِ، أدركُ أنّي أرى ظواهر غريبة، وهو سببٌ يجعلني ألتزمُ الصمت.

إنّ دليلي النهائيّ والوحيد على صحّة مداركي العقليّة يكمنُ في صمتي، ذلك الصّمت الذي أتعلّق به بقوّةٍ.

- أين عرفتَ حسين بدوي وأباه؟

(1) كناية عن موت مصطفى بدوي.

- لم يحصل هذا.

- أين؟

- مطلقًا.

- قل أين، بحقّ الله!

- أقسمُ لك...

- هكذا هو الأمرُ إذن! تقسم مثل كلّ الكذّابين... ستخبرني بما أريدُ معرفته قبل أن أنبش بنفسي في ماضيك. هل ذهبتما معًا إلى المدرسة؟ إلى نادي كرة القدم؟ إلى المركز التربوي والثقافي بـ«لاغاران»؟ هل أنتما جيران؟ أو أيّ شيءٍ من هذا القبيل؟

لذتُ بالصمت.

أعلمني المفتّشُ تيرليتي، وهو يضرب بقدميه الأرض، وقد أصبح وجهُه قرمزيًّا من الغضب، أنّ القضيّة لن تنتهي هنا، وأنّه سيقع استدعائي لاستجوابي حتّى أنهار، وأنّهُ سيخرّبُ حياتي... كان هائجًا إلى أقصى حدٍّ حتّى إنّ مارك، المفتّش الذي رسمتُ معه الصّورة التّقريبيّة، خاطَر ودافع عنّي.

- أيّها الرئيس، ربّما كان لمصطفى بدوي أخٌ يشبهه. والعمّ هو من دفع ابن أخيه إلى التطرّف.

- لم يكن لمصطفى بدوي أخ.

- يجب علينا أن نتقصّى عن العائلة... ربّما أخ أو قريب... إنّي أضمن لك حسن نيّة أوغسطين.

- حسن النيّة؟

- لقد عاينتُ إلى أيّ حدٍّ كان متعاونًا عندما صمّمنا الصّورة التقريبية.

- لديه حسن النيّة، نعم... البقرة لديها حسن النيّة! الحمار لديه حسن النيّة! هذا يكفي. إلى العمل الآن!

غادر تيرليتي الغرفة دون أن ينظر إليّ، وتبعه رجال الشرطة. وأثناء خروجهم وجّه إليّ مارك ابتسامةً مرتاعة:

- أعرفُ أنّك وصفتَ لي ما رأيته. سأهدّئ تيرليتي وأحاول إعادة توجيهه.

صُفقَ البابُ وسمعتُ الخطوات الهائلة لرجال الشرطة وهي تتوغّلُ في جوف المستشفى. كان صدغاي يحرقانني ودقّات قلبي تتسارعُ. لقد شعرتُ بخيبة أمل! خيبة أمل لأنّي خيّبتُ أمَلهم! خصوصًا تيرليتي. لَكَمْ وددتُ لو أصبحتُ ضروريًّا بالنّسبة إليه. فلبضع ساعات، رأيتُ نفسي في عينيه المتحمّستين، واعتقدتُ في أهمّيتي. لقد أردت أن أكون جديرًا باهتمامه، وأن أستجيب إلى طاقته الرّجولية وشغفِه بالتحقيق. لقد حلمتُ بإرضائه، وتحت تأثير ذلك انغمستُ في دوري كمخبر لا غنى عنه متجاهلاً أنّ ما كنت أعرفه -أي الرّجل صاحب الجلباب الذي لا يعدو حجمه حجم غراب- لن ينصت إليه أحد.

كانت المهزلةُ قد انتهت، وكنتُ أشعرُ بالغثيان من نفسي.

اختفيتُ تحت الملاءات من الغضب. ولطالما كان كلّ شيء ينتهي بهذه الطريقة. فكلّما أردتُ التّصرّف بشكلٍ جيّدٍ ينشبُ سوءُ تفاهمٍ، وأظلّ أتمرّغ في البلادة حتّى يتمّ طردي. آه، لو كان في مقدوري أن أموت!

ولكنّها مهمّةٌ مستحيلةٌ...

وهذا أيضًا ما يحزنني: ألاّ أملك القدرة على الموت. فمهما حدَث، جسدي يقاومُ رغبتي في الهلاك بعنادٍ وآليّةٍ وغموضٍ. يستمرُّ دون وازعٍ، إذ أنّ عقلي لا وزن له. الجسدُ الثقيل والبطيء والعنيدُ هو وحده ما يهمّ. في قرارة نفسي لا أجيد الحياة ولا الموت، أتضاءلُ إلى حالة عجزٍ شاملة. «لا يصلح لشيء»، كذا كان أساتذتي يكرّرون.

هل سيكونُ الموتُ حلاًّ؟

أشكّ في ذلك...

إن كان الموتُ هو ألاّ أكون مهمًّا في أعين الآخرين، فأنا ميّت بالفعل. في حياتي، أنا رجل ميّتٌ لا يزهرُ. وكيْ يجلب لي الموت فائدةً حقيقيّةً، عليه أن يُزيل عنّي إحساس المعاناة، معاناة أنّي لا أهمُّ أحدًا. ولكن، كيف يمكنُ التأكّد من هذا؟

- هيّا، اخرج من خيمتك: إنّه وقت العشاء!

أبعدتُ الملاءات وسونيا تضعُ فوق فخذي وجبة المساء. فحدّقتُ فيها متشكّكًا.

-أوغسطين، لقد تحدّثتُ مع الطبيب. بإمكانك أن تغادر سريرك وتتجوّل في الطابق.

- بهذا القميص؟

- ثمّة ثوب حمّام تحت تصرّفك معلّق وراء باب غرفة الحمّام.

أكلتُ بتقتيرٍ، وباشمئزازٍ تقريبًا. تساءلتُ: لماذا أشارك في هذه المهزلة، وأُطعَمُ حياةً عديمة الفائدة؟

التزمتُ أخلاقيًّا بعدم إنهاء أيّ طبقٍ، والأمرُ لا يتعلّق بإنزال عقوبة بقدر ما هو رغبة في أن أثبت لنفسي قدرتي على ترويض هذا الجسد الجهنّمي، هذا الكائن الطافح بقوى الحياة الغبيّة. وإذ دفعتُ الصحونَ نصف الممتلئة، وجدت القليل من احترامي لنفسي، ثمّ قصدت غرفة الحمّام لأرتدي ثوب الحمّام النشّاف ذا اللون الأبيض المائل إلى الرماديّ، والياقة البالية إلى حدٍّ يسمح بملاحظة خيوط النسيج. أظهرتني المرآة سخيفًا، بساقيّ الهزيلتين تحت الرّداء الفضفاضِ والعائم، وكأنّي زهرة خزامى تسيرُ فوق مدقّتها.

تجوّلتُ في الرّواق محاذيًا الغرف التي بقيت أبوابُها منفرجةً قليلاً. كانت الشاشاتُ المعدّلةُ على قنواتِ الأخبار تبثُّ على نحوٍ مُتّصلٍ مشاهدَ لشارلوروا: شارلوروا قبل المأساة، وشارلوروا بعد المأساة، وموكب الوزراء في ساحة شارل الثاني، ومشهد الملك وهو يضع بنفسه إكليلاً من الزّهور في ساحة كنيسة سانت كريستوف. ورافق ذلك الإعلان عن ثمانية قتلى وخمسةٍ وعشرين جريحًا، ثُمّ تتابعت النشرات راصدةً الصّدى الدوليّ للحدث؛ فمن الرئيس الأمريكي وصولاً إلى نظيره الروسي، قدّم كلّ رؤساء الحكومات تعازيهم أمام أعلام بلدانهم. كان سباقًا من أجل التعبير عن التعاطفِ، وكفاحًا من أجل الأُخوّة. لقد أصبحت شارلوروا مركزَ العالم. وعندما انتبهتُ إلى أنّي أيضًا أشغلُ غرفةً بها جهاز تلفاز، استدرتُ راجعًا إليها، وضغطتُ على جهاز التحكّمِ وإذا بالجهاز المعلّق في السّقف يعلمني بوجوب دفع رسومٍ في قاعة الاستقبال كي أتمكّن من النفاذ إلى البرامجِ.

بعد أن خاب أمَلي، همتُ على وجهي في الرّواقِ. وفي كلّ مكان،

كان المرضى والزوّار يواصلون الالتصاق بالشاشات، وغلالةٌ من الذهولِ تجتاح الطابق.

من بابٍ إلى آخر، التقطتُ شذرات أحاديث من خبراء في الأمن أو في مكافحة الإرهاب والتطرّف ما انفكّوا يتعاقبون على البرامج التلفزيونية ليقدّم كلٌّ منهم تحليله وتفسيره للوقائع بإلمام وإثارة، حتّى إذا انتهى لم أُحصّل من كلّ ما قيل أيّ تفاصيل جديدة.

في قلب الطابق يوجد فضاءٌ مشترك على شكلِ مربّعٍ تحيطه أشجار نخيلٍ بلاستيكيّة، يحتوي على مقاعد جلديّة ويُسمحُ فيه بمشاهدة التلفزيون مجّانًا. هناك، تكوّم شيخ على كرسيّ تحت الشاشة وهو يكادُ يدقّ عنقه من التّحديق فيها، واحتشَدت مجموعةٌ من الممرّضات فوق مصطبةٍ، بينما جلست امرأة بالقربِ من موزّع المشروبات، تحيك جورب رضيعٍ من الصوفِ الأزرق.

وإذ أصابتني العدوى، أخذت لي مكانًا وتابعتُ القدّاس الإعلامي لبضع دقائق.

«الجالية المسلمة تحت الصدمة!» أعلن الصحافيّ. كانت الكاميرا تتجوّلُ في شوارع شارلوروا مُظهرةً نساءً محجّبات عبّرن عن فزعهنّ بجدّية بالغة وهنّ يُذكّرن بأنّ المؤمن لا يسلكُ مسلك حسين بدوي. «بعضهنّ يشعرن بالذهول حتّى إنّهن عجزن عن إيجاد الكلمات كي يصفن ما يعجزُ اللّسان عن وصفه». يضيفُ المحلّلُ قبل أن يتلاشى من أمام أمّ كلثوم، وهي تقف تائهة وراء دكّانِ بقّال. ركّزت العدسة على وجهها ذي الفم الشبيه بالفطيرة والعينين المحمرّتين. كانت تحدّقُ في الكاميرا بعينيْ دجاجةٍ مذعورةٍ، مستعجلة ومتوارية، وتجيبُ عن

أسئلة الصّحافي بأصواتٍ تشبه القرقرة. وفي نظر من لا يعرفُ أنّها تخزّنُ علب جعّتها، كانت تجسّدُ المحنة التي حلّت بشعب المسلمين الصّغير.

بقيتُ ملتصقًا بالشّاشة.

ومادامت أيُّ مجموعة من المجموعات الإرهابيّة لم تعلن مسؤوليّتها عن الهجوم، فقد تكاثرت الفرضيّات. وظهرَتْ قائمةٌ بالمسؤولين المفترضين ظلّت تتكرّر مُخْلّفةً تعليقات لا تنتهي. وإذا بسرد الوقائع قد تحوّل بدهاء إلى روايةٍ من الاحتمالات. ونتيجةً لغياب المعطيات الكافية، لم تتحدّث وسائل الإعلام عن العالم كما كان، بل كما يفترضُ أن يكون، أو بالأحرى، كما تريدُ هي أن تتحدّث عنه. وهكذا عوّض الواقعُ المفترضُ الواقع الملموس. أما شارلوروا التي أعرفها، فقد استبدلوها بأخرى، أعادت رَيْبتُهم تصوّرَها ورسمَها وبناءها، فإذا هي بابل العنيفة، وقاعدة للحركات الجهادية، وشبكة مُؤطَّرة من قوى الجريمة الصّغيرة والكبيرة الدافعة بالفاشلين إلى التطرّف. وشيئًا فشيئًا، رَجَحَ الخفيُّ على المرئيِّ، من خلال سطوة الصُّوَر المبثوثة، وطغى ما ليس مشروعًا على الرسميّ والقذرُ على النقيّ. أصبحت شارلوروا مجموعة من الخيام والمباني المتداعية وفوضى من الحظائر المُعلَّمَة أو من الأقبية العامرة بالسّلاح، مدينة لا توجدُ بها بلديّة أو مدارس أو معاهد، وتقضّها مناطق لا تدخلها الشّرطة. وخلالَ هذا التّداعي المُتّسم بريبةٍ مرضيّةٍ تفاجأتُ في إحدى اللّقطات الجانبيّة برؤية أطفال عاديّين يخرجون من حضانة مدرسيّة جميلة نحو رصيفٍ مُشطّفٍ ينتظرهم عنده آباءٌ عاديّون.

تتداخل السّاعات.

نشرات. بيانات. نبذات. مَواجِز. استطلاعات رأي. ردود فعل فوريّة.

لقد أفرغت القناة الإخباريّة دماغي وحوّلته إلى غرفة أخبار خالصة. اقتنعتُ بالرّواية الرسميّة التي تبثّها الشّاشة، وهي روايةٌ ما فتئت تتعزّزُ عبر تكرارها من نشرةٍ إلى أخرى، واجترارها من طرفِ الخبراء وتأييد القيادات لها. لم أعد أفكّرُ من تلقاء نفسي، صرتُ أشعرُ فقط بما يقدّمونه لي من أحاسيس: لقد حسَم الصّحافيون الأمر.

-«لم يعد المكانُ آمنًا بعد الآن». تتذمّرُ الخيّاطة.

-«ما يجدر القيام به الآن هو الرّحيل». تُعلّق إحدى الممرّضات وهي تتنهّد.

غامر تقريرٌ تلفزيّ بالذّهاب إلى المبنى الذي عاش فيه حسين بدوي، وهناك شهد الجيران أنّهم كانوا يُصادفون صبيًّا هادئًا وخدومًا ومستقيمًا: «لم نشتبه به مطلقًا... المكان هادئ هنا. لا يوجدُ سوى أناس طيّبين». ثمّ برزت أمّه وهي تصرخ بصوتٍ مبلّل بالدّموع مؤكّدة أنّ الشرطة أخطأت باتّهام ابنها: «إنّه ولد طيّب. ولد طيّبٌ للغاية يحبّ عائلته. هذا غير ممكن».

دمدم صوتٌ من ورائي:

- هذا هراء! هو غلامٌ أُطرد ستّ مرّات من المدرسة، سارق، مسلّح، يتاجرُ في المخدّرات، ألقت الشرطة القبض عليه في سنّ الحادية عشرة، وبين سنّ الثامنة عشرة والثانية والعشرين، كان قد ملأ سجلاً جنائيًّا ظريفًا. لقد قضّى هذا الملاك الصّغير أشهرًا في السّجن. أنا، يا سيّدة بدوي، أسميه وَغْدًا.

درتُ بجذعي فطالعتني القاضية بواترونو وهي تستند بظهرها إلى الحائط.

«إنّه ولدٌ صالحٌ». واصلت الأمّ الهتاف باكيةً.

وجّهت القاضية نظرةً غاضبةً ناحية الشّاشة مُعلِّقةً باستنكار:

– مرّةً أخرى! إنّها مجرمة متعدّدة السّوابقِ مثل ابنها... فالأمُّ التي تؤلّه ابنًا عاقًّا، لا يمكنُ أن أشاركَها مفهومَها للتربية. ماذا يعني ولدٌ صالح؟ أنّه لا يضربها بحذائه؟

كانت قد رفعت صوتَها مع هذه الكلمات الأخيرة، فاستدارت كلّ الوجوهِ نحوها.

تذمّرت وهي تعتذر:

– حسنًا، حسنًا، أنا غاضبة، أنا غاضبة...

عادت الوجوه إلى الالتصاقِ بالشاشة وقد بدا عليها الارتياح.

وربّتت القاضية على كتفي قائلة:

– أوغسطين، جئتُ كي أتحدّث إليك. ماذا لو ذهبنا إلى غرفتك؟

وافقتُ وتبعتها.

– انتظر لحظة. سآخذ زجاجة كولا. لم آكل شيئًا منذ الصّباح.

وضعَت قطعةً نقديّةً من فئة الأورو في الموزّع، وبعد جلَبة كجلبة نهاية العالم، سلّمها علبةً.

– ألا يُرافقك السيّد ميشان؟

– ميشان؟ أوه لا، المسكين...

انتزعَت غطاء العلبة وهي تُتابع، وقد استغرقت في التفكير:

- إنّه جذّابٌ، ملتزمٌ، معطّرٌ، نظيفٌ وملقّح، لكن علينا أن نعترف بأنّه بليد الذّهن.

رفعَت عينيها إلى السّماء باحثةً عن الإلهام:

- إنّ الأسوأ من هذا أنّه يحتاجُ إلى تسع ساعات من النوم ليبدو بعدها على تلك الحالة البائسة.

عبّت من الكولا فكشّرت:

- أوه، إنّ مذاقها سيّئ للغاية حتّى إنّها ينبغي أن تباع في الصيدليّة.

اقترحَت عليّ أن نتقدّم داخل الرّواق.

- هل لديك رفيقة؟

- أرجو المعذرة؟

- أسألك هل لديك رفيقة أم لا. وفي الآن ذاته أعلمُ أنّك ليس لديك واحدة.

- لماذا؟

- لأنّها لو وُجدت لكانت هنا.

وصلْنا إلى الغرفة وهي تستطرد:

- أمرٌ مؤسف. اتّخذ لك رفيقة. حسنًا، هذا ليس من شأني. ولكن، هل سيعجبك الأمر؟

- أوه... نعم.

- لا توجدُ عقبات أمامك. لستَ أكثر قبحًا من أيّ رجلٍ آخر.

ابتلعتُ ريقي بصعوبة. وإذ شعرتْ بأنّ جملتها جرحتني، تابَعَتْ:

- نعم، نعم، أصرُّ على قولي: لستَ أكثر قبحًا من أيّ رجلٍ آخر. انظر إليّ: في مثل سنّك عثرتُ على رجل! مع أنّي لم أكن ملكة جمال العالم.

أعادت خصلةً نافرةً من شعرها مُكملةً:

- ولا ملكة جمال بلجيكا. لم أكن حتّى ملكة جمال شارلوروا، بل ملكة جمال اللاّ شيء، هذا هو لقبي. الأمرُ بسيط، عندما كنت في السّادسة عشرة من عمري لم يقبلوا وجودي في فريق المشجّعات! ولك أن تفهم...

تملّكتني رجفة، أمّا هي فواصلت حديثها في انعطافةٍ ظافرة:

- لكَ أن تتخيّلَ أنّ ميشان تزوّج من ربّة جمال. نعم! يصابُ الناس بالدهشة حين يرونهما معًا. أمّا أنا، فلا... ولقد أنجبا ثلاثة أطفالٍ، هم أيضًا رائعون. وهو ما يثبتُ، كما ترى، أنّ التقلّبات الوراثيّة...

أستلقي في سريري، وتكتفي بالجلوس.

- هل أنت أحمق يا أوغسطين؟

يربكني السّؤالُ. ولكنّ القاضية بواترونو تصرُّ:

- هكذا يلخّصُ المفتشُ تيرليتي إفادَتك: لقد خدعتنا إذ أرشدتنا إلى دليل هو عبارة عن رجل ميّت. لماذا؟ -حسب رأيه- لأنّك مغفّل. إذن أنت لست سوى مغفّلٍ يلفت الانتباه إليه.

تضحك.

- هذا العزيز تيرليتي، دائمًا ما يُقدّم تفسيرات صريحة. لابدّ أنّه مصابٌ بداء في السّحايا يجعل رؤاه مستقيمة. هل لاحظتَ كم هو كثيف الشّعر؟ حتّى إنّه يخرجُ خصلات من تحت ياقة قميصهِ ومن رُدنيْ كنزته! بصراحة، هذا يجعلني أرتابُ. أوه، أنا لا أعدُّ هذا مثيرًا للاشمئزاز، أعني هذه الدّفقات من الهرمونات الذكورية، بل ربّما العكسُ تمامًا، لو أردتَ رأيي، ولكنّي لا أثق في النظريّات المُضمّخة بالتيستوستيرون[1]. هل تفهم ما أقصده؟

- لا.

تنهضُ وتقتربُ من النافذة المُتصدِّعة بفعل الأمطار والمُخفَّفة من الضوء البرتقاليّ لمصابيح الشوارع.

- كما تعلم يا أوغسطين يمرُّ المجرمون أمامي طوال الأسبوع: المشاغبُ الذي يرمي السيّارات بالحجارة في وضح النهار، وتاجر المخدّرات الذي يوزّعُ مخدّراته على مرأى كاميرات المراقبة، والبائعة التي ترتدي فساتين المتجر وتقوم بتعليقها على الشمّاعة دون أن تغسلها، والحارس الليليّ الذي ينظّم الحفلات الصّاخبة في مكان عمله، ونادل الحانة الذي يشربُ ممّا يبيع، وسائق الشاحنة المُستولي على صناديق البضائع، والمحاسب الذي يحوّل أموال الشركة إلى حسابه، والخادمة التي تُمضي صكوكًا مسروقة من مُشغّليها، والمراهق الذي يسرق التجّار مستخدمًا مسدّس ماء، والعميان والمقعدون والمتسوّلون المزيّفون، وما

(1) التيستوستيرون: هرمون لدى الذكور يؤدّي ارتفاعه إلى ارتفاع الرغبة الجنسية عند الرجل، وبانخفاضة تخمل هذه الرغبة وتبرد.

شابه ذلك... في نظر رجال الشرطة والدولة، هؤلاء منحرفون، أمّا من وجهة نظري فهُمْ أوّلاً وقبل كلّ شيء حمقى. إنّهم فاشلون! يقبضُ عليهم من سرقاتهم الأولى، ويخلقون لأنفسهم سجلاً جنائيًّا من أجل خمسين أورو أو مائة، من أجل الفُتات... آه، لا بدّ من الفطنة حتّى يصبح المرء مجرمًا بارعًا. هم لديهم معدّل ذكاء محارةٍ مسلوقة. وعمومًا، عندما أحقّق معهم، أشعرُ بالسّأم إلى درجةٍ تجعلني في نهاية المطاف أدلّهم على ما من شأنه أن يكون ذا هيبة، كالخدع الرّائعة وعمليّات الاحتيال البارعة والسّفالة المميّزة. «بهذا على الأقلّ، ستنالون احترامي!». أقول لهم وهم يستمعون إليّ فاغري الأفواه. لو كانت جماجمهم مؤثّثةً، لخشيتُ أن يلتقطوا شيئًا من تيّارات الهواء العابرة لأدمغتهم، ولكن ليس ثمّة احتمال لذلك! إنّ أغلب الناس لا فكرة لديهم عن التفوّقِ. إنّهم لا يُعملون عقولهم في مستوى أرفع بكثير من غرائزهم. إنّه بؤس البؤسِ... وأنا من اخترت هذه المهنة كي أزيد من حدّة ذكائي، ها إنّي أكرّسُ أيّامي للحلازين. قاضية تحقيق؟ هذا هراء! أنا أُدير مكتبًا للثدييّات العليا.

تعودُ إلى الكرسيّ، وتفتّشُ عن شيءٍ مّا داخل محفظتها وهي تُضيف:

– علاوةً على ذلك هم أغبياء جدًّا حتّى إنّني عندما أشرحُ لهم أنّهم كذلك، لا يفقهون شيئًا.

تُخرجُ قطعة حلوى من كيسٍ وتشرح:

-بالإمكان تمييز هؤلاء الحمقى بما يلي: إنّهم لا يمتلكون حتّى

مصطلح «حمق» في معجمهم.

ثمّ تدفع الكيس نحوي سائلة:

- هل ترغبُ في واحدة؟ إنّها دون سكّر. ليست حلوة ولكنّها لا تضرّ. أفضّلها قرمزيّة اللّون.

- لا، شكرًا.

- هل أنت مغفّل؟ أجبني بصراحة: هل أنت بليد الذّهن؟

أُخفضُ بَصري ولا ألبث أن أجيب:

- لطالما طرحتُ السّؤال على نفسي...

- ... وهو ما يدلّ على شيءٍ من التميّز. وبعد؟

- لقد خلصتُ إلى أنّ بي عيوبًا كبيرةً هي السّذاجة والكسل والبطء، ولكنّي لستُ مغفّلاً مطلقًا. أنا قليل الحيلة مقارنةً بالآخرين، ولكنّي لستُ غبيًّا.

- هذا ما أعتقده أيضًا. يُفترض أن تكونَ حقًّا متخلّفًا عقليًّا، وإلى أقصى حدّ، كي تفعل ما فعلته متخيّلاً أنّنا لن نكتشف ذلك.

- أرجو المعذرة؟

- أن تدّعي أنّك رأيتَ رجلاً وأنت تعرفُ أنّه ميّت، أن تصفه بدقّة، وتصنع رسمه التقريبيّ وتخرج صوره، وقرائن غير ذلك كثيرة تجعلنا نخلص إلى أنّ رَجُلَكَ ما عاد موجودًا.

تدفع قطعة الحلوى إلى فمها وتنقلها تحت وجنتيْها من جهةٍ إلى أخرى.

- لم أفهم مطلقًا لماذا أحبُّ هذه الحماقات. في الوقت نفسه يبدو

الأمر شبيهًا بالتدخين. ما يدعو إلى الاعتقاد بأنّي لا أنخرط إلاّ في ما هو مُدمّر. هل تتذكّر سيجارتك الأولى؟

- أجل.

- كيف وجدت التجربة؟

- كريهة.

- وتوقّفت هناك؟ لم تواصل؟

- بالضبط.

- هذا ما كنتُ أقوله: لستَ غبيًّا.

تجلسُ وتتذمّر:

- لستَ أحمقَ مثلي! ولا متعنتًا مثل تيرليتي!

ينتابها الإحباط فتبتلعُ قطعة حلوى ثانية وتراقبني:

- أوغسطين، أنت لم تكذب، فحتّى المعتوه لن يرتكب هذا الخطأ الفادح! أنت قلت لنا الحقيقة، أليس كذلك؟

- نعم.

- باستثناء أنّك لم تقل لنا كلّ الحقيقة.

أتردّدُ. ذلك أنّها لفرط تحرّكها في أكثر من اتّجاه، وتململها وانحرافها عن الموضوع، أربكتني. ولكي تمارس عليّ مزيدًا من من سلب الإرادة تتشبث بي وتسألني:

- صحيح أم خطأ؟

أتردّدُ مرّةً أخرى، فتلمسني وتهمس:

- صحيح؟

- صحيح.

ترتعشُ من السّرور.

- هل تريدني أن أساعدك؟

- على ماذا؟

- على الكلام.

- لا أرغبُ في الكلام.

- إذن، سأساعدك. الأمرُ يُختزلُ في جملة واحدة.

تتأمّلني وتضيف:

- أوغسطين، هل ترى الموتى؟

تُميلُ القاضية بواترونو رأسها نحو كتفها الأيمن وكأنّها بهذه الزاوية المائلة ستسبر أغواري على نحوٍ أفضل. وَبعد برهة من الصّمت، تكرّرُ بصوتٍ تُجيد التحكّم فيه، ذي نبرة واثقة وشبه مريحة:

- هل ترى الموتى؟

إنّها لا تسخرُ منّي، بل تطرحُ عليّ السّؤالُ حقًّا، كما فعلت معي كارين في طفولتي. وهي تطرحُ على نفسها أيضًا السّؤال ذاته مادامت تفكّرُ منتظرةً إجابتي. أتأمّل وجهها البيضاويّ، ألفيه عاديًّا وخاليًا من السّمات المحدّدة، أمّا العينان فيه فكأنّهما زرّان مدوّران خِيطًا فوق دمية من قماش، عينان لا أرى فيهما أيّ عدوانيّةٍ.

قرب سريري يعكسُ المصباحُ الخافتُ فوقنا ضوءًا هادئًا لمسافة مترٍ

تقريبًا ثمّ يختفي تاركًا الظلمة تتمدّد. لقد بلغنا منتصف اللّيل، وهو ما خلق لديّ انطباعًا، تحت ثقل الظلمةِ والصّمت العميق، بأنّنا الوحيدان اللّذان يُواصلان السّهر في هذا المستشفى النّاعس.

- هل ترى الموتى، يا أوغسطين؟

يظلّ السّؤالُ هنا، يخفقُ بيننا، في هواء الغرفة.

هل أقولُ الحقيقة؟

-5-

- بعضُ الموتى أقلّ موتًا من الآخرين، فهم يبقون وسط الأحياء.

- هل تراهم؟

أُطلق تنهيدةً بمعنى «على رسلكِ، لنتحدّث أوّلاً» ثمّ أركّزُ على الجليْدات المحيطة بأظفاري، ذلك أنّ تفادي نظرة القاضية يبعدني عن إصرارها.

- سيّدة بواترونو، لقد فكّرتُ ووصلتُ إلى هذه الخلاصة: إنّ مُعظم من ماتوا اختفوا حقًّا، وإلاّ لكان لنا أن نقول مرحبًا بالاختناق المروري! ولما تسنّى لنا رفع إصبع صغيرٍ دون أن ندغدغ شبَحًا. لعلّك تدركين أنّه في الوقت الرّاهن ثمّة ثمانية مليارات نسَمة، ولكن لو أضفنا إليهم من سبقهم، أولئك الذين عاشوا قبل مليونين وثمانمائة ألف سنة، سيصعدُ الرقم إلى مائة مليار نسمة على كوكبٍ ليس كبيرًا بما يكفي ليستوعب هذا العدَد.

أنتزعُ قطعة جلدٍ يابسة من ظفر إبهامي الأيمن وأضيفُ:

- حاليًّا، لا أعرفُ ما الّذي أصبح عليه كلّ هؤلاء الموتى.

- أصبحوا غبارًا! إنّه مصيرُ الموتى.

- امم...

- لقد أعيد تدوير جزيئاتهم في التراب والزهور والأشجار والحيوانات. أنا مقتنعةٌ بأنّ في دواخلنا فُتات الموتى!

أحدّقُ فيها. هل لها أن تتخيّل كم هي على حقّ؟

ومع ذلك، يروق لي أن أعارضها:

- أعتقد أنهم يتسكّعون في مكانٍ آخر.

- مكان آخر؟

تعقدُ القاضية بواترونو ذراعيها وتقول:

- أوغسطين، هل تظنُّ أنّني مغفّلة؟ أنت تحدّثني عن موتى، لا أنا ولا أنت، نراهم. فما الفائدة؟

- اللاّ مرئي موجود، أليس كذلك؟

- مطلقًا. ولهذا السّبب تحديدًا أطرحُ عليك السّؤال. هل ترى الموتى ولا أراهم أنا.

- نعم، الموتى الأقلّ موتًا.

تمسحُ بنطالها، تعقدُ رجليها، تمدّهما، تتنحنحُ، تجيلُ بصرها في النافذة والباب، كمن يبحثُ عن مخرج.

- يتعيّنُ عليّ أن أكون حذرةً! تقولُ متعجّبة.

- منّي؟

- بل منّي! فأنا بطبعي سريعة التّصديق.

تميلُ في اتّجاهي ليقينها من أنّ أحدًا لا يسمعنا:

- أخبرني...

- في البداية، لم أفهم الأمر. لم يكن النّاس يبدون أيّ انتباهٍ لكائناتٍ بعينها كنتُ أنا أراها: أشخاص بأحجام عاديّة أحيانًا، وغالبًا بأحجام صغيرة. ما المُختلف فيهم؟ كانت لهم القدرة على المفاجأة، ومتى شاؤوا يظهرون ويختفون دون أن تمنعهم الحيطان أو الفواصل الجداريّة أو الطوابقُ. هم لا يدخلون مطلقًا من الباب ولا يخرجون من النافذة، بل يبرزون ويختفون غير مبالين بالعوائق. وفي كلّ مرّة، يظهرون بغتةً كي يحرسوا أحدًا مّا دون اهتمام كبير بالحاضرين، بمن فيهم أنا. وإذا ما وجّهتُ إليهم الحديث، لا يتراجعون، بل يرسلون إليّ نظرةً مفادها «وما دخلك أنت؟». وعندما أبتعد عن تلك اللّحظات، أتساءلُ هل كانت هذه النظرة موجّهة إلي فعلاً؟ إذ ربّما أكون ظننتُ حدوثها.

تدغدغني الرّغبة في الحديث أكثر عن هذه النقطة ولكنّ الفضول الجامح للقاضية بواترونو يُلزمني بالمواصلة، فألتقطُ أنفاسي وأتابع:

- إنّ ميزةَ هؤلاء الأشخاص أنّهم أكثرُ تعبيرًا منّا، فملامحهم تعبّرُ عن شعورٍ واحدٍ يُشعّ منهم بقوّة، بل إنّ ممثّلاً عظيماً لا يستطيع أن يصل إلى ذاك المستوى من الوضوح. تعكسُ وجوههم كلّ مشاعر السّأم والمرارة والرّيبة والألم، وحتّى اللاّمبالاة. في مدرستي، دائمًا ما كانت إيزابيل، الحمراء الشعر، متبوعةً بأمّها -في حجمها المصغّر- ولم أكن أفهمُ لماذا تلتصق الأمُّ بابنتها إلى حدٍّ يوحي بأنّها تتعسّف على نفسها.

- هل كانت تتحدّث معها؟

- كان وجهها كئيبًا ولا شيء آخر. حالة من الذهول المطلق!

- هل تبادلت الأفكار بخصوص هذه الأطياف مع أقاربك؟

- نعم. وعندما بدأت في الإبلاغ عن هؤلاء الأشخاص... المرفرفين، وقفت على استخفاف الناس بي. كانوا يندهشون، ثمّ يتبرّمون إذا أصررتُ، وفي نهاية المطاف يأمرونني بالصّمت. وكانت وجهة نظري، وأنا الذي يكنّ للكبار كلّ احترام، أنّهم يتظاهرون بعدم رؤية ما أرى، وكذلك الأطفال المحيطون بي. ولقد انتهيت إلى وجوب الامتناع عن ذكر بعض الكائنات. في ما يُشبه العُرْف. ألا يوجدُ في الهند ما يُعرف بـ«المنبوذين»[1]، وهم أشخاصٌ وقع استبعادهم من الطبقات الاجتماعية حتّى عُدّ مُجرّد النظر البسيط إليهم مُلوِّثًا، وظلّهم في حدّ ذاته مُتلفًا لمن يلتقون بِهِ على الطريق؟ بعد أن شاهدتُ تقريرًا حول هؤلاء المنبوذين، أعدتُ تسمية الأشخاص المرفرفين بالشنيعين.

- متى فهمت ذلك؟

- أنّهم كانوا لا مرئيين وليس شنيعين؟

- أنّهم كانوا موتى.

- ثمّة جنازة أنارت عقلي. كانت الأولى -وأيضًا الأخيرة- التي أشهدها. وتفاصيل ذلك أنّي عندما بلغت السّادسة من العمر، أودعني ديوان الخدمات الاجتماعية لدى عائلة غولمييه لأحيا في كنفها، وهي عائلةٌ تديرُ مزرعة في ميتيت. وكان للسيّدة غولمييه أخٌ أكبر اسمه راؤول التقيته عدّة مرّات أيّام الأحد بالمنزل ثمّ

(1) المنبوذون طبقة اجتماعية توجد في كيرلا وتاميل نادو في الهند وفي سريلانكا.

توفّي إثر أزمة قلبيّة. ويوم حفلة التأبين، أخذتنا معها إلى جنازة راؤول لأنّها لم تجد أحدًا يرعى الأطفال الستّة الذين تكفلهم. بصراحة، لم يعنني الأمرُ كثيرًا. ولفرط ما خدّرتني رائحةُ الطّلاء المنبعثة من المصاطبِ والمراكعِ، المصنوعة من خشب السنديان، استغرقتُ في أحلام اليقظة أثناء القدّاسِ وتثاءبتُ عند تقبّل التعازي بل إنّي تعثّرتُ من التعبِ أثناء المشي وراء عربة الموتى الصاعدة إلى القرية. غير أنّي في المقبرة، وجدتُ العرضَ مثيرًا للاهتمام وتابعت النّعش المشدود بالحبال وهو ينزلُ إلى الحفرة. كنت متحمّسًا أكثر ممّا أنا متأثّر، ومفتونًا بالتتابع المحكم للطقوسِ: العائلة وقد انتظمت في صفٍّ واحدٍ، حفّارو القبور الأكفاء والصّامتون، القسّ القادر دائماً على ارتجال موعظةٍ، الحشدُ المذعِن، واستغراق الجميعِ في التأمّلِ أثناء الصّلاة ثمّ في حفل التأبين. وجديرٌ بالذكر أنّني عندما جاءَ دوري لتحريك المبخرة، لم أنشغل إلاّ بتنفيذ الحركة كما ينبغي، دون أن أفكّر في الجثّة. بعد ذلك بقيت السيدة غوليبيه -لما تملّكها من اضطراب- فترةً طويلةً في الممرّ ونحنُ القُصّر الستّة قابعون إلى جانبها خفيضوا الرؤوس. لم تكن قد قرّرت المغادرة بعد. ولم يبق بين الأضرحة سوى أقرب أفراد العائلة. عندها، وما إن أهال حفّارُ القبور التراب على الحفرة، ووضع متعهّدو الدّفن الأكاليلَ وباقات الورود على الأرض المتربة حتّى رأيتُ الميّت يتسلّلُ من الأرضِ ويطيرُ في حركة دائريّة ثم يحطُّ دون تردّدٍ فوق كتفي زوجته وابنته. نعم، كان راؤول هنالك، ولكن بحجم

لا يتجاوز حجم عصفور. لقد عرفتهُ. وعلى الفور صرختُ فاستدار الجميع إليّ. «أيّة ذبابة قرصتك؟»، قالت السيّدة غولمييه متعجّبةً. «لا شيء»، أجبتُ بحذرٍ. «هذا طبيعيّ، إنّه متأثّر»، همسَت إحدى القريبات، بينما كان راؤول يستقرُّ فوق كتفيْن. أؤكّدُ فوق كتفيْن: كتف ابنته، وكتف زوجته الشّابةِ. بل إنّه كان في نسختيْن.

- هل كان لديه أطفالٌ آخرون؟

- ابنانِ كبيران من زواجٍ سابقٍ، كانا يقفان هنالك أيضًا، في معاطف سوداء، أمام أمّهما. ولكنّ راؤول لم يلتحق بهم.

- يبدو الأمرُ غريبًا، أليس كذلك؟

- وما الغريبُ في هذا؟ أن يخرج الميّت من الأرض؟ أن يحطَّ فوق ابنته وزوجته الثانية؟ أم ألاّ يحطَّ فوق ولديه وزوجته السّابقة؟

وكما لو أنّ سؤالي أيقظها، تهزّ القاضية بواترونو رأسها فتبدو مثل كلبٍ ينتفضُ كي يخلّص فَرْوهُ من سيقان النّباتات والأوراق التي علقت به. إنّها تطردُ الأفكارَ المُشوِّشة. وكردّ فعلٍ لا واعٍ، تفتّشُ في كيس حلواها.

- هل تريد واحدةً؟

- لا، شكرًا.

- «معك حقّ، فمذاقها مقرفٌ حقًّا». تؤكّدُ وهي تُلقي بقطعتيْن في فمها ثمّ تقومُ بسحقهما تحت أسنانها فتشعر بالارتياح.

- حسنٌ إذن، كيف تفسّرُ هذا؟ أقصد الميّت الذي يعودُ لأجل

شخصيْن... فما دام قد ظهر في نسختيْن، لماذا لم يظهر في أربع نسخٍ من أجل أطفاله؟ ما دام قد بُعث، لماذا لا يكون للجميع؟

- إنّ الموتى لا يعودون من تلقاء أنفسهم، فالأحياء هم الذين يقومون باستدعائهم.

- أرجو المعذرة؟

- ما سأرويه لك خلصتُ إليه متأخّرًا. لقد ساعَد راؤول ولديْه إلى أن بلغا سنّ الرشدِ، إذ قام بتوجيههما في دراستهما وإرشادهما في خطواتهما المهنّية الأولى. أي أنّ هذين الابنين تلقّيا كلّ ما يتوجّب أن يحصلاَ عليه من أبٍ، وبلَغا مرحلة النّضج والحرّية والاستقلاليّة. ومهما بلغ حزنهما، كانا يعرفان كيف يواصلان طريقهما بمُفردهما. أمّا ابنته الأخيرة، ذات الثماني سنواتٍ، وزوجته الشّابة، فكانتا ما تزالان تحتاجان إليه، ذلك أنّه لم يكّرس لهما ما يكفي من الوقت... إنّ الموتى الذين قدّموا كلّ شيء يختفون، أمّا من يتدخّلون في عالم الأحياء، فهم أولئك الذين وعدوا أكثر ممّا قدّموا.

- هل عليهم ديون؟

أضحك.

- إنّ الأحياء يعدّون أنفسهم دائنين. بعض الأحياء لا ينفصلون مطلقًا عن موتاهم.

تحكُّ ذقنها مفكّرةً وقد تأثّرت بهذه الملاحظة، فأختمُ قصّتي:

- في ذلك اليوم، حصلتُ على ما يُثبت أن لا أحد رأى راؤول،

إذ أنّي بحثتُ في أعين العائلة عن الدهشةِ والابتهاجِ والقلق، ولكن عبثًا! لم تتحوّل نظراتهم باتّجاهه. وحتّى لو افترضنا أنّهم فعلوا، فإنّهم لم يتوقّفوا عنده. ما يعني أنّي كنتُ الوحيد الذي رأى راؤول.

– هل أخافك هذا؟

– ماذا؟

– أن تكون الوحيد.

– لقد كنتُ معتادًا على ذلك بالفعل.

تمسكُ القاضية بواترونو ساعدي، بعفوية، متأثّرةً باعترافي لكنّها تتمالكُ نفسها على الفور وتركّزُ تعاطفها في عينيها.

– أوغسطين، أنت تمتلك موهبة.

– موهبة لا طائل من ورائها.

– من يعرف؟

– موهبة تجعلني أبدو مغفّلاً.

– لا أعتقد ذلك.

– لا، ليس أنتِ من يعتقد ذلك، فأنت أيضًا، ستُعدّين مغفّلةً.

تنتفضُ في مكانها وتتمدّدُ رقبتها مثل نعامةٍ غاضبة. فأخفضُ بصري مُغمغمًا:

– أعتذرُ منك، سيّدة بواترونو، أنا لم أقصد إهانتك.

– لقد أصبت الهدف تمامًا. فهم غالبًا ما يعدّونني حمقاء.

تضحكُ.

- حريّ بالذّكر، أنّ هذا ساعدني كثيرًا.
- حقًّا؟
- لا أحد يرتاب منّي. وطالما اعتُبرتُ بلهاء، ستتناقض أقوال المجرمين بسهولة في حضوري، وسيراكم محاموهم الهفوات، ليسقط الكلُّ في الفخّ. أمّا زملائي...
تتوقّفُ عن الحديث.
- توقّف، نحنُ لا نتحدّثُ عنّي هنا.
تحدّقُ فيّ بصرامةٍ وكأنّي مسؤولٌ عن خروجها عن الموضوع، فأستأنفُ حديثي:
- أريدُ أن أذكّرك بأنّنا لا نتحدّث عنّي أيضًا.
- صحيح. نحن نتحدّث عن موهبتك. قل لي: أولئك الذين يحتفظون بميّتٍ إلى جانبهم، هل يدركون ذلك؟
لم أفكّر قطّ في الأطياف بهذا الشّكل، أي وفق تصنيفاتٍ واضحةٍ ومحدّدةٍ. لذا أنا مضطرٌّ إلى تجميع الصّور والانطباعات والتفاصيل المتراكمة لسنواتٍ داخل جيبٍ من الصّمت.
- بعضهم يجهلُ ذلك. إنّ من يدرك الأمر هم الأحياءُ الأكثر حزنًا والأكثرُ رفضًا للحياة، الأحياءُ الأقلّ حياةً.
- وهم غير واعين بمشاكلهم.
- صحيح. هم لا يرون من ماتَ ولكنّهم يرونَ من خلاله. ولذلك يخطئون باستمرار. لقد عرفتُ مدرّسةً من هذا النوع، الآنسة بوماتان. فقدَت خطيبها في حادث درّاجة ناريّة. وكنتُ

أرى هذا الخطيب الفقيد بوضوح، إذ يظهرُ عند السبّورة أو وراء مقعدها حالما تصمت. وهو رجلٌ وسيمٌ، أشقرُ الشّعرِ، ذو عينين خضراوين. ولقد كنتُ أحبُّ النظر إليهما، فهما يشكّلانِ زوجًا رائعًا.

– أنت كنت تراه أمّا هي فلا؟

– بينما كانت تُراقبنا من مكتبها ونحن على طاولاتنا ننجز الاختبار، كان هو يحاولُ أن يتواصل معها وأن يداعبها ويغريها، ولكنّه لا يجد لذلك سبيلاً. فتظلّ مزمومة الشفتين، شاحبةً، والفم مطبقًا بإحكام. وعندما قدم أستاذُ رياضة جديد، شابٌّ وخالي القلب، ليدرّبنا، سارع الخطيبُ الأشقر نحوه وأشارَ إليه كي يوصيها به، لكنّها لم تلقِ عليه ولو نظرة. والأمر نفسه حدَث مع مورّد الوجبات الخفيفة، في فترة الظهر. كان من الواضحِ أنّ صبيّ الخبّازِ لديه مشاعر نحوها وهو ما احتفى به الخطيبُ الأشقر، رغبةً منه في تشجيع الآنسة بوماتان، ولكنّها لم توله أدنى اهتمام. وها قد عرفتُ مؤخّرًا أنّها غرقت في إدمانها على مادّة الإيثر وأنّ وزارة التربية عيّنتها في برنامج التعليم عن بعد.

– ماذا؟ هل تتعاطى الإيثر؟

– نعم، إنّه مخدّرُ الآنسات، جديرٌ بالاحترام ورخيص، ولا يحتاجُ إلى تاجر مخدّرات، إذ لا يستحقّ الأمر سوى الذهاب إلى الصيدليّة.

– ومع ذلك، رائحتهُ كريهة.

- وماذا في ذلك؟ سيعتقدُ النّاسُ أنك تعانين من مرضٍ مّا.
- كما هو الحال فعلاً...
- لم تدرك الآنسة بوماتان مطلقًا مكانة فقيدها في حياتها، وإنّي لأُرجّح عدم معرفتها به جيّدًا، ذلك أنّي، وقد درستُ خطيبها، لاحظتُ رغبته في أن تستمتعَ، وأن تبدأ حياةً جديدةً، وأن يحلّ رجلٌ آخر محلّهُ. لكنّي أؤكّدُ لك، سيّدة بواترونو، أنّ أغلب الأحياء يرون الموتى الذين يرافقونهم.
- «أنت لا تتخيّل إلى أيّ حدٍّ تُشعرني بالطمأنينة!» تردُّ بإيماءةٍ ساخرةٍ.
نضحكُ سويًّا.
- رأيتُ موتى يتحدّثونُ بإسهابٍ مع أولئك الذين يتبعونهم. خذي مثلاً، مصطفى بدوي، والد الانتحاري.
- صف لي المشهد.
- أعتقدُ أنّ حسين كان سيتراجع لو لم يضايقهُ الميّت الذي يرافقه.
- هل سمعتَ ما كان يقوله له؟
- ولا كلمة. على أيّ حال، لا بدّ أنّه كان يتكلّم العربيّة. إنّ الموتى لا يتطوّرون ولا يصبحون متعدّدي اللّغات بعد رحيلهم. لقد بدا لي أنّه يحاول إقناع ابنه بالذهاب إلى ساحة شارل الثاني، بل ويشجّعهُ على ارتكاب جريمته.
- هل للموتى سلطةٌ على الأحياء؟
- للموتى السلطة التي يتركها لهم الأحياء.

تهزُّ القاضية بواترونو رأسها وتضيّقُ عينيها. تفتحُ فمها لتطرح سؤالاً، سؤالاً يثيرُ شغفها، وبينما هي كذلك يتردّد صدى اهتزازٍ.

- «اللّعنة!» تصرخ.

تلتقطُ هاتفها، تتمعّنُ في هويّة المتّصل، تلعنُ مجدّدًا ثمّ تستديرُ نحوي.

- اعذرني، يجب أن أردّ على الهاتف.

تحمل حقيبتها وتخرجُ إلى الرّواق. أسمعها وهي تتبادلُ الحديث مع أحدهم وتبتعد. يزعجني ذهابها. ثمّة الكثير من القصص تتزاحمُ داخلي، والكثير من المشاعرِ التي ظلّت خفيّةً بدأت تتدفّق منّي أخيرًا. هل ستعودُ سريعًا قبل أن تتلاشى رغبتي في البوح؟

على الرّغم من ذلك، أنهضُ من سريري، أسرّحُ قدميّ وأشدُّ عضلاتي.

تجذبني النّافذة. إنّها تشكّلُ إطلالتي الوحيدة على العالم طالما أنّ جهاز التلفزيون لا يعمل وأنّي لا أستطيع مغادرة الطابق.

على البلّور، تنسابُ قطرات من النّدى. ومن خلال هذا السّيلانِ، أرى اللّيل السّميك ملبّدًا بهالةٍ برتقاليّةٍ، إنّه النورُ المتّسخُ المنبعث من مصابيح الشارع الممتدّة على طول الطرقات.

المدينةُ تنامُ. ما من سيّارة أو شاحنة في الشّارع، ليس هناك سوى درّاجة ناريّة صغيرة صاخبة، تعبرُ هذا الحلم وتمزّقهُ بُرهةً ثمّ تتركهُ على حاله، ولكن أكثر فراغًا وجودًا.

- أوه، أوه، يا لها من مؤخّرة!

يتعالى صوتٌ جافٌّ وساخرٌ يجعلني أنتفضُ. وإذ أستديرُ أكتشفُ أنّ بيغارد يقفُ على عتبة الباب ويسخرُ من قميصي، فأنا لم أعاود ارتداء ثوب الحمّامِ بل احتفظت برداء المستشفى الكاشف لظهري ومؤخّرتي. إنّه مشهدٌ بائسٌ دون شكّ.

على الفورِ، أتراجعُ إلى سريري، ووجهي قبالة بيغارد، وأستلقي بحذر.

- مساء الخير، سيّد بيغارد.

- هل فاجأتك، هه؟ عليك أن تتساءل عن السّماح بالزيارات في منتصف الليل.

- وهل يسمحُ بها؟

- صحيفة «الغد» الشهيرة تفتحُ الأبواب يا عزيزي. لقد وعدتُ الحارس الليليّ والممرّضة المناوبة في الطابق الأرضيّ باشتراكٍ مجّاني. إنّ الخبر يمرُّ قبل أيّ شيءٍ آخر. حسنًا، يا صغيري أوغسطين، ما هي الأخبار الجديدة التي سترويها لي؟

- لا شيء. ما الذي تتوقّع أن يحدث معي في غرفة مستشفى، باستثناء التعافي أو الموت؟

- هل اخترت خيار التعافي؟

- أجل.

- جيّد.

يخرجُ سيجارًا ويتلمّسهُ.

- هل أسرّ لك المرضى الآخرون بشيء؟

- لا أحد يتحدّث في هذا الطّابق. إنّ المرضى لا يكفّون عن اِلْتهام الأخبار التي يسمّننا بها التلفزيون، كما لو أنّنا دجاجُ مسالخ.

- ألم تتذكّر تفصيلاً مّا نسيت أن تخبرني به؟

أودُّ أن أعلمه بأنّي بالفعل أتذكّر، أتذكّر عدم تلقّيَّ أجرًا على فترة تدرّبي في صحيفة «الغد»، هذه الصحيفة التي رفّعتُ من معدّل سحبها بإفادتي.

- لكنّ هذا الرّجل موهوبٌ في قمعي.

أبتلعُ إجابتي وأسأل بصوتٍ ضعيفٍ:

- هل كانت مبيعاتُ طبعةِ أمس جيّدة؟

- امم... كالمعتاد.

- ألم يرتفع معدّل السّحب؟

- على حدّ علمي لا.

- وعدد الزيارات في الموقع؟

- لا.

- غريب. ومع ذلك، دائمًا ما يُقال: عند حدوث واقعةٍ مهمّةٍ، تحظى الصّحافة باهتمام متزايد...

- ليس نحن!

يسدّد لي الكلمتين في ما يُشبه لكمةً خطافيّة. إنّه يعربُ عن سخطه من إلحاحي وقد احمّر وجهه، وتورّمت عروق جبهته. لكنّي أعرفُ أنّه يكذب. إنّ سلطتهُ المطلقة تسعى وراء هدفٍ واحدٍ: أن يتركني أبكمَ، عاجزًا، وأن يمنعني من إثباتِ أنّي جلبتُ المال للصحيفة ومن ثمّة

يحول دون مطالبتي به. أحلّلُ الرّوحَ الجشعة لهذا الوحش بيدَ أنّ عنفهُ وغروره يقمعانني.

- «هل تحسّنت حالتك؟»، يسألني متلطّفًا، وكأنّه يلمّحُ إليّ بأنّ متاعب الصحيفة الماليّة لا تؤثّر في إنسانيّته.

- سأعرفُ ذلك غدًا.

يهرشُ رأسه.

- هل أنت راضٍ عن خدمات الرعاية الصحيّة التي تلقّيتها؟ هل تعتقدُ أنّ استجابة عمليّات الإغاثة كانت سريعةً؟ هل تعتقد أنّ بلجيكا جاهزة لاستيعاب مثل هذه الهزّة الصحيّة؟ هل شككتَ في كفاءة المسعفين والممرّضين والأطبّاء؟

أستنتجُ على الفورِ ما يرمي إليه. إنّه يجهّزُ عناوين مثيرة: «المستشفيات تجاوزتها الأحداث»، «فوضى في مراكز الطوارئ»، «الجحيم الطبيّ»، «متى ترصدُ الحكومة المخصّصات الماليّة اللازمة لرعاية المواطنين؟». يرتعشُ منخراه وهو يفكّر في حجم السّخط والخوف اللّذين قد يثيرهما. إنّ هذا الرّجل أشبه بالشيطان.

وها إنيّ أجدُ نفسي أغرقُ في قصّة ملحميّةٍ. أحدّثه عن كلّ شيء: عن المسعفين المذعورين ومراكز الطوارئ المزدحمة، عن القلق، وعن الذعر، وعن النقص في غرف العمليّات، وفي الأدوية، وفي الطاقم.

تلتمعُ عيناه. يدوّنُ. يخطُّ. ويرسمُ دوائر. إنّه يستمتع.

أمّا أنا فأنتقي وأضخّم: لم أخبره سوى بالعناصرِ السلبيّة مبالغًا في انتقادي باستمرار. وإنّي لأتميّزُ غيظًا.

ما الذي يحدثُ لي؟ لماذا أواري الحقيقة؟ لكي أنال إعجابه. لكي أُرضيه. لكي أجعله محتاجًا إليّ. لكي يثق فيّ. لكي أُثبت له أنّني أنتمي إلى سلالته نفسها، صحافيّ! لقد حقّقتُ مع بيغارد ما فشلتُ فيه مع المفتّش تيرليتي. في قرارة نفسي، أقدّرُ كم يبدو سلوكي بائسًا، مثيرًا للشفقة، ودنيئًا ولكنّني أندفعُ إلى هذه البِركة وأتمرّغُ فيها كلّما تزايد إحساسي بالخجل.

إنّه يبتهج. يتخيّلُ العناوين المُثيرة والحواشي الصّادمة والتعليقات القاسية التي سيطبعها قريبًا. سيضيفُ فضيحةً إلى العمليّة الإرهابية، وخوفًا إلى الرّعب، وشُرورًا جديدة إلى الشرّ. أنهي روايتي متطرّقًا إلى غرفة المستشفى التي أُحرمُ فيها من جهاز التلفزيون، ويسلبني فيها لباسٌ غير لائقٍ حريّتي أكثر ممّا تفعله الأصفاد، وتزعجني فيها الشرطة الفظّة باستمرار لأجل التحقيقِ دونما اهتمامٍ بصحّتي أو صدمتي النفسيّة، وأتحمّلُ فيها احتجازًا لا ينتهي عِوضَ أن أباشر فترة نقاهتي.

أحتقرُ نفسي لكنّ الاحتقارَ يولّدُ طاقة.

أنتهي ببراعةٍ من رسم لوحتي عن نهاية العالم.

- «عظيم!» يقول بيغارد مُلخِّصًا.

لبرهة، يصفّقُ بلا تعاطفٍ. هل يشكُّ في أنيّ ألوي عنق الحقيقة؟

تنقرُ أصابعه على غلاف دفتره.

- سيكونُ مقالاً رائعًا.

وما إن يتفطّن إلى أنّي أراقبه حتّى يُظهر الصّرامة:

- تظلُّ المادّة مُوجَزَةً ولكنّي سأحاولُ أن أستخرج منها شيئًا مّا.

ينهضُ.

- شكرًا يا أوغسطين على إفادتك.

- آملُ أنّك ستقارنها بإفادات أخرى.

- حسنًا! أنا صحافيّ ولستُ محرّرًا.

أعرفُ تحديدًا أنّه سيمتنعُ عن ذلك، وأنّه سيهرعُ إلى الصحيفة ويعذّبُ أحد المحرّرين كي ينهي مقالاً يضعُ هو إمضاءه عليه.

ينظر إلى ساعته.

- أوه، لا وقتَ لديّ كي أضيّعه! إلى الغد يا صغيري أوغسطين.

أبتسمُ، فالآن وهو يمتلكُ ما يملأ به صحيفته لم أعد أمثّل لهُ سوى وقتٍ ضائع. يعبرُ البابَ بحيويّةٍ وتشنّجٍ حتّى إنّ مصراعيه، تحت قوّة الدّفع، استغرقا عدّة ثوان قبل أن يستقرًّا.

ها أنا وحدي مجدّدًا.

أرتدي ثوب النوم وأتوجّه نحو غرفة الاستحمام.

تجلسُ الطفلة الصغيرة، ذات الضفائر، على المرحاضِ، واضعةً مرفقيها على ركبتيها.

- ماذا تفعلين عندك؟

- كنتُ أريد أن أتبوّل.

يحمّرُ وجهها ونظراتها تتفاداني.

أقتربُ منها بلطفٍ.

- أنت تختبئين...

- هو يقولُ دائمًا إنّه يتعيّنُ علينا أن نستترَ عندما نقوم بأشياء كهذه.

- من؟

تهزُّ كتفيها إذ أنّ الأمر يبدو لها بديهيًّا، فأخاطرُ بالقول:

- السيّد بيغارد؟

تومئ إيجابًا مُستغربةً من جهلي.

- لماذا تلاحقين السيّد بيغارد؟

- هذا عاديّ. إنّه أبي.

- حسنًا، أسرعي، لقد غادر للتوّ.

تفتحُ عينين واسعتين.

- لقد تركك للتوّ كي يذهب إلى الصّحيفة.

أستديرُ رُبعَ ثانية إلى غرفتي وأنا أنطق الجملة الأخيرة، وإذ أعود إلى الطفلة، أجدها قد اختفت.

أهرعُ إلى خارج غرفة الاستحمام، أعبرُ الغرفة وأطلّ برأسي في الرّواق.

على بعد خمسين مترًا، تتبعُ الطفلةُ الصغيرةُ بيغارد وهي تدندنُ وتقفزُ على قدم ثمّ على أخرى، وكأنّ أحدهم رسم مربّعات لعبة الحجلة فوق الأرضيّة المشمّعة التي تؤدّي إلى المخرج. ثمّ يعبران سويًّا الباب الدوّار.

وبينما أنا أقفُ متأمّلاً تربّتُ يدٌ على كتفي، إنّها القاضية بواترونو. وحالما تعيد الهاتف إلى حقيبتها تعبسُ.

- هل أحلم أم ماذا؟ لقد بدا لي أنّي لمحت النّذل بيغارد.

- نعم، لقد قدِم مع ابنته.

- ابنتهُ؟ هل تمزح؟

- لا على الإطلاق.

- لقد ماتت ابنته قبل ثلاثين عامًا.

- إنّني أتحدّثُ عنها تحديدًا.

تفركُ القاضية بواترونو أذنها. من المؤكّد أنّ الاتّصال الهاتفي طوّح بأفكارها بعيدًا عن محادثتنا، إذ استغرق منها الأمر دقيقةً كي تجد الخيط الرابط.

- لندخل إلى غرفتك يا أوغسطين. لا أريد أن يراني أحد معك وأُتّهم بمضايقتك.

نأخذ أماكننا، هي على الكرسيّ وأنا على السرير. لبضع ثوانٍ، نسمعُ خطى ممرّضة تتحرّك في الرّواق، تصلنا همسات مذعورة، ثمّ يخيّم الصمت.

- إنّه لمن الغريب أن ترافقهُ طفلةٌ ميّتةٌ، تقولُ مقطبّةً. هذا يدلُّ على أنّ الخسيس بيغارد لديه حياة سابقة، بعض من العمق، وأنّه مسكون بمشاعر ألمٍ، أو حنين، أو...

- حبّ؟

- أوغسطين، لا تترك الخيال يجمح بك بعيدًا!

- ربّما أصبح هكذا بعد مصابه؟ ما سبب موتها؟

- حادثٌ منزليّ، لم أعد أتذكّر... بيد أنّي أؤكّدُ لك أنّه لطالما كان يتصرّفُ هكذا. إنّه حثالة... لا يوجد بيغارد ما قبل وفاة ابنته

وبيغارد ما بعدها، لم يوجد قطّ غير النّذل بيغارد.

- هذا عجيب.

نشرعُ في التخمين، كلٌّ منّا على حِدة.

هل يعاني بيغارد من الصّدمة؟ ليس ثمّة مظاهر لنَدمٍ أو أسف يُهيمنان عليه. يبدو أنّ المال هو وقوده الوحيد. أقسمُ على أنّه قد يسحق أباه وأمّه وأطفاله من أجل عشرة أوروات.

وأظنّ أن القاضية بواترونو توصّلت إلى الاستنتاجِ نفسه إذ أنّها انتقلت إلى موضوعٍ آخر:

- هل ترى شخصًا ميّتًا ورائي؟

مع أنّها تسيطرُ على عواطفها ثمّة تفاصيل دقيقة -كارتعاش ذقنها واهتزاز رموشها- تُظهرُ قلقها. إنّها ترتجفُ. قفاها المنقبض يعيقُ رقَبتها. ولأنّها تخشى أن تكون محاطةً بالأشباحِ، لا تتحرّك.

أستغرق وقتًا قبل أن أردّ:

- لا.

تشعر بالارتياح، فتغوصُ في الكرسيّ:

- «وهذا ما يساعدُ على تصديقي لك.» تضيفُ القاضية بواترونو وهي تعبُّ نفسًا من الهواء.

أنتهزُ هذه الهدنة كي أوضّح لها ما يعذّبني طوال الوقت:

- سيّدتي، ثمّة شيء لم أخبرك به: أنا أجلبُ النّحس.

- أرجو المعذرة؟

- أنا أجلبُ النّحس إلى كلّ من يستمعُ إليّ. كارين، الأخصائيّة

النفسيّة، التي بحثُ لها بسرّي... حسنًا...

- حسنًا؟

- لقد دُهست كارين. كان حادثًا على ما يبدو، وقد وقع مباشرةً بعد مقابلاتنا.

تتجمّدُ في مكانها.

- إنّ ما تقوله يثيرُ الرّعب.

- أتّفق معكِ تمامًا.

تقفُ، تذرع الغرفة، تقومُ بلفّاتٍ حول السّرير ثمّ تضربُ عارضته المعدنيّة.

- أيّها الصبيّ القذر! أنا أكرهك... عندما أفكّرُ في أنّي أتجرّع هراءك! حكايةٌ تطاردُ خرافة. أنت تهذي، تختلق، وتثرثرُ دون توقّف، وأنا أستمعُ إليك. آه، إنّ زملائي لم يُخطئوا لمّا أطلقوا عليّ اسم الخرقاء!

ومع أنّها تهرّج أستشعرُ قلقها. وأستنتجُ، سعيدًا، أنّها صدّقتني.

تُظهرُ النافذةُ خلفها سماءً ما تزالُ ملطّخةً باللّيل. تقتربُ القاضية بواترونو من البلّورِ وترسم فوقه بأصبعها.

- كيف تفسّر رؤيتك الموتى؟

- كيف تفسّرينَ أنّك حيّة؟

- أنت تجيبُ عن سؤالي بسؤالٍ آخر.

- أحيانًا، لا أجدُ من حلٍّ لأحد الأسئلة سوى طرح سؤال آخر. نحنُ نتحرّكُ داخل أحجياتٍ.

-صحيح! الحمقى وحدهم من لا يستغربون شيئًا.

- أوه، ثمّة حمقى أيضًا يستغربون كلّ شيء.

تبتسمُ لي.

- إني أستمتعُ برفقتك يا أوغسطين.

تعودُ ناحية السّرير وتتأمّلني. اهتمامها يغمرني بالدفء. أشعرُ بأنّني أفضلُ حالاً.

- تصبح على خير أوغسطين.

كيف خمّنَتْ، على وجه الدقّة، أنّ النّعاسَ يغالبني في تلك اللحظة؟ أطرفُ بجفنيّ.

- تصبحين على خير، سيّدتي.

أغمضُ عينيّ، وتختفي القاضية دون أن تُحدِث صوتًا.

-6-

تقرعُ أجراسُ برج الكنيسة معلنةً السّاعة الخامسة صباحًا. لماذا
امي بذلك؟ اعتقدتُ أنّي نائم.

كم أكره هذه السّاعة! إنّها ساعةُ أَرَقي، ساعة المشاحنات بين رفاق
السّكن والطعنِ بالسّكاكينِ لتصفية الحسابات بعد ليلةٍ خمريّة.

وأنا متقوقعٌ على نفسي أتركُ عينيّ مغمضتيْن، وأحاولُ أن أتحكّم
ل تنفّسي. أبحث عن أشلاء أحلامٍ أتشبّثُ بها. المهمّ ألاّ أستيقظ وأن
ألزم نفسي بالرّاحة.

أشعرُ بزفيرٍ بشريّ... هل هذا ممكن؟

أوغسطين، اهدأ! أنت تسمعُ أصواتَ شهيقكَ وزفيركَ وقد
حوّلها الصّمتُ المحيط بك إلى أصواتٍ هائلة من فرط التضادّ. لا يوجد
احدٌ معك في السّرير أو في الغرفة. لا! إنّ هذا الصّفيرَ لا يتطابقُ مع
إيقاعي...

تجتاحُ جسدي قشعريرة. أفزعُ. أوغسطين، إنّ خوفك يقتاتُ من
المجهول. أنت تفترضُ أنّك رصدتَ شخصًا مّا. تثبّتْ أوّلاً. لا تفزعْ.

أمنع الهواء من الخروج من رئتيّ. ثانية، اثنتان، ثلاث، أربع،
خمس...

بالقرب منّي، يستمرُّ صوت التنفّس المجهول.

فجأةً، أنتصبُ وأفتحُ عينيّ، وإذا بالرّجل العجوز يقفُ في مواجهتي. أصرخُ.

ولكنّه لا يتراجع. وجهه الفضوليّ والبارد في آن، ماثلٌ في اتّجاهي ومسكونٌ بالسّؤال الهائل الذي يطرحه عليّ، سؤال يلتهم ملامحه، ويحفر في الظلمة... ومع ذلك يظلّ معتمًا.

لقد فهمت! هذا الظهور المتكرّر... وهذا الوجه المعبّر الذي يبثّ إحساسًا وحيدًا... إنّه شبح. هو ذا الميّتُ الذي يرافقني. إنّه ميتي أخيرًا أراه. فبالنظر إلى مجريات الأمور، لِمَ سأفلتُ من ذلك؟

إذ يتراجع جزعي أقومُ بدراسةِ وجهه المنحوت بأشعّة القمر أكثر ممّا هو مُنارٌ بها، هذا الوجه الذي لا يذكّرني بأيّ شيءٍ مألوفٍ. هل هو أبي؟ جدّي؟ مِنَ المستحيلِ أن أتعرّف إلى هويّته، إذ لا أحد حدّثني عن عائلتي البتّة. هل هو طبيب؟ قسّ؟

- من أنت؟

لم يرتجف صوتي كثيرًا مثلما كنتُ أخشى، ولم أتردّد في رفع الكُلفة بيننا. يجبُ ألاّ أخافَ من ميّتي.

يتأمّلني العجوزُ بهيئةٍ مذعورة.

أعيدُ طرح السّؤال مستخدمًا الإيماءات للتأكيد:

- من تكون بالنّسبة إليّ؟

يطرُفُ جفناه البنفسجيّان المنكمشان. لقد لاحظ إيماءاتي. هل تُراه يعاني من الصّمم؟ هل يتكلّمُ لغةً أخرى؟

أعيدُ الكرّة، أكثر من مرّة، ولكن عبثًا.

لقد أدرك أنّي أطلبُ منه شيئًا، لكنّه يستمرُّ في مساءلتي. لا شكّ في أنّه يعتبر سؤاله أكثر أهميّة من سؤالي. أضع حدًّا لهذه المبارزة وأحدّقُ فيه. ها هي حالة لم تعترضني مطلقًا: الميّتُ المجهول. من خلال تجاربي كل الموتى الذين يطاردون البشر لديهم هويّة، أب، أمّ، طفل، خطيب، زوج، صديق. لم ألتقِ مطلقًا أحدَ الأحياء مرفوقًا بمجهول. يا إلهي، يبدو أنّه من المُحتّم أن يحدث هذا معي...

أتفحّصهُ. طولهُ لا يتجاوزُ مترًا وثلاثين سنتيمترًا على أقصى حدّ. هل هذا الحجمُ المصغّرُ هو حجمه في كلّ الأحوال أم هو كذلك جرّاء الموت؟ هل تقلّص؟ فحسب هذه الملامح من المرجّحِ أنّه إبّان حياته كان بطول مترٍ وتسعين سنتمترًا.

هذه الفكرة لا تُفضي بي إلى أيّ تقدّمٍ. إنّه أمرٌ محبطٌ. من يكون؟ أحاولُ تحديد مهنته: خيّاط؟ موظّف؟ كاتب عدلٍ؟ بتكبيره في مُخيّلتي، أجازف بإضافة المصرفيّ، والأستاذ الجامعيّ أو حتّى المحامي. للأسفِ يظلّ غامضًا بوجهه المحفورِ بالتّجاعيد ورقَبته النّحيفة وكتفيه المتهدّلين وجذعه الكسيح. ما جعل هويّة الشيخِ تفلتُ منّي هو السّنوات التي شوّشت ملامحه وهي تدفع به نحو التحنّط. إنّ السنَّ يكشف عن نفسه كروائيٍّ بائسٍ، فالقصص التي يكتبها على الأجسادِ ينتهي بها الحالُ إلى التّداخل، وشخصيّاتهُ لا يبدو عليها ما هي بصدد فعله، إذ أنّها تبدو مسنّةً فقط. هم ليسوا رياضيّين مسنّين أو وسيمين مسنّين أو خونة مسنّين أو نوّابًا مسنّين، هم مسنّون فقط. إنّ السنّ يؤلّف روايات بشعة لأنّه لا يحبُّ سوى نفسه. بل إنّه يفسدُ الوجوه كي يجد نفسهُ. وفي الصّور الفوتوغرافيّة هو يأخذُ مكان المرآة.

يطلقُ العجوزُ أنينًا. يسأل، ويلحّ.

ما الذي يلتمّسهُ عندي؟

ثمّة فكرة تسيطر على عقلي: هل يجهل من أكون؟ هكذا، ستنحرف هذه الوضعيّةُ نحو الابتذال. لم أرَ مطلقًا أمرًا كهذا: رجل حيّ يسأل ميّته من يكون بينما الميّتُ يوجّه إليه السّؤال نفسه. كنتُ سأضحك لولا أنّ الموقف يستدعي البكاء.

يفتحُ الشيخ شفتيه الزرقاوين، فألمح لسانه المائل إلى البياض وراء أسنانه القصيرة. يبتلعُ ريقه. يبدو أنه سيتكلّم.

- سيّد فرسيني، ماذا تفعلُ هنا؟

تبرزُ ممرّضةٌ فجأةً وراء ظهره.

- ليس لديك الحق في مغادرة غرفتك، سبق وأخبرتك بهذا! لقد جريتُ بما فيه الكفاية في أرجاء الطابق كي ألحق بك.

تضعُ الممرّضةُ -وهي امرأة مثيرةٌ- يدها على كتف الشيخ.

- هيّا، إلى غرفتك.

مع تلك اللّمسة، يدركُ الشيخ أنّ الممرّضة توبّخه. يحدّقُ فيها، ويتجهّم.

- اعذرهُ أيّها الشّاب.

تتكلّم بتلك اللّهجة التي يستخدمها سيّدٌ نبيلٌ ليعتذر من جاره عن تسلّل كلبه إلى بيته، وتضيف:

- هو الآن دون سماعة.

تتوجّهُ إليه صارخةً:

- سنعودُ إلى غرفتك، سيّد فرسيني.

ثمّ تدفعه نحو الباب وهي تربّتُ عليه كما لو أنّه بهيمة.

ما إن يتقدّم في الرّواق حتّى تعود إليّ وتقول لي بصوتٍ خفيضٍ:

- لا تغضب من هذا المسكين... إنّه زوج السيّدة التي كانت ستدفن يوم الهجوم الإرهابيّ. جسديًّا، هو على ما يرام، ولكنّه واقعٌ تحت تأثير الصّدمة. لم يفهم ما حدث أمام الكنيسة، ويسألُ في كلّ مكان عن نعشِ زوجته.

وبحركةٍ عفويّةٍ، ترفعُ ملاءتي، تبتسمُ وتخرج.

أعود إلى الاضطجاع. لقد افترضتُ لبضع دقائق، أنّ لديّ ميّتًا وحكايةً وجذورًا. لقد تلاشى الوهمُ. ولا أعرفُ هل أشعر بالحزن أم بالارتياح: لا أحد أهتمُّ به ولا أحد يهتمُّ بي.

لحسن الحظّ، ينقذني النّوم...

يحيطُ بي ثلّة من الأطبّاء. يعلنُ البروفيسور بوغني، وهو برفقة ثلاثة أطباء متدرّبين، بلهجةٍ وَدُودٍ وحاسمة:

- إنّ نتائج فحوصاتك مُطَمْئِنَة، سيّد تروليه. ليس بك أيّ أضرارٍ لا من الانفجار ولا من حادثة سقوطك. ستكونُ قادرًا على مغادرة المستشفى. أليس هذا خبرًا سارًّا؟

ترتسمُ أمارات الرّضا على وجوه الأطبّاء وكأنّهم أصحاب فضلٍ في شفائي... لكنّي لم أفرح للخبر لإدراكي أنّي سأُحرم من غرفتي ودفئها ومن وجبَاتي.

يلاحظُ البروفيسور بوغني عدَم تحمّسي.

- نحنُ نهتمّ بأعضائك فحسب، أوغسطين تروليبه. في المقابل، سيعتني زملائي بحالتك النفسيّة. خليّةُ العلاج النفسي تعملُ في الطابق الأوّل. اذهب إلى هنالك. لديك الحقّ في معالجة آثار ما بعد الصّدمة. لن نتركك في الطبيعة بعد كلّ ما عانيته.

على الفور، يتبنّى الأطبّاء المتدرّبون سحنةَ البروفيسور الرّصينة نفسها وهم يُعربون عن آرائهم بشكلٍ جماعيٍّ مثل راقصين يؤدّون رقصةَ كوريغرافيا[1].

- هل تريدُ إجازة بداعي المرض؟

مع أنّني أحتاجُ بالأحرى إلى وظيفة، ألفي نفسي أقولُ:

- نعم، لو سمحت.

- سأمنحك إجازةً لشهر. ولكنّ الطبيب النفسيّ سيمدّدها لك إذا لزم الأمر.

يخربشُ شهادةً طبيّةً من شأنها أن تمثّل، دون شكٍّ، صيدًا ثمينًا بالنّسبة إلى الكثيرين.

- حسنًا! يمكنك أن تعود إلى منزلك.

إلى منزلي... أردّ بصوتٍ ممتقعٍ:

- في أيّ يومٍ نحن الآن؟

- الأحد.

الأحد... إنّ أسوأ أيّامي هو يوم الأحد. أنكفئ على نفسي فيجلسُ

(1) كوريغرافيا: مُصطلَح يعني اليوم فنّ تصميم الرَّقصات. وتُطلق تسمية كوريغراف Chorégraphe على مُصمِّم الرَّقصات والمسؤول عن التنظيم العامّ للحركة في العَرْض.

البروفيسور بوغني على حافّة السّرير ويمسكُ يدي.

- أوغسطين، أنت شابٌّ والحياة أمامك، لذا يتعيّنُ عليك أن تسترجع نشاطَك ومرَحك وسعَادتك رغم كلّ الرّعب الذي عاينْته. لن تترك الإرهابيين ينتصرون، أليس كذلك؟

إذا لم أذعن الآن، فسيواصلُ خُطبته.

- نعم دكتور، أوافقك.

- أوغسطين، عليك أن تقاومَ.

- من؟

- نفسَك.

توافقه فرقة الأطباء المتدرّبين بتزامنٍ مثاليٍّ. من تعابير وجوههم، أخمنُ أنّي سأكونُ ناكرًا للجميل إن تَعَنَّتُّ أكثر، كيف لا والبروفيسور بوغني قد منحني لتوّه دقيقتين من وقته.

أوافقُ مبتسمًا. يذهبون شاعرين بالرّضا ومقتنعين بنجاحهم. أحسد هؤلاء النّاس الذي يحلّون المشاكل الواحدة تلو الأخرى، أو هذا ما يعتقدونه. أمّا أنا، فمشكلتي حياتي، وَلن أقدر على حلّها مطلقًا.

تجلبُ لي ممرّضةٌ وثائقَ إداريّة أقومُ بتعميرها على طريقتي محاولاً ألاّ أكذب قدر المستطاع. وتضعُ ممرّضةٌ مساعدة أمامي كيسًا من البلاستيك الشفّاف يحوي ملابسي مغسولة ومكويّة ومطويّة وجافّة وصلبة.

نادرًا ما رأيتُ هذا التنظيف المعقّم حتّى إنّي أشكّ في ملكيّتي لها. فأنا لا أجد فيها رائحتي بل رائحة مسحوق تنظيفِ الأحواضِ. وما إن ارتديها، حتّى أشعر أنّني غريبٌ عنّي.

ولئن كان الطاقم الطبيّ لطيفًا، فإنّه لا مجال للتفاوضِ من أجل وجبة غداء. يبدو الجميع سعيدين لمغادرتي، لا سيّما مريم، الممرّضة التي قادتني من غرفة الطوارئ إلى هنا قبل يومين.

ترافقني، بإشفاقٍ، إلى باب الخروج.

- أوغسطين، اعتنِ بنفسك.

أودُّ ألاّ أتركها، أن أشكو إليها فقري وأعترف بالجانب الوضيع لِ حياتي، لكنّي أكتفي بـ «شكرًا مريم».

- إلى اللّقاء؟

- إلى اللقاء.

هل أنا معتدٌّ بنفسي أم أحمق؟ لماذا لم أعترف بأنّي لا أدري إلى أين سأذهب، وبأنّي لا أملكُ مسكنًا وبأن لا أحدَ ينتظرني في أيّ مكان؟

إنّ قول هذا يعني الاعتراف به. بل أسوأ، إنّه يعني نعتَ نفسي، بالمتشرّد، الفاقد لمأوى ثابت، أو بعبارة أخرى نعتي بأنّي متسكّعٌ وفاشلٌ ومنبوذٌ ووحيدٌ وصعلوكٌ وحطامُ رجُل. لكنّي لستُ حطامًا إلى الأبد، لذا أصرُّ على التفكير في بؤسي المؤقّت. صحيحٌ أنّ حظّي سيّئ ولكنّ عجلة الحظّ ستدور.

للأسفِ، لم أكَدْ أُطمئن نفسي، حتّى شرَع جزءٌ منّي في الاستهزاء، هو ذلك الجزء قليل الغفلة. «الحظّ؟ إنّك تقيمُ علاقةً ثابتةً على نحو ملحوظٍ مع الحظّ: أنت لم تحظَ به مطلقًا! لا أحَد رغب فيك ولا أحَد احتفى بولادتك، ماتَ أبواك ولم تعرفهما، حُملت من الميتم إلى الأسَر الحاضنة، نلتَ قسطًا من الدراسة المتعثّرة، لا أصدقاء لديك ولا

عطيبة، واليوم، ها أنت تكابر مُعرّفًا نفسك كمتدرّبٍ في صحيفة يومية عديمة القيمة، لا تعطيك أجرًا، وتستغلّك، ولن توظفك أبدًا».
أمارِسُ. لو كان سوءُ الحظّ يلاحقني، لكنتُ انفجرتُ في الهجوم الذي حصل، أو لكانوا قطعوا لي ذراعًا أو ساقًا. «سترى -يواصلُ الصّوت الشائمُ- ستندم على أنّك لم تتعرّض للأذى، بل بإمكانك من الآن أن تعض على أصابعك، فَلَوْ وقع اعتبارك ضحيّة حقيقيّة، لكنتَ حصلت على تعويضٍ أو حتّى على معاشٍ».

في الخارجِ، أتقدّمُ على امتداد الميدانِ المزدحم، والطرقات من حولي تهتزُّ. وبعد أن راقبت ليومين هذه الغابة الحضريّة من وراء البلّور المزدوج، أصعقُ من شدّة ضوضائها، فبين عرائشِ محوّل الطريق، ثمّة دراجات تنعق، ودرّاجات نارية صغيرة تنبح، وأخرى ضخمة تنزب، وسيّارات تهدر وشاحنات تزأر.

أكثر من مرّة، أتراجعُ نحو الواجهات عندما يهدّدُ، صوتٌ متضخّمٌ في اطّرادٍ، بدهسي.

أتسكّع لأكثر من ساعة.

أغادرُ المدينة، مركزها أوّلاً ثمّ ضواحيها. وبينما تخفّ الضوضاء البشريّة، تزداد الريحُ قوّة. أنزلُ في اتّجاه نهر السامبر، يبدو هادئًا، شبه هامد، ولامباليًا. وكأنّما بفعل العدوى تبدو السّماء هي أيضًا مائيّةً بغيومها البيضاء والرماديّة المتداخلة فيما بينها. حذوَ النّهر ثمّة طريقٌ كانت في السّابق مهيّأةً لتؤدّي إلى المصانعِ. ومصانع الطوبِ هذه التي أصبحت اليوم خضراء ومدخّنة جرّاء العفونة والتلوّث، لها هشاشة المباني العديمة الصّلوحيّة: الأسقف فوق النوافذِ المكسورة قد تعرّت

من قرميدها، والدعاماتُ متهاويةٌ والمزاريبُ تتدلّى على طول الجدران المتداعية. ولئن وقع وضع ألواح خشبيّة على المخارجِ وتسميرها منعًا للدّخول إليها، فإنّ ذلك لم يمنع الجرذان من التّكاثرِ ولا الطيور من وضع أعشاشها ولا أنا من اتّخاذِ مسكنٍ لي هناك.

أدور حول المبنى الرئيسيّ، أتجاوزُ مستودعين قديمين وأصلُ إلى منزل الحارسِ القديم. تنعقُ غربانٌ مذعورة من اقتحامي. أتسلّلُ حاجزًا، أصعدُ إلى شرفة الطابق الأوّل وأُميلُ لوحًا خشبيًّا يحجبُ النافذة. وبقفزة واحدة، أهبطُ في غرفة الجلوس القديمة. وإذا بي أمام عائلة تجلسُ على الأرضيّة وتنظرُ إليّ بذهول. لم يكن الأب والأم وأبناؤهما الأربعة قد تفطّنوا إلى قدومي، ما جعل الأمّ تشهق.

أشعرُ بغضبٍ شديد. ثمّة مشرّدون استباحوا مأواي! يومان من الغياب كانا كافيَيْن. على الفور، ينهضُ الأبُ متخّذًا وضعيّة مهدّدة.

- من أنت؟

أرصدُ لكنةً رومانيّةً في سؤاله فأجيبُ بلهجةٍ قويّةٍ:

- أنا من يقطنُ هنا.

مع الجملة الأخيرة، أدركُ أنّ ولديهِ الأكبر سنًّا يرتديانِ كنزتيّ، كنزتيّ الوحيدتين.

يجتاحني الغضب.

- هذا بيتي. ليس لكم الحقّ في الاستيلاء على متعلّقاتي.

وحتّى يفهم ما أقولُ، أقتربُ من الأطفال كي أستردّ ملابسي، فيقفزُ الصبيّانِ على أقدامهما، وقد تخيّلا أنّي سأضربهما، أحدهما يصرخُ والثاني

يطلق يدي. وبينما أكافحُ بينهما يسرعُ الأبُ ناحيتي ويسدّدُ إليّ لكمةً عنيفةً ترسلني متدحرجًا على الأرضِ بين الصّناديق والمخلّفات.

- هنا أنا! هنا أنا![1]

يكرّر على مسامعي هذه الجملة عشر مرّات وهو يتقدّم ثمّ يفردُ ذراعيه ويضربُ على صدره مثل السّعلاة.

لا فائدة من القتال. فَلَيَاقتي لا تساوي شيئًا أمام ذَكَرٍ مهيمنٍ وخائف يدافعُ عن عائلته.

- حسنًا!

أبلغهُ أنّي أستسلم.

وعلى الرّغمِ من أنّه فهمني، يواصل إصراره كي يظهر لعائلته كم هو رهيب:

- هنا أنا!

- حسنًا! سأغادر.

أمضي ببطءٍ على أطرافي الأربعة، بل زاحفًا تقريبًا، حتّى أصل إلى النافذة. يتبعني بنظراته الحاقدة مستعدًّا للضرب فأخطو فوق الحاجزِ واختفي.

ما إن أسقط على الأرض حتّى أسارع إلى تدليك كتفي التي ضربها. بما إنّي فقدتُ بيْتي وملابسي. لقد اقتنعت عائلة المتوحشين بهذا، أمّا أنا فلا. لقد جهّزتُ نفسي لمثل هذا النوع من الحوادث. في العادة... إذا لم يسعنا استخدام القوّة، فإنّه يتعيّنُ علينا استعمالُ الحيلة.

---

(1) يحاكي الكاتبُ هنا النطق المتعسّر للغة الفرنسية من طرف المهاجر الروماني.

أمشي بصمتٍ عشرة أمتار حريصًا على عدم دوسِ الحصى كي لا يصدر صوتًا. هنالك، أختفي بين الأحراش وأفتّشُ خفيةً عمّا كنتُ قد دفنتهُ. وراء قماشةٍ ملطّخة بالطين، أستخرجُ من الأرضِ صافرة إنذار تستخدمها سيّارات الشرطة، هي عبارة عن لعبة أطفالٍ التقطتها من مخبإٍ سابقٍ، آملاً ألاّ تكون بطّاريتها قد نفَدت...

أنتظرُ عشرين دقيقة. يجب ألاّ يربط الرومانيون بيني وبين ما سيحدث.

أضغطُ على الزرّ فيصدرُ جهاز الإنذار صيحةً قويّة. وفي الحال تنبعث من داخل البيت، ضوضاء وحركات ووشوشات، ثمّ يدور اللّوح الخشبي الذي يحجب النّافذة، وإذا بالعائلة الرومانية تُخلي المكان، ولفرط قلق أفرادها لم يتوقّفوا عن مراقبة الجوار، خوفًا من أن تطوّق قوّات الشرطة المكان في أيّ لحظة. لحسن الحظّ، تخفّفُ الشجيرات التي تحميني من حدّة الإشارة الصوتيّة، وذلك ما يصعّبُ تحديد موقعها.

لقد هربوا.

أتركُ لعبتي تعمل، أتسلّق الواجهة وأدخلُ المخبأ. أتصرّفُ بسرعة تحسّبًا لعودتهم. ألتقطُ حاجياتي التي قاموا ببعثرتها دون أن يتاح لهم الوقتُ كي يحشروها في حقائبهم. هذا يجعلنا متعادلين بعد أن سلبوا كنزتيّ.

أخرجُ حاملاً حقيبة ظهري المغلقة، أوقف عمل صافرة الإنذار، أدسّها في جيبي ثمّ أغادرُ في الاتّجاه المعاكسِ لذلك الذي ذهب منه الرّومانيون.

إلى أين أذهب؟

سأتفادى هذا المسكن المعزول، ذلك أنّ العائلة الرومانيّة ستعود إليه حالما تتأكّدُ من عدم وجود سيّارة شرطة تحتلّ الموقع.

كم عدد الأسابيع التي احتضنني فيها هذا المبنى؟ أربعة... بالنّسبة إلى، ذاك هو المعدلُ الزمنيّ للفترة التي أقضّيها في مخبأ. ليس بإمكان رجل وحيد أن يقاوم العائلات التي تفرض نفسها وتحتلّ المكان.

إلى أين أذهب؟

أبتعدُ عن نهر الميز[1] وأصعدُ مجدّدًا في اتجاه ضواحي شارلوروا. شارع النّدم، فشارع الدبّاغين، فشارع الرّائحة. وبين الواجهات المتداعية، أفتّشُ عن منزلٍ مهجورٍ وأنا أتقصّى وجود السّتائرِ، ففي هذه الشوارع الضيّقة والخفيضة، يحافظُ السكّانُ على منازلهم باستخدام الأقمشة، وإلاّ فإنّ أيّ عابرٍ سيتلصّصُ على خصوصيّاتهم، لذا فإنّ منزلاً بلا أقمشة هو بالتّأكيد منزلٌ خالٍ من قاطنيه تمامًا مثل ذاك الذي يخفي أنّه مهجورٌ بالمصاريع المغلقة.

في زاوية تعصفُ فيها الرّيحُ، أرصدُ منزلاً معزولاً اختفى لون جصّه، المغطّى بالسّخام، جرّاء ألسنة اللّهب فأتوقّفُ. وقُبالتي، يخرجُ أحد الأجوار في اللّحظة نفسها إلى عتبة بيته وقد بدَت عليه العدوانيّة. عبر النافذة السفليّة، ومن خلال الألواح الخشبية التي وقع تسميرها بفظاظة، أرى داخل المنزل المحترق. ما يزالُ الرّمادُ أسودَ جدًّا لم يحجبه الغبارُ. من الواضح أنّ الحريق حدَث مؤخّرًا. نظرة الجار الغاضبة تضغطُ على رقبتي وتخبرني بما قد يكون حدث: ثمّة أسرٌ مشرّدة احتلّت

(1) نهر الميز أو الموز هو نهر أوروبي يعبُر فرنسا وبلجيكا وهولندا ويُقدّر طوله بـ 925 كم ويُسمّى هذا النهر في كلّ من بلجيكا وهولندا بنهر الماس.

هذا المنزل إلى أن أضرم السكّان النار فيه كي يتخلّصوا من المزعجين. إنّها حالة كلاسيكيّة.

أواصلُ تسكّعي. إنّ المكامنَ في الشوارع المأهولة تبدو خطرة، لذلك من الأفضل أن يذهب المرءُ إلى المناطق النائية. ثمّة صورة تمرّ بخاطري، صورة مصنع لوالب يحاذي خطّ سكّة حديد مهجور غير بعيدٍ عن أحد تفرّعات الطريق السّريعة.

أتمشّى لساعةٍ أخرى. تئنّ معدتي، تتلوّى وتدمدم. وفي الطريق، أفتّش كلّ حاويات القمامة. وبفضل قطعةِ خبزٍ أَصْلَبَ من الخشب، يتسنّى لي أن أتماسك. أسفل الطريق، يظهرُ المصنع أخيرًا. لا يوجد دخانٌ ينبعثُ من مدخنته الطويلة والعريضة، ولكنّ السّماء تسودُّ عند قمّتهِ فتبدو متفحّمةً ومزبدةً وغاضبة. ثمّة غربان تحوّم هنا وهنالك، مُتنقّلةً من عارضة خشبيّة إلى رافعة يعلوها الصّدأ. كيف سأدخل إلى هنالك؟ فالسّورُ، حتّى وقد تناوبت الفصول على تشويهه يظلُّ مرتفعًا وصلبًا، والبوّابة ترتفع إلى ثلاثة أمتار. ما يمنعني ليس فقط حاجزها المشبّك الذي يعجّ ولا شكّ بالجراثيم المستعدّة لإصابتي بالكزاز، وإنّما أيضًا عدم قدرتي على تسلّقه دون أن يرصدني سائقو السيّارات.

ثمّة حلّ وحيد: أن أنطلق من المنحدر الذي يقع إلى اليسار حيث يتحوّل مسار الطريق،وأتسلّل إلى حاوية النفايات وأدخلها كي استخدمها كمرقاة تمكّنني من بلوغِ أعلى البوّابة وعندها لن أحتاج إلاّ إلى التدلّي لأهبط داخل العقار.

أشرعُ في تنفيذ الخطّة. إذا لم يستدر سائقو السيّارات فلن يرونني أنزلق على طول المنحدر. ما إن أصل إلى الأسفل حتّى أتسلّق حاوية

النفايات، وإذ أرى محتوياتها -أكياس وألواح خشبية وصناديق وأوراق متسخة- أتراجعُ عن الخوض في مكان بالغ الخطورة وأقرّرُ التقدّمَ، حافظًا على توازني، فوق الحافّة الحديديّة. إنّها ضيّقة. أتأرجحُ. تهزّني الريح. أتماسك. قليلاً من الجهد... تدفعني ريحٌ قويّة، أسترجعُ توازني بقوّة، ولكنّ حقيبتي تندفعُ جانبًا وتحملني معها إلى الحاوية.

أسقطُ وسط النفايات والصدمةُ تقطع أنفاسي.

تبرزُ بعض الجرذان وقد أفزعها سقوطي وكأنّها شرارات نار.

تستمرُّ الضوضاء في الطريق السّريعة غير آبهة بما حدث لي.

عندما أسترجع أنفاسي، أتحقّق من أنّي لم أصب بكسرٍ وأكتشفُ أنّي خرجتُ بخدشٍ وحيدٍ فوق ذراعي.

على يساري، أرى حاسوبًا محمولاً يتألّقُ نظيفًا صافيًا، بلا بقعٍ أو صدأ. إنّه سليم. أشعلهُ. فتظهر على صفحة الاستقبال صورة لليل مرصّعٍ بالنجومِ ومهيبٍ يعلو كثبانًا رمليّة. تبدو لي الصّورة فخمة بشكلٍ لا يصدّق. أضغطُ على الأزرار فلا يطلبُ منّي الجهازُ أيّ رمزٍ سريٍّ. أصرخُ من الفرحة! ها إنّ الحظّ يهديني ما لا أقدرُ على شرائه. على عجلٍ، أنهضُ وأحشر الحاسوبَ في حقيبتي.

الآن، كلّ شيء يصبحُ شكليًّا وحسب. أتمكّن من تخليص نفسي من الحاوية، ألتحقُ بأعلى السّور وأسقطُ من الجانب الآخر. أتسلّلُ حذرًا إلى الموقع المتروك للحيوانات والنباتات.

لا توجدُ آثار بشريّة، لا علب أو قوارير أو أكياس تعبئة أو أعقاب سجائر تشيرُ إلى ساكنين. أتقدّمُ داخل غابةٍ عذراء.

أين سأستقرّ؟ ليس بعيدًا جدًّا عن الحائط الذي تستندُ إليه حاوية النفايات. وهكذا ستقلّ تحرّكاتي وسيتسنّى لي التفطّن إلى الدّخلاء المحتملين. ينفتحُ الباب الصّدئ تحت تأثير دَفعتي. أصعدُ إلى الطابق الثاني حيث تقع الورشات، أستخدمُ علبة من الورق المقوّى كمكنسة وأهيّئ بضعة أمتار مرّبعة. هذه هي غرفتي.

أنشرُ كيس النوم وأستلقي، متعجّلاً استعمال هديّة السّماء.

مرّةً أخرى يُظهِرُ الحاسوبُ اللّيلَ الشرقيّ فيبهرني أكثر من المرّة الأولى. بطريقة عفويّة، أحاول الولوج إلى شبكة الأنترنت. طبعًا، تُنبئني الشاشة بأنيّ لستُ متّصلاً لانعدام التغطية. أنقرُ على مفتاح معالجة النصوص فأجده يعمل، وأشغّلُ مختلف الأدوات: السّاعة، الآلة الحاسبة، والبوصلة.

وإذ ينتابني الفضولُ كي أعرف لمن أدينُ بهذه الهديّة أذهبُ إلى وثائق صاحب الحاسوب. تبرزُ ملفّات عديدة. وكما اتّفق، أفتحُ ذاك الذي يحملُ بوضوح حرف «ج»:

جهاد

إذا لم تكن تشعرُ بالارتياح في وجود الآخرين، أصدقائك، والديك أو أساتذتك، فإنّما ذلك لأنّ الله انتخبك كائنًا أسمى يمتلك الحقيقة. إنّ تباينك عن المجتمع لهو أمر عاديّ: أنت مختلفٌ، لديك بصيرة أوضح، ونقاء داخليّ أكثر، أنت ترفض هذا العالم الفاسد وتريدُ تجديده. اقرأ قرآنكَ مجدّدًا يا أخي. فالله قال ذلك في أذن الرّسول: إنّ المؤمن الحقّ لا يخشى أن يقاتل الكفّار. وعلى النقيض من ذلك، فإنّه يلزمك بأن تُبيدَهم

إلى آخر واحدٍ فيهم. السورة 4 آية 56 : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(1). السورة 4 الآية 89 :﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(2). السورة 2 الآية 193 : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾(3). السورة 3 الآية 141 : ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾(4). السورة 8 الآية 17 : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾(5). السورة 4 الآية 74 : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(6). السورة 4 الآية 95: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(7). السورة 4 الآية 57 : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(1) سورة النساء الآية 56.

(2) سورة النساء الآية 89.

(3) سورة البقرة الآية 193 : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

(4) سورة آل عمران الآية 141.

(5) سورة الأنفال الآية 17 : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

(6) سورة النساء الآية 74.

(7) سورة النساء الآية 95.

الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلا﴾[1].

أقطعُ قراءتي. يتواصلُ النّصُّ هكذا على صفحاتٍ، بطريقة شعائريّة، مكرّرة وخانقة، تنضحُ كرهًا وعنفًا. ثمّة ملفٌّ يعلنُ عن وثائق ج1، ج2، ج3... حتّى ج11. وأنا أفتحهُ، أستعرضُ نسخًا رقميّة من «دابق»، صحيفة «داعش» المروِّجة لنفسها بإخراجها الفخم. في العدد التّاسع، ثمّة صفحة تقترحُ رهائن أوروبيين للبيع. وفي العدد الحادي عشر، تعلنُ إدارة التحرير أنّه وقع إعدامهم لأنّ «أحدًا لم يرغب في شرائهم».

أدفعُ الحاسوب بعيدًا. أتوقّدُ غضبًا. ثمّ أمسكُ بلوحة المفاتيح مرّةً أخرى مدفوعًا بالحاجة إلى التحقّق من فكرة عبرت رأسي. هو ذا... ملفّ «الصّور».

دوّامة من الصّورِ تمرّ أمامي. يخيّل إليّ أنّي شاهدتُ بعضها من قبل. إنّها تذكّرني بـ... وينتفضُ قلبي. نعم، لقد تعرّفت على الصّور، كبار السنّ في الخلف منزعجون من آلة التصوير، والشّبابُ في المقدّمة، وجميعهم بابتساماتهم وإغرائهم: إنّه ألبوم صور عائلة بدوي! إنّ بين يديّ حاسوب حسين بدوي.

ثمّة صورٌ له تحملُ الحاشية التالية «أنا»، وأخرى أكثر منها عددًا، تحملُ الحاشية: «مومو وأنا»، وفيها يظهر هو وشقيقه الصّغير.

إنّي أمسكُ بعنصر رئيسيّ، عنصر يُفترض أنّ الشرطة أجرت بالفعل عشر عمليّات اقتحام وتفتيش من أجل الحصول عليه. أمّا بيغارد،

(1) سورة النساء الآية 57.

والمهَل درجة الوضاعة التي يمكنُ أن يبلغها لتحصيله... ربّما إلى حدّ دفع المال مقابلاً له.

فجأةً، تختفي الصّور وتنطفئ الشاشةُ. لقد نفدت البطاريّة. لا أستطيعُ معالجة الأمر إذ أنّ المصنع غير مزوّدٍ بالكهرباء. سأقوم بشحن الحاسوب غدًا في الصّحيفة.

لقد حلّ اللّيل. وها إنّ الظلمة تُوسع المصنع الذي التجأتُ إليه وتجعلُ من تنقّلاتي محفوفةً بالمخاطرِ ما دامت المسامير وشظايا الزجاج والزوايا المعدنيّة فخّ مصنوع من غراء الظلمة.

أحسُّ بأهمّيتي، فأنتفخ بحجمِ اكتشافي، ولكن والحال أنّي مازلتُ لم أتناول شيئًا يتعيّنُ عليّ أن أذهب وأغزو حاويات القمامة المجاورة.

أنزلُ بحذرٍ إلى المجمع الصناعيّ وأتوقّفُ عند طرف المنشأة. كيف سأتسلّق الجدار؟ فإذا كان الانزلاقُ من القمّة سهلاً، فإنّ الوصول إليها عبر القفزِ أمرٌ لا قبل لي به. لم أجد حيلةً سوى صنع هيكل من الحوامل الخشبيّة التي عثرت عليها هنا وهنالكَ في العقار وسحبتها بما أوتيت ذراعاي من قوّةٍ لكي أتمكّن من الصّعود.

تستنفد العمليّة جهدي. يجبرني الجوعُ والتعبُ والرخاوةُ -جرّاء حياتي المريحة بالمستشفى- على الجلوسِ والتقاط أنفاسي لوقتٍ طويل.

أتأمّلُ أضواء المدينة البعيدة فتبدو لي مثل ظلمة متّسخة، بينما يتعالى هدير الطريق السّريعة.

خلف الجدار، يتردّد صدى زجاجٍ مكسور. أحدُهم قفز إلى حاوية القمامة. ألا أعيشُ وحيدًا هنا؟

أسترُ منتظرًا أن يبرز وجهٌ مّا أعلى الجدار، ولكنّ الدّخيل يتلكّأ، إنّه يواصلُ تحريك الأشياء في الحاوية.

- اللّعنة!

الظاهرُ أنّه صوتُ شابّ.

- اللّعنة!

يطلق الدّخيلُ اللّعنات بانتظامٍ غاضبًا ومصابًا بخيبة أمل، ثمّ أسمعُ دويّ القمامة التي يطرحها.

لقد فهمت. الأمرُ لا يتعلّق بباحثٍ عن مأوى ولكن بنابشِ قمامة.

بعد أن هدأ روعي قليلاً، تنتابني الرغبة في رؤية هيئته بطريقة خفيّة. وبالمرور من لوحة خشبيّة إلى أخرى، أصعدُ دون ضجيجٍ إلى القمّة، فأرى في الأسفلِ صبيًّا يرفعُ المخلّفات المكدّسة حوله.

- اللّعنة!

وعيناه مثبّتتان على مهمّته، يبدو أنّه لا يفكّرُ في رفع رأسه. أراقبه بهدوء.

- اللّعنة!

تنزلقُ غيمة وتكشف القمر. أرى وجه الصبيّ: إنّه محمّد بدوي، الصّغير الذي تأمّلت صورته لتوّي.

غيمة أخرى تنأى عن القمر وتحرّره تمامًا فيرشقُ أشعّته في المكان لبضع ثوانٍ.

يتزايدُ ذهولي. ففوق كتفِ الصبيّ يرفرفُ شخصٌ صغير الحجم، من الواضحِ أنّه ميّتٌ.

وكي لا أخاطر بالكشفِ عن مكاني، أميل بجذعي كي أميّزَ ملامحه بطريقة أفضل.

إنّ الميّت الذي يضطربُ فوق رأس الصبيّ هو شقيقه الأكبر «حسين بدوي» الإرهابيّ.

-7-

- إنّ ما تبحثُ عنه ليس هنا؟

اندفعت الجملة من شفتيّ دون قصد منّي حتّى إنّها فاجأتني بقدر ما فاجأت الصبيّ الجاثم داخل الحاوية فوقف وتجمّد في مكانه.

- ماذا؟

إنّ وجهه العدائيّ يحاولُ أن يتبيّن هويّة مخاطبه.

في هذا اللّيل الذي يجعلُ المشهد غامضًا، أرابطُ في مكاني تاركًا القمر ورائي. في نظر المراهق أمثّلُ لغزًا، ظهورًا كالاختفاء، وهو ما يشعرني بالانتشاء لأنّني نادرًا ما أسيطرُ على وضعيّة.

- ماذا؟ من أنت؟ ما الذي تتحدّث عنه؟

تتلاحق كلماتهُ بسرعةِ مدفعِ رشّاشٍ، فيلتهمُ الحروف الصّائتة ويضغط بشدّةٍ على الحروف الصّامتة وهو ما يضطرّني إلى تفكيك طلقاته المتتابعة كي أفهمها.

- إنّ متعلّقات أخيك ليست هنا.

- ماذا؟ هل تعرف أخي؟

يثبُ صوتهُ من الخفوتِ إلى الحدّة بطريقةٍ صاخبة. هل هذا بسبب ما يعتري الصّوت من تغيّر عند سنّ البلوغ؟ أم هو تأثير الانفعال؟ أُلزمُ نفسي بالبقاءِ هادئًا:

- بالتأكيد، أنا أعرف ما تبحث عنه. وأعرفُ أيضًا من تكون.

- ماذا! ماذا! ما هذا الجنون؟

يقفزُ إلى حافّة الحاوية مستعدًّا للمغادرة.

- محمد بدوي!

أنطقُ اسمه بصوتٍ مسالمٍ فيستديرُ الصبيّ مضطربًا ويغمر الضوء وجهه الممتلئ.

- هل حدّثك أخي عنّي؟

- لقد حدّثني عن مومو وأراني صورَكما.

ترتسمُ ابتسامة على شفتي الطفل ثمّ، كما لو أنّ لوالبه الداخليّة استسلمت، ينهارُ ويبدأ في الانتحابِ مرتجًّا بدموعه.

تبلبلني محنته.

إنّ أكاذيبي تؤذي الصبيّ بينما كنتُ أتخيّل أنّي بصدد إبهاره. تتلفه دموعه. يتنفّسُ بصعوبة. فجأةً لم أعد أرى فردًا خطيرًا من عائلة بدوي، ولا قريبَ إرهابيٍّ قذرٍ، بل صبيًّا صغيرًا يبكي أخاه الأكبر.

ألتحقُ به. وهو يسمعني أنزلُ، يحاولُ أن يسيطر على ألمه ولكنّ جسده يئنّ ويرتجف ببطءٍ.

أجلسُ على بُعْدِ متر منه دون أن أنأى بنفسي عن أشعّة القمر. عندما يبدأ التنفّس بشكل طبيعيّ، أسألهُ بودّ:

- هل كنت تجهل ما كان ينوي فعله؟

- نعم.

يصدُّ بكُمٍّ سترته الواقية المخاط السّائل من أنفه ثمّ يهمسُ مجهدًا:

- لقد قضّيتُ اليومين السّابقين مع رجال الشرطة. لقد استجوَبوني، واستجوَبوني، واستجوَبوني.

- آه... نعم... من كان؟ تيرليتي؟

- هل تعرف...؟

أهزُّ كتفيّ.

- أعرفُ تيرليتي.

- هل أنتَ شرطيّ؟

- هل كنتُ سأقطنُ هذا الملجأ لو كنتُ شرطيًّا؟

يهزُّ رأسه، وقد أقنعهُ هدوئي كما أقنعته إجابتي ويؤكّد.

- لم أبلغ الشرطة بأيّ شيء.

- هذا جيّد.

ينهضُ ويشتمُ:

- لا، هذا ليس جيّدًا. لم أقل شيئًا لأنّي لا أعرفُ شيئًا! لكم وددتُ لو أخفيتُ الحقيقة واحتفظتُ بأسرار أخي وقاتلتُ ودافعتُ عنه وأغلقتُ فمي إلى النّهاية. إلاّ أن حسين...

يختنقُ صوته. لم يعد قادرًا على وصفِ ما يعصف به، فأُنهي الجملة بدلاً منه:

- حسين لم يخبرك بنواياه.

- نعم...

- كيف كنت ستتصرّف لو أخبرك أنّه سيقتل نفسه؟

- كنتُ سأمنعه.

- لهذا السّبب لم يُطلعك على أيّ شيء.

يرفعُ الصبيّ جبهتهُ متفاجئًا ومحتارًا. يهدّئ تدخّلي من روعه لأنّني دفعته إلى التفكير.

أنتهزُ الفرصة كي أنظر إلى الميّت الذي يرافقه. وراء كتفه، يقفُ حسين بدوي متقلّصًا، أبكمَ، يحدّق ببلاهة، غير متأثّر بمحادثتنا وشبه غائب. في قرارة نفسي، يخطر لي أنّه من المشروعِ أن يكون في حالة غيبوبة بعدما فجّر نفسه إلى ألف قطعة في الشّارع.

هل يرى مومو الميّتَ الذي يرافقه؟

يتفحّصني الصّبيّ، يفتّشُ ملامحي، يحاولُ أن يتخيّل لون بشرتي إذ يحولُ الرشحُ الفضيّ المنبعث من القمر دون تبيّنه.

- من أنت؟

- أوغسطين.

- أوغسطين؟ هل تمزح؟!

- اسمي أوغسطين.

يتراجعُ مكشّرًا.

- ألست من «الرّيف»[1]؟

- لا، لستُ من «الرّيف».

---

(١) منطقة الريف أو جبال الريف: تقع شمال المملكة المغربية وتمتدّ بمحاذاة ساحل البحر الأبيض المتوسط على شكل قوس واسع من مضيق جبل طارق (طنجة) حتّى نهر ملوية (قرب وجدة).

يصرخُ:

- لستَ من هناك؟!

- أنا من شارلوروا.

- «هو ذا، أنت لستَ واحدًا منّا».

يصرخُ وقد اعترته الرّيبة، ولكنّ عدائيّته لا تؤثّر في خدعتي، فأقول له مشجّعًا:

- وأنت يا مومو، ألست من شارلوروا؟

- نعم، ولكن لا.

- «نعم، ولكن لا»؟

- حسنًا، لقد ولدتُ في مستشفى نوتردام، لكنّ هذا لا يعني شيئًا. أنا جئتُ من الرّيف. عائلتي قدمت من الرّيف. الجميعُ عندنا يأتي من الرّيف. نحنُ من الرّيف.

أجزمُ، من الصّراحة التي تسرّعُ طريقته في الكلام، أنّه طوّر مفهومًا خياليًّا عن ولادته، دافعًا بجذوره إلى مكانٍ غادره أجداده. وإذ يرتابُ في تشكّكي، يقولُ مزايدًا:

- يجبُ أن يكونَ المرء فعلاً في بلجيكا كي يولد في المستشفى. في الرّيف، كنتُ سأولد في المنزل!

- هل سبقَ لك أن ذهبت إلى المغرب؟

- اللّعنة!

ينغلق على نفسه مثل قبضة. إنّها نهاية حديثنا. أظلّ أنتظرُ.

ثمّة غيومٌ تطمسُ القمر فتظلمُ السّماء. أرتجفُ وقد قرصَني البرد. وإذ تبعثُ الظلمة في المراهق شعورًا بالجرأة، يوبّخني:

- كيف عرفتَ أخي؟

أحدسُ أنّي أنزلق إلى ميدانٍ ما فتئت خطورته تتزايدُ، ولكنّي أتذكّرُ تفصيلاً أمدّني به تيرليتي:

- في لاغاران. حسين وأنا كنّا مسجّلين في المركز التربوّي نفسه.

- حسنًا.

- لقد كنّا مقرّبين قليلاً.

- لم يحدّثني عنك مطلقًا.

-ماذا؟ كم كان عمرك قبل عشر سنواتٍ؟

- أربع سنواتٍ.

- إذن...

يقرُّ مومو بهزيمته خافضًا رأسه فأواصل:

- بعد ذلك، فقدنا الاتّصال. لقد التقينا مؤخّرًا كي... حسنًا، لا أستطيع... توقّف!

يحدّقُ في وجهي متأثّرًا فأقرّرُ أن ألعب أوراقي:

- مومو، أنا على علمٍ بأشياء كثيرة. إنّي أكاد أحزر ما كنت تبحثُ عنه.

- أنا؟ لم أكن أبحث عن شيء.

- حقًّا؟ هل جئت إلى الحاوية كي تأخذ قيلولة؟ لقد ظننت أنّك تبحثُ عن حاسوبه.

يظلّ صامتًا طيلة ثلاثين ثانية وقد خلا وجهه من أيّ تعبيرٍ ثمّ يعود إليه عنفوانه:

- هل أنت من يحتفظ به؟

لا أجيب. فيُربكه صمتي.

- كيف تعرفُ أنّه يمكنُ أن يكون هنا؟

- وأنت؟

أجيبُ بالمثل ثمّ ألوذُ بالصّمت. ما لا أقولهُ يؤثّر فيه أكثر ممّا أقوله. يحكُّ مومو رقبته ويمسحُ وجنتيه بقبضتيه.

تتقلّصُ أمعائي بشدّة حتّى إنّني أخشى أن يسمع هديرها. يلقي عليّ المراهقُ نظرةً مستفسرة، وكأنّه يسأل «ماذا سنفعل الآن؟».

- أنا جائع -قلتُ- وأنت؟

- نعم.

- هل نذهب لتناول شيءٍ مّا؟

- حسنًا.

- ها إنّي أحذّرك: أنا مفلس. لا أملكُ فلسًا واحدًا.

ولسعادته بأنّه يمتلكُ سلطةً عليّ، يُخرجُ أوراقًا ماليّةً من جيبه ويقول:

- لا بأس. لقد أضعتُ يومين مع رجال الشرطة، لذلك عوّضتها بالتّجارة هذه الظهيرة.

يضحكُ بغرور. لم أسألهُ عمّا تاجرَ فيه، فأنا متأكّد من أنّ الأمر لا يتعلّق بشرائط الزّنبق.

نخرج من الحاوية بحذر ونلتحق بجانب الطريق بعد أن تسلّقنا المنحدر. ثمّة درّاجة نارية صغيرة، راقدة بين الحشائش، في انتظارنا.

- اصعدْ.

أجلسُ. وتحت ثقلي، تنبعجُ العجلة الخلفيّة ولكنّ مومو ينطلق. نسيرُ بطريقة متعرّجة قليلاً ثمّ تستعيدُ ركوبتنا توازنها. تنغرسُ صفيحة حامل الأمتعة في مؤخّرتي الهزيلة فأعضُّ على أسناني.

نمضي إلى شارلوروا. أتبيّن أنوارًا مذهّبةً تنبعثُ من المنازل الفاخرة بينما تلعقُ أضواء النِّيون الخضراء أسقف المساكن الأكثر فقرًا. وتتعاقبُ الشّوارع...

يقودُ مومو بسرعةٍ وبغايةٍ واحدة هي أن يُصدر أكثر ما يمكنُ من أصوات، حتّى إنّه، كلّما هدر المحرّك أو أصدرت العجلات صريرًا طفق يُقرقر.

نتوقّفُ أمام محلٍّ مُضاء: «جنون الكباب للأكلة السّريعة» وهو محلّ ضيّق مثل نصلٍ مغروسٍ في الواجهة، تمتدّ فيه -على طول المنضدة البلّورية التي تحدُّ المطبخ- طاولات صغيرة ملتصقة بالحائط. وتحت كلّ طاولة ثمّة مقعدان يَشِيَان بأنّ العشاء مخصّص لشخصين. وهناك أيضًا ملصقات معلّقة على الجدران، تعرضُ صورًا باهتة للمأكولات مرفقة بأسعارها المكتوبة بأرقام ضخمة تحتها خطوط.

عند المنضدة ينتصب رجلٌ ضخم، ورديّ البشرة، رخو، ومحشورٌ داخل مئزر فضفاض، وفي نهاية وجهه المنتفخ طرّة سوداء لامعة. ينتصب مستندًا إلى المنضدة، لاهثًا حتّى من وقوفهِ ثابتًا في مكانه. دون أن ننسى شفتيه الغريبتين، الصّغيرتين والرقيقتين -كأنّهما شفتا

امرأة جميلة- اللّتين تحتمان وصف هذا الضخم ذي القبح الذكوري الصِّرْف.

يتجاوزهُ مومو كأنّه غير موجود ويتفحّص قائمة الأطعمة.

- ماذا تريد أن تأكل؟، يسألني.

- مثلك!

تصعدُ إلى رأسي رائحة الشحومِ المقليّة -اللّحم المشويّ وزيت الطهي- فتعذّبُ معدتي، وتستثيرُ حليمات التذوّق لديّ. تشعرني الأدخنة المتصاعدة بالنشوة. أشعرُ بالجوع وأوشكُ أن أفقد وعيي وعلى نحو استباقي، أثملُ من المتعة.

يشيرُ مومو بإصبعه إلى ما يرغبُ في تناوله دون أن يلقي على العاملِ أيَّ نظرةٍ أو يوجّه إليه كلمة. وفي نوع من الإيحاء بأنّه سيوسّخ نفسه لو وجّه إليه الحديث، يتجاهل ذاك الذي يخدمه، وأغلب الظنّ لأنّه يخدمه. لا يشعرُ الضّخم السّمينُ بالانزعاج، بل يطرحُ عليه -في وداعة وإذعان- أسئلة تُيسّر له القيام بعمله على أكمل وجه:

- هل تريد خردلاً مع رقاقات البطاطا المقليّة؟ أم صلصة الطماطم؟

يردّ مومو بانفعال، وكأنّ على السّمينِ أن يخمّن إجاباته. أيّ حماقة هذه التي تدفع صبيًّا في عامه الرّابع عشر إلى إهانة رجلٍ ضخمٍ في الثلاثين من عمره بهذه الطريقة؟

يغفو حسين بدوي فوق كتفه. من المؤكّد أنّه لم يرافقنا بإرادته. ولمّا كنت قد راقبتُ مومو طيلة الرحلة، فإنّي واثق من عدم اكتشافه مرافقة

لشقيقه الميّت له. ما إن نجلس ونثبّت أطباقنا فوق الفورميكا[1] حتّى أسأل مومو:

- هل تعرف النّادل؟

- من؟

أشيرُ إلى الرّجل الذي يجفّفُ جبينه بإسفنجة بيضاء.

- هو؟ لا.

يأسفُ مومو حتّى لإلقاء نظرة عليه، ثمّ يضيفُ باحتقار:

- إنّه تركيّ. كلّ المطاعم يديرها أتراك. هل أنت من يحتفظ بحاسوب حسين؟

ألتهمُ شطيرتي بشراهة، ويَعدُّ مومو صمتي موافقةً.

- هل استأمنكَ عليه؟

أصمتُ مجدّدًا وهو ما يُعَدُّ «نعم» ثانية. يشرعُ مومو في تناول شطيرة الكباب، وفوق كتفه ينامُ حسين. فأظلّ أراقبهما.

- وأنت يا مومو، كيف وصلت إلى الحاوية؟

- لقد جرَت العادة أنّنا عندما نريدُ أن نخفي شيئًا عن أمّي نذهب -أنا وحسين- لنضعه هناك. لقد أخفينا في تلك الحاوية الألعاب التي كنّا نسرقها، والمجلاّت الجنسيّة والمخدّرات والسّجائر وحتّى هدايا عيد ميلاد أمّي. لا أحد يستخدمُ هذه الحاوية، ولا أحد يفرغها مطلقًا.

---

(1) فورْميكَا: مَادَّة لَدَائِنِيَّة مقاومة لِلْحَرَارَة توضع عادة فوق الطاولات.

يمسكُ رقائق البطاطا بين أصابعه.

- إذا ترك لي أخي رسالةً، فستكون هناك.

يربدُّ وجهه. و تدغدغُ الدّموع عينيه، فيقاومها.

من فرط امتناني لحصولي على الطعام أشعرُ بفيضٍ من التعاطف.

- هل تلومه؟

- ماذا؟

- هل تلومه لأنّه رحَل أو لأنّه لم يخبرك بشيء؟

تصدر عنه حركة عاجزة تعني: «هذا وأشياء أخرى كثيرة». يفتّش للحظات عن الكلمات المناسبة ثمّ يعدل عن ذلك وهو يقضمُ قطع لحم الضّأنِ بِغَيْظ.

- هل تشعر بالحزن؟

يرشقني بنظراته المغتاظة.

- أنا حزينٌ من أجل أمّي! فمنذ أيّام وهي لا تفعلُ شيئًا سوى البكاء. وهذا ما لا يفهمه النّاسُ! هم لم يسمعوا مطلقًا بحسين بدوي وفجأةً! صارت كلّ وسائل الإعلام تبثُّ صوره بسبب القنبلة. في نظرهم، حسين بدوي هو أدولف هتلر! في رمشة عين، أصبح هو الشيطان! أمّي لا تعرفُ مطلقًا حسين بدوي هذا. فعندما يُنطقُ اسم حسين بدوي، ترى ابنها الذي تحبُّ لا ذلك القاتل. وتغدو مجنونةً. لقد اخترعوا لها ابنًا في الصّحفِ وفي جهاز التلفزيون، ابنًا سرق وجه ابنها واسمه ولكنّه ليس هو. في الشقّة، إذا دار المفتاحُ في قفل الباب، تصرخُ «حسين؟». ليس

كردّ فعل لا واعٍ، كلاّ إنّها تتخيّلُ حسين الحقيقي قادمًا ليشرح للحشد أنّ الإرهابي لم يكن هو، وأنّه لم يتسبّب في موت ثمانية أشخاص ولا هو مزّق نفسه أشلاء. ذلك أنّ حسين الحقيقيّ، حسب ما تعتقد أمّي، لا يمكن أن يغادر المنزل هكذا دون أن يقول وداعًا لأيّ أحدٍ.

يتوقّفُ مومو وقد غلبه التأثّر. وفوق كتفه، يواصلُ حسين المتقلّص طفوته في لامبالاة تامّة.

- وأنت كيف تحكم عليه؟

- إنّه أخي! لديه الحقّ في أن يفعل ما يشاء!

يقول ذلك وقد احمرّ وجهه. ووراء المنضدة، يرفعُ هرقل التركي أحد جفنيه. فيصوبُّ مومو نظراته إليه غاضبًا من إظهار ألمه في مكانٍ عام.

من تخمتي بالكبابِ الطافي داخل معدتي أشعرُ بالحبِّ تجاه الكونِ بأسره.

- هل لاحظت يا مومو أنّ أخاك قد تغيّر؟

- لا، لم يتغيّر. كان قلقًا ويفكّرُ. الأمرُ مختلف. أنا أفكّر في تلك الوثائق المكتشفة على حاسوبه.

- هل كان يحدّثك عن الدّين؟ أكثر من ذي قبل؟

يحدجني مومو بنظراته حالمًا.

- نعم... كان يكرّرُ على مسامعي أنّ الإمام سخيف. يقصد إمام الحيّ. كان يقول إنّنا مع إمام كهذا لن نغيّر العالم. وأنا أوافقه.

لم نعد نحفلُ منذ زمنٍ بعيدٍ بثرثرة الإمام. حسين لم يكن متديِّنًا مطلقًا بل إنّه تقريبًا لم يدرس القرآن. كان يشربُ الكحول ويحتفل مع أصدقائه ويدخّن المخدّرات، الحشيش والماريخوانا، ويتعاطى حبوب الإكستازي ويغازل الفتيات في العلب اللّيلية، حسنًا باختصار، كان عاديًّا! باستثناء المدّة الأخيرة... لأنّه كان يفكّر! نعم. يفكّر كثيرًا. يقضّي السّاعات الطوال في التفكير مُغلقًا غرفته على نفسه. ولا يتحدّث إلاّ لمامًا. ليس ثمّة شيء آخر.

يضربُ على الطاولة بغضب.

– لقد حاول تيرليتي استدراجي طيلة يومين كي يعرف ما إذا كان أخي قد سافر من قبل. يحدّثني عن السّفر...! لستُ أحمق ولذلك أدركتُ جيّدًا ما الذي يعنيه بكلمة «سفر»، إنّه يقصد في «سوريا». لكنّه أصرّ وظلّ يراوغ: إيطاليا، اليونان، تركيا... اللّعنة، إنّ حسين مثلي، لم يسافر إلى أيّ مكانٍ، بل إنّ أبعد الأماكن التي قاد سيّارته إليها هي بروكسال لمرّتين، وأمستردام ذات سبْتٍ من أجل الرّقص. في غياب المعطيات وبياض صفحته، لم يجدوا بدًّا من الادّعاء أنّه تدرّب في معسكرات سوريا.

– هل لديك قرآن في بيتك؟

– نحنُ من الرّيف!

– هل قرأته؟

يبدو مُحْرَجًا.

– نحنُ نعيشُ مع القرآن لذلك لا نحتاجُ إلى قراءته. إنّه مثل

القاموسِ. قل لي أنت، هل قرأت القاموس؟

أعترفُ له أنّه على حقٍّ لِكَيْلاَ أخوض مناقشةً لاهوتيّةً تفوق مداركي. ولكنّه يُقطّب جبينه ويسأل:

- هل قرأتَ القرآن؟

- طبعًا.

أكذبُ إلى حدٍّ مّا لأنّي سأشرعُ في ذلك غدًا.

يتقوقعُ مومو فوق مقعده وينظرُ إلى قدميه.

- أخاف أن أعود إلى المدرسة.

فوق صدغيه الأسمرين، تنبضُ العروق الأرجوانيّة وهو يُضيف:

- ماذا سأقول؟ كيف سينظرون إليّ؟ لا رغبة لي في الذّهاب إليها.

- هل تحبّ المدرسة؟

- أنا الأوّلُ في فصلي.

يقولُ جملته وينكمش مرّةً أخرى، ثمّ يسحقُ بطرف إبهامه رقاقة بطاطا على الطاولة في حركة تبدو مُناسبة للوضعيّة.

- سيعدّونني وحشًا أخًا للوحش.

يرتعشُ غضبًا.

- من يسبّ أخي، سأحطّمُ وجهه.

- سيطردونك من المعهد.

- وبعد!

يسحقُ مومو رقاقةً ثانيةً، ولكن على نحو أعنف هذه المرّة.

- كان عليّ أن أفجّر نفسي مع حسين...

ما إن نَطق الجملة الأخيرة حتّى استيقظَ حسين فوق كتفه مُظهرًا الاهتمام بغتة بما يقولهُ أخوه الأصغر، وهو يميلُ بانتباهٍ كي يسمع بقيّة الحديث.

- لقد انتهى كلّ شيء بالنّسبة إليّ. أنا مجرمٌ لأنّي أحمل لقب بدوي، أمّي، مجرمة لأنّها تحملُ لقب بدوي. لقد أصبحنا لعنةً في لحظات. هل تعتقدُ أنّي أستطيع الاستمرار في الحياة هكذا؟

يقتربُ حسين، بعينيه اللاّمعتين، من مومو ليوشوش له محاضرةً لا يتسنّى لي سماعها.

يناجي مومو نفسه -وقد تجمّد من الخوف- بطريقة متقطّعة، مُراوحًا بين الحديث والصّمت، كأنّه يكتشفُ خطابَهُ تدريجيًّا.

- لقد وقعت إهانتنا. لن يغفر لنا النّاسُ أنّنا عشنا مع شخصٍ أزهق أرواح ثمانية أشخاصٍ وجرَح خمسةً وعشرين آخرين. إنّه نجم العائلة، القاتل! أمّا حسيننا فلا يريده أحد. سنُعَدُّ مجانين عندما نتذكّره. حسيننا هو حسينُ ما قبل الإرهاب، ذاك الذي أعاشرهُ منذ جئت إلى الدّنيا. ماذا يريدُ الجمهور؟ أن أنسى كلّ شيء؟ أن أكون فقط أخا الإرهابيّ؟ ربّما سيفضّلون أن أكون إرهابيًّا؟ نعم، سيكونُ هذا أسهل.

بفعل الحماس، وجدَ حسين نشاطه لينفخ في أذن أخيه الصّغير صِيَغًا تتزايدُ باطّرادٍ بينما راح مومو يُتأتئ ذاهلاً من نفسه.

- حسين هو مجد عائلة بدوي. وبالنّسبة إلى الأرض قاطبة هو

همجي. لكنّه كان يخطّطُ كي يصير شهيدًا، بطلاً! إنّي أعرفُ أخي، أنا متأكّدٌ من أنّه فخورٌ بنفسه، وأنّه ما قام بذلك إلاّ لأنّه كان يشعرُ بالفخر للقيام به. وهو يرغبُ في أن أشعر بالفخر أنا أيضًا. ولهذا السّبب أبحثُ عن متعلّقاته. لقد ترك لي رسالة. أودُّ أن أفهم أخي ولكنّ الجميع يمنعني من ذلك.

ينتفضُ فجأةً كأنّه يخلّص نفسه من سحرٍ مّا، فيتجمّد حسين في مكانه.

- هل تريدُ تحلية؟

- مثل ما ستطلبه.

يستديرُ مومو نحو النّادل ودون أن يتخلّى عن رشق نظراته فيه، يطلبُ كأسَيْ مثلّجات بنكهة البرتقال. ومع أنّه يتكلّمُ بصوتٍ خفيضٍ وأقلّ وضوحًا -حتّى معي- مكتفيًا بالغمغمة، ما على الضخمِ إلاّ أن يستجيب. وإذ يرجوه النّادل مضطربًا أن يكرّر ما طلبه. يهمسُ مومو بطلبه متكاسلاً وهو يشيرُ بذقنه إلى المثلّجات.

لم أمسك نفسي عن التذمّر:

- ابذل جهدًا...

- أنا من يدفع! والحريفُ هو المَلِك، أليس كذلك؟

يضعُ الضّخمُ الحلويّات أمامنا.

يؤثّر فيّ صمت مومو، فأمتنعُ بجبنٍ عن شكره.

في الشارعِ، ثمّة سيّارة تبطئ سيرها ومصابيحها الأماميّة تُصدرُ وميضًا.

- اللّعنة، إنّها الشرطة!، يصيحُ مومو.

ينزلُ من مقعده وينسحب في ثلاث ثوانٍ إلى داخل المحلّ ويقفلُ على نفسه باب الحمّام.

في الخارج، تُغلَقُ أبواب السيّارة ثمّ يدخل مفتّشان من أصول مغاربيّة وهما يدعكانِ أفخاذهما.

- «أشعرُ بالجوع!». قال الأوّل.

- «شطيرتا كباب!». يأمر الثاني.

- «لحم ضأن أو دجاج أو عجل؟». يسأل التركيّ.

- لحم عجل، وعلبتي كوكاكولا أيضًا. هل تريد جعّة أيّها الرئيس؟

ثمّة رجلٌ يمشي على الرّصيف ممسكًا سيجارة بيده.

- «زجاجة يوبيل»[1]. يؤكّد الرئيسُ وهو يدلفُ إلى المحلّ.

إنّه المفتّش تيرليتي. يلمحُ أحدُنا الآخر في وقتٍ واحدٍ ونظلّ صامتين. ثمّ يكشّرُ في وجهي وهو يرمقني بلا تعاطفٍ.

- هل تأكل «حلال»، أنت؟

أنظرُ حولي وأدرك وجود إشارة في كلّ مكان إلى أنّ اللحوم مذبوحة وفق الشعائر الإسلامية.

- آه نعم... أنا... لم ألاحظ ذلك...

يرفعُ عينيه إلى السّقف.

- عندما أفكّر في أنّ صوتك سيقع اعتماده في الانتخابات تمامًا

(1) إحدى ماركات الجعّة البلجيكية.

كصوتي، أمقت الديمقراطية.

يخرج كي يبصق في بالوعة.

يتفحّصني الشرطيّان في انتظار شطيرتيهما كما لو أنّي كعكة. أتظاهرُ بأنّي لم ألاحظ ذلك.

يسدّدان ما عليهما، ويلتحقان بتيرليتي وهو يسحقُ عقب سيجارته بحركة رجوليّة ثمّ يركبُ الثلاثة في السيّارة.

يخرجُ مومو من الحمّام بعد لحظات من انطلاق سيّارتهم.

أستقبله مطلقًا تنهيدة:

- كان معك حقّ عندما اختبأت: لقد كان تيرليتي هنا.

- ماذا قال لك؟ ما الذي تحدّثتما عنه؟

- لا شيء. هو يعدّني أبْلَه. في الواقع، البلاهة هي أفضلُ وسائل التخفّي لديّ.

وأنا أقولُ هذه الكلمات، أتساءلُ: ألا يكون تيرليتي على حقّ؟ ما الذي أفعله هنا مع شقيق سفّاح كاد يقتلني؟ أيّ فضولٍ يدفعني إلى محاولة فهمه بل ومواساته؟

-8-

«لماذا؟».

سؤالٌ يشغلُ بالي منذ بداية الصّباح.

وجنتاي بين كفّيّ، مرفقاي على مكتبي، جفناي مغلقان، وأنا أحاولُ أن أعزل نفسي عن أسرة التحرير. في يوم الاثنين هذا، يشعرُ الصّحافيون، أكثر من أيّ وقتٍ آخر، بالحاجة إلى تبادل رؤاهم حول الأحداث. يتحوّل طابقنا إلى خليّة، يَمْلَؤُها الطّنينُ وأسراب المعلومات، تضربُ فيها النّحلةُ الطنّانةُ بيغارد الأرض بقدميها، صاخبةً ومحمومةً وهي تطالب بحبوب الطّلعِ، أي بـ«الأخبار الجديدة»، من النّحلات العاملات. لقد ضاعَف مديرنا -وهو الذي لم يُذنب مطلقًا جرّاء فائض التواضعِ لديه- من حجم الصّحيفة لتصبح شارلوروا مركز العالم، (عالم وسائل الإعلامِ على أقلّ تقدير) كيف لا والصحافيّون والمراسلون والمبعوثون الخاصّون، المُرفقون بشاحنات البثّ التلفزيوني وآلات التّصوير والتّسجيل والأقمار الصناعيّة، هؤلاء القادمون من خمسين دولة، يطوّقون شوارعنا. لقد أفلتت مدينتنا من الخزي الذي تنام فيه لتكونَ تحت مسبار الفضول الدوليّ. وأمام إعادة التأهيل هذه، يرى بيغارد، المنتفخ من الشعور بأهميّته، أنّه أكثر شرعيّةً من العائلة الملكيّة، فلطالما اهتمّ، بوصفه مدير صحيفةٍ، بمدينة شارلوروا، أكثر

من الآخرين، حتّى في أوقاتِ محنته المزعومة! إنّه يظفر، يختالُ ويخطبُ طويلاً.

أضغطُ على صدغيّ وأذنّي كي أبعد هذا الطّنين.

«لماذا؟».

ثمّة صورٌ تغذّي أفكاري وأنا أجترّها. حسين إذ يصطدمُ بي، وإذ ينظمّ إلى حشد الواقفين عند أدراج الكنيسة ويصرخ «الله أكبر» قبل أن يفجّر نفسه... مومو وهو يرفض أن يبكي ولكنّه يتألّم مثل يتيمٍ من خيانة أخيه الأكبر... الضّحايا المُتلوّون من الألم في رواق غرفة الطوارئ... نحيب المرأة التي فقدت ابنها...

«لماذا؟».

لماذا يموتُ المرء؟ لماذا يُقتلُ الأبرياء؟ أيّ قضيّةٍ تستحقُّ هذا؟

أسفل فخذيّ مباشرة يجثم حاسوب حسين وقد وضعته في الدرج ليُشحَنَ خفيةً بالكهرباء، فتعود إليه الحياة. وما إن يفرغ المكان، سيكون في مقدوري استجوابه لعَلّي أجيبُ عن السّؤال الذي يشغلني:

«لماذا؟»

لقد احتفلوا بعودتي هذا الصّباح. استقبلوني بحماسة كأنّهم يحبّونني. وقد أصبحوا فجأةً إخوةً لي، وإذْ بالزملاء الذين كانوا يتجاهلونني باستمرار يهتمّون بصحّتي ومعنويّاتي ومزاجي. تصرّفتُ معهم بالطريقة نفسها، كنت ودودًا معهم وطبيعيًّا كرجع صدى لحالة الانسجامِ هذه.

في خضمّ هذه الموجة من المجاملات، فتح بيغارد -وهو السّاعي إلى الغلبة باستمرار- ثلاث قوارير من نبيذ فوّار يسمّيه «شامبانيا»،

وسكبها في أكواب بلاستيكية مُجبرًا إيّانا على شرب السّائل الدّافئ نخبًا لنقاهتي.

أعتقدُ أنّي منذ وصولي كرّرتُ إفادتي على مسامع الزّملاء عشرين مرّة، إذ أنّ كلّ واحد منهم أراد أن يحصل عليها بمفرده، على سبيل التميّزِ. ومع تواتر الطلبات أُثريَتْ قصّتي بتفصيلٍ من هنا وآخر من هناك، لأشكّل في الأخير رواية يُعتدّ بها.

أمّ كلثوم دون غيرها لم تستجوبني. في البداية بدَت لا مبالية ثمّ بدأت بالتفاعل حالما فُتحت قوارير الشامبانيا، وقد جذَبها الكحولُ كما يجذبُ المربّى دبّورًا. عندئذٍ فقط لاحظت أنّ الفريق يستمتع فابتسمت ورفعت كأسها هاتفةً مع الجميع. وها إنّها تتأمّلني بودٍّ، الآن بعد أن وقع تكريمي ونلتُ ترقيةً. لقد أصبحَتْ تعي وجودي: «هذا هُوَ الذي بفضله نحتسي الشامبانيا» بينما كانت في السّابق تبحثُ خفيةً عمّن أكون كلّما اعترضتُ طريقها.

«لماذا؟»

تشيرُ السّاعة إلى منتصف النّهار وثلاثين دقيقة. يأخذُ الموظّفون استراحةً.

وكما هي العادة عند البلجيكيّين، جلبَ كلّ واحدٍ منهم شطائره، غداءً غير مُكلّفٍ تُحضّره الزوجة. تتلوّى أمعائي. فأنا كعادتي، لا أملك شيئًا لتناوله. أقرّر الخروج والتهام الهواء كي أخدع جوعي. تحت مدخل المبنى المسقوف، ثمّة مدمنون على التّدخين بصدد تدخين سيجارة.

- أوغسطين، هل تريدُ واحدة؟

لم لاَ؟ أتذكّرُ أنّ طعم التّبغِ يهدّئ الجوع فأبقى بينهم فيما هم

يعلّقون على الأخبار. ومع أنّ الهجوم لم تتبنّاه أيّ جهةٍ، فإنّهم يتراهنون على صدور بيانٍ من «داعش» أو «النصرة» في وقتٍ قريب.

- لا بدّ أنّ حسين بدوي تطرّف عن طريق الإنترنت لا سيّما وأنّ هناك شكوكًا بخصوص إقامته مُدّةً في سوريا.

- حقًّا؟

- عائلته تنفي ذلك. والأجوار أيضًا. ولم يُعثر فعليًّا على ما يُثبت ذهابه إلى سوريا.

- لا بدّ من العثور على حاسوبه.

- الشرطة تكافحُ من أجل ذلك. إنّها تفتّشُ حتّى في حاويات القمامة.

- ما إن يُعثر عليه، سنعرفُ المزيد عن اتّصالاته.

وأنا أُخرجُ حلقات الدّخان من فمي، أنتشي بفكرة أنّ البيانات موجودة في الجهاز الذي بحوزتي.

- ماذا لو تعلّق الأمرُ بذئبٍ منفرد؟ برجلٍ تطرّف من تلقاء نفسه؟ دون مرشدٍ أو انتسابٍ إلى خليّة؟

- هذا أمر نادر الحدوث! فحتّى الإرهابيّ المستقلّ لا يبقى مستقلاً.

- ولكنّ ذلك يحدث.

- حتّى لو كان حادثًا معزولاً، فإنّ شبكةً مّا ستتبنّى الهجوم. إنّك تتكلّم عن هديّة حقيقيّة: ثمانية قتلى وخمسة وعشرين جريحًا. يا له من إشهار! إنّ المجموعة الأولى التي ستتبنّاه، ستسجّل انتصارًا.

يضحكون.

- يُضاف إلى ذلك أنّهم حتّى عندما يقومون بعمليّاتهم بشكل منفصلٍ، هنالك دائمًا عقلٌ مدبّرٌ، في الخارج، يُرشدهم إلى الأهداف.

- في هذه الحالة، ما هو هذا الهدف؟

- المسيحيّون! لقد أجهز على مسيحيين وهم يخرجون من القدّاس.

- لا أوافقك في هذا. فهم لم يحضروا قدّاسًا بل جنازة. والجميعُ يذهب إلى الجنازات سواء كانوا مسيحيين أو ملاحدة أو يهودًا أو بوذيين أو مسلمين. وعندما اختار حسين بدوي ساحةً عامّةً ممتلئة بحشدٍ من مختلف الأجناس، إنّما استهدف شارلوروا!

- لا، ليست شارلوروا، بل نحن، كلّ بلجيكا! بلجيكا الهادئة التي تنتمي شارلوروا إليها.

- ولِمَ لاَ تكون أوروبا هي المُستهدفة؟ بصراحة، حين تستهدفُ بلدًا صغيرًا كهذا، فإنّك تلمّحُ إلى شيء مّا... فكّرْ، إنّ الإرهابيين لم يختاروا البرتغال أو آندور أو موناكو. هنا تكمن المفارقة! لقد اختاروا بلدًا متواضعًا وذا رمزيّة! هم يضربون بلجيكا، لأنّ بلجيكا تحتضنُ المؤسسات الأوروبيّة. إنّ أوروبا بأسرها مستهدفة، يا ولدي.

- وأنت يا أغوسطين؟ وقد رأيت هذا الحسين، ماذا تعتقد؟

أسحقُ سيجارتي على جصّ الجدار.

- أنا لم أرَ ما يدورُ في رأسه.

يوافقون دونما ارتياب في أنّي أخدعهم. لقد رأيتُ ما كان في رأسه:

إنه أبوه. ولكنّ الحديث الذي دار بينهما أفلت منّي.

تتطوّرُ المناقشة، رخوةً ومراوغةً مثل ألسنة الدخان المتصاعدة. لقد أصبح حسين دميةً لدى الكثير من المتكلّمين من بطونهم[1]: كلّ واحد فيهم يعيره صوتَهُ وفقًا لهوسه.

أصعدُ إلى غرفة التّحرير في صمتٍ مُطبق. وإثر عمليةِ تفتيشٍ في المطبخ الصّغير تظهر النتيجة: لا يوجد شيءٌ أملأ به معدتي. يدورُ رأسي. أشربُ من الحنفيّة مباشرةً كي أمتلئ بشيءٍ مّا.

أجلسُ إلى مكتبي مغتاظًا، وأفتحُ كتاب القرآن الذي وجدتهُ بين القواميس والموسوعات الموضوعة تحت تصرّفنا فوق رفٍّ من الرفوف. أشرع في القراءة ولكنّ الجمل تتراقص أمام عينيّ، فأشعرُ بأنّني سأفقدُ وعيي.

- خذ!

في مظهرٍ مهيبٍ تميّزه مساحيق في لون الأزرق السماويّ، وفستان مزركشٍ بصور ببغاوات، تقدّمُ لي أمّ كلثوم تشكيلةً من قطع المرطّبات بالعسل.

- إنّها لك.

تضيفُ بابتسامة لم أتعوّدها منها. وإذ ألتقطُ قطعة مرطّبات بأصابعي تُوضّح:

- لا. إنّ العلبة بأكملها لك.

---

(1) Ventriloque: فنّان يستخدمُ حباله الصوتيّة ليتكلّم على لسان الدّمى. ويطلق عليه في العربية اسم «المتكلّم من بطنه».

أتلعثم من فرط الشعور بالامتنان. وتلاحظُ هي أنّي لا أتظاهر بذلك، فتتّسعُ ابتسامتها.

- لقد أعددتها في عطلة نهاية الأسبوع.

أحشرُ المرطّبات في فمي. وحالما تشاهدني وأنا ألتهمها يشرق وجهها.

ثمّة اندهاشٌ خفيف يغشى ارتياحها، اندهاش ليس مبعثه فرحتي، بل هو في حقيقة الأمر اندهاش هي موضوعه: إنّها مُتفاجئة من أنّ فكرة رائعةً كهذه خطرَت لها. وفي تأمّلها لي مبتهجَةً، إنّما تعتدّ بنفسها مثل ملكة تبتهجُ لأنّها أسعدَت رعيّتها.

أشكرها مرّةً أخيرة. وبسحنةٍ تَشي بالتواضع تستدير على عقبيها، وتختفي مُدندِنةً.

أجبرُ نفسي على المضغِ ببطءٍ والاحتفاظ بنصف قطع «البقلاوة» إلى المساء. ما إن أسترجع قواي حتّى أشعر بالنّعاس. كلاّ، يجب ألاّ أمنح بيغارد الفرصة كي يهينني. آخذ دبّوسًا وأعلّقه على ظهر مقعدي ورأسه موجّه إلى خاصرتي، فإذا ما حدث وملتُ مُغلقًا عينيّ، سيتكفّلُ بإيقاظي.

يعودُ الزّملاء وتعودُ خليّة النحلِ إلى الطّنين. فتحفّزني الطاقة المُستشرية داخل غرفة التّحرير، وأتمكّن من العمل. لقد تمّ تكليفي بمهام بسيطة: تبويب الإعلانات الصّغيرة وتشكيل صفحة الأخبار الموجزة. أغرقُ في العمل وكأنّ المهمّة تستهويني.

تفرغُ المكاتب من الموظّفين.

وعندما حلّت السّابعة مساءً، سمح لي فيليبار بيغارد بأن أبقى

طالبًا منّي ببساطة أن أُطفئ الأضواء وأدفع الباب عند مغادرتي، ليبدأ حينئذٍ نظامُ الإنذار في العمل تلقائيًّا.

أتأكّد من أنّني وحدي في المكان، أُخرجُ الحاسوب من الدّرجِ بعد طول انتظار. يبدو لي ثقيلاً وقد شحنت بطاريته وبات على أُهبة إعطائي كلّ أسرار حسين بدوي. يظهر اللّيل المرصّع بالنّجومِ على الشاشة الثمينة. أشرعُ في التّفتيشِ داخل الملفات. ثمّة كشوفٌ حول المتفجّرات والصّواعقِ ودراسةٌ عن سمّ السيانيد وغاز الريسين ومقالات عن نُظُم صمّامات التفجير ومطويّات جهاديّة ومجموعة من الصّور تحت مُسمّى «الشّهداء». بالرّجوع إلى القاموس، أتعلّمُ أنّ هذا المصطلح يشيرُ إلى أبطال الإسلام وأستنتجُ أنّ حسين بدوي يجمعُ صور نجوم الإرهاب مثلما يجمع الآخرون صور نجوم كرة القدم والموسيقى.

ثمّة أيضًا بطاقاتٌ تشرحُ طريقَ الإسلام الحقّ وفقًا للمنهج السّلفي، والعودة إلى النّصوص التأسيسية، والسّفر إلى المنبع كي يجدّد المرء إيمانه. وبعيدًا عن تمحيص صور المجازرِ، هناك استدعاء للبراءة المفقودة والنّقاء الواجب استعادتها حتّى إنّ عبارات مثل: «المسلم الصّالح» و«المسلم الحقيقيّ» و«الدّعوة إلى الله»، تملأ كلّ فقرة.

أحاولُ الدّخول إلى صندوق الرّسائل فأجده مغلقًا. أفتحُ سلّة مهملات الحاسوب فأجدها مُسحتْ. يا للإحباط! إنّ الله موجودٌ في كلّ مكان داخل هذا الحاسوب أمّا شركاء حسين، فلا يوجدُ لهم أيّ أثرٍ. هذه الأبواب لن يفتحها سوى فنّي متخصّص من أعلى طراز.

– آه، لقد راهنتُ على أنّي سأجدك هنا!

يدفعني الصّوتُ إلى الانتفاض في مكاني.

أرى القاضية بواترونو وبرفقتها الأخرقُ ميشان، سابحًا في عرقه، ويكادُ يسقط تحت الملفّات التي يحملها.

- ميشان، ضع كلّ هذا. إنّك تشبهُ جملاً.

- شكرًا سيّدتي القاضية.

تهزُّ كتفيها وتسحبُ كرسيًّا تضعه أمام طاولتي:

- أوغسطين، هل تمانع إن طلبت الحديث معك قليلاً؟ وأنا أمرّ من هنا، قرّرتُ أن أتوقّف لبضع دقائق. سيكون من الأفضل لو تحدّثنا هنا عوضًا عن مكتبي.

- كما تريدين...

- رائحة مكتبي تشبهُ رائحة بول قطّ. لم أفهم السّبب مطلقًا، إذ لا يوجد أيّ قطٍّ في المبنى الذي نعمل فيه. أستطيعُ تخمين ذلك من وفرة الجرذان داخل الأقبية. في البداية، افترضتُ أنّ هذه الرائحة تنبعث من المنحرفين -وأؤكّدُ لك أني أستقبل أشخاصًا لهم حساسيّة ضدّ الاستحمام- ثمّ، بعد أن راجعتُ عددًا من ذوي الياقات البيضاء المحتالين، اكتشفتُ أنّ...

تميلُ نحوي في انزعاج وتهمسُ في أذني:

- ...الرائحة مصدرها ميشان. حسنًا، أشعرُ بالخجل، ولكن لم لا؟ أوه لا! إنّه يرشُّ نفسه كلّ صباح بعطر نجيل الهند[1] -وهذا يتسبّب لي في انقطاع الشهيّة- ولكنّه لا يتعطّر بالبوْل.

---

(1) vétiver : النجيل (مركّب يدخل في صناعة الزيوت العطرية).

تعودُ بجذعها إلى الوراء وتواصلُ بصوتٍ مرتفعٍ كي يسمعه ميشان المنهمك في البحث عن مكانٍ يضعُ فيه ملفّاته.

- لقد غيّرتُ السجّادة، وعقّمتُ الأثاث ونظّفتُ الجدران. ولكن دون جدوى! حتّى إنّ المرء يظنُّ نفسه داخل فضلات قطّ. أليس كذلك، يا ميشان؟

- أوه نعم، سيّدتي القاضية.

- حسنًا، ليس لديّ وقت للتحقيق في هذه الأحجية، فالدولة لا تدفع لي مَن أجل هذا! هل نتحدّث هنا أم نذهب إلى حانة؟

- هنا. فأنا لم أُنهِ عملي بعد.

أغلق الحاسوب بغير اكتراثٍ مُتظاهرًا بأنّه ملكي. لكنّي لا أجيدُ الكذب كما لا أجيدُ اللّعب. وأثناء مراقبتها لي تلاحظُ انزعاجي فتومضُ نظراتها وتشعرُ بالارتياب.

- هل من أسئلة؟

أقولُ ذلك كي أمنعها من التركيزِ على الحاسوب.

- إنّي أطرحُ سؤالك نفسه: لماذا؟

أبدي استيائي، أمّا هي فتلوّحُ بعلبةٍ من قطع الحلوى البنفسجيّة.

- هل تريدُ واحدة؟

- لا.

- جيّد، إنّها تصيبُ بالإسهال. ميشان، هل تريد واحدة؟

- لا، شكرًا سيّدتي القاضية.

وهي تمصُّ حلواها أكشفُ لها عن حيرتي:

- لماذا تسألينني «لماذا؟» لماذا أنا؟

- تبدو لي حسَّاسًا وذكيًّا. ثمّ، أنت لديك...

تستديرُ وتتأكّدُ من أنّ ميشان بعيدٌ بما فيه الكفاية وتهمسُ:

-...موهبة! هل تسمحُ لك موهبتك بالإجابة؟

وكي تتركني أفكّرُ، تنهضُ من مقعدها وتركّز على ميشان المنهمك في فتح حاسوبه.

- لا تحتاج إلى تدوين أيّ شيءٍ يا ميشان. ستجمعني بأوغسطين محادثة غير رسميّة. لا أحتاجك هنا.

يمسحُ ميشان قطرات العرق فوق جبينه.

- هل يمكنني الذهاب إلى الحمّام، سيّدتي القاضية؟

- بالطبع، ميشان، بالطبع.

- أوه شكرًا، سيّدتي القاضية.

تقطّبُ جبينها وهي تتابع اختفاءه في الرّواق.

- يا له من سلوك شاذّ! إنّه يشكرني لنصحي إيّاه بوضع الملفّات ولسماحي له بالذهاب إلى الحمّام... هناك احتمالان: إمّا أنّي أضطهده أو أنّي أستخفُّ به. ما رأيك في هذا؟ لا، لا تقل شيئًا. لنتوقّف عند هذا الحدّ.

تعودُ إلى الجلوس أمامي.

- إذن؟

- أحبُّ أن أفهم لكنّي أعجز عن ذلك.

- في ما يخصّني، أنا أمسكُ خيطًا -تعلنُ لي- خيطًا لم تفكّرُ فيه الشرطة بقيادة ذلك الشمبانزي البديع تيرليتي، وإنّي مُتردّدة بخصوص مدّه به. هل تريد أن تعرف طريقتي؟ إنّها تتمثّلُ في الاستماع إلى المجرم.

تثبّتُ نظراتها في حاسوبي.

- يكفي أن نستمع إلى ما يقوله.

يقشعرُّ جسدي. أهي بصدد إفهامي أنّها تعرّفت على صاحب الحاسوبِ الموضوع بيننا؟

- في الوقت الرّاهن، لم تتمكّن الشرطة، رغم حملات المداهمة والتفتيش، من وضع يدها على الأدوات الرّقميّة لحسين بدوي. ولكنّ ذلك لن يستغرق وقتًا طويلاً...

ترفعُ عينيها نحوي.

- هذا ليس مهمًّا! لقد أرشدنا حسين بالفعل...

-...؟

- «الله أكبر»، هذا ما صرخَ به قبل أن يفجّر نفسه بثانية. «الله أكبر» لقد أصبحت هذه العبارة شعارًا شائعًا جدًّا حتّى بتنا لا نوليه اهتمامًا. إنّنا مخطئون. يتعيّنُ علينا أن نُصغي بانتباه لما يصرخُ به هؤلاء النّاس: «الله أكبر».

- «الله أكبر من كلّ شيء في هذا الوجود».

- على عتبة الموتِ، ينطقُ الإرهابيّون باسم الله. إنّ تيرليتي يرتكبُ

خطأً جسيمًا عندما يهملُ هذه الكلمات: «الله أكبر».

- إنّها ليست سوى عبارةٍ.

- حقًّا؟ من وجهة نظري، أرى أنّها أكثرُ من هذا.

- هل هي مطالبة؟

- إنّها الفكرةُ الأولى التي تتبادرُ إلى الذّهن... تلك الفكرة التي تعيقُ الصّحافيين...

- هل هي اعتراف؟

- أكثر من ذلك بكثير...

- ماذا؟

- اتّهام!

تتجمّدُ في مكانها. ونظراتها تنوّمني.

- في اللّحظة الأخيرة يخونون المذنبَ. ويكشفون عن اسم الجزّار. إنّهم مجموعة من الدّمى ليس أكثر. وفي المُقابل ثمّة في الأعلى محرّك دمى رهيب يسحبُ الخيوط.

- أرجو المعذرة؟

- نحنُ نُحمّل المُضلّلين المسؤوليّة، ونتّهمُ الضّحايا. إنّ القاتل هو من يقرّر لا من ينفّذ. إنّه العقلُ لا اليد. ومن يأمرُ في هذه الحالة؟ إنّه الرّب.

تنتصبُ واقفةً وتدور حول الطاولات عاقدةً يديها خلف ظهرها.

- إنّ المقاتلين يعلنون عنه! فمنذ قرون وهم يتّهمونه ونحنُ، لستُ

أدري لأيّ علّةٍ غريبةٍ، لا نسمعُ ما يقولونه. انظر إلى الحروب الصليبيّة، والحروب المقدّسة، والمشاحنات بين المسيحيين والكاثاريين[1]، والصّراعات بين الكاثوليك والبروتستانت... كلّ تلك المعارك ارتكبت باسم الربّ! لقد أباد المستوطنون الأمريكيون الهنود الحمر وهم يُرتّلون سفر يشوع، وتذرّع الهولنديّون بسفر التثنية كي يبرّروا نظام الميز العنصريّ في جنوب إفريقيا، وغزا اليابانيون الصيّن باسم شنتو. وداخل الإسلام، يتناحرُ السنّة والشيعة طاعة لله. واليوم، يقوم إرهابيو داعش والقاعدة، بالعمليات الانتحاريّة ويرتكبون المجازر وهم يهتفون «الله أكبر». لقد أصَابنا الصّمم. بل أسوأ من ذلك، كُلّما نظرنا إلى هذه الحجج انتقدناها بحدّة. القتلُ باسم الربّ؟ إنّ المؤمنين يرونه تشهيرًا والملاحدة يعدّونه هذيانًا.

- هنالك الكثير من الدّيانات على وجه الأرض، يا سيّدتي. ولو كانت هنالك واحدة فقط...

- سيظلُّ الربّ هو الربّ. وهذا الربٌّ يسيءُ إلينا...

- إذن، يجب على كلّ الديانات أن تختفي.

وهي تفكّرُ في جملتي، تمسكُ ساعتها وتُديرُ سوارها حول معصمها. أُوضّح فكرتي:

(1) الكاثار هي حركة دينية لها جذور غنوصية ظهرت في منتصف القرن الثاني عشر. وقد اعتبرتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية آنذاك طائفة خارجة عن الدين المسيحي. يطلق على معتنقيها: «الكاثاريون».

- إذا تخلّص البشرُ من الديانات، ستندلعُ النّزاعات، وستكون بالتّأكيد، نزاعات لأجل المصالح ونزاعات بخصوص الأراضي ونزاعات كبرياء، لكن لن يكون باستطاعتنا أن نبرّرها باسم الربّ، لن نثملَ بعد الآن بقانونيّة[1] الكتب المقدّسة، ولن نكتفيَ بالدّفاع عندما نكون مؤهّلين للهجوم.

- ليس هذا يا أوغسطين. أنت تفترضُ أنّ الحروب تخاضُ باسم الربّ لأنّ البشر يستغلّونَ الربَّ وينتحلون كلمته ويستعيرون شرعيّته. في اعتقادك، هم يستعملونه كواجهة، كسحابة يخفون بها وحشيتهم وكعذرٍ لاستخفافهم. ماذا لو كان الأمرُ... نقيض ذلك تمامًا؟

- لم أفهمك.

- ماذا لو أنّ الربَّ هو من دفع البشر إلى الحرب؟

- إنّ الربّ ليس سوى ذريعة.

- لا، الربُّ هو النصّ.

- سيّدة بواترونو، إنّ العبادات لا تأتي من الربّ. فالبشرُ يصنعون المذاهب ويكتبون القوانين ويشكّلون العقائد، وينشئون الشعائر، ويخلقون التراتبيّة ويُسبغون الطّابع الرّسمي على ذلك. ستظلّ الديانات اختراعًا بشريًّا صرفًا.

- أنت تنسى ما تقومُ عليه: «النّصوص المقدّسة».

---

(1) قانونية الكتب المقدّسة أي صحّة ما وقع إثباته فيها من أسفارٍ. هنا يستعمل الكاتبُ المفردة للتدليل على الصراع الأزلي بين معتنقي الديانات بخصوص صحّة كتبهم المقدّسة.

- النّصوص المقدّسة يكتبها البشر.

- وماذا تعرف أنت عن ذلك؟

تصدمني إجابتها. لم يسبق لي أن تخيّلتُ الرّبَّ حقيقيًّا، ولم أتمثّله قطّ إلاّ باعتباره رغبةً، حُلُمًا، خيالاً، ونتاجًا لنقاشاتنا.

- أوغسطين، إنّ طريقتك في التفكير ترتكز على افتراضٍ أساسٍ: إنّ الربّ غير موجود. فما أدراك بهذا؟

- لديّ هذا الشعور... هذا الشعور بالفراغ...

- أكرّرُ: ما أدراك بهذا؟

- لا شيء. لا أعرفُ شيئًا على وجه الدقّة.

- آه!

- وأنت يا سيّدتي؟

- أنا أيضًا لا أعرفُ شيئًا.

- آه!

تُبدي سخريتها من زفرتي الظافرة.

- أوغسطين، لا أحد منّا يعرفُ هل الربُّ موجود أم لا. إنّ هذا طبيعيّ ويثبتُ مدى صدقنا. فالربّ لا يتشكّل من أيّ معرفة، لا من المعرفة عبر الحواسّ -مادمنا لا نراه ولا نسمعه ولا نشمّه ولا نصافحُ يده- ولا من المعرفة العلميّة -إذ أنّنا لا نكتشف الله تحت عدسة مجهر أو منظار- ولا من المعرفة الرياضيّة -فهو لا ينجمُ عن معادلة، ولا حتّى من المعرفة الفلسفيّة، ذلك أنّه لا يوجدُ تفكيرٌ منطقيٌّ واحدٌ يبرّرُ وجوده. لذا سألتزم الحذر

باستمرار من ذلك النذل الذي يدّعي «المعرفة»... معرفة وجود الربّ من عدمه.

- إذن؟

- عليك أن تتحلّى بسعة الأفق وتضع في اعتبارك احتمال أن يكون الربُّ موجودًا، وأنّه، في حال وجوده، يُعبّر عن رغباته من خلال الكتب المقدّسة: العهد القديم والعهد الجديد والقرآن، فتكتسبُ مشروعيّةَ النّصوص الموحى بها، مثلما يطالبُ بذلك، ومع أن الربّ يلجأ إلى الوسطاء، أنبياءَ وكتبةً وشهودًا، فإنّه يلهمهم. لو أنّ الأمر كذلك...

تتوقّفُ. أشعرُ أنّها متردّدة. تقومُ بضبط حزمة أوراق فوق مكتبي ثمّ تنظرُ وراءها فجأةً وتقولُ هاتفةً:

- لو أنّ الأمر كذلك... فإنّها الكارثة!

- أن يكون الربّ موجودًا؟

- أن يقولَ ما يقولهُ.

تخفض صوتها كأنّها تخشى أن تكون مُرَاقَبةً من ذاك الذي تستحضرهُ:

- خذ عندك الكتاب المقدّس مثلاً. لقد كانت بدايته جيّدة مع قصّة الخلق، قصة الربّ الذي ينظّم الفوضى ويصنع الأشياء العظيمة كالنّجوم والكرة الأرضيّة والمحيطات والألماس والبرتقال والخوخ والشوكولاتة والقطط وريش الطاووس وعمليّة الهضم. هناك، تُطالِعُ ربًّا ودودًا وكريمًا. بعد ذلك، يغلبهُ الغضب: إدانة

آدم وحوّاء لأنّهما ارتكبا خطأً، فالطّرد من الجنّة، فعقاب الذّكَر بالعمل والأنثى بآلام الولادة. يا له من سلوكٍ مقرف! لم تدم الفرحة طويلاً ثمّ انطلقت بعدها قرونٌ من الغضب... يندم الربُّ على رحمته وهداياه، ويشعرُ بالقرفِ من مخلوقاته فينظّم أوّل إبادة جماعيّة: فجأةً، يأتي الطوفانُ للقضاء على الأحياء! لحسن الحظّ، تتمكّنُ عائلة نوح من النّجاة، وتتكاثر في الأرض، ولكنّ الربّ يغضبُ سريعًا. فيحرق المدن، كسدوم وعمورة وأدمة وصبوييم. وعندما يحرّر، تحت قيادة موسى، شعبَه المختار من نير فرعون، يُوجّه إلى مصر الضربات العشر (الضفادع، والبعوض، والجراد، والدّمامل، والمياه المسمومة...) لينتهي ذلك بموت الأبكار! ثمّ يأمرُ بحمّامات من الدّماء لاستعادة الأرض الموعودة على حساب السكّان المقيمين فيها، متسبّبًا في ثاني إبادة جماعيّة، وهي إبادة الكنعانيين. ولن أتحدّث عن النّصائح الموجّهة إلى سليمان تدعوه إلى سحق أعدائه، وإلى داود للقضاء على الفلسطينيين، ولا عن خطابات الكراهية في المزامير... إنّ الربّ، هذا المحارب السّام، يؤجّج الحرب وينتهك قواعدها، فلا يكتفي بمهاجمة الجنودِ فحسب، بل يشنّ حربًا على النساء والأطفال والضعفاء والأبرياء من السكّان المدنيّين. في العهد الجديد، يهدأ قليلاً -ولو أنّ ذلك لا يمنعه من إرسال ابنه ليموت على الصّليب- قبل أن يستشيط غضبًا في الجزء الأخير «سفر الرؤيا» مطلقًا نبوءةً مرعبةً مفادها أنّ أربعة فرسان، الأبيض والأحمر والأسود والشّاحب، سيجلبون الحرب والصّراعات والمجاعة والموت.

تنقطع أنفاس القاضية، فتتوقّفُ لالتقاطها ثمّ تتابع:

- في القرآن، يواصل الربّ إشعال الحرائق. ففي سورة البقرة، وهي التي تعادلُ سفر التثنية في الكتاب المقدّس، يحثُّ الربّ على قتل الكافر...

- أعرفُ ذلك!

- كيف ذلك؟

- إنّي أقرأ القرآن في الوقت الحالي.

تهزّ رأسها موافقةً وتواصلُ حديثها:

- لم يهمل أيّ نصّ مقدّسٍ وحشيّة الربّ التي تكاد لا تصدّقُ.

تغرقُ في تجويف الكرسيّ.

- ونحن، أنا وأنت والآخرون، ما الّذي نقومُ به طيلة قرون؟ نتّهمُ البشرَ. لا ننفكُّ نكرّر أنّهم يستغلّون الربّ للتعبير عن عدوانيّتهم، ولكن ماذا لو كان الربُّ يستغلّ البشر للتعبير عن عدوانيّته؟ نقرُّ أنّ الربّ ليس سوى ذريعة، ولكن ماذا لو أنّ الإنسانيّة ليست سوى ذريعة بالنّسبة إلى الربّ؟ نتوهّمُ أنّ الغضب البشريّ يؤدّي إلى المذابح، ولكن ماذا لو أنّ الأمر يتعلّقُ بالغضب الإلهيّ؟ ونتحدّث عن أعمال عنفٍ ترتكبُ باسم الربّ ولكن ماذا أيضًا لو أنّها تجسّدُ عنف الربّ نفسه؟

فجأةً، تقتربُ منّي.

- هذا هو التحقيقُ الذي عليّ أن أقوم به، التحرّي عن قاتلٍ متعدّد السّوابق، هو الأكبر في التاريخ. في الواقع، نحنُ نمتلكُ بالفعل

آلاف السّنوات من الإقرارات والاعترافات، ولو أنّي أفضّلُ أن أسمّيها «اتّهامات». ما المشكلة؟ المشكلة في وجود قانون التقادُم. يجب أن نحقّق في أمر الربّ الحالي. بيد أنّني لا أستطيع أن أُشرك المفتّش تيرليتي في أمرٍ كهذا. هل تستطيع أن تتخيّل ملامحه، وهو الإيطاليّ الحاملُ لقلادة العذراء فوق شعر صدره الغزير المطلّ من قميصه؟ سيثيرُ ذلك سخط هذا الصبيّ وسيبدو مثل قنفذ. ثمّ ماذا عن النّائب العام؟ سيعاملني كمجنونةٍ أو غبيّةٍ. ولكنّي أفضّلُ أن أكون غبيّةً حتّى وأنا أعلمُ أنّ هذا سيقودني بعيدًا، إلى حدٍّ إعفائي من القضيّة أو طردي بكلّ بساطة. إذ لو أنّ الربّ، عرّاب هذه المافيا، قد غزَل شبكته -وهو الذي يمتلكُ داعمين وموالين- وشبّك كلّ شيء فسيقضى عليّ.

- لماذا تُسرّين لي بكلّ هذا؟

- كي تقوم بالتحقيق بدلاً منّي.

- أنا؟

- ابنِ قضيّة ضدّ الربّ. وبينما يلاحقُ تيرليتي ومعاونوه، تلك الكائنات التي تمشي على قدمين، تلك القرائن البشريّة الصّغيرة والبائسة، وهم يتشمّمون التراب، قف أنت على قدميك، وقُد تحقيقك إلى مستواه الحقيقيّ وأثبت لهم أنّ الربّ مذنب!

تضربُ بقبضتها على مكتبي فتذهلني وهي تُحدّق في عينيّ مُضيفةً في حسم:

- إنّ الربّ هو من يقتل.

-9-

يلطّخُ اللّيل المكاتب. في الظلمة الغبشة، لم أعُد أميّزُ لا الطاولات ولا الخزائن ولا الكراسي. لقد كبر حجمُ الأثاث بطريقةٍ مهدِّدة. ولم يبقَ غير جهاز استشعار الإنذار يرسلُ هالةً زرقاءَ غير مستقرّة ما إن أتثاءب أو أشدّ جسدي.

وبردّ فعل من يستوطنُ ملجأً مهجورًا، أحتلُّ غرفة التّحرير مثل مهرّبٍ: أُطفئ المصابيحَ وأخفّضُ من إضاءة الشّاشة المُرهِقة لعينيّ.

في الخارج، ثمّة ساعة، لها صوتٌ خفيض، تقرعُ عشر دقّات. وبفارقٍ زمنيّ طفيفٍ، يُقرعُ أيضًا جرسُ كنيسة نوتردام دي رامبار. لقد غادرت القاضية بواترونو وميشان الوفيّ منذ فترة طويلة.

أمام الحاسوب، أكلتُ قطع «البقلاوة» و«المقروض» التي قدّمتها لي أمّ كلثوم وأنا ألعقُ أصابعي في كلّ مرّة كي أتمتّع بمذاق العسل والسّكر. ينسابُ داخلي شيءٌ من الوهن الدّافئ، ينتشرُ ويجعلني أسترخي. يعرفُ جسدي النّعيم بعدما حشوتُ معدتي حتّى كدتُ أصاب بالصّداع.

بقدر ما تشعرُ معدتي بالامتلاء، يصرخُ عقلي من الجوع.

مذهولاً من تصريحات بواترونو، أعيدُ تحليل محتوى الحاسوب: إنّه يؤكّدُ شكوكها. في كلّ مكان، يتكلّم الربُّ. في كلّ مكان، يتوعّدُ الربُّ

او مجازي. في كلّ مكان، يأمرُ بالأسوأ. ما حسبتهُ سابقًا صيغًا بلاغيّةً، اصدّقهُ الآن.

يقدّمُ الإرهابيّون أنفسهم لي كأبطالٍ، لا كمختلّين عقليًّا، وتتحوّل مجموعة صور الشهداء إلى هيكلِ قدّيسين.

مشمئزًّا، أدلّك رقبتي التي تخشّبت عضلاتها جرّاء يومٍ كاملٍ من العمل الذي قضّيتهُ في مكاني. أشعرُ بوخزٍ في جفنيّ، وأفتقدُ الهواء.

الطاعة... أيّ روحانيّة في الاستسلام؟ لماذا يتطلبُّ الإيمانُ هذا الخضوع المطلق؟ أليس من الرّائع أحيانًا مخالفةُ ذلك؟ إذا كان الربُّ يدفعُ إلى الجريمة، فعلى الإنسانِ أن يصدّه. وعندما يكفّ الربُّ عن التصرّف كما يليق بإله، علينا أن نخبره بذلك ونهجره. هذا ما أودّ التفكير فيه... ولكنّ قناعاتي حُوّلت وجهتها. ثمّة شخصيّة جديدة دخلت حياتي في هذه الليلة: الربّ. لم أكن قد دعوتهُ أو عظّمتهُ. لقد كان ينتمي إلى تلك المجموعة من المفاهيم التي لا تتوافقُ مع أيّ حقيقة: جنيّةٌ، عدمٌ، ثقبٌ أسود، جحيمٌ، جنّةٌ، مطهرٌ... تلك المجموعة من الكلمات المسالمة. يا للخطأ! بسبب بواترونو، يبرزُ للتوّ في ساحتي، حاملاً سيفًا بيده، وشتيمةً في فمه، ونظرةً ثائرةً يحرّكها غضبٌ جامحٌ للغزو أو للانتقام. كلّ شيء تغيّر للأسف. إنّه يرعبني ويربكني ويسحقُني ببطشهِ لا بحكمته. وتحت جناحه أشعرُ بالاختناق.

أُدركُ مرعوبًا أنّه كان يزدهر، هنالك، طيلة الوقت. نعم، هو لم يكن يختبئ في الظلّ، بل كان يُظهر نفسه في وضح النّهار، في المدنِ على شكل كنائس وهياكل ومعابد ومساجد، وفي الأسماء والأفعال والجمل والآراء والعقائد. إنّه يحكمُ الكلّ واثقًا من نفسه وغير مكترثٍ لعماي وصَمَمي.

ما اكتشفته يُثقلُ كاهلي. بل إنّه يُلقي بي خارج عالمي، فأرتجف.

أشتاقُ إلى إله إلحادي. ذلك الربّ الذي لا أؤمنُ به، الطيّب والكريم والحنون، المجسّد لأفضل ما في الإنسان. أمّا الربّ الذي أجبرني الواقعُ المتشنّجُ على أن أهتمّ به فهو ظالم، منحازٌ وعنيف. ماذا جنيتُ من التعرّف إليه؟ لا شيء، إلاّ إذا عُدّ الانزعاجُ والهلعُ والقمعُ واليأسُ مكاسِبَ.

لم أتمنَّ ذلك الربّ.

في عالم مثاليٍّ، سيكونُ الربُّ لطيفًا، أمّا في عالمنا، فهو بغيض.

في عالم مثاليٍّ، كنتُ سأحترمه، أمّا في عالمنا، فإنّي أخافه.

هل سأنجحُ في إبقائه على مسافةٍ منّي؟ وفي البقاء على مسافةٍ منه؟ من يحسم الأمر؟ أمازلت أحتفظ بسلطتي؟

أغلقُ الحاسوب وأضعُه في الجيب الواسع لمعطفي الواقي.

لا أحد ينتظرني، ومأوايَ لا يوفّرُ لي رفاهيّة هذه المكاتب، ولكنّي أغادرها. يجبُ ألاّ يجدني بيغارد هنا غدًا صباحًا.

ما إن أخرج إلى الشارع حتّى أتفاجأ بأنّ الحياة لم تتوقّف. ثمّة ثلاثة صبيان يتشاجرون مازحين، وسيّدةٌ سمينةٌ تتأمّلُ كلبها الصّغير وهو يتبوّل، وشابٌّ ثلاثيني متأنّق يرتدي معطفًا قصيرًا، وقد أحاط رقبته بوشاح حريري، يتمشّى مع المرأة التي التحق بها وهو يحدّق في شاشة هاتفه. يا لهؤلاء السّعداء! إنّهم لا يبالون بفكرة أنّ الربّ يضايق البشر ويدفعهم إلى ارتكاب المجازر.

غريزيًّا، أتوجّه إلى ساحة شارل الثاني. تُخفّف سيّارةُ شرطة من سرعتها بالقرب منّي وتتبعني طوال مشيي على الرّصيف: وراء النوافذِ، يتفحّصني أفرادُ الدوريّة. وتحت وطأة القلق أتضرّع إلى الله ألاّ يتوقّفوا لتفتيشي. لحسن الحظّ، يزيدون من سرعة السيّارة ليواصلوا جولتهم، ذلك أنّي لم أُثر انتباههم. لأوّل مرّة، تنقذني ضآلتي.

تنيرني لحظة الذعر تلك: إنّ الحاسوب يشكّل خطرًا عليّ. لو وجده رجال الشرطة في جيبي وقاموا بفتحه، لعدّوني شريكًا لحسين بدوي. وأنا أمرُّ من أمام حاوية قمامة، أقرّرُ أن أطمره هنالك.

لا! القرائن...

أعدلُ عن فكرتي. فحالما يُعثرُ على الحاسوب، سترصدُ الشرطة الفنّية آثار حمضي النووي أو بصماتي التي تلطّخُ أزرار لوحة المفاتيح وستكون قادرة على التعرّفِ عليّ حتّى لو لم أظهر في أيّ سجلٍّ جنائيٍّ.

أذهبُ إلى ميدان أودان.

أمام أحد البنوك أرى متشرّدًا يقرأ مجلاّت مصوّرة لـ «بيكسو باراد» و«ميكي» على ضوء كشّافٍ كهربائي كالذي يستخدمه مستكشفو الكهوف وقد افترش مرتبةً إسفنجيّة محشوّةً بالخرق. يبدو مركّزًا وثابتًا، بحاجبيه المعقودين وانزعاجه الظّاهر من أيّ شخصٍ يضايقهُ، وهيئته الجادّة كهيئة قارئ بصدد اكتشافِ مؤلّفات «بروست» و«كانط».

قبل وصولي إلى ساحة شارل الثاني، تستوقفني امرأة:

– صدقة لي ولرضيعي، من فضلك.

أنظر إليها فإذا هي متسوّلة في هيئة رثّة تداعبُ دميةً بلاستيكيّة

تضمّها إلى صدرها. وإذ تتفطنُّ إلى نظرتي المثبتة على الدمية تحرّكها مهدهدةً إيّاها.

- ليس لدينا ما نأكله.

بلا خجلٍ، تبتسمُ متألّمةً لدميتها العارية وكأنّها أمّ متفانيةٌ تشعرُ بالقلق. تستمرُّ في مسرحيّتها واعيةً تمامًا أنّها لا تخدعُ أحدًا:

- صدقة لرضيعي ولي، أرجوك.

- آسف.

أُجيبها وأنا أهزّ راحتيّ الفارغتين. فتهزُّ كتفيها. إنّها تصدّقني، ذلك أنّها لم يغب عنها مظهر حذائي الريّاضي المهترئ ومعطفي الواقي غير المتناسقِ فضلاً عن هزالي.

- هل ترغبُ في مضاجعتي؟

ينبثق السّؤال طبيعيًّا وخاليًا من الإغراء، بنبرة محايدة كما لو أنّها تقولُ «هلاّ حملت حقيبتي؟»

- لا، شكرًا.

- ألاَ أعجبك؟

مرّةً أخرى، لا تغلّفُ طريقة كلامها أيّ أنوثة ومع ذلك أستشعر فيه شيئًا من العدوانيّة.

- آسف. ثمّة من ينتظرني...

«ثمّة من ينتظرني»، تكرّرُ بطريقةٍ مفخّمةٍ. ثمّ تُضيف:

- حسنًا يا أميري...

تمتثلُ مُنحنية أمامي انحناءة متهكّمة. وما إن تنهض من مكانها حتّى ترتمي على واحدٍ من المارّة كان يتمشّى على الرصيف المقابلِ.

- سيّدي، ليس لدينا ما نأكله، رضيعي وأنا...

أواصلُ طريقي.

ماذا لو أعدتُ الحاسوب إلى مومو؟ لا شكّ في أنّ حسين بدوي تركهُ له إذ تخلّى عنه في حاوية القمامة، هناك حيث يخفي الشقيقان كنوزهما. ها هو الحلّ! إمّا أن أضعهُ بين النفايات أو ألتحق بمومو كي أسلّمهُ إيّاه، وهي الفكرة الأفضل على ما أرى.

أصلُ إلى ساحة شارل الثاني.

الأقمشة البلاستيكيّة تغطّي النوافذَ المحطّمة والجدران التي طالها التفجير. وعند أدراج الكنيسة، أكوامٌ من باقات الورود والرّسائل، لتعبّر عن تأثّر السّكّان. وفي كلّ مكانٍ تقريبًا: على الأرضِ، على الأدراجِ، وفوق النوافذِ... ثمّة شموعٌ خافتة اللّهب تُضفي على المكان جوًّا حنونًا وصبيانيًّا قريبًا من أجواء ليلة عيد الميلاد. يأتي أزواجٌ ومجموعاتُ أصدقاء للظفر ببعض الدِّفْء. يصمتون ورؤوسهم منكّسةٌ. يصلّون، يتأمّلون، ويقفون إجلالاً لأرواح الضّحايا، وهم متأثّرون بالمشاركة في هذه الوقفة الجماعيّة الصّامتة بعد حادثة التفجير المميتة.

إنّ تعاطفهم يشعلُ تعاطفي. فللمرّة الأولى، أدركُ أنّ أناسًا أبرياء قضوا نحبهم هنا وأُعاين آثار اقتحامِ عنفٍ خالصٍ ووحشيّ وغير مبرّرٍ قلبَ مدينة مسالمة.

على يساري، قربَ قصر البلديّة، أرى تجمّعًا يذكّرني بشيء مّا. ثمّة رجلٌ مُسنّ يقفُ وسط أفراد عائلته، مرتديًا عباءة حداد، وهو يبكي

مسنودًا من أبنائه. إنّه العجوزُ الذي كان يزورُ غرفتي في المستشفى، ذاك الذي كانت زوجته ستُدفنُ يوم الهجوم الإرهابيّ. لقد تغيّر السيّد فرسيني. لم يعد متخشّبًا في تساؤله، لقد فهم ما حدَث فجرفه الحزنُ.

أشعُرُ بالاضطراب، فأسلك طريقًا جانبيّةً كي لا يتعرّفَ عليّ. أسيرُ بخطوات كبيرة فيزداد قلبي خفقانًا.

لن أسلّم الحاسوب إلى مومو. لماذا أحترمُ رغبات جلاّد البشرية المسمّى «حسين بدوي»؟ ثمّ إنّ الحاسوب يحتوي على ملفّات قادرة على إرباكِ أيّ عقلٍ متذبذب، لا سيّما وأنّ المراهق، منذ قيام أخيه بجريمته يثيرُ الشكوك، إذ من الممكن أن ينزعَ إلى العزلة والتحدّي بل وحتّى إلى التطرّف. ثمّ، من يضمن لي أنّ مومو لا يملكُ شفرات الوصول إلى صندوق الرّسائل؟

إنّ الحلّ الوحيد الذي أراهُ معقولاً هو تسليمُ الحاسوب إلى الشرطة. أتراجعُ عن الاحتفاظ به لنفسي بعد أن أفرغتهُ من محتوياته. فليكنْ، لن أمتلك الحاسوب...

- المفتّش تيرليتي سيأتي بعد قليل. ألا تريدُ مقابلة شخص آخر؟

من وراء النضد ذي السطح البلوريّ، تطرحُ عليّ الشرطيّةُ المسؤولة عن إجراءات القبول السّؤال للمرّة الرّابعة منذ الصّباح. فأكرّرُ الإجابة نفسها:

-لا، هو ولا أحد غيره. إنّه يعرفني. أنا أحد ضحايا التفجير وسبق لي أن تحدّثتُ معه.

أجسُّ الحاسوب، داخل جيبي، كي أشجّع نفسي. لقد جئتُ من أجل كسب قلب تيرليتي مجدّدًا. فأنا لست مفتونًا بهذا الإيطالي الغامض

بسبب، وإنّما أيضًا أخشى من خجلي أثناء مواجهته. إذ أنّه قويٌّ، مصمّمٌ، فحلٌ ومباشر، وهو بذلك يمثّلُ الأبَ الذي أفتقده، وبالقدر نفسه الذكَرَ الذي لم أكنه.

لقد نفّذتُ بدقّة تلك الخطّة التي وضعتها ليلة أمس. فبعد أن اتّخذتُ قراري، ذهبتُ إلى محلّ «جنون الكباب» الذي أخذني إليه مومو. استلهمت من الصبيّ بعض الثقة وقمتُ بتحيّة التركيّ الضخم ذي الفم الورديّ قائلاً له:

«سأذهبُ إلى الحمّام. وسأطلبُ لاحقًا».

في الغرفة المغلقة بإحكام، تحقّقت من إمكانيّة إخفاء الحاسوب عند صندوق طرد المياه. بعد ذلك، جرحتُ الحائط بزوايا الجهاز تاركًا شظايا الجبس على الحواف، ثمّ وضعته في جيبي وخرجت.

في آخر المحلّ، وبينما كنت أخطو باتّجاه الرّصيف، أضفتُ بصوتٍ باردٍ موجّه إلى العملاق المرتدي مئزرًا:

«في نهاية الأمر، لن أطلب شيئًا!».

وما إن قلت ما قلت حتّى أطلقتُ ساقيّ للريح. ولئن شككت في ملاحقة البائع لي لتغييري رأيي، فإنّي شعرتُ بالاستياء من سوء سلوكي.

-آه! ها هو المفتّش تيرليتي.

تنهضُ الشرطيّة التي أعلمتني بوصول رئيسها بدلالٍ وهي تعيدُ تصفيف شعرها.

يدخلُ تيرليتي متجهّمًا، وجبينهُ مُغضّن بالتجاعيد أكثر من اليوم

السّابق، ناشرًا مزيجًا من رائحة التبغ والمزاج السيّئ على مساحة أمتار حوله.

- أيّها المفتّش، هذا الشابُّ ينتظرُ منذ ساعات.

ودون أن يرفع تيرليتي رأسه نحو الشرطيّة وهي تُعلمه بوجودي، يستديرُ على مضضٍ نحوي.

- آه...

ها إنّه يصبحُ كتلةً من الفظاظة.

- ماذا تريد؟

- أريدُ أن أقدّم لك معلومة مهمّة.

- هل تدرك أنّك لست موضع ثقة؟

- ربّما أكون كذلك. ولكنّ الجهاز الذي أحضرته...

أعرضُ عليه الحاسوب، فلا يحرّكُ ساكنًا.

أنتظرُ. أنا أعرفُ أنّه يدّعي الهدوء. وأعرفُ أنّه يتظاهر بعدم الاكتراث. وأعرفُ أيضًا أنّه يعتزمُ السيطرة عليّ. ولأجل ذلك... أنتظر.

في نهاية المطاف يتكلّم، وكأنّه سيعضّ شيئًا:

- ما هذا؟

- حاسوب حسين بدوي.

على الفور، يخترق بريقٌ قزحيّتيْه السّوداوين، وقد اعترته حماسة الصيّاد.

- اتبعني!

بحركة قويّة من ذراعه، يدفعُ الباب ذي الدفّتين ويتقدّمُ حاثًّا الخُطى غير مبالٍ بي وأنا أهرولُ وراءه وأتلقّى ارتداد المصراعين في وجهي.

ندخلُ إلى مكتبه ويغلق الباب بإحكام. رائحة رماد السّجائر تغشى المكان، والجدران تغطّيها الدّبابيس دون وجود أوراق، لكأنّها تعاني من هيجان البثور.

- اجلس.

يقتربُ منّي ويحدّقُ فيّ بصرامةٍ.

- يجدرُ بك ألاّ تُخطِئ. كيف لك أن تُثبتَ أنّه حاسوب حسين بدوي؟

أفتحُ الحاسوب، أُبعدُ صورة السّماء المرصّعة بالنجوم، أنقرُ على ملفّ الصّور ثمّ على صورةٍ تحملُ حاشية «مومو وأنا».

- اللّعنة!

يصرخُ تيرليتي. إنّه يغتبطُ على طريقته، أعني أنّه يصبحُ أكثر قتامةً وهدوءًا وغموضًا من ذي قبل. وبينما يدورُ حولي، يفركُ وجنتيه الزرقاوين فتصدران صَوْتَ مِبشَرَة.

- أين عثرت عليه؟

ألقي على مسامعه القصّة التي جهزّتها: «كان الحاسوبُ مخبّأً في حمّام مطعمٍ سبق أن ذهبتُ إليه لشراء شطيرة. إنّه ذلك المطعم الذي تقابلنا فيه يوم الأحد».

أحدّدُ له العنوان والتوقيت. ثمّ أعترفُ بأنّي تفحّصتُ الحاسوب لرغبتي في الاحتفاظ به. إذ من شأن هذا التفصيل أن يضفي المصداقيّة

على مغامرتي. ترتسمُ تكشيرة شريرة على وجه تيرليتي.

- آه، يا حقيري، كنت ترغب في الاحتفاظ به؟

- أجل. ولكن عندما عرفتُ من هو صاحبه...

- طبعًا، طبعًا. حسنًا، سأتغافل عن سرقتك.

يلتقطُ هاتفه بحماسة.

- يا رجال؟ لقد استعدتُ حاسوب حسين بدوي. نعم! إنّه هنا. شاهدٌ أحضره إليّ. حسنًا، لن ألمسه.

ينهي المكالمة بارتياح.

- سوف يتولّى أعوانُ الشرطة الفنيّة الأمر.

يرنُّ هاتفه. يدمدمُ مُتبرّمًا ثمّ يرفع السمّاعة.

- آلو! مرحبًا سيّدتي القاضية.

يبتسمُ، وأبتسمُ أنا أيضًا إذ أتخيّلُ بواترونو على الطرف الآخر.

- ها إنّك تتّصلين في الوقت المناسب سيّدتي القاضية. لقد وجدتُ... ماذا؟ هذا الصّباح؟ في هذه اللّحظة؟ تريدين منّي القدوم إلى مكتبك. حسنًا أراك بعد قليل سيّدتي القاضية.

يدعكُ مرفقه مفكّرًا. أحدسُ من هيئته المتجهّمة أنّه لا يستسيغُ أن تكون لامرأةٍ سلطةٌ عليه.

يتفحّص الحاسوب دون أن يلمسه.

- هل فتحت صندوق رسائله؟

- لا. لم أتمكّن من ذلك.

- رجالنا سيتمكّنون من ذلك. لقد انتدبنا موهوبين، عباقرةً حقيقيين.

يمدّ لي يده.

أمسكها بفخرٍ مضطربًا من حرارتها المفاجئة.

- شكرًا يا أوغسطين. وقّع على أقوالك في مكتب مارتيني بالغرفة المجاورة. أمّا أنا فسأذهب إلى مكتب القاضية.

تأخذني فكرة أنّي أثرتُ إعجابه، فأسترخي وأردّ قائلاً:

- ذلك المكتبَ الذي تفوحُ منه رائحة بول القطط؟

يُحدّق فيّ مصدومًا لثوانٍ، يسحبُ يدهُ، يتراجع خطوة إلى الوراء ولكنّه يتذكّرُ أنّه دائمًا ما عدّني أحمق فيتنهّد وينسحبُ متمتمًا، وهو يوليني ظهره ويتجاوز عتبة الباب:

- وداعًا!

وبمجرّد أن ينطق آخر حرف يَصفق الباب.

كعادتي، لمّا أردتُ أن أثير الإعجاب ثبّتُّ صورتي كغبيّ. إنّ تيرليتي يختزلُ ما يُخلّفه حضوري من انطباعات لدى النّاس: اللاّمبالاة الشديدة الممزوجة أحيانًا بالاحتقار.

حال وصولي إلى مقرّ تحرير صحيفة «الغد»، أجد الجدران ترتعش. لقد دخل بيغارد في إحدى نوبات غضبه التي يفزع منها موظّفوه لانتهائها بالإهانات والعقوبات أو بما هو أسوأ من ذلك: الطرد الفوريّ.

يصرخُ بيغارد، وشعيراته النّادرة تتلوّى ووجهه محتقنٌ، لأنّ سحب الصحيفة تراجع إلى معدّله المعتاد، ذلك أنّ مديرنا يرى في الاستثناء

الذي أفرزته الأيام الأخيرة القاعدةَ الجديدة.

زد عليه أنّ طلب وسائل الإعلام من فرقها المرسلة نحو شارلوروا العودة إلى بلدانها يجعله يستشفّ من هذا النزيف سقوط صحيفة «الغد» مجدّدًا في غيبوبتها الريفيّة. يدورُ حول نفسه، يتخمّرُ، يهتاجُ، يرعدُ، يغرقُ، ينتفض، يتّهم، يشكُّ، يختنقُ، وكلّه قناعة بأنّ الطاقة الموجودة في الشجب الذي يمارسهُ ستغيّرُ مجرى الأمور. لا سيّما أنّه يعتبرُ نفسه المسؤول عن الارتفاع الأخير في حجم المبيعات -وهو الأمرُ الذي نفاهُ أمامي- إلى درجة أنّه نَسب الفضل له وحده، متجاهلاً السّياق وناسيًا أنّي تقريبًا أمليتُ عليه مقاليْه. الأوّل عن بدوي الأب والآخر عن المسعفين المذهولين من حجم المذبحة.

- منذ ثلاثين عامًا وأنا أحمِلُ هذه الصحيفة على عاتقي -يقول بصوتٍ عالٍ رافعًا يديه الممتلئتيْن- أنا من يجعلها تعيش ويجعلكم تعيشون، وأنتم، ماذا تقدّمون لي في المقابل؟ لا شيء. ولا فكرة واحدة أو رؤية أو لمحة عن المستقبل. أنتم لا تزالون متعلّقين بالماضي. أنتم موتى.

بمجرّد ذكرِ كلمة «الموت»، تظهر الصبيّة ذات السّنوات السّبع والجدائل الشقراء عند العتبة. وتستندُ إلى إطار الباب كي تراقبنا. وطبعًا باستثنائي أنا لا أحد يراها.

بعد إلقاء تحيّة صامتة نحوي، تتفحّص الوضع، مفتونةً بالضوضاء التي أحدثها أبوها، وهي تنظرُ بازدِراءٍ إلى جمود الموظّفين الذليل بينما يواصل هو الصّراخ:

- وماذا بعد؟ ألا تعرفون سوى الرّوتين؟ إذا استمرّ الوضعُ هكذا، أنا من سيقومُ بتغيير هذا الرّوتين، وجعلِكم تتذوّقون روتين وكالة التوظيف!

أرفعُ ذراعي طالبًا الكلمة فيشيرُ بيغارد بسبّابته نحوي منتهزًا الفرصة لإضافة سلسلة من الشّتائم:

- انظروا من يطلب الكلمة؟ إنّه المتدرّب. ألا يشعركم هذا بالعار أيّها السّادة؟ المتدرّب! وعلاوةً على ذلك، هو يمرّ بفترة نقاهة! رجلٌ اقترب من الموت حيٌّ أكثر منكم يا مجاميع الموتى الأحياء.

تغمزني الصبيّة مشجّعةً. ولكنّ بيغارد لا يكفّ عن التقريع:

- بعضكم هنا يحصلُ على أجره منذ عشرة أعوام أو خمسة عشر عامًا، أمّا هو، هو المتدرّبُ الذي يعرقُ من أجل أجر زهيد، هل تسمعونني؟ أجر زهيد! فإنّه ينزف كي ينقذ صحيفتنا. قُل يا صغيري أوغسطين، ما الذي تقترحهُ علينا؟

- سيّد بيغارد، أقترحُ أن ننشرُ لقاءات قيّمة بخصوص الأحداث مع الشخصيّات المحليّة المهمّة. علينا أن نُركّز على تلك الشخصيّات التّي تشعُّ خارج شارلوروا، وخارج إقليم والونيا بل وخارج بلجيكا كلّها، مع إظهارها على غلاف الصّحيفة. علينا أن نزيد من الإشعاع الدوليّ الحاليّ للصّحيفة.

يتأمّلني بيغارد مشرق الوجه.

- أحسنت يا صغيري أوغسطين. هذا هو، نعم هذا هو بالضبط! إنّي أتبنّى هذا الرأي بصفة كليّة.

بينما تُوجّه لي الطفلة الصّغيرة ابتسامةً سعيدةً يخفض الزّملاء رؤوسهم. فباستثناء بيغارد، لا أحد نسي أنّي تقدّمت بهذا المشروع قبل أيّام قليلة وهو ما استوجبَ أوّلاً معاقبتي بـ«الشارع» وثانيًا تعريض حياتي إلى الخطر في ساحة شارل الثاني.

- إلى العمل! هيّا، بسرعة!

يغادرُ بيغارد، فتُلاحقه الصبيّة الصّغيرة وهي ترفل في فستان من النسيج المنقوش في شكل مربّعات، قبل أن تختفي وهي تدندن بتهويدة.

نرتجلُ اجتماعًا لتقسيم الأدوار بيننا. وكي لا أثير كراهية زملائي، ألوذ بالصّمت تاركًا إيّاهم يثبتون أنفسهم. وكلّ منهم يعدّدُ الأشخاص المُهمّين الذين يمكنه الاتّصال بهم: أمير، متحصّل على جائزة نوبل في الكيمياء، طبيب رائد، الجامعيّون أصحاب المقالات المحكّمة، المطرب «سترومايي»، رئيس المفوّضية الأوروبيّة، مدير منظّمة حلف الشمال الأطلسيّ، أثرى أثرياء بلجيكا... تتّسعُ قائمتنا وتشعرنا بالانتعاش.

بعدما التزمت مكمني ها إنّي أندفعُ أخيرًا إلى النقطة التي أردتُ الوصول إليها:

- إيريك إيمانويل شميت.

- أرجو المعذرة؟

- إنّه يُقدَّمُ ككاتبٍ مولعٍ بالميتافيزيقا والأديان. وهو يملكُ ذلك الشغف بفهم الكائنات حتّى تلك التي يبغضها أو التي لا يتّفقُ معها.

- صحيح، لقد كتب رواية لطيفة عن هتلر.

- أرغبُ حقًّا في محاورته.

يتأمّلني زملائي بحيرة. ويُبدي أحدهم تشاؤمه:

- إنّه سمكةٌ كبيرةٌ يا أوغسطين.

- لقد قرأت مؤلّفاته، كلّ كتبه الأربعين.

يستديرون نحو صحافيّ قسم الثقافة، فهو المُكلّف في الأوقات العاديّة بإجراء مثل هذه المقابلات.

- إنّه يكتبُ كثيرًا وبسرعة كبيرة حتّى إنّي لن أتمكّن من مجاراته.

بحركةٍ متكاسلةٍ يعلنُ لزملائه أنّه يستسلم. ومن ثَمَّ يتّجهُ هؤلاء الزّملاء نحو المختصّ في الحوارات السياسيّة.

«كلاّ، آسف. أنا لا أُطيقه». يقولُ معلنًا رفضه. فيتنهدُّ رئيس التّحرير وينهي المناقشة:

- اذهب يا أوغسطين وجرّب حظّك. اتّصل بناشره.

في السّاعة التالية، أتلقّى ردود الرفض المهينة. فالعاملون لدى ناشره الباريسيّ رفضوا عشر مرّات أن يمرّروا لي ملحقته الصحافيّة. ولكنّ مُثابرتي التي بلغت حدّ التحرّش جعلَتها تقبلُ في نهاية المطاف أن تردّ على مكالمتي.

- هل ترغب في معرفة ردّة فعله حول عمليّة شارلوروا؟ آه حسنًا، يا لها من مصادفة! لقد سلّم لتوّه أربع صفحات إلى صحيفة «نيويورك تايمز». ولك أن تقرأها غدًا.

- هل تصل صحيفة نيويورك تايمز إلى شارلوروا؟

تغلقُ السماعة في وجهي. وبوساطةٍ من أعضاءٍ في أسرة التحرير أتّصلُ ببعض معارفه لكنّهم يمتنعون عن مدّي برقمه مُستنكرين: «لمن؟ صحيفة الغد؟ صحيفة شارلوروا اليومية؟». بل إنّ أكثر المتعاطفين من بينهم يلمّحون لي بما معناه أنّي إذا أردتُ تجسيم فكرتي الرّائعة، فإنّ أفضل ما أقوم به هو أن أغادر هذه الصحيفة.

لا يهمّ. أنا متمسّكٌ بمقابلته. فبمساهمته -وهذا ما أنا مقتنعٌ به- سأتمكّنُ من الإجابة عن أسئلة القاضية بواترونو. وبمساهمته أيضًا، سأنهي تحقيقي حول الربّ.

تؤكّد سلسلة شائعة من التّسريبات كنتُ قد سمعتها سابقًا: إنّه يملكُ منزلاً في غيرمانتي غير بعيدٍ عن شارلوروا.

أستعينُ بخارطة. إنّ منطقة غيرمانتي تعدّ أقلّ من مائة نسمة، إذن سيكون من اليسير أن أحدّد مسكنه.

أذهبُ إلى مكتب بيغارد.

- سيّدي، أحتاجُ مساعدتكم بخصوص مقالي.

يفركُ طرف سيجاره ثمّ يقصّ الرأسَ مستخدمًا مقصلةً من النيكل المصقول.

- ماذا تريد؟

لقد قرّر اليوم أن يجبّني. وهو يلعبُ الآن دور ربّ العملِ المثاليّ أمام الموظّف المثاليّ.

- أودّ محاورة إريك إيمانويل شميت.

- من يكون هذا؟

لقد توقّعت أنّه سيقولُ ذلك، إذ أنّنا جميعًا نشكُّ في أنّه يتهرّب من اجتماعات هيئة التحرير لأنّه كُلّما ذُكر أمامه اسم أحد المشاهير ردّ قائلاً «من يكون هذا؟».

- إنّه الكاتب الذي تُرجمت أعمالهُ في العالم كلّه، وكثير منها يُدرّس في المعاهد. حسنًا، إنّه إيريك إيمانويل شميت!

- آه، أنت تتحدّث عن إيريك إيمانويل شميت هذا. لقد التهمتَ أحرف اسمه. عليك أن تتكلّم بوضوح يا صغيري، وأن تنطق بصورةٍ سليمة.

تربّتُ الصبيّة الصغيرة بأصابعها على أذنيها، وهي مقرفصةٌ فوق السجّادة، كي تشرح لي أنّ أباها أحيانًا لا يلتقطُ الأصوات. أمّا هو فيشعلُ سيجاره ويسعد إذ يتحقّق من أنّه يسحبُ أنفاسه بطريقة جيّدة.

- إذن؟

- أشكرُكم سيّد بيغارد لأنّكم أخفيتم، منذ قليل، أنّي لا أتقاضى أجرًا. لو كشفتم ذلك، لكنتُ فقدت احترام زملائي. شكرًا لكم مرّةً أخرى.

يتلعثمُ وهو يسعل:

- على الرّحب والسّعة. هممم... إنّي أعرفُ كيف أديرُ فريقًا، رغم كلّ شيء.

- أنا أحتاجُ إلى مدّكم إيّاي ببعض المال كي أذهب إلى «غيرمانتي» لأنّ الكاتب يسكنُ هناك. لن أستقلّ سيارة أجرة بل سأركب الحافلة.

وقد وقع بيغارد في الفخّ، لم يعد بإمكانه التراجع.

- كم تريد؟

- أوه، خمسة أوروهات.

يخرجُ حافظة نقوده، وبحركةٍ عريضة من يده يرمي ورقة مالية فوق الطاولة قائلاً بلهجة سيّد نبيل:

- خذ يا ولدي، هاك عشرة أوروهات!

توصلني الحافلة، ذات الألوان الصفراء والحمراء، إلى مركز بلدة غير مانتي.

تمتدّ البلدة الجبليّة على شكل دائرة حول حديقة تحدّها المباني الرئيسيّة: الكنيسة، المدرسة، قاعة الاحتفالات، الحانة ومحلّ البقالة. أدع الحظّ يقودني داخل الأزقّة المجاورة. إلى جانب المباني المتناثرة، ثمّة منازل فخمة، يمكنُ أن تكون واحدة منها للكاتب، ولكن أيّ واحدة؟ إذ أعمّق بحثي، أكتشفُ قصرين، أحدهما يقعُ في مركز البلدة التاريخي وتحيطُ به الأسوارُ والآخرُ في مخرج البلدة وتحميه بوّابة من الحديد المطروق تلفتُ الانتباه بامتدادها على طولِ ممشى من أشجار السنديان، ولكنّ صناديق البريد في كلا القصرين لا تشيرُ إلى أيّ اسمٍ.

أسأل القرويين. وكلّما طرحت عليهم سؤالي: «أليسَ هنا يقطنُ الكاتب إيريك إيمانويل شميت؟»، يردّون بـ«ربّما»، «لا أعرف»، «حقّاً؟»، ثمّ يبتعدون. إنّهم يرفضون مدّي بأيّ معلومة. هذه البلدة البلجيكية تطبّقُ «الأومرتا»[1] أفضل من مدن صقليّة الحامية لعصابات المافيا.

(1) الأومرتا omerta : هو قانون الصّمت الذي تطبّقه مدن إيطاليا الجنوبية لحماية عصابات المافيا.

بينما أستعدُّ لقرع أجراس أبواب المنازل المحتملة أرى رجلاً يعبرُ الطريق الرئيسيّة ويتوجّه نحو الغابة، رجلاً طويل القامة وضخم البنية. إنّه يتنزّه مع كلابه، إن لم تكن الكلابُ هي من تتنزّهُ معه، لا سيّما أنّها في اللّحظة الرّاهنة تجرُّ سيّدها ساحبةً أزمّتها.

أخشى أنّي لم أرَ جيّدًا فأشرعُ في متابعته بهدوء.

حالما يخرجُ الرّجلُ من البلدة، يجثو على ركبته ويحرّر كلابه الثلاثة. تبدو ممتنّةً وهي تلعقهُ ثمّ تنفضُ ظهورها وآذانها منتصبة.

أخمّنُ أنّه هو. فمن خلال الصّحفِ والبرامج التلفزيونية، علمتُ أنّه شغوفٌ بالكلاب وأنّه يؤلّفُ كتبه وهو يتنزّهُ طيلة ساعات. فجأةً تنفتحُ الطريق، تتوضّحُ وتمتدُّ على مرمى البصر. تتّسع السّماء والأرض، وتتمدّدانِ، هائلتينِ، إلى ما لا نهاية تقريبًا. لا شيء يحدّ الأفق.

لا أجرؤ على الاقتراب. ينحني الرّجلُ بانتظامٍ كي يلتقطَ غصنًا ثمّ يرميهِ لتجلبَه الكلابُ وهي تتنازعهُ بين أفواهها الثلاثة. تذهبُ الكلابُ وتجيءُ، تنكشُ الأرض، تتشمّمُ، متأهّبةً لالتقاط الأصوات والرّوائحِ ووجود أناس آخرين، أذيالها مرتفعة، وقوائمها رشيقة، متأهّب للحظة، وفي اللّحظة التّالية تركضُ، ثمّ تهرولُ كأنّ شيئًا لم يحدث وخطومها تتشمّم الهواء، متوتّرةً، مرنةً، متأمّلةً ومستعدّةً للانقضاض، متربّصةً ومتناغمة.

بينما يسلك الرّجلُ الطريق الذي أتفحّصُ تشعّباتهِ في ناحية التلّة، أفكّر في طريقة تمكّنني من اعتراضه ثمّ أختارُ السّبيل الأمثل لمفاتحته الحديث.

يتقدّمُ أحدنا من الآخر. لم يعد يفصلني عنه وهو يمشي بالهاتف سوى خمسين مترًا، وفي هذه المرّة أتعرّف عليه بوضوح. أبحثُ ساهيا عن عشرات الصيغِ وأرتاع. أمّا هو، فعلى العكس منّي تمامًا، يبدو هادئًا على نحوٍ مدهش، يوجّه كلابه بنظرةٍ أو همسةٍ، ولكن دون صراخ البلد. على بعد عشرة أمتار، يرنُّ هاتفه لحظة كُنّا نتهيّأ لتبادل التحيّة فيمسكه ويدخلُ مباشرةً في محادثةٍ محتدمة.

تتشمّمني الكلابُ وتُسلم نفسها لمداعباتي قبل أن ترحل لاستكشاف الخنادق المعشّبة.

يعترضني شميت، يوجّه إليّ ابتسامة من فمه وعينيه، ويمضي وهو يواصلُ محادثته. لقد أفلتّه! وأضعتُ فرصة لقائه. لقد خذلني الحظ، كما هو الحالُ دائمًا. ماذا أفعل؟ هل أمشي في أثره؟ أفكّر في ذلك لوهلة لكنّي أراهُ متعلّقًا بهاتفه، وهو يصاحبُ جُملَه بحركات خرقاء. إن ألححْ سأزعجهُ ويتجاهلني. لذا أبتعدُ محزونًا.

الحقيقة أنّي لم أعد أعرفُ إلى أين تحملني قدماي. فالسّبلُ تتواشجُ وتدورُ حول نفسها، دامجةً الدّروب داخل الحقول والمماشي تحت الشجيرات. يوسّخُ الطّين حذائي ويتسلّلُ إليه الماء تدريجيًّا.

أشعرُ بالبرد.

بعد خمس عشرة دقيقة من الضّياع، أدخلُ مسربًا، مستقيًا تقريبًا، وعند منعطفِ أجمةٍ، ألتقي الكاتب وجهًا لوجه.

أكادُ لا أصدّقُ ذلك. تتقافزُ كلابه سعيدةً بينما يدندنُ هو لحنًا ما، وحالما يبصرني يتوقّفُ ويفهمني بإيماءة أنّه يتذكّرني.

أصرّحُ بعفويّةٍ:

- هو ذا، ها أنت تملكُ الدّليل على كرويّة الأرض.

يضحكُ مأخوذًا بدعابتي.

أستأنفُ حديثي حرصًا منّي على ألاّ أضيع هذه الفرصة:

- أحبُّ كُتبكَ، سيد شميت.

يتوقّف عن الضحك. هل كان يتوقّعُ أن يتجوّل دون أن يعرفهُ أحد؟ لا يبدو عليه أنّه يحبّ تعرّف النّاس عليه. يحدّقُ فيّ وهو ينتقلُ من وضع المعجبِ إلى وضع المتجوّلِ المرحِ. ثمّ يبتسمُ متعمّدًا:

- هل تحبُّ كتبي. لن أقومَ بإحباطك. هذا يشهدُ على حسن ذوقك.

- لقد التهمتها كلّها.

- كلّها؟

يتساءل متشكّكًا ثمّ يُتابع:

- أنت تبالغ. أنا نفسي لا أعرفُ كم كتابًا ألّفت.

- أربعون.

- أربعون؟ حقًّا؟

يقولُ متنهّدًا وقد ارتسمت على وجهه ملامح القلق. ثمّ يبدي شرودًا متواضعًا.

- سيّد شميت، أريدُ خدمةً منك. الآن وقد عرفت أنّ الأرض كرويّة الشكل، يجب أن أقول لك إنّها لا تدورُ بطريقة صحيحة.

يضحكُ مجدّدًا. من المؤكّد أنّ هذا الرّجل يضحكهُ كلّ شيء. هل هذه الطبيعة المرحة منظومة دفاعية أم تعبيرٌ عن غبطةٍ داخليّة؟

تُبدي الكلاب الرّابضة عند قدميه مللَها في لباقة، وهي تعقدُ قوائمها الأمامية بصبرٍ.

- إنّ صحيفتي تسعى وراء ردود أفعال الشخصيّات المهمّة.

يأخذُ وجهه ملامح صارمة، ذلك أنّ مفردة «صحيفة» جعلته يستعيدُ رصانتهُ.

- أيّة صحيفة؟

أجيبه بصوتٍ مرتجف:

- صحيفة «الغد»، إنّها صحيفة مدينة شارلوروا.

يعبُسُ وهو يردّ:

- لا أعرفها.

- بلى، إنّك تعرفها. هي تلك التي تراها فوق مناضدِ متاجر المواد الغذائيّة، والصيدليّات ومحطّات البنزين والمحلاّت اللّيلية، بغلافها المرصّع باللّون الأخضر، إنّها الصحيفة التي تنشرُ الأحداث الرّهيبة ومآسي المشاهير.

- آه نعم... وهل ثمّة مكانٌ للثقافة فيها؟

- إنّي أناضلُ من أجل ذلك يا سيّدي. أتوقُ إلى أن أدفع النّاسَ إلى الاهتمام أكثر بالجوهريّ من الأمور، أن يتحمّسوا أكثر لما يفكّرُ فيه كاتبٌ كبير مثلك بدلاً من أخبار إدمان ملكة جمال النّشرة الجوّية على الشّرب أو حادثة طلاق لاعبِ كرةِ قدمٍ أو مغامرات

الحمقى في برامج تليفيزيون الواقع. هلاّ ساعدتني في نضالي من أجل الثقافة والمعرفة يا سيّدي؟ أحيانًا، أشعرُ أنّي أفعلُ ذلك وحدي!

ينحني ويربّت على كلابه، ذات العيون الذهبيّة، وهي تتشوّفُ نهاية محادثتنا. إذ يلامسُ فراءها، يستعيدُ شيئًا من الرقّة:

- يا لك من ماكر! أمام حجج كهذه، أجدني مضطرًّا إلى الموافقة. سجّل إذن رقم مساعدتي جيزال جيمايل، هي من يعتني بكلّ شيء يخصّني. إنّها تمثّل يَدَيَّ اليمنى واليسرى. سأعلمها باتّصالك وهي ستتولّى تحديد موعدٍ لك.

أتأمّلهُ وهو يبتعد. يمضي هو وكلابه بطريقة أخّاذة، معًا، كأنّهم يشكّلون جسدًا واحدًا. يبدو الرّابط الذي يوحّدهم أكثر عمقًا من الكلمات أو النظرات، مثل خيطٍ خفيّ يمنعُ الذَكَر الشابّ من الرّكضِ بعيدًا أو الإناث من التوقّفِ أكثر من اللاّزمِ فوق هيكلِ جرذ الحقول.

يمضي الموكب المشكّل من الرّجل وحيواناته، بهدوء وتناغمٍ وإشراقٍ تحت السّماء وقد جعلتها رياحُ الجنوب أكثر صفاءً.

طوال رحلة العودة، أحتوي حماستي بصعوبة. إنّي أنتصرُ! لقد حصلتُ على المقابلة المستحيلة. سيصفّقُ لي أفراد هيئة التحرير وسأتمكّنُ من إضافة معلوماتٍ إلى التحقيق الذي طلبته منّي القاضية بواترونو. لفرط تلهّفي للإعلانِ عن الخبر الرّائعِ لا تكاد عيناي تستقرّان على القرى والشوارعِ التي تقطعها الحافلة.

حالما أصل محطّة الحافلات، أهرعُ في اتّجاه مقرّ الصحيفة. وأنا أقتربُ

منه، أميّزُ سيّارات شرطة متوقّفة أمام بنايتنا وأضواؤها الأرجوانية تومضُ فوق الأسقفِ وأغطية المحرّكات.

أحثُّ الخطى وقد جلَب ذلك انتباهي وأسألُ أعوان الشرطة الّذين يسدّون المدخل:

– ما الذي يجري؟

ما إن يسمعُ المفتّشُ تيرليتي صوتي حتّى يخرج من الرّدهة ويشير نحوي:

– إنّه هو!

يحيطُ بي ثلاثةُ أعوان ضخام الجثّة، اثنانِ يمسكان كتفيّ، والثالثُ يجذبُ ساعديّ وراء ظهري. بينما يعلنُ تيرليتي وهو يصرُّ على فكّيه:

– أغوسطين ترولييه، إنّي أضعُك رهن الاعتقال.

وتنغلقُ الأصفادُ حول معصميّ.

-10-

يعقدُ تيرليتي ساعديه القويين وقد رفع كمّي قميصهِ إلى مرفقيه مُظهرًا عروقهما النافرة، والشعر المتين المزروع فيهما. ودون أن يتحرّك جفناهُ يُحدّق في وجهي وهو يستند بمؤخّرته إلى الطاولة.

لم يقل شيئًا، منذ ساعة كاملة... ولا أيّ شيءٍ.

أسمع صمته. إنّ صَمتهُ أكثر سطوة من كلماته. لم أتخيّل البتّة أن يقوم شرطيّ بالاستجوابِ وهو صامتٌ. وسط القاعة العارية، أشعُرُ، وأنا ملقى على مقعدٍ منخفضٍ، أنّ نظرته تسحقني. تثقبني عيناه، تعرّيني وتكشطني حتّى العظام. طيلة حياتي، لم أنزل إلى مستوى كهذا. هم لم يكتفوا باعتقالي وإنّما أيضًا لم يبرّروا ذلك بل إنّهم لم يطرحوا عليّ أيّ سؤالٍ. يعاملونني كحيوانٍ، يحبسونني، يراقبونني، يتجاهلونني ويعاقبونني. من أجل ماذا؟

وقد تملّكني الشعور بالإهانة، أقلّبُ في رأسي، مع كلّ لحظة تمرّ، مقدَارَ الأخطاء والظنون التي تحفل بها حياتي، وكأنّي بذلك سأعثرُ على الدّافعِ من احتجازي قيد التحقيق. بين جملة أكاذيبي، أعثرُ على الحميدة منها، وأيضًا المثيرة للاهتمام -تلك التي يمكنُ أن تثير اهتمام تيرليتي- لكنّي أحتفظُ بها، ما دمتُ لا أعرفُ عمّا يبحث.

يُعذّبني الانتظارُ وكذلك إحساسي بأنّي مذنبٌ، بل مُتعدّد الذنوب.
«لقد نجحت في ترويعي، سيّدي المفتّش! بقي أن تحدّد التّهمة التي تفضّلها هذا اليوم». كذا أحدّث نفسي لكنّ بقيّةً من الحسّ السليم تنصحني بالتسويف.

- هل لديك ما تودّ أن تعترف لي به؟

ينطقُ تيرليتي جملته أخيرًا، فأتلعثمُ وأنا أجيبهُ بعجلة:

- هل لديك أسئلة؟

يحكُّ ذقنه، يحدّقُ في السّقف، ثمّ يفرغُ ما في جعبته:

- لا.

- إذن، ماذا نفعلُ هنا؟

- إنّي أطرحُ على نفسي السّؤال ذاته.

مستغرقًا في التفكير، يتأمّلُ أظفاره الصّلبة، المدوّرة والقويّة. لديّ قناعة أنّه لا يقومُ بقصّها في غرفة الحمّام بل يُطوّعها.

- سأعترفُ لك بما ترغبُ في سماعه.

أفلتُّ جملتي مهزومًا.

- هل تعرفُ عائلة بدوي؟

- لا.

- ها قد بدأت بالكذب.

- لا...

- أنت تكذب! لقد عرفنا من خلال تسجيلات كاميرات المراقبة

المثبتة في مطعم «جنون الكباب» أنّك التحقت مساء يوم الأحد بمحمّد بدوي، شقيق حسين. وأنّكما تحدّثتما سويًّا لفترة طويلة.

- لقد التقيته صدفةً.

- صدفة؟ كم هي مدعاة للاندهاش هذه المكانة التي تحتلّها الصّدفة في حياة المجرمين...

- «مجرم»؟ ما هي الجريمة التي تتّهمونني بها؟

- نحنُ لا نتّهمك، بل نحقّق معك. قليلاً من الهدوء.

ينهضُ من مكانه يستندُ بظهره إلى إحدى زوايا الجدار ويواصلُ التحديق في وجهي.

- سأقومُ بحوصلة قائمة الصّدفِ التي تشكّلُ حياتك: تلتقي حسين بدوي صدفةً في ميدان أودان، ثمّ تتسكّعُ صدفةً في ساحة شارل الثاني زمن وقوع الهجوم. بعد ذلك، تتعشّى صدفةً مع شقيق القاتل وتعثرُ صدفةً على جهاز الحاسوب.

يصفّرُ بوقار.

- برأيك، أتحبّك الصّدفةُ أم تكرهك؟

- لا أفهمُ ما تقوله.

- ولا أنا أيضًا. في المُقابل، أُدرك تمامًا ما لا تقوله: أنت شريك حسين بدوي.

- هذا هراء محض!

- بل هذا كلام منطقيّ! ترافقهُ إلى ساحة شارل الثاني كي تحفّزه إلى النهاية. وإذ تتحقّق من أنّ العمليّة بصدد الإنجاز، تنأى بنفسك

عن الانفجار وآثاره. لقد حسبت الأمور جيّدًا: تُظهر أنك مصدوم في غياب الإصابة، فيقعُ التقاطكُ وإسعافكُ والإشفاق عليك. و توفّرُ لك منزلتك كمصابٍ هالةً من البراءة. هذا رائع! ولكنّ الخوفَ من أن يكون سكّان المنطقة قد شاهدوك إلى جانب حسين بدوي، يجعلك تتحوّلُ إلى شاهدٍ -وهذا قناعٌ جديد بعد قناع الضحيّة- وتقدّم لنا رسمًا مُجسّدًا دقيقًا لطمس جميع الآثار.

يعضُّ تيرليتي على شفتيه وقد أنعشت القصّة وجهه ذا الزّوايا. ثمّة شيء من الابتهاج الغاضبِ يجعلُ صوتهُ الخفيض جدًّا أكثر ارتفاعًا وإصرارًا وهو يُتابع:

- ثمّ تقرّرُ استعادة حاسوب بدوي فتتّصلُ بشقيقه وتلتقيان في مطعم «جنون الكباب». وفيما كانت عمليّة التسليم على وشك أن تتمّ -وهذا ما يؤكّده تسجيل الفيديو- يرانا محمّد قادمين، أنا ورجالي، فيرتعب منّا ويغلقُ على نفسه باب الحمّام. هناك، يخفي الحاسوب فوق صندوق الطرد بحذر وعند خروجه، يشرحُ لك عمليّة الإخفاء فتنتظرُ أنت أيضًا ابتعادنا نهائيًا مُلتزمًا الحذر نفسه. ويوم أمس، عُدتَ بصفاقة إلى المطعم، سرقت الحاسوب وهربتَ جريًا. إنّ تسجيل الفيديو يظهرُ ذلك.

- أنت تهذي! إنّك مخطئ تمامًا.

- أثبت لي ذلك.

- قصّتك يعوزها المنطق. فما السّبب الذي يدفعني إلى ذكرِ والد حسين؟

- لقد ارتكبت خطأً: أوّلا فكّرت في اتّهام أحد أفراد العائلة، ابن عمّ، أو عمّ ثمّ وقعت على الأب المتوفّى. وهذا ما يفسّرُ تصحيحك لخطئك بجلب الحاسوب.

- أصحّحُ ماذا؟ لو كنتُ أتآمر مع الإرهابيّ، لماذا أعهدُ إليك بحاسوبه؟

- لقد قدّمتهُ لنا بعد أن مسحت ذاكرته. إنّ بصماتك تتركُ دهونها فوق كلّ زرّ من أزراره. ما يدلّ على أنّك قضّيت عدّة ساعات وأنت تقوم بذلك.

- لقد استخدمتهُ لأنّي رغبتُ في الاحتفاظ به مثلما سبق لي أن أخبرتك.

- تحتفظ به للآخرين!

- لقد أحضرتهُ لك!

- هذا مكرٌ منك... إنّه يعزّزُ نظريّتك. ولو لم أشكّ في ذلك لكنّا صدّقناها.

- أيّة نظريّة؟

- نظريّة أنّ حسين كان يتحرّكُ وَحْدَهُ، وأنّه ذئب منفرد. أمّا الحقيقة فهي أنّك قمت بمحو آثارك وآثار شركائك.

- لستُ إرهابيًّا ولا شركاء لديّ.

- كلّكم تقولون هذا.

- من نحن؟

- الإرهابيّون. تغلقون أفواهكم ثمّ تنكرون.

- كنتُ صامتًا لأنّك لم تطرح عليّ أسئلة. وسوف أنكرُ إلى النّهاية

- طبعًا، طبعًا.

- أنا بريء!

- هذا ما يقولهُ الجناة!

- بماذا يصرخُ الأبرياء إذن؟ أنت تصيبني بالجنون.

- أوه لا، أنا أعتقد أنّك صلبٌ بما يكفي.

- أنا لم أمسح ذاكرة حاسوب بدوي.

- بلى!

- حسنًا، أنا جاهلٌ بالمعلوماتية. أنا لا أستخدم سوى أجهزة الحاسوب الجماعيّة. لم يسبق لي أن امتلكتُ واحدًا.

- أعرفُ هذه الأغنية، ستحاولُ إقناعي بأنّك مغفّل. إنّه نظام دفاع تقليديّ.

- ولكن لا، أنا أحمق حقًّا!

- ليس إلى هذه الدرجة!

تضعُ لهجتهُ الحاسمة نقطة النّهاية للمحادثة. لا طائل من البرهنة فهو لن يستمع إليّ بعد الآن.

يُقرَعُ الباب، ثُم يدخل أحد الأعوانِ ويسلّمه ملفًّا أخضر اللّون يطّلع عليه بطريقة توحي لي بأنّي في نظره لم أعد موجودًا. هل أدركَ أنّ أسوأ أنواع العنف الذي يمكنُ أن يمارس عليّ هو اللاّمبالاة؟

ولكي أحبطهُ أنا أيضًا، أتّخذُ هيئةً هادئةً بلهاء وغير معنيّة مطلقًا

باستراتيجيّاتهِ القصيرة النظر. لكنّه لا يتراجعُ عن إخافتي. يطلقُ همهمات قصيرة وهو يقرأ الأوراق ثم يعيدها، في كلّ مرّة، بعناية إلى الملفّ المصنوع من ورق مقوّى قديم وناعم. ويتأخّرُ متعمّدًا عند عدد من الصّفحاتِ وكأنّها تحملُ إليه معلومات جوهريّة، وإضافة إلى كلّ ذلك يعمد إلى السّخرية.

أظلُّ هادئًا.

بعد عشرين دقيقة، وإذ ينتهي إلى أنّي لم أتأثّر بعرضه المسرحيّ، يقتربُ منّي.

- هل تعرف ما يحتويه هذا الملفّ؟

لا أتحرّك.

- إنّه يحتوي على سيرة حياتك، منذ ولادتك إلى سنتك الثامنة عشرة.

- وبعد؟

- إنّه يصفُ يتيمًا مثاليًّا لم يسبّب مشاكل للمجتمع.

- أوه عذرًا، هل كان عليّ أن أفعل ذلك؟

يبدي دهشتهُ أمام سخريتي، فأواصلُ باللّهجة نفسها:

- هل تقودُ سيرة حياتي إلى الإرهاب؟ كم هي نسبة اليتامى الذين يتطرّفون؟ هل يساوي اليتيم ضحيّة أم مجرمًا؟ أخبرني.

ترتسمُ على وجهه ابتسامة وقد شعر بالرّضا لحنقي.

- أوه، إنّ هذا الحمل يعضّ!

يسقطُ الملفّ بقسوة فوق الطاولة.

- لا شكّ أنّك عانيت من غياب الأب في حياتك، يا أوغسطين.

تنزل جملته عليّ كصفعة، فتنطلق إجابتي:

- هذا يتوقّفُ على نوع الأب. ثمّة آباء سيسرّني ألاّ أكون من أصلابهم.

- هذا لا يمنعُ ذلك. إنّ الأب ضروريٌّ لنموّ الطفل.

- الطّعامُ يفي بالحاجة.

- إنّ الأب يعلّم طفله القوانين، ويشرحُ له ما يمكنُ أن نقوم به وما يجبُ أن نتجنّبه. إنّه دورٌ عظيم الأهميّة، ذلك أنّ الأب يجهّز ابنه للحياة خارج المنزل، أي داخل المجتمع.

- في نظري، البيتُ يتطابقُ مع المجتمع طالما أنّي تربّيتُ في مؤسّسات عمومية. لقد تحصّلتُ على تدريبٍ اجتماعي سريع. صدّقني إن قلتُ لك إنّي متمكّنٌ من حقوقي وواجباتي وإنّي قد استوعبتها من تعرّضي المُستمرّ للتوبيخ والعقوبات. هم لا يمزحون في تلك المساكن. باختصارٍ، لقد كبرتُ دون الحاجة إلى أب...

- «ولكن من ناحية أخرى، إنّه لَمِنَ القسوة أن تكبر دون أمّ». يهمسُ مُعلِّقًا.

أشعرُ بالاستياء من المنحى الذي أخذته المناقشة، فأحدّقُ في عينيه مباشرةً. ينتاب جسدي البرد وتُغذّي أطرافيَ قوّةٌ عنيفة. يجبُ أن أتمالك نفسي.

- أكرهُ مشاعر الشفقة. وأكرهُ أكثر تعاطفك الزائف. أنت لم تجلبني

إلى هنا لتشعر بالشفقة على مصيري، أنتَ قمتَ باعتقالي.

- أوه، أوه... إنّ أفكارك تغدو أكثر صفاءً.

- ما الذي تلومني عليه؟

- أين تسكنُ؟

- لا منزل لديّ. أعيشُ في مكان مهجور.

- لماذا؟

- لماذا في رأيك؟

- ولكنّك تشتغل.

- بل قل إنّي أتلقّى تدريبًا دون أجر.

- مع ذلك أنت تتحصّلُ على الحدّ الأدنى المضمون للدخل من الدولة.

- لقد سرقوه منّي. الحقيقة أنّي منذ أشهر قليلة اخترتُ أن أنام في المساكن العشوائية كي أدّخرَ أكبر قدر ممكن من المال. كنتُ أحلمُ باستئجار شقّة صغيرة. ولكن، منذ ثلاثة أسابيع، قام أحدهم بسرقة مدّخراتي ليلاً.

أتوقّعُ ردّ فعله على قصّتي الحقيقيّة... وتمامًا كما توقّعت، يلوي قسمات وجهه قائلاً:

- لا أصدّق حرفًا ممّا تقول.

ها إنّ ما توقّعته يحدث! أذوبُ في مكاني. ويواصل هو دقّ المسمار:

- لا تحاول إقناعي بأنّك بلغت هذا المستوى من التّلفيق! هذا

كثير! لن ينطلي عليّ ما تقول...

تدفعُ ملاحظته بالدّموع إلى عينيّ. أمام انعدام ثقته، أدركُ أنّ حياتي تُختزلُ في سلسلة من الكوارث الكثيرة والمتواصلة إلى درجةٍ تجعل قصّتي تبدو كذبةً فظيعةً وخياليّة. هل تيرليتي على حقّ؟ هل أنا أحمق؟ أتنهّد.

يميلُ نحوي محذّرًا.

- أرِح نفسك يا أوغسطين. قل لي كلّ شيء. قل لي إنّ إحساسك الكبير بالعزلة جعلك تفضّل الانضمام إلى مجموعة إرهابيّة. قل لي إنّ حياتك اليومية تفتقدُ إلى المعنى، ما جعلك تأمل أن توفّرهُ لها عبر الالتزامِ بقضيّة مّا. قل لي إنّك قرأت القرآن وأحببته. قل لي إنّك تطمحُ إلى إصلاح هذا العالم المريض من خلال استبداله بآخر أكثر طهرًا وصلاحًا. ستبدو معذورًا... ونظرًا إلى مَا تحمّلتهُ منذ طفولتك، سأقدّر أنّه من الطبيعي أن تأتمن على خلاصك حزبًا دينيًّا متحمّسًا ونشطًا. أنت تملك كلّ ظروف التّخفيف. سيفهمك الجميع وأنا أوّلهم.

أحدّق فيه، ويداي ترتعشان.

إنّهُ يسيء معاملتي ولكنّه يهتمُّ لأمري. يعنّفني بشغفٍ. ومع أنّي أفلتُ منه، فإنّه يُجهدُ نفسه بفكّ طلاسمي.

يا لها من رقّة، في الأعماق...

أخفضُ عينيّ وأستنشقُ رائحتهُ.

تمتزجُ رائحة التبغ بعطرٍ يشبهُ المسك، بينما في الأسفلِ، تنتشر

هنا وهنالك روائح لاذعة، دافئة، وذكوريّة، تخبر عن جسده المفعم بالحيويّة والتوتّر. لا أشعر بأيّ امتعاضٍ من رائحة عرقه، بل إنّ فحولته تشملني. أحبّ أن يقف قريبًا منّي. لستُ معتادًا على هذا. لَكَمْ أحبُّ أن يكون لي أبًا... أتلقّى حرارتهُ وأفتحُ لها مسامّي. إنّه يجعلني اضطربُ ويُلهمني.

وقد وقعت في شراكِ إحساسي الحميم، أرغبُ في الاستسلام له، أن أخبره بكلّ ما يريد، وأن اخترع تلك الأكاذيب اللّطيفة التي سيشكرني عليها. هكذا سأتمكّنُ من المحافظة على تقاربنا. وهكذا سأضعُ نقطة النهاية لهذا الانتظار العاجزِ وسط قاعةٍ شنيعةٍ وفارغة.

- إذن؟

يسألني بصوتٍ أبحّ وكأنّ خجلي أصابه بالعدوى. وإذ أرفعُ جفنيّ أبصرُ شيئًا من الخبث يتوهّجُ في عينيه. إنّه ينتظرُ لحظة سقوطي.

- إذن؟ لا شيء...

في اللّحظة الأخيرة، وبينما أستعدُّ للغرق في اعترافات كاذبة أمسكُ نفسي، لأظلَّ مترنّحًا على حافة الهاوية.

تظهرُ المرارة على وجه تيرليتي.

في أعماقي، أشعرُ بارتياحٍ شبقٍ. ذلك أنّي وأنا أخيّبُ أمله أمارسُ عليه قدرًا من السّلطة أكبر ممّا كان سيتسنّى لي لو أنّي أقوم بإرضائه.

يعتدلُ في وقفته. أراهُ يحومُ قليلاً. وبعد ذلك يأخذُ قراره ويغادر.

- سأتركك لبضع ساعات كي تفكّر. مَنْ يَبحثْ يَجِدْ.

بعد طول انتظارٍ يقدّمُ لي أعوان الشرطة شطيرة وبعض الماء.

عندما عاود تيرليتي المرور في الرّواق، سمعته يسألُ الحارس:

- هل أكل شطيرته؟

- أجل.

- دون اعتراض؟

- أجل.

- دون تردّد؟

- أجل.

- اللّعنة!...

ثمّ غادر مرّةً أخرى.

أستغرقُ دقيقةً كي أفهم سرّ خيبة أمله: لقد قدّموا لي شطيرة بسجق الخنزير. وأيّ مسلمٍ أصوليٍّ سيرفضُ ذلك، أمّا أنا فلا. وهو ما ينسفُ فرضيّتهُ حول التطرّف.

يأخذونني إلى زنزانةٍ، هي عبارة عن قفصٍ من الجصّ وقضبان بلا نوافذ، تفوحُ منها رائحة القيء ومواد التنظيف.

أستلقي على اللّوح الخشبي المُعتمد كسرير، وأنتهزُ الفرصة لأنام نومةً تغزوها الكوابيس.

وبعد وقت لا أستطيع تقديره -لأنّ ساعتي قد صودرت- يقودني شرطيّان مجدّدًا إلى غرفة التحقيق.

يبدو تيرليتي -وهو جالس فوق كرسيّ هذه المرّة- مصمّمًا. يستقبلني دون أن ينظر إليّ ويأمرني بالجلوس دون أن يُضيع ثانية واحدة.

- أين التقيت محمّد بدوي، شقيق حسين الأصغر؟
- التقيته في حاوية قمامة. كنتُ أفتّش فيها بحثًا عن الطعام.
- وهو ماذا كان يفعلُ في هذه الحاوية؟
- كان يبحثُ عن حاسوب أخيه.
- أيّ حاوية؟
- قرب مصنع اللّوالب، تحت الطريق الدائريّة، قربَ المأوى الذي أعيشُ فيه.
- هذا يتطابقُ وإفادة محمّد بدوي.

أخمّنُ أنّ المراهق عانى مثلي من ساعات الاستجواب نفسها. وبكلّ عفويّة، أرقّ لحال ذاك الذي على صغر سنّه يعاني من مآسٍ كهذه بسبب أولئك المحيطين به. ولا ألبث أن أضيف:

- ولكنّي عثرتُ على الحاسوب قبل قدومه ووضعتهُ جانبًا. لقد أردت أن أحتفظَ به لنفسي.
- لماذا لم تخبرنا بالحقيقة على الفور؟
- لن أقرع الأجراس كي أخبركم أنّي أبحثُ عن مأوى داخل المباني المهجورة وأطعم نفسي من القمامة. فأنا لديّ كرامة.
- إنّ «كرامتك» جعلتك مشتبهًا به.
- حقًّا؟ هل انتهى الأمر؟ ألم أعد مشتبهًا به؟

من فرط الاستياء، تنتابُ تيرليتي نوبةُ سعالٍ. إنّ قفصه الصدريّ يجعل صدى سعلته كأنّه قادم من كهف. هو ذا يختنقُ. لَكَمْ يجد مشقّةً في الاعتراف بأنّه أخطأ!

- لقد رفضت قاضية التحقيق أن نمدّد في فترة احتجازك. من وجهة نظرها نحنُ نفتقرُ إلى الأدلّة. ولكنّ هذا لا يعني أنّك بريء. إنّي أراقبك يا صغيري. ولم أنته منك بعدُ. ومهما فعلت، ستقعُ بين يديّ. هيّا، إلى الخارج!

أنهضُ ببطءٍ. أفشلُ في إبعاد عينيّ عن الملفّ الأخضر -المصنوع من الورق المقوّى الناعم- الذي يحتفظُ به عنده. عند عتبة الباب، أتوقّفُ وأسأله:

- هل في ملفّك ما يشيرُ إلى هويّة والديّ؟

يشحبُ وجه تيرليتي وهو يحاول التثبّت ممّا سمع:

- أرجو المعذرة؟

- أنا حتّى السّاعة لا أعرف من هما والداي البيولوجيّان.

ينظرُ تيرليتي إلى طرف حذائه المدبّب.

- ربّما طلبا عدم الكشفِ عن هوّيتهما.

- ربّما؟

- بل بالتأكيد.

يؤكّد لي انزعاجهُ أنّ الملفّ الذي يضمّهُ إلى صدره على نحو يمنع الوصول إليه، يحتوي على المعلومة.

- رجاءً قل لي إن كان يحتوي على اسميهما.

- هذه المعلومة غير موجودة في الملفّ.

نتبادلُ النظرات.

- أنت تكذب أكثر منّي، سيّدي المفتّش تيرليتي.

أقول وأغادر.

في الخارج، يجنّ اللّيل. ليس ثمّة مطرٌ ولكنّ الضّباب يغطّي الأرض بطبقة رطبة. كلّ شيء ثقيل، الهواء، والظّلال، وأضواء مصابيح الشّارع وهي تخترقُ بصعوبة هذه الرّطوبة اللّزجة، والدمدمة النّاعمة للسيّارات إذ تعبرُ البرك المظلمة. يجري الماءُ في عروقي أيضًا. لم تبقَ لي من طاقة. أشعرُ بالجوع وبرعشات تجتاح ظهري. أغادرُ مبنى الشرطة بخطى مترنّحة.

- نلتقي قرب تمثال الجنديّ الذي يحملُ حمامة[1].

يوشوشُ صوتٌ بهذه الرّسالة في أذني ويحتكُّ بي صاحبه قبل أن يبتلعه الضّباب. وإذ أدرك أنّ محدّثي هو القاضية بواترونو أسأل:

- نلتقي قرب التّمثال؟ متى؟

- صه!

أهتف مضطربًا:

- أوه، أعتذرُ منك سيّدتي.

- يجبُ ألاّ نكشف أنّنا نتقابل..

يهمسُ الهيكلُ الذي أصبح لامرئيًّا ثمّ يضيف:

- أراك لاحقًا يا أوغسطين.

(1) Le pigeon soldat: تمثال في قلب مدينة بروكسال يخلّد دور مربي الحمام وحمامه الزّاجل إبّان الحرب العالمية الأولى.

أسمعُ صوت باب سيّارة يصفق ثمّ يليه صوت انطلاقها. هل هي سيّارتها؟

أنزلُ في اتّجاهِ حديقة «الملكة أستريد». وعيناي مثبّتتان في الأرض، وأنا أتفادى المارّة النّادرين الذين أعترضهم. هل يدركون أنّي أخرجُ من السّجن؟

الحديقةُ نائمة. وأنا أمشي بمحاذاة السياج، أتحسّر على رحيل فصل الصيف، حين كان الطقسُ اللّطيف يسمحُ لي بالنومِ فوق إحدى مصاطب الحديقة. أمّا هذا المساء فها إنّي أغلقُ معطفي الواقي بإحكام، وقد أصابني الإرهاق، وأتوقّفُ تحت العمود الشاهقِ من الحجر المنحوت الذي يعلوه مجسّمٌ برونزيّ لحمامة.

أسمعُ صوت زوجيْ حذاءٍ بأعقابٍ حديديّة يضربان الإسفلت بقوّة، ثمّ تبرزُ القاضية بواترونو من الضّباب الكثيف وتلتحقُ بي لنجلس في الظّلامِ فوق حائط حجريّ قصير قبل أن تقول بإعجاب:

- كم أحبُّ هذا المكان! هل لاحظت أنّه النصب التذكاري الوحيد المخصّص للموتى دون أن يحمل أسماء؟

- أوه...

- إنّها فكرةٌ نبيلةٌ أن يتمّ تكريمُ الحمام الذي حارب وأنقذَ أرواحًا في البحر وفي الصّحراء ونقَل التّعليمات بين الجيوش، وأفلَت مرارًا من حريقٍ أو من تدفّقٍ غازيٍّ لينقل الرّسائل المهمّة، حتّى إذا وصل إلى مربّيه مات، إنّه بطل!

- لقد تمّ تدريبه. لم تكن له درايةٌ بما يقوم به.

- ومن له درايةٌ بما يفعل؟ من له دراية بما يقول عندما يعبّر عن نفسه؟ بل قل من يتكلّم داخلنا عندما نتكلّم؟ أنت يا من تَرى الموتى بصدد تقديم المشورة للأحياء، يجب أن تشكّ في ذلك.

تستديرُ نحوي وتلمسُ يدي:

- هل كانت تلك الإقامة في السّجن قاسيةً؟

- تيرليتي يكرهني. إنّه يراني مذنبًا.

- فلينظر إلى نفسه أوّلاً.

- أرجو المعذرة؟

- كلامي واضح.

تحرّكُ أصابعها فوق ركبتيها.

ينقشعُ الضّبابُ ونتأمّلُ، عند نهاية الحديقة، القمرَ بين الأسطح وقد أحاطته هالةٌ عريضةٌ بلون الكاراميل.

- ماذا عن مرافقكِ الوفيّ ميشان؟

- ميشان؟ أوه، المسكين...

تضعُ علبةَ حلواها في راحتها اليسرى.

- لا حاجة إلى أن أعرض عليك واحدةً، أليس كذلك؟

- سألتهمها بكلّ سرور. فأنا أكادُ أموت من الجوع.

تواصلُ هزّ العلبة دون أن تسقط منها أيَّ قطعة.

- لا حظّ لديك. لم يبقَ منها المزيد. آسفة.

أبتلعُ ريقي بانزعاج.

- أوغسطين، هل أخبرتَ تيرليتي بما تراه من خلال الوجوه؟

- لا.

- لا تحدّثه عن ذلك أبدًا.

- أعدُكِ. هو يعتقدُ بالفعل أنّي أبله. ولا داعي لتأييده أكثر.

- إنّ تيرليتي يمثّلُ ذلك الكائن العاديّ المُنتصب على قدمين، ذلك الكائن الذي وقع تدجينه، وهو ما يجعله مفيدًا تمامًا في عالمنا، فهو يتشمّم الأشياء بأنفه الملتصق بالأرض حتّى أصبح خبيرًا في التفاهة، وذلك يضمنُ له الهيبة في مجتمع السّطح، بل وحتّى الجاذبيّة. أليس كذلك؟

لشدّة استنكاري لما يقومُ به تيرليتي معي أكاد أعترض على ما تقولهُ القاضية بكلّ رِضًى، ولكنّي أتذكّرُ إحساسي عندما مال نحوي فأقول مُقِرًّا:

- صحيح، أعترفُ بهذا.

- من وجهة نظرنا، نحنُ النّساء، يمتلكُ تيرليتي شيئًا مّا من ذلك الذَّكَر البدائيّ الذي يستفزّنا بتفكيره القديم، إنّه يستدرجُ هرموناتنا ويوقظُ بويضاتنا. وذلك عائدٌ إلى أمرٍ لا أعرفُ كنههُ... لبدة شعره البنّيّ المزروع بنعومةٍ فوق جمجمته... جفافه العضليّ... حرارته... مزاجه المحتدمِ الذي يعلنُ عن حريق... طاقته الداخليّة التي تظهرها كميّة الشعر في جسده... إنّهُ يبدو مثيرًا للقلق وللطمأنينة في الوقت نفسه، في منزلة بين الكلب الذي يحمينا والذئب الذي يهدّدنا. إنّه جذّابٌ جدًّا... وأنتم

الرّجال، كيف ترونه؟

- امم... إنّ لتيرليتي جسدًا منسجمًا مع يقينيّاته، فجسده قويٌّ وممتلئٌ. وقناعاتهُ ثابتةٌ مثل يديه. إنّه يبدو لي فحلاً إلى حدٍّ لا يمكن أن أكونه أبدًا.

- هل برهَن لك أنّه لديك السّمات المناسبة للتطرّف؟

- صحيح.

- لئن أخطأ بخصوص الجوهر، فإنّه لم يجانب الصّواب بخصوص التفاصيل. فمع كلّ ما عشتهُ، وبالأخصّ ما لم تعشه، كان يُفترض أن تكره المجتمع.

- لماذا؟

- لما أصابك من تهميش منذ ولادتك.

- ولماذا ألوم المجتمع على هذا؟ لقد قام المجتمعُ بتصحيح خطأ والديّ.

- واليوم أنت تبحثُ عن عملٍ ولا تجدهُ، بيغارد يستغلّك، تنامُ في العراء وتتغذّى بطريقة سيّئة. إنّ مثل هذا بإمكانه أن يفضي بك إلى الإحباط، وإلى تبنّي الأفكار البسيطة وانتقاء أكباش فداء كي تبرّر هزيمتك، وإلى أن تتطرّف وتصبح عنيفًا. ولكنّك واصلتَ التصرّفَ كولدٍ صالح.

- شكرًا.

- أنت تُقدَّمُ فريسةً مثاليّةً إلى العنف، لكنّ العنف لا سلطة له عليك. لماذا؟ هذا ما يغيب عن ذهن تيرليتي. هو يغرقُ في كلّ

ما هو اجتماعيّ ونفسيّ وسياسيّ، ويلتصقُ بالظروف. يدرسُ الـ«كيف» خالطًا بينه وبين الـ«لماذا». بينما يظلّ السّؤالُ الرئيسي هو «لماذا؟». لماذا نجوتَ بجلدك من التطرّف والأصوليّة والحقد والغضب؟ لماذا؟

تنظرُ إليّ ثمّ تقول بصوتٍ عالٍ دون أن تنتظر إجابتي:

- إنّما نجوتَ لأنّ الربّ لم يتدخّل في شؤونك.

أرتجفُ. وتواصلُ قائلةً:

- يا لك من سعيد يا أوغسطين. لقد تركك الرّب وشأنك.

تهزُّ علبة حلواها ناسية أنّها فارغة وإذ تنتبه لذلك تطلق صوتًا:

-آها!

لا تُبدي امتعاضًا كبيرًا من سوء الحظّ، بل تشيرُ إلى المدينة حولها.

- حسب رأيي، هنالك صنفان من البشر. أولئك الذين يتركهم الربّ وشأنهم. وأولئك الذين يتحرّش بهم. أنت موجودٌ في المجموعة الأولى. وهذا جيّد! لقد نَجَوْتَ بجلدك.

- هل هذا راجع إليّ أم إليه؟

- أرجو المعذرة؟

- أنا لا أثيرُ اهتمام أحدٍ من بني البشر. هل تعتقدين أنّي أترك الأثر نفسه لدى الربّ؟

- إنّه يتجنّبك.

- هل هذا متأتٍّ منّي أم مُتأتٍّ منه؟

- بل مُتأتٍّ منه! أنتَ لستَ مسؤولاً عن هذا. إنّ الإيمان لا يأتي

من البشر بل من الربّ. فهو الوحيد الذي يمنحهُ أو ينزعهُ.

- لماذا لا يوزّع الإيمان على الجميع؟

- لا أفهم سؤالك. ولماذا يوزّعهُ على الجميع؟

- سيكونُ هذا أكثر إنصافًا.

- ولكنّ الربّ ليس مُنصفًا.

- سنكونُ جميعًا متساوين.

- وهذا ما لا يحبّه. إنّه يُمضي وقتهُ في الانتقاء والاختيار والتعيين.

- وهل يمنحُ الإيمان لأولئك الذين يستحقّون ذلك فحسب؟

- مطلقًا! إنّ أفضل البشرِ، هو أكثرهم كرمًا وشجاعةً وبصيرةً، ذلك الذي يستحقُّ مباركة كلّ عملٍ يعملهُ، قد لا يحصلُ مطلقًا على الإيمان. لقد قابلتُ كائنات رائعة تعيشُ على هامش لا مبالاة الربّ. وحتّى المتديّنون لم تشهد غالبيّتهم حضوره بينهم. خذ لك مثلاً الأمّ تيريزا التي كرّست حياتها لمنبوذي كالكوتا...

- ألم تكن مؤمنة؟

- كانت تريدُ أن تؤمن ولكنّ الربّ بقي غائبًا وصامتًا، فلم تحظ بزيارته البتّة.

- ولكن ألا تُعدُّ الرغبة في الإيمان، إيمانًا بالفعل؟

- الرّغبة في الإيمان تكشفُ عن شهّيةٍ بقدر ما تكشفُ عن تخلٍّ، وعن طموحٍ بقدر ما هو فشل. الرّغبة في الإيمان تشبهُ اليأس. إنّ الكائنات ترغبُ في الإيمان ولكنّها تُلحد بدافع الضغينة. أكرّرُ

فأقول: إنّ الإيمان يأتي من الربّ وليس من الإنسان.

– هذا يعني أنّ الربّ ظالمٌ.

– النّصوص المقدّسة لا تتحدّث عن خلافِ ذلك.

– وأنّ الربَّ قاس.

– لقد دوّن ذلك بوضوحٍ في الآيات والسّور.

– وأنّ الربّ بخيل.

– فلنقل إنّه يقتصِد. هو يعرفُ البشر جيّدًا لاسيّما وأنّه من خلَقهم، يعرفُ أنّ أغلبهم لا يفكّرون بل يكتفون باتّباع المسيرة. ونظرًا إلى أنّهم لا يتأمّلون، فإنّهم يستغرقون في أوهامهم. إنّ غريزة الدّهماء تتحكّمُ في القطيع. فتتقدّم البشريّة وهي تجترُّ كالخرفان، ما يجعلها أتفه من أن يهتمّ الربُّ لأمرها. ولذلك هو لا يتوجّهُ إلاّ لأقلية، لنا أن نُسمّيها حلقة الزّعماء.

تضحكُ وتتابع:

– أمّا عن أولئك الذين يبنون أفكارهم بعقلانيّة، وعددهم قليل، فإنّ الربّ لا يهتمّ لأمرهم هم أيضًا، ولكنّ السّبب هذه المرّة أنّه لا يقدرُ على التأثير فيهم.

أنظرُ إليها. إنّها تفكّرُ بسهولةٍ، كما لو أنّها بهلوانٌ يتحكّمُ في كُراته.

– هل تؤمنين بالربّ، سيّدة بواترونو؟

– لا أؤمن به. ولكني أدركُ أنّه موجود.

– ألا يُعدُّ هذا إيمانًا؟

- بل يُعدُّ خوفًا.

تضعُ يدها فوق فخذي. وبينما تسعى بهذه الحركة إلى طمأنتي، أشعرُ برجفة الخوف بين سلاميّات يدها.

- يحدث مع بعض النّاس أن يقودهم ما يرونه من جمالٍ وذكاءٍ وطيبةٍ في الكون إلى الربّ. أمّا أنا، فما يقودوني إليه هو الشرّ.

تضغطُ بأصابعها على ركبتيّ وهي تستطرد:

- عندما يتردّدُ البشرُ في اقترافِ الشرّ، فإنّ الربّ يساعدهم. إذ أنّ المذابح والحروب والإبادة الجماعيّة والمحارق والإعدامات والتفجيرات ومحاكم التفتيش والإرهاب الأصوليّ، هي براهينُ الربّ في الأرض.

تقرّبُ وجهها المتألّم منّي وتسأل:

- إلى أين وصلتَ في تحقيقك؟

-11-

يستقبلنيُ مصنعُ اللّوالبِ المهجورُ كما لو أنّه اشتاق إليّ. حالما أجتازُ السّور وأخطو داخل المكان، يطرد الغربان، ويكشفُ عن وجه القمر، ويقود خطواتي، ثمّ يُغلّف الورشة التي سأصعدُ إليها بالصمّتِ، ويُسدل ستائر الغيوم كي يُهيّئ لي ظلمةً مناسبةً للنّوم. أتأثّر للقائي مُجدّدًا بحقيبتي وملابسي القليلة وكرّاساتي حدّ البكاء. وحولي، تحرسُ النوافذ العالية ذات البلّور المكسور المكانَ وكأنّها تسهر على راحتي، وتوفّرُ لي الجدرانُ، بسنواتها المائة، الحماية من الرّيحِ وتقلّب الطقس. لقد وقع الاحتفالُ بعودتي. إنّ هذه اللّيلة نقيض ليلتي الأولى، تلك التي كنت فيها دخيلاً فسمعتُ شتّى أنواع الصّفير الغريبِ مُتأتّيةً من السّقفِ والأرضيّات.

بوسع الإنسان أن يجعل الجمادات تتكلّمُ، أعرفُ هذا، أمّا أنا فإنّي أدفعها حتّى إلى الثرثرة. ففي ظلّ استحالة أن تقول لي راضخةً: «أنت تملكنا»، هي توجّهُ لي مشاعرَ شتّى. هل تتحدّث بهذه الطريقة مع رجل غنيٍّ يعودُ إلى بيته؟ ربّما هو الامتلاك من يجعلُ الجمادات خرساء؟

يا لحظّي! طالما لا أملكُ شيئًا، فإنّ كلّ شيءٍ يبدو لي مضيافًا.

في الصّباح، أستيقظُ سعيدًا. ومع أنّي لا أتبيّنُ سببًا خاصًّا للفرحِ، أحسُّ داخلي بهذا الهدوء المتخمِ الذي يلي نوبات البكاء. أتأمّلُ العقار

القفر. إزاء تدنّي برودة الرّيحِ، أخمّنُ أنّ الرّبيع ينتفضُ وأنّ النباتات ستنتقلُ قريبًا من الموتِ إلى الحياة، وأنّ طاقةً تعاندُ وتتدفّقُ وتكبرُ وهي تتسللُّ إلى عروق الأحياء. ترتفعُ أوراق العشب المصفرّة نحو السّماء التي تبدو صافيةً جدًّا. وفي كلّ لحظة، أسمع ألحانًا وأغاريدَ وزقزقات تجلجلُ بين الشُجَيْرات. أتركُ نفسي لهذه النشوة دون موجبٍ لذلك.

وأنا أسيرُ نحو المحطّة كي أغتسلَ في دورة مياهها، يبتسمُ لي الصّباحُ، وتدندنُ داخلي أغنيةٌ حماسيّة، أرى نفسي قويًّا مثل عملاق وقادرًا على إيقاف شاحنةٍ بطرف ذراعي والقفز فوق الحواجز، بما في ذلك الأسيجة الضّخمة التي تحمي السكّة الحديديّة.

الأطفالُ الذين ألتقيهم في الطريق إلى المدرسة يهزّون رؤوسهم في حبور، لا قلق في أعينهم ولا عبء، ولو ضئيلاً، يثقلُ أكتافهم. أفكّرُ في جملة القاضية بواترونو: «لقد تركك الرّب وشأنك». أراني حُرًّا، حرًّا إلى ما لا نهاية، حُرًّا حدّ الثمالة. إنّ الربّ يتَجاهَلني ولكنّه لا يفسدُ عليّ حياتي. ومع أنّ الحظّ والأمن يخذلانني، فإنّي في المقابل تلقّيتُ هذه النّعمة الغريبة في أن أكون حيًّا دون تدخّل منه. إنّ إصبع الربّ لم تتعرّض لي.

بعد اغتسالٍ سريعٍ وسريٍّ، أصلُ إلى الصحيفة بمزاجٍ قادرٍ على مغالبة المصاعبِ الأكثر جسامة. ومن حُسن المصادفة يُحاصرني بيغارد حالمًا أتجاوز عتبة قاعة التحرير:

– أخيرًا، أطلقوا سراحك!

– لا يُعدّ إطلاق سراحٍ لأنّهم ببساطة لم يسجنوني مطلقًا. لقد

حققوا معي ليس أكثر.

- ولكنّ الاحتجاز قيد التحقيق يخصّ المشتبه بهم دون الشهود.

- هل تريدُ ألاّ أشتغل هنا بعد الآن؟

يتجمّد بيغارد في مكانه. لم يكن ينتظرُ أن أكشف له ما كان يفكّر فيه. فجأةً، ألعبُ ورقة «المفاجأة» لصالحي:

-سيّد بيغارد، إنّي أتفهم ذلك. فأن تأوي الصحيفة صحفيًّا تضايقه الشرطة وتشكُّ في أنّه يمتلكُ معلومات جوهريّة، معناه أنّ الألسن تتحدّث. كلامًا طيبًا؟ سيئًّا؟ من الصّعبِ تحديدُ ذلك. ولكنّ الإشاعة ستنتشر... وبالتأكيد، أنت تريد تفادي هذا النّوع من الإثارة.

وبينما أستديرُ لأغادر المكان تمسكني يد بيغارد القصيرة بقوّة.

- ستبقى يا أوغسطين. لن يقال أبدًا إنّ بيغارد تخلّى عن معاونيه في المواقف الصّعبة. أنا لا أخشى الفضيحة.

أستديرُ محاولاً ألاّ أضحك. كلّما أنصبُ له الفخاخ يُسارع إلى الوقوع فيها.

- تعال يا صغيري، تعال إلى مكتبي واحكِ لي كلّ شيء. سنستخلصُ منها مقالاً. سيكون على شاكلة مقال زولا! إنّه مقال «أنا أتّهم!»[1] الخاصّ بنا. سيسيلُ لعابك أمام الجرأة التي

(1) أنا أتهم أو «!J'accuse»، هو عنوان مقال كتبه المحامي والكاتب الفرنسي إميل زولا بخصوص قضيّة الضابط الفرنسي اليهودي الأصل ألفريد دريفوس الذي اتُّهم زورًا بالتخابر مع الألمان. نشر المقال في صحيفة لورور الفرنسية بتاريخ 13 يناير من العام 1898 على شكل رسالة مفتوحة موجهة إلى الرئيس الفرنسي فيليكس فور.

سيُكتبُ بها. ها إنّ الشرطة تسيءُ استغلال سلطاتها! ها إنّ الشرطة تخطئ! ها إنّ الشرطة تحقّق انطلاقًا من أحكام مسبقة! إنّها لا تقرأ حسابًا لوسائل الإعلام! إنّها تتجاهل بيغارد!

يُفرغ ما في جُعبته ويُغلق علينا المكتب.

بعد ثلاث ساعات، تمكّن من كتابة مقالٍ قذرٍ ولكنّه فعّال. «منعطف جديد في مأساة شارلوروا!»، هو نصٌّ يقول كلّ شيء دون أن يقول شيئًا، نصٌّ يوحي بأنّ الصّحافة تمتلكُ معلومات أكثر من أجهزة الشرطة والمخابراتِ، باختصار، إنّه ذلك النوع من المقالات المثيرة التي نقرؤها أكثر من مرّة قبل أن نخلص إلى أنّها هراء محض.

أغتنم فترة الاستراحة وأهاتفُ جيزال جيمايبل مساعدة إريك إيمانويل شميت. تُجيبني بصوتٍ دافئ ومشرق وتؤكّد لي أنّها أُبلغت بفحوى لقائي مع الكاتب وتقترحُ عليّ موعدين، الأوّل في اليوم نفسه والثاني في الأسبوع القادم. على الفور، أختارُ الموعد الأوّل.

وأنا أصعدُ إلى الحافلة، أدركُ أنّ بهجتي الصباحيّة كانت تبشّرُ بفترة رائعة ما بعد الظهيرة: سأقابلُ أحد كُتّابي المُفضّلين، واحدًا من أولئك الذين منحوني الرّغبة في أن أكرّس حياتي للكتابة!

أصل إلى بلدة غيرمانتي قبل الموعد، فأتوجّهُ نحو الحانة التي تبيعُ الشطيرة بأورو ونصف. الهواء الفارغُ والصّافي يملأ رئتيّ. مَا إنْ أدْفَعَ الباب الدوّار حتّى تتوقّفَ المحادثات ويشرع الرّجال الجالسون إلى طاولاتهم في تفحّصي. يلحظُ صاحب المحلّ -وهو رجل بشوش- ارتباكي فيجلسني عند البار كي أتفادَى العيون المحدّقة فيّ. ثُمّ تُستأنفُ المحادثات ويقعُ إشراكي فيها. إنّ الأجساد الممتلئة والخدود التي

تَمْلَؤُها البثور والأيدي المتقرّحة، تشي بأنّ هؤلاء الرّجال يشتغلون في مهنٍ شاقّة تعرّضهم إلى تقلّبات الطقس. في نهاية المطاف أعترفُ بأنّ قَدِمتُ لمحاورة كاتب البلدة. فيُعلّقُ صاحب المحلّ متعجّبًا:

– آه، السيّد شميت! إنّه يمرُّ من أمام الواجهة عندما يُخْرِجُ كلابه إلى النزهة. يُحيّينا بأدبٍ لكنّه لا يدخلُ إلى هنا مطلقًا.

وعلى الفور يُجيبه أحد الحرفاء:

– هذا طبيعي، فهو يسكنُ بالجوار. أي أنّه لا يحتاجك إذا أراد أن يشرب كأسًا.

– لمعلوماتك، الجميعُ في هذا المقهى يسكنون بالجوار.

– هذا يعني، على الأقلّ، أنّه ليس ثمّة من يُنكّد عليه في منزله!

يضحكون.

أشعر بأنّ وراء هذه السّعادة التي يتشاركونها حالةً من الغضب الخفيّ، ومن الشكّ في مدى صواب خياراتهم في الحياة، حتّى إنّ عدم الشعور بالملل في المنزل يبدو لهم صفة تستدعي الحسد، بل إنّهم يجدونها أكثر استثنائية من موهبة الكتابة أو الإبداع.

في السّاعة المحدّدة، أدور حول العقار وأقفُ أمام البوّابة العريضة التي تخترقُ الأسوار.

يُدوّي صوتٌ منزعجٌ في جهاز الهاتف الداخلي:

– ماذا تريد؟

– أنا أوغسطين تروليه. لديّ موعدٌ مع السيّد شميت من أجل مقابلة صحافيّة.

يحلُّ الصّمت بعد ذلك فأشعرُ بالقلق. يبدو لي أنّ الصّوت الخشن وغير المرحّب هو صوته.

- حسنًا.

نعم، إنّه هو.

تفتح الأبواب الخشبية الثقيلة، كاشفةً عن حديقة مصمّمة على الطريقة الإنجليزية، قبل أن يخرُج من المنزلِ البعيد، قطيعٌ من الكلاب الراكضة نحوي نابحةً. من داخل المنزل، في طرف الحديقة، يصرخُ إيريك إيمانويل شميت:

- لا تخش شيئًا. إنّها كلابُ الحراسة. لن تعضّك.

في واقع الأمر، تتوقّف الكلاب على بعد مترين منّي، تنبحُ وتظهر أنيابها مانعةً إيّاي من التقدّمِ دون أن تهاجمني.

يسيرُ شميت في اتّجاهي وكأنّه يفلتُ من عالم آخر، لا يتعجّلُ الخطو، بل تحتفظُ مشيته بإيقاعها وعيناهُ مثبتتان على أفكاره. إنّي أزعجهُ. وما عدائيّة الكلاب إلاّ صادرة عنه، لتعبّر عن وحشيّتِهِ وغضبِهِ من إزعاجه.

عندما يقتربُ منّي، يأمرُ كلابه بأن تتوقّف عن النّباح:

- كفى!

وفي الحال تشدُّ عضلاتها، وتخفضُ حواجبها، وتثبّتُ عيونها عليّ وهي تدمدمُ، من داخل حناجرها، بصوتٍ أصمّ.

- هذا يكفي، توقّفي!

تسترخي الكلابُ، مثلَ زنبرك انتهى شدّه، مُظهرة الودّ، وقد جذَبتها نتفُ الأعشاب فراحت تعضّها، أمّا شميت فيشرقُ وجهه ويبتسمُ لي،

وكأنّ الأمر الذي أصدرهُ لكلابهِ كان موجّهًا أيضًا إلى تردّده.

يطلبُ منّي أن أتبعهُ داخل المزرعة القلعة، فإذا أنا أمام مبنى يعودُ إلى القرن السّابع عشر، وهو مبنى مهيبٌ، فخمٌ، وهادئٌ، له واجهةٌ لونها رماديٌّ باهتٌ مائل إلى الزّرقة. ووسط الحديقة الممتدّة جذورها إلى العصور الوسطى، تمامًا كما الأسوار على حدّ ما أخبرني به شميت ينتصبُ برج مراقبةٍ، يعودُ تاريخ تشييده إلى بدايات الحقبة الإقطاعيّة.

ندخلُ إلى قاعة استقبالٍ كبيرةٍ ومضاءَةٍ، تخترق أشعّة الشمس نوافذها الستّة من خلال السّتائر المشدودة. أشعر بأنّ المنزل يتنفّسُ السّلام. لا شيء يوقفُ عمليّة التأمّلِ، ومع لمعان الجنزار[1]، يبدو كلّ شيء وكأنّه ينتمي إلى أجواءٍ غابرة.

تجلبُ لنا زهرة، مدبّرة المنزل، فنجانيْ قهوة، بعد ذلك يُبادرني شميت بحديثٍ تافهٍ، كمقدّمة تهدفُ إلى جعلي أكثر راحةٍ. تتمدّدُ الكلابُ فوق السجّادة، وترفّ رموشها وهي تسترخي متأهّبةً للانغماس في القيلولة المقدّسة. لا شيء يعنيها باستثناء سيّدها. إنّها تُتابعه وهو يعيشُ حياته، تسمعهُ وتلتزمُ بمحاكاة هدوئه وسكونه.

بينما شميت يثرثرُ، ألاحظُ أنّ كتبًا كثيرةً مجلّدة بألوان مختلفة، تغطّي جزءًا من الجدار المقابل حتّى ارتفاعِ خمسة أمتار، وأنّ بقيّة الجدران قد خُصّصت للموسيقى. ثمّة أيضًا، بين ستائر الكتّانِ الأسود، مكتبٌ معزول، يستقبل انعكاس ضوء النهار، وقد غطّاه جلدٌ ناعم بلون الكهرمان أشبه ما يكون بجلد بشريّ. ورائي، تنفتحُ الفوّهة السّوداء

(1) الجنزار او الزنجار هو صدأ النحاسُ وتستعملُ المفردة أيضًا للإشارة إلى اللّون الذي تأخذهُ المعادن أو الأثاث القديم وهو ما يتوافقُ مع المعنى الذي قصده الكاتب.

والمخيفة لمدفأةٍ باستطاعة مجموعة من الأشخاصِ أن يقفوا داخلها. وإذ تعود عيناي إلى المقعد المخمليّ ذي اللّون الأرجواني الذي يجلسُ شميت عليه، أرى بغتةً موتى، الكثير من الموتى. إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها عددًا كبيرًا منهم. أراهم يطوفون حولي، واضحينَ وحاضرين إلى حدّ ما، حتّى إنّ عددًا منهم يبدون شفّافين. أمام جدار الكتب يظهر جدارٌ من الموتى يحيط بالكاتب. بعضهمُ يترك فيّ انطباعًا غريبًا بالألفة. أركّزُ وأحاولُ التعرّف عليهم. هذا الشابُّ النشيط، بباروكته البيضاء، يشبه موتسارت[1]، وذاك الرّجل الفوضويُّ المُرتدي منامةً، يُذكّر بديدرو[2] وعلى الأريكة، يرتاحُ بوذا[3]، مغلقًا عينيه. أما السيّدة ذات الشعر المجعّد وعيني القطّ المُبرّزتين بالكحل فتشبهُ كوليت[4]، في جلستها الشبقة والحالمة. لقد فهمت. إنّ العباقرة الذين يشيدُ بهم شميت غالبًا في كتبه أو مقابلاته الصحفيّة يشاركونه حياته. هم ليسوا مجرّد أشخاص أثّروا فيه في لحظة محدّدة ومنتهية من الماضي وإنّما حاضرون يشاركونه السّكن ويتحاورون معه، ينصحونه وينقدونه ويلهمونه. وقد تزوّدت بهذا المعيار أنجحُ في وضع الأسماء المناسبة لموتى آخرين يشغلون الجوّ. أتعرّفُ في ذلك الرجل الدمويّ، هنالك، ذي السّحنة الصارمة والقلق الظاهر، إلى موليير[5]. أمّا هذا المريض المتعرّق الذي يكتبُ

(1) فولفغانغ أماديوس موتسارت (1756-1791)، مؤلف موسيقي نمساوي.

(2) دنيس ديدرو (1713-1784)، فيلسوف وكاتب وصحافي فرنسي.

(3) غوتاما بوذا، مؤسس الفلسفة أو الديانة البوذية، وبوذا ليس اسم علم يطلق على شخص بعينه بل لقب ديني يعني الحكيم و المستنير وصاحب البصيرة النفاذة.

(4) كوليت (1873-1954)، روائية فرنسية.

(5) جون باتيست بوكلان، الملقب بموليير (1622-1673)، مؤلف كوميدي وشاعر مسرحي فرنسي.

دون توقّف فوق منضدة صغيرة وهو جالس على الأرض بين الأريكة والمقعد فيذكّرني بباسكال[1]. بعيدًا عنه، أرصدُ، باخ[2] وشوبرت[3] وديبوسي[4]، بأحجامهم الطويلة وهم في حالة طيران. في المقابل، لم أتعرّف إلى ذلك الرّاهب ذي الوجهِ الزاهد المشرق الذي يحتلّ المكان فوقه، ولا على الطفل الأصلع ذي العشر سنواتٍ أو الشيخ العربي البشوش المتكئ على كتف شميت.

أقولُ لمُضيّفي:

– يدهشني ما أشعرُ به من أنّي بأفضل حالٍ هنا.

يستحسنُ قولي.

– ثمّة ثلاثة أعين ماءٍ تلتقي تحت أقدامنا.

– وبعد؟

– إنّها تخلقُ طاقة استثنائيّة جدًّا. خذ هاتفك المحمول.

– لا أملكُ واحدًا.

يرفع أحد حاجبيه.

– هاك هاتفي. سأضع البوصلة. تحقّق ممّا قلتُ لك!

ألاحظُ أنّ الإبرة يصيبها الجنونُ، تدورُ في حلقة، غير قادرة على الإشارة إلى جهة الشمال.

---

(1) بليز باسكال (1623–1662)، فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي.
(2) يوهان سبستيان باخ (1685–1750)، مؤلف موسيقي ألماني.
(3) فرانز شوبرت (1797–1828)، مؤلف موسيقي نمساوي.
(4) كلود ديبوسي (1862–1918)، مؤلف موسيقي فرنسي.

- هذا المكان يُربك البوصلات، التقليديّ منها والإلكتروني.
- وما الذي يعنيه هذا؟
- هذا يعني أنّ كلّ شيء ممكن! لهذا السّبب اخترتُ أن أسكن هنا. عندما كنتُ أجيءُ إلى هذا العقار متسائلاً عمّا إذا كنتُ سأشتريه، لم أفكّر مطلقًا، وكذلك كلابي، في المغادرة. إنّ المنازل والبشر سيّان، لا نختارُ منها ما نحبّ أو من نحبّ. كلّ ما نفعله أنّنا نستسلمُ. فعندما نفتّشُ عن دوافع للحبّ، لا نحبّ.
- سيّد شميت، بما أنّك مُهتَمٌّ بديانات كثيرة توليها اهتمامًا خاصًّا، ولا تتردّد في الاعترافِ بما تؤمن به، أيّ حكمٍ تُصدره على الإرهابيين الذين يقتلون ويفجّرون أنفسهم باسم الربّ؟
- إنّي حزين حُزنًا مضاعفًا، مغتمّ من هذا العنف ومستاءٌ من نسبته إلى الربّ.
- أليسَ الربُّ عدائيًّا؟
- الربّ لا يتكلّمُ لغاتنا. وفهمه يحتاجُ إلى مترجمين.
- والمترجمون يفتقدون إلى المصداقيّة؟
- في البدء، ما كان أحد يتكلّم لغة الربّ.
- ولكنّهم يتعلّمونها.
- هذا أمر لا يمكنُ تعلّمهُ. باستطاعتنا دراسةُ لغة الكنائس، ولغة الديانات، ولكن ليس لغة الربّ. لن نجدَ من يتقنُ اللّغتين: لغة الربّ ولغة البشر.
- حتّى الأنبياء؟

- هم يعرفون بعض المفاهيم، وهي لا تتجاوزُ ما تعلّموه في المرحلة الإعدادية.

- والمتصوّفون أيضًا؟

يربدُّ وجهه. ومن فوقه يميلُ الرّاهبُ ذو الملامح الزاهدة والعينين النفّاذتين نحوه كي ينصتَ.

- إنّ المتصوّفين يلتقون الربّ ولكنّ هذه التجربة تقعُ في عالمٍ على حدة لا تضبطه الكلمات. ثُمّ، هل ما يزالُ «العالَم» هو نفسه؟ إنّنا بالأحرى إزاء قَفَا العالم أو حقيقة العالم.

ترفُّ رموشه وهو يطاردُ أفكاره.

- عندما عشتُ ليلتي الصوفيّة[1] تحت النجوم، في قلب الصحراء، كنتُ أجهل إلى أيّ مكانٍ أو زمانٍ تحملني القوّة الإلهيّة. لقد فقدتُ حدودي، حدود جسدي وإدراكي، وتخلّصتُ من الجاذبيّة ومن الزّمن، من الأرض التي تقيّدني ومن الزمن الذي يخضعني. كنتُ أهرب. وكلّما ابتعدتُ عنّي وعن حدودي، ازداد المدّ إلى أن تلاشيت.

فوق جبهته، كان الرّاهب قد اقترب مبتهجًا بنظرته المُحبّة.

- عندما عدتُ إليّ، عدتُ ممتلئًا. ممتلئًا لبقيّة حياتي، ومحاطًا بالمعاني. كنتُ قد اكتسبتُ الإيمان، أعني الثقة في ما هو خفيّ. كيف أصفُ لحظةً عصيّةً على الوصف وعلى التوقّع، مثل تلك؟ لا توجدُ لغة

---

(1) تحدّث شميت عن هذه التجربة الروحيّة التي عاشها في قلب الصّحراء الجزائريّة في روايته «ليلة النّار» وقد صدرت ترجمتها العربيّة عن دار مسكيلياني في 2018.

ولّعتْ هذه الذّرى، هذا الجنون، هذا السّديم، هذه الألغاز وهذا الخلق. إنّ الجُمل تتموّجُ على سطحِ المحسوس، والكلمات تحكي المرئيّ، لا غير المرئيّ. إنّها تروي التجربة العاديّة، ولكنّها لا تروي مطلقًا ما هو استثنائيّ، فالخفيّ لا يُعبَّر عنه إلاّ بصورة تقريبيّة ومن خلال الاستعارات: إنّه رهين أن يُقال شعرًا.

يوافق الرّاهبُ شميت مبتهجًا، حتّى إنّي أتساءلُ: ألا يكونُ هو من يوشِّ لهُ بالتتمّة:

- إنّ نطق مفردة «ربّ» فقط يُرْهقني. والسّبب أنّ هذا المفهوم وقع استخدامهُ في معانٍ كثيرة. أيّ علاقةٍ بين الآلهة-الأرواح في الاعتقادِ الإحيائيّ، والآلهة المختلفة في الأديان الوثنيّة، والربّ المهندس عند الفلاسفة، والربّ المبدئيّ عند العقلانيين، والربّ الخاصّ في الدّيانات، والربّ الواحد في الكتاب، ذلك الذي نتصوّره ولا نرسمهُ؟ وربّي أنا، من يكون؟ إنّه الربُّ الذي أنحني له، الربُّ الذي يعطي الطاقة كي نحيا ونتحرّك، الربُّ الذي أشكره من الصّباح إلى المساء، في كلّ إلهامٍ، وكلّ صلاة.

يربّتُ الرّاهبُ على رأس شميت فيسترخي.

- لا أشعرُ بالخجلِ من الاعتقاد. إنّ النعمة التي مُنحت لي في الصّحراء هي، بعدَ هديّة الحياة، أعظم هديّة حصلتُ عليها. لقد حصلتُ على نوعين من الآباء، والديّ وشارل دو فوكو[1].

---

(1) شارل دو فوكو (1858-1916)، راهب وقسيس كاثوليكي فرنسي عاش لفترة في الصحراء الكبرى بين قبائل الطوارق.

في اللّحظة ذاتها، يلتصق الرّاهبُ بالسّقف، كأنّه منزعجٌ من هذا التأكيد. أفهمُ أنّه «شارل دو فوكو»، الشخصيّة الروحانيّة للصحراء، والأبُ الأبيض الذي اقتفى شميت آثارهُ في جبال هقار[1].

- هل تراهُ من حين إلى آخر؟

لقد طرحتُ سؤالي دون تفكير. ما جعل شميت ينتفض.

- أرجو المعذرة؟

وأنا أقيسُ هدى التناقض في ملاحظتي، أجيبُ بطريقة أقلّ ثقة:

- شارل دو فوكو؟

بينما أنظر إلى سقف الغرفة لأتأكّد ممّا إذا كان الراهب هناك بعدُ، يتجهّم وجه شميت ويخرجُ صوته باردًا:

- لقد توفي شارل دو فوكو سنة 1916 أيّها الشابّ.

- أعرفُ ذلك سيّد شميت. لقد توفي في 16 ديسمبر 1916. سؤالي هو: هل تتحاورُ معه؟

يبتسمُ وقد اطمأنّ قلبه.

- هذا لطفٌ منك سيّد تروليبه. الحقيقة أنّي أشعرُ بقربه منّي. أنا لا «أراه» مثلما تقول. ولكنّي أدركُ مع ذلك حضوره النّافع، ويُخالجني الإحساسُ أحيانًا بأنّي... أسمعه، وبأنّ جملَه تُلهمني.

- أستنتج أنّ شميت يسمعُ ولكنّه لا يرى[2]. هل هذا حكرٌ على الكاتب؟

---

(1) الهقار أو الأهقار سلسلة جبلية تقع في أقصى الجنوب الشرقي للجزائر.

(2) المقصود أنّه يسمع الموتى ولكنّه لا يراهم.

يحمرُّ وجهه، وقد أسف بالفعل على هذا الاعتراف.

- لا تذكر هذا في مقالك، رجاءً. لقد بحتُ بهذا السرّ لك أنت، الإنسان، وليس الصحافيّ. لقد أربكتني حساسيّتك فتركتُ نفسي على سجيّتها. لنعد إلى المقابلة.

- برأيك، ألا يمكن أن يكون عنف الإرهابيين امتثالاً تامًّا لعنف الربّ؟

- الربّ الذي أعبدهُ لا يصدرُ أفكارًا أو أفعالاً سلبيّة. إنّه يفتح البصيرة، يُهدّئ، ويمنح الحبّ. وفي نأيٍ عن تعميق الانشقاقات أو تضخيم الانقسامات، يجعلنا ندخلُ إلى الوحدة والتناغمِ الموجودين في «الكلّ». إنّه يملؤنا بالامتنان لا بالغيرة. يملأُ يأسنا أو يشيرُ إلى سخافته. يرفعنا ولا يبخسنا، ويعيدُنا دائمًا إلى ذلك التواضع البسيط. إنّ هذا الربّ لا يُلزمنا بأن نقتل بل بأن نحبّ وبأن نُديم الحياة.

- إذا لم يكن الربُّ مسؤولاً، فهل الدّياناتُ هي من تدفعُ إلى الجريمة؟

- إنّ الربّ يمثّل النّار أمّا الديانات المُشتقّة منه فأشبه بعمليّات التبريد. هي مختلفة ولكنّها تحتوي على القلب نفسه. وهي جوهرٌ فريدٌ، وكوني، ومُتوهّج الأصل. لماذا تتعدّدُ؟ لماذا تختلفُ؟ إنّها كذلك بسبب عوامل بسيطة. ولكنّ النّار تظلُّ نارًا أعلى من الكلمات والمفاهيم. وكي يقالُ هذا الذي لا يوصفُ، يقومُ الرّسولُ والصوفيُّ بالنقلِ والترجمة. وتلك عمليّة التبريد الأولى. ثمّ تنتشرُ النّصوصُ، فتُعدّل وتُكتب من جديد، وهذا

يُمثّل عمليّة التبريد الثانية. بعد ذلك، تتأسّسُ العبادات وتُعرّف الطقوس، وتُبنى الكنائس. وهي عمليّة التبريد الثالثة. وفي النهاية، ولكي يتمّ توحيدُ الجماهير بطريقة واضحةٍ وبسيطة، تعوّضُ العقائد النّار. وعندئذٍ، يمكنُ أن تصبح باردةً جدًّا.

يضحكُ شبَحان من هذه الإجابة، دو فوكو المعلّق في السّقف وبوذا الجالس على الأريكة، بينما يُواصل شميت طرح وجهة نظره:

- مع ذلك، تحتفظُ الأديانُ بمبدإٍ ثابت. إنّها تحاربُ غرائز البشر الأنانية، تنتزعهم من الأدغال لتضعهم في المجتمعِ، وترفعهم فوق الوحشيّة كي تلقّنهم القانون، ذلك القانون الذي يسري على الجميع. وهي بذلك تعوّضُ فوضى النزوات الفرديّة بنظامٍ روحيٍّ. إنّ الأديان تُربّي، وتُمدِّن، وتُعمّم السّلام. ولقد ارتقت بنا في كلّ الأزمنة إلى درجةٍ أعلى من التّحكّمِ جاعلةً إيّانا نترفّع عن الطبيعة الحيوانيّة. إنّ الأديان ترسمُ الوجود البشري على شكل أفقي. ولئن يُصرّ بعض الملاحدة المتشدّدين -وهم ليسوا قليلي الشأن، بدءًا من أبيقور[1] وصولًا إلى فرويد[2]- على أنّ الأديان خلقت الربّ، فإنّي أراها قد خَلَقت الإنسان.

- ماذا تقصدُ بالإنسان؟

- هو كائنٌ يمشي على قدمين، ليس له ريش، وأكثر تعاسة من

(1) أبيقور فيلسوف يوناني عاش بين عامي 341 و270 ق.م، أسّس مدرسةً فلسفيّةً سُمّيت باسمه.

(2) سيغموند فرويد (1856-1939) طبيب ومفكر نمساوي يعتبر مؤسّس علم التحليل النفسي.

الحيوان، لأنّه مسكون بأسئلة لن يجد إجاباتها مطلقًا. إنّها رحلة بحث بلا نهاية.

ألقي نظرة على كلابه الثلاثة وأسأل:

- هل ترى أنّها أكثر سعادة منك؟

- إنّها تُطوّرُ شعورها بالفرح بقوّة أعترفُ أنّها تغلبني. لكنّي أتعلّمُ... أو بالأحرى هي تعلّمني.

إذ ينطق جملته الأخيرة أعيدُ التفكير في حماستي التلقائيّة هذا الصّباح وفي قوّتي الغريزيّة المرتبطة بفصل الرّبيع. ربّما تعيشُ الحيوانات باستمرار على هذا النحو الغرائزيّ...

- إذا فهمت قصدك، سيّد شميت، أنت تقصد التّالي: مع أنّ الدّيانات تحدّثنا عن الربّ وباسم الربّ وتدّعي أنّها تقودنا إليه فإنّها في واقع الأمر تبتعدُ عنه، عن النّار الأولى، وعن القلب المشتعلِ الذي يلتقطه المتصوّفة والرّسل. ولكن هل تعتقد أنّها تنحرفُ عن ذلك كثيرًا؟

- نعم.

- أحيانًا؟

- بل دائمًا. ذلك أنّ الأديان تبدأ إلهيّةً وتنتهي بشرّيةً. وبصفة عامّة، تمضي المؤسّسات، مثلها مثل الحضارات، نحو اختفائها لأنّ الزمن يُفرغها. فبعد أن تصاب بالشيخوخةِ، يصبحُ الشكل أكثر أهميّةً من الجوهر، والوعاءُ أكثر أهميّةً من المحتوى. وهذا ما نسمّيه الانحطاط.

- هل الانحطاط مصيرٌ محتومٌ لكلّ دين؟

- نعم، إلاّ إذا تمّ تجديد الدّين من وقتٍ إلى آخر من طرف كائنات استثنائية، كالقدّيسين واللاّهوتيين والفنّانين والمتصوّفين، أولئك الذين يعرفون كيف يزيلون الغبار ويجدّدون الإدراك ويعودون إلى المنبع ويخلقون من صباح البارحة فجرًا جديدًا. إنّ ديانات الكتاب الثلاث -اليهودية والمسيحية والإسلام- تبقى حيّة بهذه الطريقة...

- وهل تعتقدُ أنّ جميع الأديان متساوية؟

- هذا هو السّؤال الذي كنتُ أفضّلُ ألاّ تسألني إيّاه.

- كيف أتغافلُ عنه اليوم وثمّة أناسٌ يقتلون باسم الإسلام؟

- لقد قتل البشرُ باسم جميع الديانات. حتّى الرّوحانيّات الشرقيّة برّرت الحروب. فالبوذيّة، رغم طابعها السلميّ، تمّ التلويحُ بها خلال حمّامات الدم التي شهدتها بورما وسيرلانكا.

يتجهّم وجه البوذا الهادئ في جلسته على الأريكة، ويحدّقُ في شميت متسائلاً عمّا يهذي به هذا الرجل.

- يا لميلاريبا المسكين، يهمسُ المؤلّف.

يغلقُ البوذا جفنيه مستاءً، فأفهمُ حينئذٍ أنّه هو ميلاريبا، الحكيم التيبتي الذي ألّف شميت نصًّا عنه. وأواصلُ أسئلتي:

- إذن، ثمّة رابطٌ بين المتديّن والعنف؟

- لا، بل ثمّة رابطٌ بين الجهل والعنف. يبدو لي العنف عملاً يائسًا للهروبِ من انعدام اليقين. أولئك الذين يقومون بأعمال عنيفة

يريدون أن يكونوا على حقّ وألاّ يقع تكذيبهم. إنّهم يرغبون في الهروب من الأسئلة. ومع ذلك يريدون أن يعرفوا. هؤلاء البؤساء يتمنّون أن يعثروا على الرّخام حيث لا يتدفّقُ سوى الماء. إنّهم يفرّون من الحالة البشريّة المكوّنة من الأسئلة أكثر ممّا هي مكوّنة من الإجابات. في أعماقهم، يريدون أن يصبحوا هم الربّ، الربّ الذي لا يستطيعون محاكاته إلاّ بطريقة سخيفة.

- من المؤكد أنّ الفيلسوف لا يصبحُ عنيفًا لأنّه شكّ. ولكنّ الرجل المتديّن لا يشكّ.

- بلى! أنا اشكُّ وأومن. شكّي وإيماني يسيران بطريقة متوازية، على طول الحدود المشتركة بينهما، إذ أنّهما لا يعيشان في البلد نفسه. إنّ عقلي يواصل التفكير لأنّ الربّ لا ينتمي إلى مجال العلم ووجوده لا يمكنُ إثباتهُ بمعادلة على غرار 2+2=4. أمّا إيماني فيتقدّمُ قويًّا واثقًا دون أن يتزعزع داخل حقله الذي هو القلبُ والذكرى والتقبّل والخيال.

- ألا يجيبُ إيمانك عن شكّك؟

- كلاّ، إنّه مقيمٌ في منطقة مُغايرة.

- وعقلك ألا يهزّ إيمانك؟

- كلاّ، لأنّه أيضًا مُقيمٌ في منطقة مُغايرة.

- أنتَ اثنان.

- أنا واحدٌ ومركّب. أقبلُ أن أدرك العالم وفق نمطين، الذكاء والقلب. لكنّي لا أخلطُ بينهما.

- إنّ الإيمان يلغي المعرفة.

- هو ذا! إنّ عقلي يشكّ لأنه ليس إيمانًا. وإيماني يقترحُ لأنّه لا يعقلُ وليس عقلاً.

يداعبُ كلبه الأسود الذي يبدو هو الآخر مرتاحًا كسيّده إلى هذه المعادلة.

- سيّد ترولیه، إنّي أستخلصُ من هذا أنّ العنف هو مرضُ المعرفة. فبدلاً من أن يتقبّل المتعصّبُ حدود عقله، هو يرفضُ أن يجهل ما يجهله ويفضّلُ أن يأخذ خياراته الذاتيّة على أنّها حقائق موضوعيّة. إنّ العنف يظهر عندما يرفض الإنسانُ حدوده.

- هل يشكّلُ العنفُ عرَضًا مرضيًّا؟

- إنّ العنف يكشفُ مرض الفكر. حذار، أنا أقصد مرضًا فكريًّا لا مرضًا دينيًّا. إنّ الإنسان يرتكبُ المجازر من أجل أفكارٍ أخرى، ليست دينيّة. كأن يرتكبَ المجازر في نزاعات السّلالات الحاكمة، أو أن يفعل ذلك مدفوعًا بالقوميّة والعنصريّة والشعور بالتفوّق. إنّه لمن الغباء أن نعتقد أنّ الديانات تولّدُ الوحشيّة! ففي كلّ حقبةٍ ثمّة قتلٌ باسم أيّ شيءٍ. وكلّ هذا التعصّبِ إنّما يعبّرُ عن ضرب واحدٍ من الخوفِ هو ذاك الذي تولّدهُ الحيرة. إنّ الهمجيّ يقتلُ من لا يفكّر مثله.

يتنهّدُ مرهقًا وفي اللّحظة ذاتها يهمسُ ديدرو شيئًا في أذنه. وبعد فاصل الصّمت الوجيز يضيف:

- يا لها من وجهة نظر مهلكة! إنّ في مقدورنا إبادة ثلاثة أرباع

البشريّة، ولكنّنا لن نقتل الشكّ.

- أعجبني هذا التعريف: العنفُ كمرضٍ لانعدام اليقين.

- أو كإمبريالية الغباء.

- ما هو الحلّ؟

يُوشوش ديدرو شيئًا مّا في أذن شميت.

- الحلّ؟ أن نكون كلّنا فلاسفة! تريد الخلاص؟ إنّه يكمُن في المعرفة. ولكن حذار، يجب أن تكون معرفةً متواضعةً مثل الإيمان، معرفة تُدرك أنّها تستمدُّ صحّتها من إجراءاتها المحدودة. وإنّي لأعتقدُ أنّ الحقل المعرفيّ الذي يتعيّن علينا أن نمارسهُ بعد تعلّم القراءة والكتابة هو الفلسفة.

- لكنّنا بعيدون عن ذلك.

- ولهذا السّبب ما نزالُ هنا!

ينهضُ ويتوجّهُ نحو النافذة. وبعينين نصف مغمضتين، يتنّفسُ الضوء في نشوةٍ كنشوة الآخرين عندما يشربون أو يدخّنون. بعد بضع ثوانٍ، يستديرُ نحوي، كأنّه يعيدُ اكتشافي، ثمّ يشيرُ إلى الكلبة البُنّيّة ذات الفخذين القصيرين والممتلئين بالعضلات مثل مصارع ياباني إذ تريدُ أن تنزلق بين الأريكة والمقعد فتزمجرُ وتدعس الأرض بقائمتيها.

- هل لاحظت ذلك؟ إنّ كلبتي دافني دائمًا ما تتردّدُ في المرور من هنالك. إنّها تتحفّظ، وتنتظرُ وأحيانًا تستدير وتعود أدراجها، ما يدفعني إلى الاعتقاد أنّها تتفادى أحدًا مّا، أو تستجديه أن يتركها تمرّ أو حتّى إنّها تنتظرُ رحيله... إنّي أتساءلُ عمّا إذا

كانت ترى أشباحًا. لولو أيضًا، ذلك الكلب الأسود، يحدّقُ في المكتبة لساعات وهو يراقبُ أشياء محدّدة لا أتمكّن من تبيّنها. إنّ الحيوانات لا تمتلكُ عددًا من الحواسّ المتطوّرة عن حواسّنا -كحاستي السّمع والشمّ- فحسب، وإنّما تمتلكُ ربّما حاسة إضافيّة. وأنت ماذا تعتقد؟

أغتنمُ هذه اللّحظة كي أغامر بكلّ شيء:

- سيّد شميت، من المرجّح أنّني أمتلكُ مثل هذه الحاسّة.

- أرجو المعذرة؟

- إنّي أرى ما تراه دافني.

- آه...

- إنّه باسكال.

- أرجو المعذرة؟

- أقصد الفيلسوف بليز باسكال. إنّه يجلسُ طوال الوقت هنالك مرتديًا بذلته المصمّمة خصّيصًا له ويكتبُ في مجموعة أوراق. وعندما حاولت دافني أن تعبر من هنالك، أخذت تتصرّف بحذر.

يحدّقُ شميت في وجهي مذعورًا ثمّ يتأمّلُ دافني وهي تبحثُ عن طريقة للمرور بين المقعدين. يتحرّك ذيلها يمنة ويسرة، ينحني ظهرها، ويتراجع فكّاها إلى الوراء، ولكنّها تتراجُع بخيبة أمل، خافضةً أذنيها من الفشل، طالما أنّ باسكال يجلسُ هنالك مركّزًا على أفكاره.

يضربُ شميت على جبهته بكفّه.

- أنت تمزح؟

يخنقه الانفعال فلا يلبث أن يُضيف:

- هل تسخرُ منّي؟

لقد أصبحَ عنيفًا دون أن أتبيّن ما إذا كان هذا الاحتدامُ يعني تشبّثهُ بالعالم الطبيعيّ أم أنّه يتهيّأ لتغيير خططه.

- سيّد شميت، منذ أن جلستَ في مقعدك، وأنا أرى الكثير من الموتى حولك. إنّهم موتى أحياء طالما أنّهم يتجسّسون عليك ويسمعون ما تقوله بل ويحدّثونك أحيانًا.

يُدخلُ رأسه بين كتفيه ويشير مُتسائلاً:

- هنالك؟

- نعم، إنّهم يبنون حائطًا تقريبًا.

أشيرُ إلى لولو الواضع خطمه فوق قائمتيْه الأماميّتين وهو يكاد لا يبعدُ عينيه عن كوليت الشبيهة بالقطّة.

- هذا هو ما يراقبهُ لولو.

يديرُ شميت عينيه، نصف متشكّك ونصف مذعور.

- أنا... أنا لا أعترضُ، مبدئيًا، على ما تقولهُ... أودُّ أن يظلّ عقلي منفتحًا... ولكن عليك أن تصارحني... قل لي من معنا هنا؟

- هنا، موتسارت. هنالك، ديدرو. شارل دو فوكو اتّخذ السّقف عرشًا له. كوليت تجلسُ متكاسلةً فوق حافة المكتب. ميلاريبا لم يتحرّك من مكانه إلاّ عندما ذكرت المذابح التي ارتكبها البوذيّون

في آسيا. موليير يمشي جيئةً وذهابًا، أمّا باخ وشوبرت وديبوسي فإنّهم يرفرفون هنا وهناك.

ينفجرُ شميت ضاحكًا، ذلك الضحك البارد والقاسي والمبالغ فيه الذي لا يُلائمه.

- أحسنتَ أيّها الشابّ! لقد اطّلعت بصورة جيّدة على مؤلّفاتي، أنت تتذكّر هيكل الآلهة الذي شيّدتُهُ ومنه استخلصت قصّة جميلةً. لقد صدّقتك لوهلة بسبب دافني.

- أنا لا أمزحُ يا سيّدي.

- بلَى.

- كلاّ.

يتجمّدُ في مكانه ويتوقّف عن التظاهرِ بالمرح.

- لا تصرّ.

- أقسمُ لك...

- لقد انتهت المقابلة. شكرًا.

تنهضُ الكلاب الثلاثة، في تماهٍ مع مشاعر سيّدها، وتُفهمني وهي تتأهّب لمرافقتي أنّ عليّ المغادرة.

- سيّد شميت أقسمُ لك أنّي لا أكذبُ عليك. أنا لم أستخرج الشخصيّات التي تحومُ هنا من كتبك لأنّي ببساطة لا أعرفها كلّها. وبعضها ما يزال مجهولاً بالنسبة إليّ.

- مثل من؟

يطلق جملته في وجهي بطريقة آلية فأجيب على الفور:

- مثل الصبيّ الأصلع ذي العشر سنوات.

- إنّه أوسكار[1]، الصبيّ المريضُ الذي رويتُ آخر أيّامه على وجه الأرض في إحدى القصص.

يحدّقُ في وجهي بخشونة ويُضيف:

- وحتّى إن كان النصُّ متخيّلاً، فإنّي غالبًا ما أكّدتُ أن هذا الطفل لا يتركني.

- وهذا الشيخُ المبتسمُ ذو الملامح المميّزة لأصيلي الشرق الأوسط؟

- السيّد إبراهيم[2]! لقد كرّرتُ ألف مرّة في حواراتي أن أوسكار والسيّد إبراهيم، مع أنّهما شخصيّتان من ابتكاري، يرافقانني في كلّ مكان ويمنحانني الحكمة والشجاعة. أفهم الآن مصدر ما تفوّهت به. إنّك ما تزال متمسّكًا بانتحالك أيّها السيّد المحتال.

تتصلّبُ ملامحه وتحتّني يده على المغادرة بطريقة متعنّتة. إنّه لم يعد يحتملني.

- وهنالك، سيّد شميت...

أعيّنُ شخصيّة كانت تنتحي جانبًا منذ البداية وأقول:

- هنالك، ثمّة امرأة في الثلاثينات من عمرها، قصيرة، ممتلئة قليلاً، عيناها بُنّيّتان، وتنظرُ أمامها وكأنّها متفاجئة.

---

(1) إشارة إلى رواية الكاتب «أوسكار والسيدة الوردية».

(2) إشارة إلى رواية الكاتب «السيّد إبراهيم وزهور القرآن».

- أرجو المعذرة؟

- إنّها تدندنُ لحنًا من حين إلى آخر، أو تذهبُ لتفحّص المجلّدات ومداعبتها.

- الغناء... الكتب... أوه، يا إلهي.

بينما تأخذُ شفتاه في الارتجاف يحدّقُ في الأرض مذهولاً ويسأل:

- هل قلت إنّها تبدو متفاجئة؟

- نعم، تبدو متفاجئة... مثل أولئك الموتى الذين لم يدركوا بعد أنّهم موتى.

يتهالكُ شميت فوق المقعد.

- عيناها بُنّيّتان؟ وواسعتان جدًّا؟

- نعم.

- حسناء؟

- ليست حسناء وليست قبيحة. إنّها جميلة.

يعضُّ على شفتيه متوجّعًا.

- إنّها... هنا!

تمتلئ عيناهُ بالدّموع. ينهضُ من مكانه، يدفعني، ويهربُ صاعدًا الدرج تتبعهُ كلابه المزمجرة وقد حدست جزعَ سيّدها.

أسمع صوت صفقِ بابٍ في الطابق العلويّ يليه صوت الزّتاج وهو يُعشّق.

ها أنا وحدي. أديرُ رأسي نحو غرفة الاستقبال. لقد اختفى جدارُ الموتى.

- زهرة؟ سيّدة زهرة؟

لقد اختفت مدبّرة المنزل أيضًا. ما من صوتٍ واحدٍ يرنُّ في المنزل الضخم.

ماذا أفعل؟

-12-

أشعرُ بالملل. مضت ساعةٌ وأنا مغروسٌ في غرفة الاستقبال أكادُ أتعفّنُ في الكرسيّ الذي قدّمهُ لي شميت. أجلسُ مستقيمًا دون أن أُصدر صوتًا أو حتّى أتجرّأ على فتح كتاب، والحال أنّ هناك ثلاثين كتابًا فوق طاولة القهوة، والمئات على الجدران بألوان جلودها المختلفة، منها الأصحرُ والزيتونيّ والبُنّي والأزرقُ الغامق والذهبيّ المخفّفُ. وخوفًا من أن يحسبني أحدهم سارقًا إذا وجدني هنا، أتصرّفُ كأنّي بصدد انتظار ربّ المنزل الذي غادر للحظاتٍ.

في نهاية الأروقة، عند أقاصي الغرف الواسعة، أرى من حينٍ إلى آخر أناسًا منشغلين، يفتحون الأبواب ويتحادثون. وفي كلّ مرّةٍ، ينكمشُ كتفاي، وينخفضُ صدري وأقطعُ تنفّسي: فزيادةً على امتناعي عن مناداتهم، أنا أخشى ظهورهم أمامي لأنّي سأكون مجبرًا على تفسير هذا الإزعاج الذي تسبّبتُ فيه.

أسمعُ صوت قوائم تخدشُ الدّرجَ مثل أمطارٍ من الرّصاص، وخطى ثقيلة تتبعها، ثمّ مجموعة أجسادٍ تنزلُ من الطّابق العلويّ.

يعاودُ شميت الظهور محروسًا بقطيع كلابه. عندما يراني، يبدو مرتاحًا أكثر منه محبطًا. أمّا كلابه فتزمجرُ بصوتٍ مكتومٍ. وسرعان ما يهمسُ قائلاً:

- أعتذرُ منك. أنا آسفُ لأنّي تركتك معلّقًا هكذا... ولكنّي كنتُ مصدومًا لأنّك حدّثتني عنها.

- عنها؟

- عن المرأة الشّابة التي تبدو متفاجئةً. أنا الوحيدُ الذي يعرف من هي، حتّى إنّك لن تجد لها أثرًا في أيّ مكانٍ.

يجلسُ في مواجهتي. تنقبضُ رقَبته، وتدورُ عيناه في محجريْهما.

- هل هي هنا؟

أنظرُ حولي. لم يعد حائط الموتى موجودًا.

- لا يوجد أحد.

تأتي الكلاب لتستلقي عند قدميه. يداعبُ أعناقها.

- لقد أحببتُ هذه المرأة بكلّ جوارحي. كنّا في العشرين عندما ألقى كلٌّ واحدٍ منّا بنفسه بين ذراعيْ الآخر. وجهًا لوجه، اكتشفنا سحر العلاقة الأولى. ولسنواتٍ عديدة، لم نغادر الشقّة الباريسيّة التي كنّا نعيشُ فيها ونحن طلبة إلاّ لمامًا. خارج الحصص الدّراسية انشغلنا بالكتابة. كانت تُخرجُ كلّ كلمةٍ ببطءٍ، منفقةً فيها جهدًا لا يستهانُ به حتى إنّ الصّفحة لتأخذُ منها أسابيع. وعلى نقيض حالها، كان قلمي يركضُ فوق الأوراق، قافزًا من مشروع مسرحيّةٍ إلى مشروع روايةٍ، مجرّبًا المقالة ثمّ مركّزًا على القصّة، بمهارةٍ مُتدفّقة تكشفُ عدم نضجي. كنتُ أسوّد كرّاسات دون أن أعرف ماذا أكتب، أمّا هي فكانت مدركة تمامًا لميولها. كنتُ أبحثُ وكانت تجدُ. كنتُ أحبّها وكانت تُشجّعني.

يتأمّل الحديقة التي تُنيرها الشمس.

- ذات يومٍ، لم نعد عاشقين وغادر كلٌّ منّا ليسكنُ وحده. ولكن، وقد صرنا أصدقاء، راح كلّ طرفٍ يُعرّف الآخر على شريكه الجديد، وهو ما تطلّب الكثير من الإيثار والتّضحية من قِبل المترشّحين! أيضًا كنّا نتبادلُ نصوصنا الجديدة كإثباتٍ لأنّنا لم نغادر كليًّا سقيفة الأدب التي امتزجت فيها أحلامنا طوال سبع سنواتٍ. كانت قصائدها وقد ازدادت تكثيفًا تلامسُ الامتياز، وفي الوقت نفسه بدأت مسرحيّاتي تعرف الاتّساق.

يحملُ لولو، الكلبَ الأسود، ويدعكُ ظهره بحنوٍّ.

- لقد أودى مرضٌ بحياتها في عامها الثّلاثين تقريبًا. ماتت بعد رحلة احتضارٍ طويلةٍ جدًّا. من فوق فراشها في المستشفى، التقطتُ ورقةً. كانت ثمّة جملةٌ ترقصُ على سطحها: «حولي، كلّ شيءٍ أبيض وصامت». سطر قصير في أعلى الورقة الفارغة، خيطٌ من الحياة فوق العدم. إنّه نصّها الأخير.

يبتسمُ متألّمًا.

- لقد كان للموتِ الكلمة الفصل.

يرفعُ رأسه.

- في واقع الأمر، لطالما رفضتُ أن أترك للموت كلمة الختام.

يضعُ الكلبَ على الأرض.

- منذ ذلك الحين وأنا أكتبُ لشخصين. أكتبُ لها، هي التي لم يُسعفها الوقت كي تستمرّ. وأكتبُ لي أنا المتمتّعُ بهذا الامتياز.

وكلّما أبدى البعض ملاحظات بخصوص كثرة مؤلفاتي، أو اندهشوا من الأجناس المختلفة التي أكتبُ فيها، أودُّ أن أجيب: «من الطّبيعي أن أنشر هذا العدد، لأنّي أخُطّ مسيرةَ كاتبين».

بينما يسترخي يلتمس منه خطمُ لولو المرن المداعبات.

- إنّها ترافقني حتّى الآن. غالبًا، وأنا أعمل، أشعرُ بالرّهبة إذ أتخيّل نظرتها على الورقة، وصرامتها إزاء دقّة الكلمات، وصبرها في التقاط الصّورة المناسبة، وإرادتها الصّلبة في تعقّب الكلمة الزّائدة. حتّى إنّي لَيحدثُ معي، كما في السّابق، أن أسمعها تسخرُ من استسهالي الكتابة، إلاّ أنّها في الآن ذاته تنصحني بالمحافظة على هذه السّهولة العجيبة.

يأخذُ مجلّدًا من فوق الطاولة.

- على مدى خمسةٍ وعشرين عامًا، كنتُ أعرف دائمًا أقرب كتبي إلى قلبها، وأقلّها استئثارًا بحبّها. فحين أفتحُ صفحةً مّا أعرفُ ما ينتمي إليها وما هو خارجٌ منّي. وإذا كانت الرّغبة في مواصلة حياتي كمبدعٍ تأسرني فذلك عائدٌ إلى إقناع نفسي بأنّ أمامي تحفتين أدبيّتين عليّ أن أؤلّفهما، واحدةً لي والأخرى لها.

يعاود حائط الموتى الظهور وراء شميت. ديدرو وموتسارت وموليير وباسكال وميلاريبا وكوليت والآخرون منهمكون في أعمالهم بينما المرأة التي تبدو متفاجئةً تنظرُ إلى شميت بحنوٍّ.

يرفعُ رأسهُ، فيبدو هشًّا ومتشكّكًا.

- هل... ؟

يمنعهُ الانفعالُ من إنهاء جملته. أعتقدُ أنيّ فهمته وأجيبه:

- نعم. هي هنا.

يتنفسُّ ملء رئتيه سعيدًا.

أضيفُ بلينٍ:

- لقد عادوا جميعًا.

يحدّقُ لولو في موليير وكأنّه يؤكّد كلامي، بينما تتنحّى دافني جانبًا كي تترك المكان لميلاريبا.

يستديرُ شميت نحوي.

- إنّ موهبتك تجيب عن سؤال أطرحه على نفسي بانتظام.

- أرجو المعذرة؟

- من الذي يكتبُ عندما أكتبُ؟ ومن الذي يُنجز عندما أُنجز؟

يعيدُني سائقٌ إلى شارلوروا. كم هو شاسعٌ الفرق بين قدومي الباهت في حافلة إلى غيرمانتي والعودة المظفّرة داخل السيّارة الصّامتة ذات المقاعد المغلّفة بالجلد الطبيعيّ التي أتمدّد فوقها.

لقد عبّر لي شميت عن رغبته في رؤيتي مجدّدًا. ولأنّ عملهُ يستحوذُ على وقته، واعَدَني في حانة الفرسان:

- نلتقي مساءً، على السّاعة الثامنة. هل أنت موافق؟

- موافق.

- هل لي أن أناديك أوغسطين؟

- بالتأكيد، سيّد شميت.

- وأن أرفع الكلفة بيننا إذا خطر لي ذلك؟

- إذا رغبتَ في ذلك فلا مانع عندي.

- شكرًا. وقبل كلّ شيءٍ، لا تتردّد في معاملتي بالمثل يا أوغسطين.

قال ذلك واختفى داخل طوابق القصر.

وأنا أُلصق جبهتي ببلّور السيّارة، أتسلّى بتخيّل ردّة فعل بيغارد والزّملاء لو أنّهم حضروا هذا اللّقاء الحميم الذي جمعني برجلٍ مشهورٍ.

تُوصلني السيّارة أمام مقرّ صحيفة الغد.

- قل لي، أيّها السيّدُ النّبيل، هل أجدُ عندك القليل من المال؟

يصلني السّؤال وخلفه المتشرّدة صاحبة الدّمية البلاستيكيّة وهي تُتابع:

- صدقة لطفلي ولي أيّها السيّد النّبيل. ليس لدينا ما نأكله.

تبدو لي مرهقةً، وأكبرَ سنًّا من اللّيلة التي رأيتها فيها، تركعُ، ثمّ تقومُ بانحناءةٍ، بتركيزٍ واجتهادٍ دون أن تُوجّه لي نظرةً واحدةً.

إنّ اهتمامها مُنصبٌّ بالكامل على السيّارة الفخمة والسّائق الذي فتحَ لي الباب كي أنزل.

جسَسْتُ جيبي فلم أجد في قعره سوى ثلاثِ قطعٍ من فئة الأورو.

- رجاءً!

لقد أجالت بَصرها في ملامحي ومع ذلك لم تتعرّف عليّ. فأنا أنتمي منذ الآن إلى عالمٍ آخر تسعى إليه عيناها. وهذه المرّة لم تعرض عليّ أن أضاجعها.

كيف أُفهِمُها أنّي مفلسٌ أكثر منها؟ أمسكُ بواحدةٍ من قطعي النّقدية وأقدّمها لها.

- أوه شكرًا!

تنظرُ إلى القطعة النقديّة بحبور: هي بلا شكّ ما تزالُ ترى فيها انعكاس صورة السيّارة والسّائق، ولذلك فإنّ قيمة هذا الأورو عندها تفوقُ قيمةَ أيّ أورو يقدّمه لها شخصٌ عاديّ.

ثمّة رجلٌ نحيفٌ ذو عينين ضيّقتينِ يستندُ إلى مزرابٍ وهو يدخّنُ ويتفحّصني بقسوةٍ.

أحتمي ببهو المبنى. بينما كنتُ أظنّ نفسي في ذروة السّعادة، أنهارُ باكيًا، شاعرًا بالانكسار.

مشيٌ وظلٌّ وصمتٌ. أنزوي في ركنِ البسطةِ ضامًّا ساقيّ بذراعيّ. تسيلُ الدموعُ على وجنتيّ وأشعرُ بالحاجة إلى إعادة تشكيل نفسي. من أكون؟ في ظلّ وجود كلّ هذه الدوّامات، لا أعرفُ من سيدخلُ إلى قاعة تحرير صحيفة الغد: هل هو المتدرّبُ الحقير أم الصّديق الجديد لإريك إيمانويل شميت؟ من خلال التّنفس ببطءٍ، والسّيطرة على حجابي الحاجز[1]، أُهدّئ من نبض هذا القلب الخافق بقوّةٍ. لم يسبق أن صدّقني أحدهم هكذا عن طيب خاطرٍ! ولم يحدث أن تقبّل رجلٌ أو امرأة موهبتي بأسرع ممّا فَعل هو! إنّ هذه الأخوّة تربكني دون أن أعرف أبِلونِ الفرحِ تصطبغ هذه العاطفة، العميقة والمُربكة والعنيفة،

---

(1) الحجاب الحاجز: هو عضلة موجودة تحت القفص الصدري أو حاجز عضلي يفصل بين القفص الصدري والتجويف البطني (المعدة، الكبد، الأمعاء). وهو العضلة الرئيسيّة المستخدمة في عمليّة التنفّس.

أم بلون الحزن؟ ربّما بالاثنين معًا. في اللّحظة نفسها، أبتهجُ لأنّ رجلاً شهمًا أصغى إليّ، وأبكي لأنّي وقد عشت منبوذًا طيلة عشرين عامًا أشعرُ بثقلِ هذا الإقصاء على كتفيّ.

- يجبُ ألاّ تبقى هنا يا سيّدي.

أرفعُ رأسي فإذا أمّ كلثوم أمامي مُتفاجئة من وجهي وتحاولُ أن تتذكّر من أكون. تتردّدُ، ثمّ تتمايلُ قليلاً وتتلعثمُ:

- آه... أنت... أنت...

لا يصلُ أيّ اسمٍ إلى شفتيها اللّيّنتين لكنّ هذا لا يضايقها. فهي تفهم نفسها بوضوح!

تندفع وتجلسُ قربي، أو بالأحرى، تتركُ تسعين كيلوغرامًا من اللّحم المصبوب في نسيجٍ قطنيٍّ خفيفٍ تهوي على البلاط. تُخرجُ منديلاً، بعطرِ الورد، من حقيبة يدها، ثمّ تدخله بين أصابعي.

- لا تبك... لا تبك...

لئن كانت الكلمات بائسةً فإنّ الإحساس عظيمٌ. أرى عاطفةً في عينيها الكبيرتين والدّامعتين. ثمّة الكثير من الحبّ ينبثق منهما، ومن جسدها الدّافئ والسّمين. عند أعلى رقبتي، تمسّد يدُها على شعري برقّة وتنبري تغنّي: «سلوا كؤوس الطّلا... كالحلم آهًا لأيّام الهوى آهَا» تسيلُ الكلماتُ من شفتيها فتبدو لغةً عربيّةً ذات لكنة فلمنكيّة. ولأنّي درستُ العربيّة طيلة سنتين في ميتم سان جورج، أفهم بعض الشذرات منها. الوعودُ التي أُخلفت... اللاّمبالاة الباردة... الفعل الذي يؤدّي إلى الانفصال... المصائر التي يحكم عليها بالافتراق...

بصوتٍ خشنٍ، ناشزٍ، وجوفيٍّ، لا يرتقي حتّى إلى الأداء السّليم، تغنّي أمّ كلثوم -وهي تُخرّب الجملَ أكثر ممّا ترسمها- عن عذابات المرأة التي هجرها الحبيب وتصفُ الحياة كأنّها أطلال:

أعطني حرّيتي، أطلق يديّا
إنني أعطيتُ ما استبقيتُ شيّا
آهِ من قيْدك أدْمى معصمي
لِـمَ أبقيه وما أبقى عليّا
ما احتفاظي بعهودٍ لم تصنها
وإلاَمَ الأسرُ والدنيا لديّا؟

إنّ المشهد يُقارب السّخافة، أدركُ ذلك. من المفترض أن أتهكّم، وأغادر، وأنبذ هذا الكائن الهجين -نصف الرّجل ونصف المرأة- الذي تنبعثُ منه، في الوقت ذاته، رائحة نبتة البتشول العطرة وعرقُ الإبطين، وتكشفُ ساقاه الموضوعتان أمامي على الدرّج عن فردتيْ حذاء برتقاليّ قديم على حافّة التمزّق. نعم، إنّ الطبيعيّ هو أن أسحب نفسي من حالة التشوّش العقليّ التي يعاني منها هذا الذّكرُ المتشبّه بأنثى، هذا الحيّ المُتوهّم أنّه امرأة ميّتة، هذا الفلامنكي الذي يتمثّل نفسه عربيًّا، هذا المحتال الذي يتكلّم وهو يظنّ أنّه يغنّي... يُفترض أن أنسحب ولكنّ أمّ كلثوم تشرعُ في أغنيةٍ جديدةٍ تهدهدني وتشعرني بالطّمأنينة. في كلّ مرّةٍ، يتعلّق الأمرُ بشكوى ذابلة، وبنساءٍ هُجرن وبأخلاّء جاحدين. إنّها تبدو وكأنّها لا تعرفُ من الحبّ سوى الهزيمة المؤلمة. ومع أنّ الوضعيّات التي تستحضرها الأغاني لا رابط بينها وبين حالتي، أستسلمُ لها بمرارة.

إنّنا نتقاسمُ معًا نشوة الحزن.

يظهرُ أحد السّعاة فجأةً ويقطعُ محرّك المصعد خدَرَنَا.

أتصلّب في مكاني وقد شعرتُ بغتةً بالانزعاج. أمّا أمّ كلثوم فتعتدل ثمّ تسترجعُ المنديل وتعيدهُ إلى حقيبة يدها وهي تُغمغم:

- دائماً هو الحالُ هكذا في الحبّ...

لا أجيبُ. فتهزُّ رأسها ونظراتها زائغة وتضيف.

- أوه... الرّجال... الرّجال...

- ولكنّي لا أبكي بسبب الرّجال! فأنا رجل!

أعترضُ رغمًا عنّي، فتستديرُ وتنظرُ إليّ متفاجئةً. تعبرُ قشعريرةُ عبر جلدها السّميك. نعم، لقد نسيت. لقد نسيت أنّي لم أكن هي وأنّي لا أبكي حبيبًا فقدته. تطقطقُ بلسانها وتقول:

- عندما يبكي الرّجلُ، فإنّه يتركُ كنزه الثمين يتحدّثُ نيابةً عنه، تلك الصّبيّةُ التي تظلّ داخله. في ما يخصّني، لقد بكيتُ كثيرًا قبل أن أصبح امرأةً.

تغلقُ حقيبتها، و تنهضُ بصعوبةٍ مستعينةً بالحاجزِ. ثمّ تُضيف على سبيل الاختتام:

- الآن، أنا أفضلُ حالاً.

- أما عُدتِ تبكين؟

- كلاّ، صرتُ أغنّي.

- أنت تتلين ولا تغنّين!

- بلى.

- لا.

تميلُ نحوي مبتسمةً وتلمسُ صدغها بإصبعها.

- ثمّة غناءٌ طيلة الوقت، هنا. طيلة الوقت. وكم هو جميل.

- من المؤكّد أنّه جميلٌ ولكنّك أنت وحدك من يسمعه.

- نعم، ولكنّه جميل.

وفي رضًى، تفتّشُ حقيبتها.

- خذ، إنّها هديةٌ لك.

تقدّمُ لي حاملة مفاتيح من المخمل الورديّ فأردّها مُوضّحًا:

- أمّ كلثوم، ليس لديّ مفاتيح.

تهزُّ جبهتها في تعنّتٍ. إنّها تريدُ أن تُسعدني.

- خذ.

- أنا حتّى لا أملكُ شقّةً.

هل تعي ما أقولُ لها؟ تأتيني الإجابة في شكل تنهيدةٍ مُصرّةٍ تُتبعها بالقول:

- ستمتلكُ لا محالة حاملة مفاتيح. عليك أن تبدأ بشيء مّا.

لعلمي أنّ رفضي سيزعجها آخذُ منها الحاملة وكأنّها شيءٌ ثمين.

- شكرًا أمّ كلثوم.

تشرقُ عيناها بوميضٍ من الرّضا، تلتقطُ أنفاسها، ومثل أميرةٍ تومئ بحركةٍ مفادها: «على الرّحب والسّعة، لم أفعل ما يستحقّ الشكر»، ثمّ تنزلُ الدّرجات الأخيرة بخفّةٍ غير متوقّعة.

وسَط البهو، ترفعُ ذراعيْها إلى مستوى كتفيْها، وتلوّحُ بيديها في الهواء، فيهتزّ ردفاها خلسةً. من الواضح أنّها في قرارة نفسها، تغنّي وترقص.

في قاعة التّحرير، ألعبُ ورقة التّواضع الخفيّ. أخصّصُ ساعات لإعادة صياغة حواري مع شميت، مُنحنيًا على مكتبي، ودون أن أُخبر أحدًا. وكلّما تقدّمت في تهذيب الجمل، يزداد وعييَ بما قاله لي الكاتب. إنّ ما يعتقدُه يُناقض تمامًا ما تعتقده القاضية بواترونو. فعندما يشيران إلى أصلِ العنف تختلفُ آراؤهما. هي ترى أنّ العنف مُتأتٍّ من الربّ. وهو يراه مُتأتٍّ منَ الإنسان. وفق كلامِهَا، الربّ يستغلُّ البشر. ووفق كلامِهِ، البشرُ يستغلّون الربّ. والمفارقة أنّ المسؤولة عن العدالة البشريّة تتّهم الربّ، وصاحب النّهج الإنسانيّ يتّهم البشر.

وأنا؟ أيّ النظريتين تبدو لي ناطقةً بالحقيقة؟

أدركُ أنّي، منذ بضعة أيّام، أكتفي بالاستماع دون أن أمارس التّفكير فعليًّا. ربّما هو ردّ فعل صحافيّ... ومع ذلك، ما يزال شميت وبواترونو يرغبان في رؤية هذا الشّخص الأجوف الذي لا رأي له والمحروم من زاوية نظرٍ تخصّه. إنّ تفاهتي لا تصدّهما عنّي. لماذا؟

حوالي السّاعة الثّامنة، أغادرُ الصّحيفة وأتوجّه إلى المقهى الذي ضرَب لي فيه شميت موعدًا، وهو مواجهٌ لقصر الفنون الجميلة. في الطريق، يعترضني مجدّدًا ذلك الرّجلُ النّحيف ذو العينين الرّماديتين الذي كان يراقبني في وقتٍ سابقٍ وأنا أدخلُ إلى مبنى الصّحيفة. يا له من وجهٍ بغيض. إنّ مجرّدَ وجوده يزعجني.

أراهُ يختفي في شارعٍ مجاورٍ.

في حانة «الفرسان»، أجلسُ قرب النّافذة. لو استثنينا البار وأقداح الجعّة، سنجد أنّ الحانة تذكّرُ بمركزِ رعاية: أعلامٌ قديمةٌ وشاراتٌ وبقايا أكاليلٍ تتدلّى من الجدران الصّفراء. وبعضُ الملصقاتِ الملمّعة ألوانها بالشّحوم، تعرضُ أجبانَ المنطقة أو تمدحُ مصانعَ الجعّة المتوارثة. أمّا الزّبائنُ فمُتماهون مع الأثاث، مثلهم مثل الطاولات والكراسي المصنوعة من الخشب المتين ذي الطابعِ الرّيفي، لا يتحرّكون ولا يتكلّمون، ويقبعون هناك ساعات وساعات. تنبعثُ من المحلّ رائحة الكرّاث. كلّ شيء يبدو مثيرًا، الهواء والنوافذُ وحتّى الضّوء الأصفر وبُقع الظلّ. ثمّة خدَرٌ لطيفٌ يغمرُ الجوّ.

عندما يأتي النّادلُ، تنتابني الرّغبة في مغادرة المكان لأنّي لن أكون قادرًا على دفع ثمن مشروباتي في حال لم يأتِ شميت، لكنّ فرضيّة احتقاره لي تُفزعني فأطلب جعّة. لقد قُضي الأمر! وعلى الفور، يُؤتى إليّ بقدح جعّةٍ مع قطع سجق وصحن خردل. يا لها من مجاملة! أشعر مُجدّدًا بما شعرتُ به في سيّارة الليموزين: أنا مَلِكُ العالم، ثمّة من يخدمني والكونُ ينحني لي.

يدلفُ شميت إلى الكرسيّ المواجه لي مُبديًا أسفه:

- عُذرًا يا أوغسطين. آه، كم أكره التأخّرَ عن موعدٍ!

- إنّها خمسُ دقائق، وهذا لا يعتبرُ تأخيرًا.

- كلاّ... أنا أُجلُّ احترام المواعيد. حتّى إنّي قد أكسرُ ساقًا التزامًا بموعدٍ. وحين أتعجّلُ هكذا، فليس الوقتُ هو ما أحترمُ، وإنّما الآخر. هل أنتَ بخير؟ ماذا تشرب؟

وهو ينتظرُ إجابتي، يأخذُ بعضًا من قطع السّجقِ ويرفعها إلى فمه. ثمّة حيويّةٌ مدهشةٌ تصدرُ عن هذا الرجل. وما كادَ يظهر أمامي حتى غمرت طاقةٌ إيجابيّةٌ القاعةَ مُعلنةً دخوله. والآن، وهو يأخذُ مكانه أمامي، يمحو حضورهُ الديكور، وزبائن الحانة، ويطردُ بعيدًا منظر الأحجار المزيّفة المرسومة بطريقةٍ خادعةٍ للعين، والثُريّا الهائلة المصنوعة من الحديد المطروق وقد عوّضت فيها الفوانيس الشّموعَ. لم أعد أرى سواه، وهو يتأمّلني ويلتهمني بنظراته.

- تشربُ جعّة أورفال[1]؟ أوه، لم لا! إنها شديدة التخمير وممتازة، أنا أحبّ ذلك. يا للرّهبانِ المخلصين الملاعين... أريدُ واحدةً مثلها، رجاءً! ثمّ اجلب لنا السّجق، وجبن الدّير مع ملح الكرفس.

كانت الكلمات التي نطقَها كافيةً لأن تَشعُرَ شفتاه بالمتعة.

-الحياةُ تدلّلنا أحيانًا. لديّ انطباعٌ أنّي كنتُ أتمنّى لقاءك يا أوغسطين. حتّى إنّ وجودك هنا يبدو لي مألوفًا إلى حدٍّ غريبٍ.

- لقد كنتَ ودودًا للغاية منذ البداية.

- أنت استثناء! في العادة لا أستقبلُ أحدًا. لا سيّما في غيرمانتي. لقد فرضت نفسكَ كحقيقةٍ بديهيّة.

أخفضُ عينيّ، شاعرًا بالارتباك وهو يواصلُ بحماسة:

- منذ أن رَحلْتَ، لم أتوقّف عن التّفكير في ما أخبرتني به. إذا كان هنالك جدارٌ يأويني، جدارٌ من المؤلّفين والموسيقيّين والفلاسفة

(1) جعّة أورفال، جعّة بلجيكية مشهورة بشدّة تخميرها. تصنعُ هذه الجعّة في دير أورفال الموجود في مقاطعة لوكسمبورغ.

ومن المرشدين الروحانيّين، فذلك دليلٌ على أنّنا لا نكون وحدنا مطلقًا عندما نكتب.

- لم يسبق لي أن التقيتُ أحدًا لديه هذه الرّفقة الرّائعة.

- هل تمزح؟

- لا. عادةً ما يكونُ النّاسُ محاصرين بميّتٍ واحدٍ، ميّتٍ مجهولٍ، أو بالأحرى، ميّتٍ مألوفٍ، ولكن ليس شخصيّةً عامّةً. أنت أوّل شخصٍ أكتشف عند لقائه أنّه يعيشُ مع آلهة.

- أحبُّ أن أرى الأشياء الجميلة. وكلّ يوم أستيقظُ متلهّفًا لاكتشاف ما سيثيرُ إعجابي في ذلك اليوم.

يشمُّ جعّته ويضيفُ:

- أنا مقتنعٌ بأنّ كلّ كاتبٍ له جداره من الشخصيّات.

- لا أدري، لم يسبق لي أن استجوبتُ كتّابًا آخرين.

- هذا مؤسف!

إذ يشربُ تبقى الرّغوة على شفتيه راسمةً ما يُشبه سحنة طفلٍ مندهش.

- مَنْ مِن موتاي تدخّل أثناء حديثنا؟

- لقد وشوش ديدرو شيئًا مّا في أذنك.

- متى؟

- عندما أثرتَ قضيّة الخلاص من خلال المعرفة.

- آه نعم، إنّه التّحريرُ من خلال «الأنوار»، لقد كانت قضيّةً مركزيّةً لدى هذا السيّد الموسوعيّ.

يكرعُ جرعةً كبيرة من قدح الجعّة.

- ديدرو يُلهم، موتسارت يُصلح وكوليت تَسخر. إنّهم ليسوا ذاكرتي فقط، أليس كذلك؟ ليس من الممكن اختزالهم في قراءاتي، أو في المعرفة المتراكمة، أو في الشكّ. إنّهم أحياء، يكتشفون ويتفاعلون.

- نعم.

- هؤلاء الموتى لم يقولوا كلّ شيء. إنّهم يبحثون عن أذنٍ وفمٍ ويدٍ كي يُعلّمونا ويدعمونا. إنّهم ما يزالون يتحدّثون. بالنّسبة إليهم، أنا غرفة الصّدى. يا للشرف!

يضحكُ. تعبّر ملامحه عن نشوة التّفكير.

- بفضلِ رؤاكَ يا أوغسطين، نعيدُ تعريف الكثير من المفاهيم. وعليه، فإنّ خطاب الموتى الموجّه إلى شخصٍ حيٍّ مثلي، يُعدّ تأثيرًا!

- صحيح!

- أمّا إدراكُ أخطائنا فإنّه راجع إلى نقد الموتى لنا.

- دون شكٍّ.

- والثقة التي تملؤنا بغتةً هي مباركتهم.

يفركُ جبينه ويُتابع:

-لم أعُدّ نفسي خالقًا قطّ، بل كاتبًا ليس إلاّ. تجتاحني أفكارٌ وتفاصيل وعواطف دون أن أعرف من أين تخرجُ. يا للموتى! لقد وصفتُ أمكنةً بدقّةٍ رغم أنّي لم يسبق لي أن زُرتها. وأثناء

تأليفي لروايتي «الإنجيل بحسب بيلاطس»، وضعتُ فرضيات تمّ تأكيدها من خلال اكتشافٍ لاحقٍ لوثائق في منطقة الشرق الأوسط. يا للموتى! فأنا لا أتنبّأ بما حدَث في الماضي فحسب، بل أُخبر عن المستقبل. وفيما كنتُ أعتقدُ أنّي لا أستخدمُ سوى مخيّلتي، كتبتُ صفحات عن المجتمع والمال والهجرات، صفحات حوّلها الواقعُ إلى رؤى مستقبليّة. يا للموتى! دائمًا الموتى! هل تعرفُ أيّ اسمٍ أُطلقه على مكتبي؟ لقد استلهمت الاسم من عنوان مسرحيّة فلوبير «المصوات»[1]، تلك المسرحيّة التي يسترجعُ فيها نصوصه مائة مرّة بصوتٍ عالٍ. فأنا في المُقابل أمدّ أذني إلى «المسماع»[2].

يمدّ يديه ويبسطهما فوق الطاولة ويحدّقُ في وجهي.

– من الذي يكتب عندما نكتب؟ من الذي يُنجز عندما نُنجز؟

أغتنمُ سؤاله لأطرح عليه الأفكار التي راودتني عصرًا:

– لقد طرحتُ على نفسي هذا السّؤال وأنا أنسخُ حوارنا، سيّد شميت: من هو العنيف؟ هل هو الربّ من خلال الإنسان؟ أم الإنسانُ نفسه مستغلاً الربّ كعذرٍ أو ذريعة؟ أنتَ تميل إلى الحلّ الثاني، ولكن كيف يمكنُ أن تكون متأكّدًا من ذلك؟

– هل قرأتَ كُتب الربّ؟

---

(1) لم نجد في العربية مرادفًا لمفردة «gueuloir»، وهي تعني «الفم» في الفرنسية القديمة، سوى مفردة المصوات.

(2) لم نجد في العربية ما يوافقُ مفردة «écoutoir»، وهي تعني مخروط الأذن، ذلك الجهاز القديم الذي يستخدمهُ من يعانون من مشاكل في السمع فاعتمدنا عبارة «مسماع».

- أرجو المعذرة؟

- هل قرأت الكتب الثّلاثة التي كتبها؟ العهد القديم والعهد الجديد والقرآن؟

- نعم ولا. لقد قرأتُ مقتطفات.

- هذا هو الإشكالُ عندما نكتبُ كثيرًا...

- هل يتوجّبُ عليّ أن أقرأها؟

- أنصحكُ بهذا. حالمًا تنتهي من القراءة ستطرحُ أكثر من سؤالٍ حول المؤلّف.

- مثلاً؟

- هل هو جادٌّ عندما يتوعّدُ؟ هل يحافظُ على جدّيتهِ عندما يحثُّ البشر على الجريمة والثأر؟ والأهمّ من ذلك، لماذا...

يقطعُ جملته، يفركُ صدغه ويقطّب جبينه بينما عيناهُ تزدادان سوَادًا من ذي قبل.

- لماذا يفعلُ ذلك ثلاث مرّات؟

- أرجو المعذرة؟

- لماذا يؤلّف الربّ ثلاثة كتبٍ؟ ألم يقل كلّ شيء في الأوّل، أعني في العهد القديم؟ إذ يكرّر ذلك في العهد الجديد، فما الذي قد يكون نسيَه ليُضيفه؟ وأخيرًا، هذا العهد الجديد نفسه، هل أشعره بعدم الرّضا إلى الدّرجة التي جعلته يبدأ من جديد ويقدّم لنا القرآن بعد عدّة قرونٍ؟

يتراجعُ إلى جوْفِ المقعد.

- يا لمهنة الكاتب اللّعينة، مهنة الربّ هذه! يفعل ذلك ثلاث مرّاتٍ... إنّي لأتساءلُ هل ثمّة تقدّم بين الكتابين الأوّل والأخير!

يتأمّلُ السّقف محبطًا.

- بقدر ما أتعرّف على الربّ في أعماق قلبي، في الصّلاة أو التّضرّع مع الشكر، فإنّي لا أفهم هذا الكاتب/ الربّ؟

يتنهّد ويُضيف:

- ومع ذلك فنحنُ زميلان.

ينفجرُ ضاحكًا. فأضحكُ أنا أيضًا وأُعقّبُ على كلامه:

- هذه هي المحاوَرة الصّحافيّة المثاليّة، المحاوَرة المهمّة، المحاوَرة النهائيّة، المُحاوَرة التي ستوضّحُ كلّ شيءٍ للإنسانيّة: مُحاوَرة الربّ! «مرحبًا سيّدي الربّ، لقد جئتُ لأستجوبك حول مؤلّفاتك الأدبيّة».

يبتسمُ بطريقةٍ آليّة ويتمعّنُ في وجهي، وكأنّه يعرّي روحي.

- أنت بالذات يا أوغسطين، ستكونُ قادرًا على إجراء هذه المقابلة مع الربّ.

يُؤيّد قوله وهو مندهشٌ إلى حدٍّ مّا من هذه الحقيقة البديهيّة.

- نعم. أنت رجل المرحلة.

أجد نفسي مُستمتعًا بهذه المحادثة العبثيّة، فأنخرطُ في اللّعبة:

- لماذا أنا؟

- لأنّك تملك حساسيّةً مفرطةً، فأنت دائمًا منفتحٌ وجاهزٌ إذا ما أراد الواحد منّا الحديث. ثمّ هنالك موهبتك!

- موهبتي؟

- أنت تمتلكُ امتياز رؤية ما لا يراه الآخرون وسماع ما لا يسمعون.

يبهرني وقاره. يا له من ممثّلٍ! إنّه يذكّرني بالكاهن الذي يزور أحلامي أحيانًا، ذلك الذي يعهد إليّ بالمهامّ.

أضحكُ كي أجعل الأجواء أكثر مرحًا.

- ها ها،... إنّه لمن المؤسفِ أنّي لا أملك عنوان الربّ.

يمسكُ شميت معصميّ بقوّة وهو يُجيبُ بجديّة:

- لديّ عنوانه.

أحاولُ أن أضحك، ولكنّه يباغتني، بالضّغط أكثر على يديّ كي أهدأ.

- أوغسطين، لديّ الوسيلة التي ستمكّنك من إجراء المقابلة مع الربّ.

- أنت... أنت تسخر منّي!

يقرّبُ وجهه من وجهي وقد بدا عليه التوتّر والتركيز والتجهّم ويُصرّح بصوتٍ مكتومٍ:

- لم يسبق لي أن كنتُ جادًّا كما الآن.

-13-

«اعثر على البلّورة!»[1].

هذه هي كلماته الأخيرة.

«اعثر على البلّورة!»

هذا هو هوَسي الآن.

هذه اللّيلة، لست أقدر على النّوم.

صحيحٌ أنّ المصنع المهجور يشملني بالحماية، ولكن لا أملَ لي في النّوم طالما أنّ الأفكار تعذبني.

السّماءُ تخنقُ الرّيف. ثمّة مخملٌ داكنٌ يغطّي السّماء اللاّمتناهية بينما الثقوب التي تنتشرُ فيها -أقصد النّجوم- ترشحُ نورًا ساطعًا لنارٍ تتوهّجُ وراءها. شيءٌ مّا قاسٍ ومعدني يركدُ في الهواء. حولي، تبدو الحيطانُ والجدرانُ القصيرة كأنّها مطليّةٌ بالرماديّ جرّاء انعكاس القمر عليها غير أنّ نتوءاتها وحوافّها وزواياها تبرزُ على نحوٍ صريحٍ. تتباينُ الظلالُ والأشعّة بعنفٍ. إنّ شيئًا مّا صافيًا يفرضُ نفسه. ويظلّ الزمنُ، كما النّوم، معلّقًا.

(1) الكريستال أو البلورة: يختلف عن زجاج الكريستال. في الكيمياء وعلم المعادن وعلم المواد هو عبارة عن جسم صلب تكون فيه الجسيمات المكوّنة من الذرّات أو الجزيئات أو الشوارد (الأيونات) مصطفّةً بترتيب منتظم. من المواد المعتادة المتبلورة نجد ملح الطعام والسكّر والمعادن وحبيبات الثليج، وفلزات مثل الحديد والنحاس والفضة وغيرها.

في داخلي، ما عادت هنالك مناطق مضطربة أو معتمة. أرى مهمّتي بوضوح. «اعثر على البلّورة!».

وأنا مُستلقٍ فوق فراشٍ مكوّنٍ من عدّة صناديق كرتونيّة مكدّسة، أعدّدُ الفرضيّات برغبةٍ عارمةٍ في بلوغ يوم الغد بأسرع ما يمكن. يحرجاني الانتظارُ. أسْرِعْ «اعثرْ على البلّورة!».

قبل ثلاث ساعاتٍ، عندما غادرتُ رفقة شميت حانة «الفرسان»، وقد امتلأنا من الجعّة ومن كرات اللحم، بلغتُ حالةً من السّعادة المعويّة والفكريّة جعلتني لا أُظهرُ مقاومةً لأيّ شيء.

اقترح عليّ شميت أن نعود إلى القصر في غيرمانتي ليكشف لي المزيد.

عبَرت السيّارة الغابات والحقول المظلمة عبر طريقٍ بدت فيها كأنّها مُعلّقة، وهي طريقٌ وعرةٌ تتفاداها الحافلات أوصلتنا إلى منزله في غضون عشر دقائق بدلاً من ثلاثين.

وسط الشوارع الهادئة التي تصطفّ فيها المنازل المزهرة، تستقلُّ المزرعة-القلعة بنفسها. وبفعل العتمة يستعيدُ مظهرها هيئته المحارِبة. تُظهرُ الأسوارُ السّميكة ارتفاعها العدائيّ، ويقومُ البرجُ المستديرُ بالحراسة بينما تكشفُ زنزانة القلعة ذات الشكل المستطيل عن كوّات الرمي الموجودة في قمّتها لينطلق منها السّهم أو الحربة باتّجاه العدوّ.

عند وصولنا عوَت الكلابُ مفضّلةً إهانة الدّخيل على الاحتفاء بسيّدها. ما اضطرّ شميت إلى تهدئتها بإشعال جميع مصابيح الطّابق الأرضيّ واستعادة الجوّ الذهبيّ المريح، كي تتسامح معي.

- يجب ألاّ نضيع الوقت، لنذهب إلى الطابق السفليّ.

رفع الكاتبُ غطاءً ثقيلاً ونزلنا إلى باطن الأرض. وعبر باب مصنوعٍ من الفولاذ، دلَفنا إلى القبو، أو بالأحرى إلى سلسلةٍ من الأقبية ذات العواميد تشكّلُ عالماً خلويًا تحت المبنى له مثل مساحته. زحفت الأنوار المُتسلّلة نحو جدران الطوب دون أن تبلغ الأسقف الواطئة، حتى إنّ رأسي اصطدَم بها أكثر من مرّةٍ.

في القبو الأوّل، تتكدّسُ صناديق معبّأةٌ بالأكاليل والكرات والتماثيل. أجابني شميت عنها وقد لاحظَ دهشتي:

- إنّها زينة شجرة عيد الميلاد.

- ماذا؟ أنت تزّينُ غابةً، لا شجرة!

- هنا، نحبّ أن ننوّع من الألوان كلّ سنةٍ. الأحمر، الأرجوانيّ، البرتقاليّ، الذهبيّ، الأزرق، الأبيض، الفضيّ... إلخ. ولكنّك مُحقّ، بكلّ هذه المواد، سيكون في مقدورنا أن نفتتح متجرًا.

في القبو الثاني، رأيتُ زجاجات نبيذٍ مصفوفة إضافةً إلى صناديق تحملُ علامة ضيعات النبيذ.

في الثالث، وُضع ما ليس له قيمة كالطاولات والكراسي والمصابيح والجرار وألواح الأسرّة وبقايا عمليات الانتقال المتعاقبة.

بينما كنّا على وشك الاصطدام بجزءٍ بارزٍ في المدخل جثا شميت على ركبته، تحسّس الجدار، أطلق شتيمةً، انتقل من مكانه، ثمّ عاود الكرّة، تنهّد، تحرّك مُجدّدًا إلى اليسار، وأخيرًا صرَخ:

- ها هو!

سحب طوبةً من الجدار.

طوبة؟ إنّها نصفُ طوبةٍ، بل ثلثُ طوبةٍ، ما يكفي لخداع الأعين.

أدخل يده في الفراغ الذي كانت تشغله وسحب منه علبةً من القصدير.

- أمسكتها.

قبل أن أنظر إلى ما بيده، لبثتُ أفكّر في التّمويه المبالغ فيه.

- غريبٌ أن يخفي المرء كنوزه وراء قطع الطوب.

- إنّه تقليدٌ عائليّ.

- ألا تمتلكُ خزنةً؟

- بلى، بالطبع. ولكنّي أضعُ فيها أشياء قليلة. إنّها تقاليد العائلة.

- آه... يبدو أن عائلتك معتادةٌ على إخفاء الكثير من الأشياء؟

- جدّي كان صائغ مجوهرات. لم يكن يكسب سوى أجرته كحرفيٍّ، ولكنّ ثرواتٍ عظيمة كانت تقع في يديْه طيلة المدّة التي يستغرقها إصلاحُ المجوهرات. لذلك قام بتركيز نظام مخابئ في شقّته بليون. ولتوقّعه أنّ اللّص الذي يتمكّن من تجاوز الأقفال والأبواب الحصينة سيتوجّه نحو الخزنة، قام بوضع خزنة فخمة ظاهرةٍ للعيان كدّس فيها الأشياء الرّخيصة، ثمّ خزنةً عاديّةً أخفاها وراء خزانة الملابس، وزيادة على ذلك - بذريعة أنّ المرء لا يضع بيضه في سلّة واحدة- جهزّ الكثير من الأركانِ داخل الجدران مخابئ لا أحد يشكُّ في وجودها. منذ طفولتي، تعلّمت طريقة نزع قطع الطوب عن الجدران ثمّ إعادتها بإحكام.

وحالمًا أتمّ قصّته أشارَ إلى علبة القصدير وهو يقول:

– اجلس يا أوغسطين.

قرفصتُ أمامه فوق الأرضيّة الحصوية فأخرج مصباحًا ووجّهه نحو العلبة.

– لقد عهد شامان[1] إلي بهذا العقّار. إنّه يسمّى «الياغييه»[2].

– الـ...

– الياغييه أو الأياهواسكا. يقولُ البعض إنّ معناها: النبتة المتسلّقة المُرّة. ويقولُ آخرون إنّها نبتة الموتى المتسلّقة. ويسمّونها أيضًا العصيرُ الرّوحاني. إنّهم يستخرجونها من النّبتات المتسلّقة التي تنمو في أدغال الأمازون، أو على نحوٍ أدقّ، من لحائها.

– هل هي دواء؟

– إن شئنا.

– أرجو المعذرة؟

– إنّه عقّارٌ. وككلّ عقّارٍ، باختلاف الجرعة المستخدمة، إمّا أن يُعالجَ أو يتسبّب في الهلوسة... أو يقتل.

رافقَ صمتٌ مهيبٌ الجملة الأخيرة. بعدها، رفع شميت الغطاء وعرض أمامي صُرّتين من القطن مغلقتين بشريطٍ، الأولى رمليّة اللّون

---

(1) شامان: اسم عَلَم مذكّر ويعني رجل الدين والواعظ والكاهن. ومن يُحسن السحر والكهانة.

(2) الياغييه أو الأياهواسكا: مشروب مستخلص من النبتة المتسلّقة (liane) يشربهُ شامانات القبائل الهندية في منطقة الأمازون. في لغة السكّان الأصليّين، تعني كلمة «أياهواسكا»: «نبات الروح المتسلق». وفي شهادات مختبريها، تجارب متنوّعة جدًّا، من سماع صوت داخلي، إلى التواصل مع أهلٍ متوفّين واتّصال باللاّوعي.

والثانية بُنيّةٌ، وقالَ مُوضّحًا:

- في القرن العشرين، شرع علماءٌ فرنسيّون في التّحليل الكيميائي للأياهواسكا ثمّ أطلقوا اسم «تيليباثين» على أوّل مركّبٍ شبه قلويّ[1] تمّ عزله، لأنّ هذا المؤثّر العقلّي[2] يمنح مُتعاطيه القدرة على التقاط الأفكار عن بعد.

ثمّ لوّح بالصُرّة البُنيّة وتابع.

- انظر، هذه تركيبة استثنائية وفريدة لأنّ الشامان أضاف الكوكا[3] إلى الأياهواسكا، فضلًا عن نباتاتٍ أخرى مثل النّباتات الباذنجانيّة التي تحتوي على النيكوتين والأتروبين والسكوبولامين[4]. باختصارٍ، لقد تمّ سحق ما لا يقلّ عن سبع وخمسين نبتةً هنا، وأُبقيت طازجةً عبر تقنية تفريغ الهواء لأنّ التّجفيف يدمّر خصائصها. إنّ هذا المخدّر يوصل إلى الرؤية العليا.

ربّت على الصُرّة شارحًا لي طريقة الاستخدام:

(1) أشباه القلويات مركبات عضوية نيتروجينية، تُوجَد بشكل كبير كمنتجات طبيعية في النباتات ذات الاستعمال الطبي.

(2) العقار نفساني التأثير أو المؤثر العقلي عبارة عن مادة كيميائية تعبر الحاجز الدموي الدماغي وتؤثر في الجهاز العصبي المركزي ومنه في وظيفة العقل وهو ما يؤدي إلى حدوث تأثيرات على الإدراك الحسي والحالة والوعي والإدراك والسلوك.

(3) الكوكا نبات ينمو في أمريكا الجنوبية. تمضغ أوراقه المجففة بهدف الحصول على التأثير التنبيهي.

(4) كلها مركبات شبه قلوية مستخلصة من نبتة الباذنجان القاتل، وهي مضادة للمخدرات والتقيؤ وغيرها من الاستخدامات الطبية.

- يُحصلُ على المشروب النهائيّ عبر الاستخلاصِ بالإغلاء. خذ، كلّ شيءٍ مدوّنٌ في هذه الورقة. ثمّ، في اليوم التّالي، قم بتسخينه على نارٍ هادئةٍ لمدّة ثلاث ساعاتٍ مع تحريكه. بعد ذلك، صفّه، وانتظر إلى أن يبرد وكرّر العمليّة مرّتين. عندما يجهز، سيأخذُ السّائلُ لون الفحم الصّلب.

منحني ابتسامةً، فيما عبرَتْ وَجْهَهُ قُشعريرةٌ وهو يُعلن:

- عندئذٍ تبتلعهُ وستصبحُ قادرًا على محادثة الربّ.

- هل تعتقدُ ذلك؟

- لست مُنحازًا إلى أيّ تصوّرٍ عقلانيّ. فأن نصل إلى المعرفة عبر وسيلةٍ لاعقلانيّة أمرٌ لا يزعجني. وأنا مقتنعٌ بأنّ هذه النّباتات تلغي ردود أفعالنا العاديّة وتحلّ خيوط ذكائنا وهو ما يسمحُ لنا بفهم المستويات المختلفة للحقيقة.

- ماذا سيحدثُ لي لو شربتُ هذا؟

- ستعيش حالة من الغيبة[1] مع الهلوسات.

- هل ثمّة آثارٌ سلبيّة؟

- نَعَمْ! قد تضطرّ إلى إفراغ أمعائك بعد أن يمتصّ جسدك السّائل. إنّي أنصحك بالامتناع عن تناول أيّ شيءٍ قبل ذلك.

«ألاّ أتناول أيّ شيءٍ؟ مرّةً أخرى؟». حدّثتُ نفسي. ثمّ علّقتُ ساخرًا:

---

(1) الغيبة transe هي حالة من تغير الوعي عن حالة الإدراك والوعي الكامل الطبيعي. يترافق حدوثها مع التنويم الإيحائي وحالات التأمّل والتواصل الرّوحي.

- الصّوم؟ إنّه اختصاصي.

لم يفهم ملاحظتي اللاّذعة. وإذ أزعجني بروده لم ألبث أن قلتُ له بعدوانيّةٍ:

- لماذا لا تجرّب أنت؟

فقد وجهه كلّ تعبيرٍ ثمّ اصفرّ لونه وهو يُجيب:

- لم يسبق لي مطلقًا أن تعاطيتُ مخدّرًا.

- وماذا في ذلك؟

- لا أريد.

- عليك أن تجرّب كلّ شيءٍ.

- حقًّا؟

- لا سيّما والأمرُ يتعلّق بكاتبٍ.

قهقه متهكّمًا:

- يا له من تعبيرٍ نمطيّ! فيم يصلحُ الخيالُ إذن؟ منذ ثلاثين عامًا وأنا أكتشف العالم بخيالي الذي يبدو لي سبيلاً حقيقيًّا إلى المعرفة. يا له من أمرٍ مملّ أن نعيشَ كلّ ما نرويه! يا لها من مضيعةٍ للوقت! إنّي أتركُ هذا إلى أولئك الذين يصرّون على أن يكونوا روائيين والحال أنّهم تعوزهم الموهبة الأساسيّة: الخيال. أنا لا أطمحُ إلى إضافة الكتاب رقم مليون عن الطلاق والاكتئاب والمرض وموت الأب والأبوّة...

لمّا شككتُ في أنّه يحاول تحويل انتباهي، كرّرتُ:

- لماذا لم تحاول خوضَ التّجربة؟

توقّف عن الثرثرة وخفَض نبرةَ صوته وقد أصبحت صادقةً بـ...
- أنا لا أحتملُ فكرة أن أفقد السّيطرة على نفسي. حتمًا أنا ...
لا سيّما أنّ الأحداث الرّائعة التي وقعت لي نتجت عن الزه...
في كلّ شيءٍ، من ذلك لقائي بالربّ في الصّحراء وقصص ...
الكبيرة. ولكن... بالمناسبة، أنا نادرًا ما أشرب الخمر.
- ماذا؟ ألم يسبق لك أن سكرت؟
- لا. حسنًا، نعم، حدث ذلك مرّةً واحدةً مصادفةً. فباعتبار أنّي
درّبتُ نفسي على الزّهدِ في الملذّات، كان كأسًا «جين تونيك»
إسبانيّ كافييْن لإصابتي بالدّوار! لقد عشتُ ليلةً فظيعةً! بل
ومأساويةً.
- لماذا؟
- لأنّ الحزنَ رافق سكري.
- أنت؟ وأنت المتمتّع بكلّ هذه الحيويّة؟ وأنت المبتسمُ باستمرار؟
- تمامًا! إنّ الخمر يدمّرُ السّدود التي نشيّدها طيلة وجودنا الواعي.
لقد استخلصتُ من هذا أنّ عليّ مقاومة الحنين والغضب وخيبة
الأمل طالما أنّها تطفرُ تحت تأثير السّكر. إنّ أولئك الذين يشعرون
بالمرح لحظة السّكر يقاومون حيويّتهم ورحابة صدورهم طيلة
اليوم، أليس كذلك؟
توقّف عن الكلام ثمّ أردف بصوتِ صبيٍّ صغير:
-إنّ الأياهواسكا تتطلّب الانقطاع عن أيّ علاجٍ طبيٍّ، وهو الأمر
الذي لا أستطيعُ أن أسمح به لنفسي. أنت تعرفُ أنّي لا أملكُ

سوى هذا...

وتابع وقد وضع إصبعهُ فوق صدغه:

-... عقلي الذي به أحيا وبه أحصّل رزقي.

خفتُ أن ألمس صدغه.

- ولكن ماذا عن الفضول؟

- الفضولُ يبدو أقلّ وطأةً من الخوف.

وأنا أهزُّ رأسي، أدركتُ أنّ ما أشعرُ به هو العكسُ تمامًا فقد أردتُ أن أبتلع المسحوقَ على الفور.

أخذتُ الصرّة، لكنّ شميت أمسك يدي:

- انتظر! ماذا عن الثانية؟

حرّك الصرّة المصنوعة من الكتّان الخشن.

- هذا العقار يجب أن يستعمل مع البلّورة.

- مع البلّورة؟

فرَك جبهته وقال مُفسّرًا:

- إنّ صعوبة الاختبار تكمنُ في هذا، فالمزيجُ الذي ستبتلعُه سيضعك في حالة تسمح لك برؤية الربّ. لكن ثمّة آخر يجب أن يسبقك ويقودك إليه، إنّه هذا المُسمّى بـ«البلّورة». لقد كان الشامان واضحًا بخصوص هذا.

- لماذا تتحدّث عن البلّورة؟

- أوغسطين، هل سبَق لك أن خلقتَ موسيقى من كؤوس

الكريستال؟

- نعم.

- إذن، أظنّك لاحظتَ ضرورة ألاّ تضغط كثيرًا على الكأس في يدك، وإلاّ فإنّ جلدك وشحمك وأوتارك وعظامك ستعيق الرّنين بامتصاصها الصّوت. فكي تجعل الكأس تصدرُ صوتًا، يجب أن تمسك عقبها برقّة بين إصبعيك. ولأجل هذا يُطلقُ اسم البلّورة على ذلك المساعد الذي يمهّد لتجلّي الربّ. إذ عليه أن يجعل الاهتزاز ممكنًا دون أن يعيق هذا التجلّي. داخل المنظومة الكاثوليكية، يستخدمُ الكاثوليك مفردة «قدّيس» بدلاً من «بلّورة» في إشارة إلى الشفيع، ذلك الذي يُيسّر لك صفاءُ روحه الصّعود إلى الربّ، وهو نفسه الذي يمسكُ ببابك ويقدّمك إلى العليّ القدير.

توتّرت أنفاسهُ وتشبّث بذراعي مُلحًّا:

- عليكَ أن تجد الوسيط الذي سيقودك إلى الربّ حين تتعاطى العقار. بذلك سوف تنجحُ التّجربة.

- ألا تريدُ أن تغامر؟

- هذا غير وارد!

- هل هو الخوف مرّةً أخرى؟

-لا، أقسمُ لك! أنا لا أملك الصّفات التي تجعلُ منّي بلّورة.

- أنت؟

- نعم، أنا لا أصلح لهذا.

- لماذا؟

- لأنني متوغّلٌ في نفسي كثيرًا. فمع أن رأسي يعانقُ الغيوم، لديّ شخصيّةٌ مميّزةٌ، وقدمان راسختان في حياتي وفي ماضيّ. عليك أن تبحث عن شخصٍ منبتٍّ... شخص مّا، لا أدري كيف أفسّر لك، لديه انتماءٌ أقلّ إلى نفسه، شخص يأخذ مسافةً من ماضيه ويملكُ هُويّةً مُشمّعةً بما فيه الكفاية، شخص مّا جوّال ومتملّص كي يسمح بقدومِ... الربّ. إنّ الضّوء لا يمرُّ في غياب الشّقوق.

صمَتَ برهةً ثمّ سألني:

- هل فهمت يا أوغسطين؟

- أعتقد...

بعد فاصلٍ آخر من الصّمت لم يلبث أن قال:

- هل مرّ ببالك شخصٌ يمكنهُ أن يلعب دور البلّورة؟

- مطلقًا.

يشقُّ نعيبُ بومةٍ الظُّلمةَ الصّامتة.

ثمّة رفرفةُ أجنحةٍ، خافتة ومذعورة، وصرخاتٌ حادّةٌ تقطعُ تأمّلي وتذكّرني بأنّي ما أزالُ دابّةً وسط الدّواب داخل الموقع الصناعيّ المهجور.

يضيءُ القمرُ بقوّةٍ كما لو أنّه ساخطٌ.

أتقلّبُ من جانبٍ إلى آخر. من سيكونُ البلّورة؟ فمنذ أن أوصلتني السيّارة ناحية الطريق الدّائرية -وقد ادّعيتُ بطبيعة الحال أنّي سأنهي مشواري سيرًا على الأقدام- رحتُ أجلدُ عقلي بحثًا عن الشّخص

المُطابق للمواصفات بتفاصيلها التي ذكرها شميت.

داخل وعاءين على مسافة مترٍ منّي، تتشبّعُ الحشائشُ بالماء. بعضها يطفو على السّطح والبعض الآخر يتكاسلُ في القاع إلاّ أن توهّج القمر يحول دون تأكّدي من أنّ التّركيبتين اللّتين جَهَّزْتُهما قد شهدتا تغيّرًا في اللّون.

من؟

تمنّيت لو أنّ خاطرًا عَبَرَ ذهني. وبسبب غياب الإلهام، أبحثُ الآن بانتظام عن أولئك الذين التقيتهم أثناء دراستي، مُعدّدًا الأقسام والمكاتب فصلاً فصلاً ومكتبًا مكتبًا.

أسمع خشخشةً فأنتفض. تبدو لي كأنّها وقعُ أحذيةٍ تسحقُ أغصانًا ميّتةً. هل عبَرَ أحدهم ساحة المصنع؟ ألم أعد بمفردي؟

يطلقُ قلبي جرس الإنذار بتسريع دقّاته.

أنهضُ، أغادرُ سريري وأتوجّهُ ببطءٍ ناحية إحدى النّوافذ المعدومة من البلّور المُطلّة على فناء المصنع.

لا يوجدُ شيء.

تُستأنفُ الخشخشة، أكثرَ حدّةً وتكرارًا.

ترحلُ عيني ناحية اليمين هناك حيث يشتعلُ وهجٌ خلف السّور. وبسرعةٍ كافيةٍ، يندفعُ خيط دخانٍ، يبدو أبيض في البداية، ثمّ يسودُّ ويزداد كثافةً. إنّ حاوية القمامة تحترق!

أوّل الأمر يُطمئنني ذلك لخشيتي من عمليّة اقتحامٍ تنتهي بإيذائي. ولكنّ ألسنةَ اللّهب راحت تندفعُ وتعلو وتفحُّ مثل قردةٍ غاضبةٍ آتيةٍ

مل كلّ القمامة، فإذا بي أشعرُ بالذّعر.

يغذّي الخشبُ الموجود ضمن القمامة –وكذلك الصّناديق الكرتونيّة والأوراق– هذا الأجيج فينتشر الحريق أكثر.

أتأهّبُ! هل هنالك احتمالٌ أن يتجاوز الشّررُ السّور ويصل إلى الموقع؟

أقومُ بجمع ملابسي كإجراءٍ احترازيّ. ولكن ماذا سأفعلُ بالوعاءَيْن؟

أستديرُ نحو النّافذة. وإذا بحاوية القمامة بأكملها تنفث ألسنة اللّهب، ولكنّ الحواجز الحديديّة تعيقُ انتشارها. لا، لن تعبر النيران السياج ولن تأتي لتحرق الموقع. في تلك اللّحظة، أسمعُ صوتَ صافرة إنذارٍ. لقد وصل رجال المطافئ.

وقد اطمأننتُ، أقعي في الخلف كي أشاهد تدخّلهم دون أن يتمكّنوا من رؤيتي.

تستمرُّ صافرة الإنذار في إطلاق ندائِهَا الحادّ. هي ذي تقترب، ولكن مهلاً، إنّها تُعاود الابتعاد دون أن تتوقّف.

ماذا؟ هل عدَل رجال المطافئ عن إخماد الحريق؟

تتبعُ أذناي دويّ صافرة الإنذار وهو يتنقّل. أُرجّحُ أنّ سيّارة المطافئ غادرت الطريق السّريعة وأخذت الطريق الوطنيّة المؤديّة إلى البلدة المجاورة. يبدو لي ذلك غريبًا فأطلّ من النافذة وعيناي تفتّشان عن الوجهة التي اختفى فيها الصّوتُ إلى أن ألمح ضوءًا أحمر أشبه بهالةٍ في الأفق، وقد أحاطه الدخانُ.

ثمّة حريقٌ ثانٍ، أكثر خطورة، اندلع على بعد كيلومترٍ من هنا. يمرّ سربُ بطٍّ السّماء بينما تَصلني صرخاتٌ حادّةٌ صادرةٌ عن الطيور الجارحة تحذيرًا من الخطر. أمّا على الأرضِ، فيُشيرُ وقع الخطى المتسارعة إلى أنّ القوارض والأرانب والثعالب والقطط تحاول الهروب من الخطر. ومن أطراف البلدةِ يُسمعُ صوتٌ مبحوحٌ يصرخُ بصوتٍ عالٍ، سرعان ما تقومُ كلاب المنازل المجاورة بإعادة ترديده. وإذا بالأفق المعتم يرنّ يأسًا مبحوحًا.

أندفعُ نحو شرفة الورشاتِ لما توفّرُه من رؤيةٍ شاملةٍ.

لقد تغيّر الجوّ.

يشحبُ القمر وتبهتُ النّجوم وتتحوّل القبّة الزرقاء إلى رمادٍ لتبقى السّلطةُ للأرض الوعرة والبرّية.

في الشرق وفي الغرب، في الشمال وفي الجنوب، ثمّة بروقٌ تمزّقُ العتمة. والحرائقُ التي اندلعت في كلّ مكانٍ ما تزال تبصقُ في وجه السّماء شعلتها ذات التوهّجِ المحمومِ. إنّه منتصف الليل، ولكنّ السّماء بلون الشّفق.

إنّي محاصرٌ بالنّيران.

-14-

- إنّها نهاية العالم!

تقول القاضية بواترونو وهي تحاولُ أن تتأمّلني في الرّدهة المظلمة وأتابع:

- لقد اشتعلَتْ عشر حاويات قمامة هذه اللّيلة. وثمّة بلاغات عن وجود قنابل أصابت ثلاث مدارس بالشّلل، زد عليه تفجير خبراء إزالة الألغام طرديْن مشبوهيْن، واحدًا في المركز التّجاري والآخر في محطّة القطار. لقد عمّ الاضطرابُ رجال الشرطة بل إنّ رئيس الحكومة أرسل تعزيزات عسكريّة وفِرَق الكلاب المختصّة. وها هي الدبّابات تحيطُ بشوارعنا.

يتردّدُ صدى صوتها المعدني حتّى قاع الدّرج ثمّ يختفي.

أتمعّن في وجهها الطويل الصّافي والخالي من الملامح، ذلك الوجه الذي لا أثر فيه لأيّ تفصيلٍ يجذب الانتباه باستثناء عينيها السّوداوين والواسعتين. تشيرُ السّاعة إلى منتصف النّهار. لقد لبثت تنتظرني في المبنى الذي تحتلّه صحيفة الغد.

- أوغسطين، أين كنت في منتصف اللّيل؟

- عند صديق، غير بعيدٍ عن الحاويات التي اشتعلت فيها النيران.

- هل خفتَ؟

- بل ما أزال خائفًا.

تمسكني من يدي وتسحبني نحو الباب البرونزيّ الذي يفتحُ على الشّارع.

- تعال، سنتحدّث عن ذلك.

- لكن... عليّ أن أكون في غرفة التّحرير خلال عشرين دقيقة، إنّهم ينتظرونني... أنا...

- ينتظرونك؟ هذا أمرٌ جديدٌ تمامًا... ألم يعد باستطاعة البغيض بيغارد الاستغناء عنك؟

- لا، ولكن... عليّ أن أشتغل.

- بالضّبط، عليك أن تشتغل لحسابي.

تجرّني إلى الخارج لنحلّ ضيوفًا على الرّصيف. ومع أني أنهيتُ هذا الصّباح كلّ واجباتي بعد أربع ساعاتٍ طويلةٍ من العمل، فضلاً عن سعادتي بالتخلّص من الابتهاج البذيء لبيغارد -وهو المرحّب بالكارثة الجديدة التي حلّت على شارلوروا- أجدني أقاومُ على سبيل التمسّك بالمبدأ:

- لماذا يتعيّن عليّ أن أشتغل لحسابك؟

- لأنّي لا أدفعُ لك أقلّ من الحقير بيغارد.

تضحكُ بغطرسةٍ وتسحبني.

ثمّة رذاذ ماءٍ ينزل بتراخٍ فوق شارلوروا، وإنّ حُبَيْبَاتِه تُبلّلُ المرءَ أكثر من الأمطار. ونحن في مكاتبنا، كان النّهارُ الدّاكنُ، والخافت

الإضاءة، يعطي انطباعًا بوجود ستائر تحجبُ النوافذ. والآن، وأنا أواجهُ الجوّ المتجهّم، أرى مياه الصّرف الحليبيّة تغمرُ كلّ شيءٍ، تصبح الطريقُ زلقَةً، تبكي الأسطح، وترتجفُ الشوارعُ، وحتّى حجارة الواجهات يبدو أنّ الرطوبة اخترقتها.

أمامنا، عند جذع شجرةٍ، يقفُ ميشان مُنتظرًا تحت مطريّةٍ تقطر وقد بدا عليه البؤس.

«ميشان، هيّا اتبعنا». تقولُ القاضية.

يُهرول وراءنا بإذعان.

نتقدّم حوالي مائة مترٍ قبل أن تنحرف بواترونو وتصعد ثلاث درجاتٍ غمرتها المياه وتدفعُ بابًا برونزيًّا ذا دفتين.

- أنت لا تُكنّ أيّ ضغينةٍ للكنائس، أليس كذلك؟

- أووه...

- لا يوجدُ مكان أكثر تكتّمًا وخصوصيّةً من كنيسةٍ. إنّها أفضل من فندقٍ رخيص.

يخفضُ ميشان رأسه مذعورًا أمّا بواترونو فتقهقه، ودون أن تنتظر إجابتي تقودني نحو مربّعٍ مظلمٍ يقع خلف غرفة اعترافٍ متداعية في مواجهة جرن الماء المقدّس. في ركنين ثمّة كرسيّان متهالكان يحتاجانِ إلى عمليّة تنجيد. تقومُ بواترونو بجمعهما.

- حسنًا! إنّ الربّ وحده بإمكانه أن يسمعنا علمًا أنه لا يهتمّ. ميشان هيّا اذهب إلى المذبح وانظر إن كنتُ أجلسُ هنالك[1].

(1) هي جملة دارجة الاستعمال تُعتمد للسخريّة من غباء أحدهم.

- حاضر، سيّدتي القاضية.

يدبُّ ميشان نحو الخورسِ[1] متعجّلًا، أمّا هي فتعقدُ ساقيها وتتأمّلني.

- حسنًا! كيف تسيرُ أمورُ تحقيقك؟

أنقلُ إليها فحوى محادثتي مع شميت. تستمعُ إليّ بانتباه، تتثاءبُ مرّتين ثمّ تتحمّسُ عندما أذكر الأياهواسكا، ذاك العقار الأمازوني الذي يُمكّن من لقاء الربّ.

تقولُ متعجّبة:

- لقد حدّثني عددٌ من المدمنين والمصابين بالاكتئاب الحادّ عن هذا المخدّر، وذلك لم يشجّعني على تصديقهم. هل أنت مستعدٌّ لشربه؟

- حتّى لو كنتُ مستعدًّا، فمن سيشاركني ذلك؟ إنّ التجربة لا تتمّ إلاّ بوجود اثنين.

تفكّرُ.

- شخصٌ نقيّ، روحانيّ ويخلو من النرجسيّة؟ فعلاً، إن شخصًا كهذا نادرٌ ندرةَ نبتة النفل ذات الأوراق الأربع. قل لي، إذا عثرنا على هذا العصفور النّادر، هل ستخاطرُ وتقوم بهذه... الرحلة؟

ألوذُ بالصّمت. من المستحيل أن أكشف أسراري: سأُبقيها على جهلها بوجودِ التّركيبتين اللّتين تركتهما تبردان في المطبخ الملحقِ بقاعة التّحرير.

---

(1) خورس: مكان جوقة المرتلين في الكنيسة وعادة ما يكونُ قرب المذبح.

- حاول، أرجوك! إنّ نهاية العالم تبدأ يا أوغسطين. أنا لا أمزح.

- نهاية العالم؟

- إنّها تلك التي بشّرت بها الكتب المقدّسة. سيُنزلُ الرّب بنا قريبًا ضرباته الأخيرة. إنّ الدّمار قادمٌ والسّاعة اقتربت.

- عَمَّ تتحدّثين؟

- «**سوف تسمعون بحروبٍ وأخبار حروبٍ. انظروا لا ترتاعوا، لأنّه لا بدّ أن تكون هذه كلّها، ولكن ليس المنتهى بعد. لأنّه تقوم أمّةٌ على أمّةٍ ومملكةٌ على مملكةٍ وتكون مجاعاتٌ وأوبئةٌ وزلازل في أماكن مختلفةٍ**»[1]. ممّن تعتقدُ أنيّ أقتبسُ؟ من صحيفة هذا الصبّاح؟ لا، إنّه الربّ! إنّه كلام الربّ من ألفي عامٍ... «حينئذٍ يُسلمونكم إلى ضيقٍ ويقتلونكم وتكونون مبغضين من جميع الأمم لأجل اسمي. **وحينئذٍ يعثر كثيرون ويسلمون بعضهم بعضًا ويبغضون بعضهم بعضًا**»[2]. هل تعتقدُ أنّي أكتب افتتاحيّةً حول عالمنا الغربي الذي يتعرّض لتهديد تنظيم داعش؟ لا، لقد اقتبستُ النصّ نفسه من إنجيل متّى. «**ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلّون كثيرين. حينئذٍ تأتي النّهايةُ. لأنّه يكون حينئذٍ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون**»[3].

- إنّ النّبوءات تتحقّق على نحوٍ أسهل بكثيرٍ من مراهنات اليانصيب!

---

(1) إنجيل متّى الإصحاح 24 الآيات 6/ 8.

(2) إنجيل متّى الإصحاح 24 الآيات 9/ 10.

(3) إنجيل متّى الإصحاح 24 الآيات 11/ 21.

- «وسيسلّم الأخ أخاه إلى الموت والأب ولده ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم»[1]. هل تتخيّل أنيّ أعرضُ عليك دراسة اجتماعيّةً حول دمار العائلات بسبب التطرّف الإسلامي؟ لا، إني أستحضرُ ببساطةٍ ما ورَد في إنجيل مرقس. هل تفهم؟ لقد أنذر الربّ بالأسوأ واحتفظ بوعده. كلّ شيءٍ على هذا الكوكب ينهار. المناخُ يختلُّ والغلاف الجوّي يحترق وموجات الحرارة تتعاقبُ والجليد يذوبُ والغابات تختفي والأنهارُ تفيضُ والمحيطاتُ تلتهم السّواحلَ والأعاصيرُ تتزايدُ والزّوابعُ تفلتُ من عقالها والصّحاري تتوسّع والحيواناتُ تموتُ وآلافُ الأنواع تنقرضُ والنّباتات تَهلكُ حاملةً كلّ أسرارها. لم يتبقّ في عمر الأرض الكثير، إنّها تترنّح. أعني هذه الأرض التي سمحت للبشر بالحياة... أمّا تلك الصّخرةُ/ الأرض، فستبقى، ولكنْ فارغةً...

- أنت تبالغين!

- اسمع أيّها البائس وانظر إلى العالم مباشرةً. «ستُظلم الشّمس والقمر لا يعطي ضوءه والنّجوم تسقط من السّماء وقوّات السّماوات تتزعزع»[2]، لقد ذكر متّى ذلك قبل أن يضيف الربّ بعض المنغّصات على لسان يوحنّا في سفر الرّؤيا: «وإذا زلزلةٌ عظيمةٌ حدَثت والشّمس صارت سوداء كمسح من شعر والقمر صار كالدّم ونجوم السّماء سقطت إلى الأرض كما تطرح شجرة التّين

(1) إنجيل مرقس الإصحاح 13 الآية 12.
(2) إنجيل متّى الإصحاح 24 الآية 29.

سقاطها إذا هزّتها ريحٌ عظيمةٌ والسّماء انفلَقت كدرجٍ ملتفٍّ وكلّ جبلٍ وجزيرةٍ تزحزحا من موضعهما. وملوك الأرض والعظماء والأغنياء والأمراء والأقوياء وكلّ عبدٍ وكل حرٍّ أخفوا أنفسهم في المغاير وفي صخور الجبال»[1]. يا أوغسطين، إنّ الكارثة النووية ستقعُ سواء كان الأمرُ مدبّرًا أو عن طريق الصّدفة، وستُدمَّر الحياة على هذا الكوكب ولن ينجو إلاّ أولئك الذين سيحتمون بالملاجئ النوويّة. إنّ «يوم الغضب» هذا سيختمُ ليلتنا الأخيرة.

- مرّةً أخرى تحمّلين كلّ المسؤولية للربّ.

- لقد قال ذلك! وكَتَبَهُ! أكثر من مرّةٍ... ستعثرُ على نصوص نهاية الزّمانِ هذه في التراث القرآني. أوغسطين، أنت وأشباهك، تمارسون الصّمم الطوعيّ. ولتعلمْ أنّ هتلر بدوره قد أعلن عن خطّته منذ العام 1920 أي قبل أنْ يستولي على السّلطة، ولكن لم يكن هناك في ذلك الوقت «رجلٌ جدّيٌّ» واحدٌ استمع إليه.

- يا لها من مقارنة!

- إنّ الأشخاص الجدّيين يتخلّصون من أولئك المتململين الذين يزعجونهم بهزّ أكتافهم مكرّرين «هذا مجنون!». بهذه الطريقة قلّلوا من شأن هتلر. وبهذه الطريقة أهملوا الربّ. إنّ الربّ يكشفُ عن نفسه كهمجيٍّ واضحٍ، يخبرُ عن كلّ شيءٍ، عن الشرّ والخير، ولكنّنا ننقّحُ هذه الأقوالَ كي لا نحتفظ إلاّ بما يريحنا. لقد قُرِئ الكتابُ المقدّس بطريقةٍ سيّئةٍ تمامًا مثلما حدث مع كتاب «كفاحي».

(1) رؤيا يوحنّا اللاهوتي الإصحاح 6 الآيات 12-15.

- أوه!

- حتى الكنيسة لم تعد تشيرُ إلى نصوص نهاية الزّمان، ذلك أن النّاس يبحثون عن السّعادة أكثر من الحقيقة.

- وأنتِ لا؟

- أنا قاضية تحقيق. لقد تخلّيتُ عن السّكينة كي أطارد معنى الأشياء. توقّف عن حجب ذهنك يا أوغسطين. «**أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية**»[1]، هكذا يعلن الربّ في سفر الرّؤيا. وها نحنُ دخلنا زمن «الياء»، ذلك الحرف الأخير. ليس يخرج من فم الربّ سوى السّيف. إنّ العنف ينتشرُ منفلتًا من كلّ سيطرة.

- أنت تستمرّين في ملفّ ادّعائك، سيّدة بواترونو. ومع ذلك، عليك أن تقبلي فكرة أنّ المذنب يمكنُ أن يكون الإنسان... إنّه هو من يغيّر المناخ عبر انتشار الغازات، ونشاطه البشريّ هو المُتسبّبُ في ارتفاع حرارة الغلاف الجوّي وفي ما أصابَ طبقة الأوزون من ضرر. وجرّاء طمعه لا ينفكّ يستنفدُ خيرات الأرض كي يحقق الثراء. ولأجل شهيّته يُمكنِن الطّبيعة، بما في ذلك الحيوانات التي وقع تحويلها إلى أُجراء يشتغلون دون مقابلٍ لتوفير الحليب والبيض واللّحوم. إنّ جشعَه يدمّر الغابات، وإمبرياليّتهُ تستنزفُ التنوّع البيولوجيّ، وعِلْمَه هو الذي خلَق الخطر النوويّ. ألاَ يمكن أن تكون نصوصك عن نهاية الزّمان تحذيرًا لنا؟ لا سيّما وهي تقولُ للبشر إنّهم إذا نسوا الجوهريّ من

(1) رؤيا يوحنّا اللاهوتي الإصحاح 21 الآية 6.

الأشياء فَلَسَوْفَ ينتجون الفوضى ويمضون نحو العدَم. أعتقدُ أنّ هذه الصّفحات تهدف إلى تمكين البشر من صحوة الضّمير والتأمّل ومن ثَمَّ تغيير سلوكهم.

- نعم، نعم... إنّها بيداغوجيا الخوف... أعرفُ ذلك...

- تؤدّي الكوارثُ دائمًا إلى خلق سلوكيّاتٍ أفضل كالتّضامن والاستنارة والعدل. ولكن بأيّ ثمنٍ! والحال أنّ الوعيد، هذا المفهوم المجرّد والخياليّ، يُعفينا من هذه الكوارث. وهو لا يمثّل ربحًا فحسب وإنّما أيضًا هو يلزمنا بأن نتطوّر.

- أنت تريدُ أن يكون البشر مسؤولين، عن الخير أو الشرّ، لا يهمّ، المهمّ أن يكونوا مسؤولين... يا للكبرياء! يا لمركزيّة الذّات الوقحة! بعضُ الذنوبِ لم تملك من الأصلِ سوى الغرور. أنتم البشرُ يقتلكم الغرور، أنتم مقتنعون بأنّكم تتحكّمون في كلّ شيءٍ، حتّى عندما تدمّرون الكوكب. أمّا أنا فأدّعي أنّكم مهما فعلتم لا تساوون شيئًا! فما أنتم سوى أدوات بيد الربّ.

- ماذا تعرفين عن هذا؟

- وأنت؟

- لا بدّ من طرح السؤال على الربّ.

ما إن صدحتُ بهذا حتّى شعرتُ بأنّ المصيدة تُغلق عليّ. تُضيّقُ القاضية بواترونو عينيها وتحدّق فيّ وهي تنقرُ بأصابعها على ركبتيْها مثل قطٍّ يخرجُ مخالبه ويدخلها في يقظةٍ واستعدادٍ للانقضاض على فريسته.

أخفضُ رأسي شبه مُنهزم.

يُصدرُ باب الكنيسة صريرًا وتظهرُ سيّدةٌ عجوزٌ تقومُ برسم علامة الصّليب قرب جرن الماء المقدّس، ثمّ تتوجّهُ وهي تعرجُ ناحية الأرائك الأمامية كي تتمكّن من تأدية الصّلاة أمام المسيح.

«هل ستقومُ بالتّجربة؟» تسألني القاضية.

- المفترض أن أفعلها اللّيلة، لقد نقعتُ الحشائش في الماء بالفعل وهذا الصّباح أنجزتُ أوّل عمليّة استخلاص بالإغلاء.

- أحسنت.

- لكنّي لم أجد البلّورة.

تفركُ بواترونو ذقنها.

- لن يكون لي أن أساعدك ذلك أنّي لم أعاشر سوى الأشخاص السيّئين: لصوص، ولصوص متدرّبين ولصوص تائبين وقتلة وإرهابيين... باختصار لديّ مسبحةٌ من المجرمين.

- وداخل جهاز الشرطة؟

تزمّ شفتيها.

- هم مثلي، يحتكّون بالأشخاص أنفسهم، وهذا ينهكُنا! في مهنتنا، نحن لا نبقى أطفالاً أبرياء. تخيّل تيرليتي في دور البلّورة؟

تنفجرُ ضاحكةً ثمّ تضيف:

- تيرليتي يكفّ عن أن يكون تيرليتي ويصبح الأداة التي تصلُ بالربّ؟ مستحيل! إنّ تيرليتي لا يستطيعُ أن ينأى عن نفسه،

ويأخذ مسافةً منها، وهو المُتطابق معها والمندمج في دوره أكثر من اللاّزم، وهو الرّجوليّ والأشعر أكثر من اللاّزم... بمثل ذاك الشّعر، نستكنه أكثر من مجرّد الإصرار، إنّه العناد.

يصلنا صوتُ ميشان من بعيد مُرتجفًا بفعل الصّدى.

- أوه، آسف يا سيّدتي، أرجو المعذرة.

نمدّ رقابنا في اتّجاهه فإذا به قد قلب أوراقه فوق المرأة العجوز المنهمكة في الصّلاة، بما يتوافق وسمعته كأخرق، وعندما أنتبه له أسأل القاضية:

- ماذا عن ميشان؟

- ما به ميشان؟

- ميشان في دور البلّورة.

- أوه، ذلك المسكين...

تدلّكُ أصابعها برهةً وتقول:

- صحيحٌ أنّه يمتازُ بالغباء، وهو ما يحوّله إلى رجع صدى جيّد -إذ لا بدّ من الخواء كي يكون هناك صدى- ولكنّه يفتقر إلى بقيّة المواصفات التي تريدها. ميشان سيظلّ ميشان حتّى النّخاع. إنّه يقبعُ في أسفل سافلين ولن يحلّق أبدًا.

ترفعُ صوتها بغتةً وتسألُ مساعدها بشكل طبيعيّ:

- ميشان، ألست ميشان حتّى النّخاع؟

- حتّى... ماذا، سيّدتي القاضية؟

- ميشان!

– نعم بالتّأكيد... سيّدتي القاضية!

– ولقد كنتَ على الأرجح ميشان منذ اليوم الأوّل، أليس كذلك؟

– بالتّأكيد سيدتي القاضية!

وعند انحنائه أثناء الإجابة تنزلق ملفّاته على الأرضية وتتبعثر الأوراقُ في الممرّ الفاصل بين الأرائك فيرتمي على أطرافه الأربعة ليجمعها. وفي الحال تُقرّر القاضية:

– لا، ليس ميشان.

تنفضُ الغبار عنها وهي تنهضُ واقفةً.

– حسنًا، سأعيدك إلى الحقير بيغارد.

أنهضُ بدوري وأنا أسأل:

– لماذا تسمّينه دائمًا «الحقير بيغارد».

– يا لها من ملاحظةٍ طريفةٍ... اسمه بيغارد، أليس كذلك؟

– بلى.

– إذن، أنا لم أخطئ.

تُميلُ رأسها جانبًا وتركّز بصرها عليّ.

– أوغسطين، إذا كان هنالك من نقيصةٍ أمقتها فهي الإهمال. وفي هذا الخصوص، استحقّ بيغارد الحقير لقب بطل العالم.

– حقًّا؟

– لا تلعب دور المندهش! هل يعاملك جيّدًا؟

– لا.

- هل يظهر لك التقدير؟

- لا.

- الاحترام؟

- إنّه يستخدمني عندما يحتاجُ إليّ، واهتمامه بي يقتصرُ على هذه الحالة. إلاّ أنّي لا أرى في هذا ما هو غريبٌ أو استثنائيّ فالكثير من النّاس يتصرّفون على النّحو نفسه.

- إنّها مسألةٌ تتعلّق بالجرعة الصّحيحة يا صغيري. فالخُلقُ، كالدّواء، قد يشفي وقد يقتل، حسب الجرعة المقدّمة. أمّا هو، فصدّقني، إنّه يُبيد.

أفكّر في الصّبيّة الصّغيرة الشّقراء، تلك التي ترتدي التّنورة وتتبعهُ في كلّ مكانٍ ثمّ أسأل:

- تقصدين ابنته؟

- سأبدأ بزوجته أوّلاً. لقد انهارت عند خروجها من غرفة التّوليد. ولست أشكّ في أنّ إحباطها له ما يدعمه من المنطق: فبإدراكها أنّها منحت طفلةً لبيغارد وأنّها ستشتركُ معه في تربيتها أطفأ ذلك فيها كلّ حماسةٍ. إلاّ أنّ هذه المرأة، سليلة عائلة «دي ووترز»، كانت قد تلقّت تربيةً كاثوليكيّةً. الخلاصة؟ لقد ألقت باللاّئمة على نفسها لأنّها ندمت على زواجها وهكذا أضافت الشّعور بالذّنب إلى الكآبة.

تتوتّر ثمّ تضيفُ منزعجةً من الخوضِ في هذه الذّكريات:

- كان للطّلاق أن يُنقذهم جميعًا. كان عليه أن يقبل، عندما اقترحت

عليه ذلك أوّل مرّةٍ، ولكنّه أجاَب: «لدى عائلة بيغارد، لا يوجد طلاق! تمامًا كما هو الحالُ في عائلة دي ووترز حسبما أعرف». ونتيجةً لذلك التهمتها الهموم ثمّ تكفّل السّرطانُ بالقضاء عليها سنتين بعد ولادة أوفيليا.

- أوفيليا؟ الصّغيرة اسمها أوفيليا؟

- يا لها من فكرةٍ فظيعةٍ.

- إنّه اسمٌ جميل.

- إنّه أكثر من مجرّد اسمٍ. إنّه قدر.

- أرجو المعذرة؟

- قدرُ فتاةٍ منبوذةٍ انتهت حياتها غرَقًا.

تخفضُ صوتها فجأةً:

- لقد غرقت الصّغيرة في مسبح المنزل. أعتقد أنّها أصيبت بهبوط الحرارة المفاجئ[1]. لقد عثر عليها أحد العملة في قعر المسبح بعد مرور عدّة ساعاتٍ. في ذلك اليوم، لم يكن أبوها يعمل في المنزل. على أيّ حالٍ، هو لم يكن يهتمُّ لأمرها كثيرًا. ولطالما تركها لحالها، ذلك أنّه بسبب بخله، لم يستأجر مربّيةً ولا مدبّرة منزلٍ ولا حتّى جليسةَ أطفالٍ. وعندما يتناول غداءه في المنزل، تأكلُ أوفيليا بقاياه وتذهب إلى النّوم ما إن يأمرها بذلك. لم تعرف الحنانَ أو الألعاب أو المحادثات قطّ. لا شيء. هو لا يعنيه أن يكون أبًا

(1) Hydrocution: ردّ فعل ناتج عن صدمة البرودة، أو عن هبوط الحرارة المفاجئ، وهو ردّ الفعل الفيزيولوجي عند التعرّض للماء البارد.

أو زوجًا. مؤكّدٌ أنّه انتهى إلى الزّواج والمضاجعة دون وعي أو استجابةً للتّقاليد الاجتماعيّة...

- هل تأثّر لموت ابنته؟

- هو؟ لئن لعب مسرحيّة الأب المفجوع طوال مراسم العزاء، فإنّه، فيما بعد، أظهر نشاطًا أكثر من ذي قبل، وكأنّه تحرّر إذ تخلّص منها. إنّه أسير مشاغله لا غير.

- لكنّه يفتقدُ ابنته طالما أنّه لا يتنقّلُ دونها. إنّها ترافقه. هي ميّتُه المُلازم له. وغالبًا ما أراها.

- نعم، سبق أن حدّثتني عن هذا. ولقد أعدتُ التّفكير فيه وإنّه لَيُدهشني. هل يبدو بيغارد الحقير أقلّ بدائيّةً وجحودًا وهمجيّةً ممّا تخيّلتُ؟

- إنّ لديه روحًا.

- ولكنّها روحٌ نادرًا ما تنفع.

عند عودتي إلى قاعة التّحرير، لبثت أجوّد نصّ محاورتي لشميت. ولئن كانت أحداث اليوم قد أخّرت صدوره، فإنّه يُشكّل طبق مقاومة مُناسبًا ليوم الغد.

تسلّمني أمّ كلثوم ورقةً.

- رسالةٌ إليك.

أرفعُ رأسي فأرى توقيع شميت.

- شكرًا أمّ كلثوم.

يعبرُ عينيها بريقٌ من الرّضا تنكرُ أهميّتهُ بحركةٍ من يدها اليمنى،

متواضعةً ومترفّعةً. فستانها لهذا اليوم عبارةٌ عن صورةٍ مطبوعةٍ لغابةٍ تتنافسُ فيها النّمور والقردة والثّعابين بمهارةٍ بين الأحراشِ والجذوع والأعشاب العملاقة. من أين تشتري مثل هذه الملابس؟

تلاحظُ تطلّعي إلى فستانها، فتفسّر ذلك على أنّه مجاملة ثمّ تبتسمُ لي وتذهب سعيدةً وهي تغنّي وردفاها يتمايلان في ذكرى لرقصةٍ ما. في هذه الظهيرة، تبدو لي عاشقةً لنفسها على نحوٍ مخصوص.

لقد أرسل إليّ شميت، عبر الفاكس، قائمةً بالأسئلة الموجّهة إلى الربّ تحت عنوان «في حالة ما إذا...». أذرع الأسطر، أستمتعُ ببعضها وأتحمّسُ لبعضها الآخر ثمّ أفكّرُ بانزعاجٍ، ذلك أنّي مازلت لم أعثر بعد على البلّورة.

مُستفيدًا من الفراغ النّاجم عن اجتماع الصّحافيين الذي لم يدعُني إليه بيغارد، أذهب إلى المطبخ لأتفقّد وضعيّة تركيبتي الأياهواسكا اللّتين أعددتُ. وبمقارنة السّائل بما كان عليه عند الفجر أجده قد ازداد ثخانةً ودهانًا، فضلاً عن تغيّر لونه من الأحمر إلى القطراني. أضعهُ مجدّدًا فوق النّار داخل طنجرتين، وأتركه يغلي لبضع دقائق، بعدها أقوم بسكبه في الوعاءين وأُخفيهما، كما في المرّة السّابقة، فوق الخزانة.

إنّ المكوث في المطبخ يعذّبني، فمعدتي تتلوّى وتئنّ وتطالبُ بالطّعام وأنا أمنعه عنها، فعلاوةً على أنّي لا أملكُ شيئًا لآكله، عليّ أن أصوم كي أمتصّ المخدّر.

أشربُ من الحنفيّة.

من؟

بمن سأتّصل؟

هل أتّصل بتلك الممرّضة الدّؤوب التي كانت تطبّبني في المستشفى؟ ماذا كان اسمها؟ «مريم»... أو تلك التي أرادت منّي أن «أفكّر» وهي تقدّم لي علبتين لأتبوّل فيهما وأتغوّط؟ لا أتخيّل نفسي أدعوهما لشرب كأس معي، ناهيك عن تحذيرهما على حين غرّةٍ. ثمّ إنّ الأمر يحتاجُ إلى المال على أيّ حالٍ...

من إذن؟

إذ يرهقني تساؤلي العقيم الذي يعذّبُ دماغي منذ الصّباح، أقرّرُ أن أتمشّى.

وبينما أنزلُ السلّم يستوقفني شبحٌ أسفل الدّرج.

– هل لديك وقت؟

إنّه محمّد بدوي وقد كمَن في الظلام.

– مومو!

ما إن أنطق اسمهُ حتّى يحمرّ وجهه ثمّ يلقي نظرات خاطفة حوله ويقول:

– أريدُ أن أتحدّث معك.

يقتربُ. ترتجفُ شفتاهُ وتنبعثُ من عينيه حيرةٌ محمومةٌ. ومادام صدى حوارنا قد عاد إلينا من قاع الدّرج، يمسكُ بذراعي ويقترح عليّ:

– هيّا، دعنا نذهب إلى مكبّ القمامة.

يجرّني في الفناء فنعبره سريعًا ثمّ يدفعُ بابًا خشبيًّا متّسخًا يفتحُ

على سقيفة صغيرة توجدُ بها ثلاث حاويات قمامة بلاستيكيّة خضراء، تنبعثُ منها رائحة تحلّلٍ كريهة.

يحدّقُ فيّ خفيةً.

-هل رأيت ما يجري هنا؟ النّيران، وصافرات الإنذار وحالة الهلع؟

- بالتّأكيد.

- هل تعرف من فعل كلّ هذا؟

- لا. لا أحد تبنّى العمليّة.

أُبيحُ لنفسي أن تُخبره حتّى بآخر المعطيات التي تلقّتها الصّحيفة من جهاز الشرطة: «لا توفّر أشرطة فيديو المراقبة أيّ معلومات ذلك أنّ أجهزة الكاميرا وقع تعطيلها قبل القيام بالعمليّة، ما جعل الشرطة تتخبّط».

يتجهّمُ وجه مومو وهو يسألني:

- لماذا أخفيت جهاز الحاسوب؟

ثمّ يُلحّ بنبرةٍ عدائيّة:

- أثناء احتجازي، أخبرني رجال الشرطة أنّك عثرت على حاسوب حسين في حاوية القمامة. لماذا لم تسلّمني إيّاه؟

- حسب رأيك؟

أطلقتُ جملتي وفق سياسة «واحدةٌ بواحدة»، وهي عادةٌ تعلّمتها في الميتم. إذ كنتُ كلّما جهلت المغزى من وراء أسئلة رفاقي، أجيبُ بـ«حسب رأيك؟»، وهي ردّة فعلٍ كشفت لي أنّ النّاس لا ينتظرُون إجابتي، بل إجاباتهم.

لم يشذّ مومو عن هذه القاعدة ذلك أنّه واصل ثرثرتهُ قائلاً:

- هل أردت مسحَ معلومات مهمّة؟

أوف، أفضّلُ أن يفترضَ هذا على أن يُدرك أنّي أردتُ الاحتفاظ بالحاسوب لنفسي. وإزاء صمتي يبتسمُ مطمئنًّا.

مرّةً أخرى تنجحُ خدعتي.

- قل لي يا مومو، هل عدت إلى المدرسة؟

يلوذُ بالصّمت فأستحثّه:

- أجِب.

- ما عدتُ أذهب إليها.

- هل ساءت الأمور معك؟

- إنّهم يتحاشونني وكأنّني مصابٌ بالجذام.

- هم ما يزالون غير ناضجين.

- إنّهم حمقى. على أيّ حالٍ، لن أضع قدمي هناك مجدّدًا. لقد اخترتُ التّعليم بالمراسلة.

- فكرةٌ جيّدة. ولكنّ ذلك قد يجعلك تنعزل، ولا تُخالطُ أحدًا.

- أخالطُ من؟

تدوّي صافرة سيّارة شرطة في الشّارع فيرتجفُ مومو ويستديرُ نحوي متوسّلاً:

- هل تقبل أن نتحدّث؟

- بالطّبع.

أجبتُ دون تفكيرٍ لشعوري بالشفقة عليه. لقد فات أوانُ الحذر...

وما من شكّ في أنّ تيرليتي ورجال الشرطة الآخرين سيمتعضون حالما يعرفون أنّي على صلةٍ بشقيق الإرهابيّ. أشعرُ بالنّدمِ يلتهمني على تسرّعي.

يرفعُ مومو غطاء رأسه ويدفنُ يديه في معطفه:

- أيّلائمك أن نلتقي هنا غدًا منتصف النهار؟

- حسنًا.

- جِدْ لنا مكانًا أكثر سرّية.

- حسنًا، سأتصرّف.

يتسلّل مومو نحو المخرج، يتحقّقُ من خلوّ الطريق ثمّ يختفي. وفوقه، يتقدّمُ حسين مرفرفًا بحماس، وهو لا ينفكّ يديرُ رأسه يمنةً ويسرةً مثل حارسٍ شخصيٍّ متأهّب. يبدو لي وكأنّه كَبُر مقارنةً بالمرّة الأخيرة التي رأيتهُ فيها.

أنغمسُ لدقيقةٍ وسط القمامة قبل أن أصعد إلى قاعة التّحرير. وأنا أرتقي الدّرجَ، أعودُ إلى أفكاري وأقلّبها طويلاً قبل أن أخلص إلى أنّ مومو أيضًا لا يصلح لدور البلّورة. أتوقّف عن البحث بينما يواصل السّائلانِ تخمّرهما وقد قاربا أن يجهزا... بالتّأكيد، لا يمكنُ أن يُعهد إليّ بأيّ شيءٍ هامّ، لأنيّ أفشلُ باستمرار.

ما إن أتجاوز الباب حتّى تعترضني الصّبيّةُ الصّغيرة، في تنّورة من القماش الأسكتلندي، وهي تلهو بـ«اليويو»[1].

- صباح الخير يا أوفيليا.

---

(1) اليويو: لعبة تُربط بخيط.

تنتفضُ متفاجئةً أوّل الأمر من سماعِ اسمها، ثمّ تبتهجُ.

- صباح الخير.

- أنت لا تفارقين والدك مطلقًا.

تسحبُ خيط اليويو.

- ولماذا أفارقه؟

- هل يهتمّ والدك بك جيّدًا؟

تقطّبُ جبينها، فهي لم يسبق لها أن طرحت على نفسها هذا السّؤال. ولكنّي أصرُّ على سؤالها:

- طالما أنّكما تقضّيان الكثير من الوقت معًا، فمؤكّد أنّكما تستمتعان بالدّردشة. ما الذي يقولهُ لك؟

تحملقُ فيّ بدهشة.

- ولكن... لا شيء.

ثمّ ترتسمُ تكشيرةٌ متشكّكةٌ على طرفِ شفتيها، مُعتبرةً ما أقولهُ سخيفًا.

- أنا هنا وهذا كلّ ما في الأمر. إنّه واجبي. فهو أبي.

- ألا يشعرُ بالحزن لما حدَث لك؟

- وما الذي حدَث لي؟

- الحادث. في المسبح.

تتّسعُ حدقاتها.

- في المسبح؟

- مسبح منزلكم. ذلك الذي غرقت فيه.

- أنا؟

- ألا تتذكّرين ذلك؟

- أنا لم أغرق.

- بلى. حدث ذلك منذ ثلاثين عامًا.

تحدّق فيّ محتارةً.

- عمري خمس سنوات! ولم يسبق لي أن ذهبت إلى المسبح! أنت لا تعرف عمّا تتحدّث...

تستديرُ هازّةً كتفيْها وتدخلُ مكتب المدير وهي تطلقُ خيط اليويو.

أواصلُ طريقي في اتّجاه طاولتي. لقد فهمت! كانت القاضية بواترونو على حقّ، بيغارد لا يشعر بالأسف أو النّدم، هو لا يفتقدُ ابنتهُ وماضيه لم يعد يعذّبه. إنّ أوفيليا لا تظهرُ بطلبٍ من أبيها ولكنّها تتجوّل في عالمنا لأنّها لم تدرك أنّها ماتت.

أفكّرُ في هذه الظاهرة واضعًا رأسي بين كفيّ. ثمّة أرواح تظلّ بيننا لا لأنّ الأحياء يدعونها بل لاعتقادها أنّها ماتزالُ على قيد الحياة. هي ذي حالةٌ لم يسبق لي أن تعرّضتُ لها أو ربّما أفلتت منّي...

هل يتعيّن عليّ أن أخبر أوفيليا بأنّها ميّتة؟ وبأيّ حقٍّ أفعل ذلك؟ هل ستكون أسعد عندما تبتعدُ عن بيغارد لكونه لا يهتمّ لأمرها؟ ولكن أين ستكون سعيدةً؟ ما هو المكان الذي ستلتحقُ به عندئذ؟

يغادرُ الزّملاءُ مكاتبهم، الواحد تلو الآخر، ويحيّونني عند مرورهم بي.

يبدأ الاضطرابُ في بلبلة أفكاري. من حين إلى آخر يصيبني دوارٌ أشبه بانقطاع للكهرباء داخل دماغي فأنهارُ فوق طاولتي. وفي كلّ مرّةٍ، أعتدل وأجاهدُ كي أواصل عملي. أحدّقُ بيأسٍ في شاشة حاسوبي وأوراقي وملاحظاتي دون أن أتمكّن من إقامة رابطٍ بينها. جسدي الممزّق من الحمّى والإرهاق لم يعد يعرفُ له مستقرًّا. أنا الآن جائعٌ إلى حدّ انعقاد أحشائي داخل بطني مثل الأفاعي. ورأسي أيضًا فارغ. وشعور مّا بالخراب يسحقني فوق الكرسيّ.

- سيّد بيغارد!

بينما يستعدُّ لمغادرة الصّحيفة، محشورًا في معطفه، وقبّعته فوق رأسه وسيجاره المطفأ بين شفتيه أهتفُ به:

- سيّد بيغارد، هل يمكنني الاستمرارُ هنا قليلاً؟ إنّ المقابلة التي أجريتها مع شميت تتطلبُّ المراجعة، فضلاً عن تكليفي بتخزين الوثائق، وهي عمليّة مستمرّة منذ ثلاثة أيّام.

يغمغمُ بيغارد في غير وضوحٍ. ثمّة قوّتان تتنازعانه، واحدة تجعله يرضى بكلّ عملٍ لا يدفع عليه أجرًا، وثانيةٌ تأبى عليه تقديم أيّ معروفٍ.

- حسنًا. عليك أن تشغّل جهاز الإنذار عند مغادرتك.

يقضمُ الطّرف المدوّر لسيجاره ثمّ ينتزعهُ ويبصقه، ويبتعدُ وكأنّي لم أعد موجودًا. تتبعهُ أوفيليا وهي تغيظني علانيّةً بسبب نفورها من محادثتنا. تتألّقُ نظراتها وفي اللّحظة الأخيرة تقول لي:

- أنت أحمق!

وحالما تنطق الكلمتين تفرّ هاربةً في أثر والدها.

يُصفقُ الباب. وأجد نفسي وحدي أخيرًا.

أخلعُ فردتيْ حذائي. الظّلام من حولي يُسدل ستاره. وكلّ شيء هادئ، كلّ شيءٍ.

لن أقوم بتجربة «الياغييه» هذه اللّيلة فالجوعُ يخنقني. من أين سأحصلُ على الشّجاعة والطاقة كي أمشي طيلة ساعةٍ وأصل إلى مخبئي؟ وحتّى إن فعلت سأصلُ إلى هنالك مبتلاً ولن أجد الفرصة لتجفيف نفسي وتدفئتها. الأفضل أن أنام هنا.

ثمّة صوتٌ يتردّد صداه.

ارتطامٌ يزعزعُ الأرضيّة.

ينتابني الخوف لإدراكي أنّ جسمًا ثقيلاً سقط على الأرض.

أهرعُ ناحية الممرّ المركزيّ.

أرى نورًا في آخر الممرّ.

أصلُ إلى المطبخ الصّغير.

أجد أمّ كلثوم ملقاةً على الأرضِ وهي تئنّ وعيناها مغمضتان وصدرها ينهجُ.

لقد كانت تتقيّأ.

وفوق جثّتها المتألّمة، عند حوض الغسيل، يستقرُّ الوعاءان اللّذان أخفيتهما وأحدهما فارغٌ.

لقد ابتلعت أمّ كلثوم الأياهواسكا.

-15-

أحيانًا، ثمّة حقائق مبهرةٌ للغاية إلى درجة أنّها تصيبُ بالعمى. طوال اليوم عشت اليأس من العثور على البلّورة والحال أنّها كانت تمرّ من أمامي.

أمّ كلثوم، إنّها الوسيطُ المثالي! لو ثمّة كائنٌ أخذ مسافة من جسده وماضيه وجذوره، فإنّه هي، هي الرّجل الذي أصبح امرأةً، والفلامنكيّ الذي أصبح عربيّةً، والكاثوليكيّ الذي أصبح مسلمةً، هي الغامضة والمبهمة والضبابيّة والمتقلبّة، هي من لا حدود لها، هي صلصالُ كلّ التحوّلات.

راقدةً على ظهرها وأطرافها في الهواء، مثل فيلٍ انقلب على ظهره، تتلوّى أمّ كلثوم في فستانها المطبوع بصور الأدغال الأمازونية، تغرغرُ وتصفّرُ وتصرُّ على أسنانها. أميلُ نحوها:

- أمّ كلثوم، هل أنت بخير؟

وكما يحدث مع نحلةٍ في قلبِ خليّةٍ شديدة الطّنين، تستغرقُ جملتي عدّة ثوانٍ كي تصل إليها، نظرًا إلى الكمّ الكبير من البيانات التي يعالجها جهازها العصبيّ. أخيرًا، تتحوّلُ جمجمتها في اتّجاهي وتحملقُ حدقتاها المتّسعتان فيّ قبل أن تستأنفا حركتهما المضطربة وكأنّ ألف جُسَيْمٍ يدورُ حولها.

- أوه!

تفغر فاها. تبدو متفاجئةً بما تراهُ على يساري. لم أميّزْ سوى فرن ميكروويف، حين ألقيتُ نظرةً على المكان الذي تنظرُ إليه، ولكنّ أم كلثوم تبدو وكأنّها ترى شخصًا مهمًّا، شخصًا أخذت تبتسمُ لهُ وتوجّه إليه أصواتًا تشبه القرقرة، من المؤكّد أنّها تتطابقُ في عقلها الباطن مع خُطبٍ مسهبةٍ وطويلة.

لقد حلّت بالفعل في عالمٍ آخر، وصارت تتحرّكُ داخل مستوى مختلفٍ من الواقع حتّى إنّها جعلتني أستحضرُ سريعًا مشهد الكلاب وهي تنظر إلى الموتى في مكتبة غيرمانتي. عليّ أن أسرع وألتحق بها! فوفقًا لوصفة شميت، مُحقّقٌ أنّها سبقتني إلى هنالك ولعلّها تعملُ في هذه اللّحظة على تقديمي إلى الربّ. لا وقت لديّ لأضيّعهُ وإلاّ فإنّي سأفوّتُ اتّصالي التّخاطريّ.

أهرعُ إلى حاسوبي وأرسلُ إلى شميت رسالة نصّها: «تنطلقُ الرّحلة هذا المساء من قاعة التّحرير» ثمّ أعودُ إلى المطبخ. ألتقطُ الوعاء الثّاني ودون تردّدٍ أبتلعُ الياغيبيه.

حسنًا فعلتُ بشرب المنقوع دفعةً واحدة! فالسّائلُ الصّمغيُّ الدّاكنُ وشبه الفوسفوريّ، يلتصقُ بالأسنانِ ومذاقه مذاقُ عفنٍ كريهٍ مع ملوحةٍ طاغيةٍ، مثل موزةٍ فاسدةٍ وقع خلطها بسمكةٍ متعفنّةٍ، بعد أن مكثَتْ طويلاً في الوحل.

أجلسُ على المقعد.

أنتظرُ.

المرارة القابعة في حنكي تقطّر نكهةً مزعجة.

ومع ذلك لا شيء يحدثُ.

أنتظرُ.

ربّما لم أبتلع من السّائل ما يكفي.

لم يحدث شيء.

لا؟

لا.

لا شيء.

تهدلُ أمّ كلثوم، وهي ملتصقةٌ بالأرض، ويسيلُ الزّبدُ من فمها ثمّ تنفضُ أصابعها فوق جسدها كما لو أنّها تفردُ جناحيها.

لقد أكّد لي شميت أنّ المشروب سيحدثُ تأثيره بشكلٍ آنيّ تقريبًا.

يجب أن أنتظر.

لكن، لو أنّ ما شربتُه من العقار لا يكفي سيكون انتظاري دون فائدة.

سأتناولُ المزيد!

ألتقطُ الوعاء وبينما ألعقُّ جوانبه تخترقُ بروقٌ زرقاء مجال رؤيتي.

يسقطُ الوعاء من يديّ، وبانكساره يصدرُ رنينًا غليظًا، قويًّا، وبلا انقطاعٍ، أشبه بدويّ انهيارٍ جليديّ.

ثمّة بروقٌ ترسمُ خطوطًا سوداء وبيضاء في الغرفة. أوه! هنالك شيءٌ مّا يتسرّبُ داخلي. اللّون الأزرق يجتاحُ جسدي ببطءٍ. إنّي أتحوّلُ. وجسدي يغيّرُ من هيئته، فينتفخُ ويتمدّدُ ويصبحُ لزجًا.

البروقُ مرّةً أخرى.

تعبث بي موجاتُ الدّوارِ، كأنّي منارة تنتصبُ وسط محيطٍ هائج، وتجتاحني الرّعشات.

أغدو أزرق اللّون. أزرق ومرنًا.

وإذ أتركُ نفسي لأنزلق على المقعد، أسقط على الأرضيّة.

يتغيّر شكل المطبخ حولي. يهتزّ ويرتجفُ ويغلي ويدورُ حول نفسه، يلاعبُ الجدران، يخفضُ واحدًا ويرفعُ آخر، يثقبها، يلويها ويطويها. إنّه هو من يذهبُ في هذه الرّحلة لا أنا. وها إنّه ينطلقُ بنا لنطير فوق البحر والأحراش والشلاّل والصّحراء والجبل والغابات والأخاديد. تتتابعُ الوديانُ والكهوفُ والبحيرات والأنهارُ، ثمّ نعبرُ شارلوروا ومداخنَ مصانعها وهي تنفثُ أبخرةً زهريّةً شاحبة. لم يبقَ من الغرفة سوى الأرضيّة، وقد غدَت مركبتي داخل الكون. إنّها بساطُ الرّيح. لا، بل هي الأرضيّة المشمّعة الطائرة.

أشعر برعشةٍ واهتزازٍ وبداية غثيانٍ. إنّ هذا طبيعيّ، فلطالما عانيتُ من دُوار المركبات.

أتشبّثُ بالأرضيّة.

وأنا الرماديّ اللّونِ الآن، أتأمّل مناجم الملح وقد غدت برتقاليّةً مع غروب الشمس. فجأةً تُبطئ الأرضيّة المشمّعة من سرعتها، تتوقّف، ترفعُ جدرانها مثلما يرفعُ المرء سرواله، ليُبنى المطبخُ من جديد ويستقرّ السّقف فوقه.

إنّها العودة إلى الصّحيفة.

أشعرُ برغبة في التقيّؤ.

لا، لن أتقيّأ هنا. ليس بالقرب من أمّ كلثوم وهي المتخبّطُة في قيئها.

أتمسّكُ بحافّة طاولة كي أنهض وأهرع إلى الحمّام.

في الطريق، أصطدمُ بالباب والعضائد والخزائن -بكتفيّ ومرفقيّ ورأسي- دون أن أشعر بالألم. أفرغُ ما بجوفي راكعًا أمام المرحاض. بل أكثرُ من ذلك، أفرغُ كياني، بالمعنى الدينيّ للكلمة. ومع كلّ تشنّجٍ أنظّف نفسي وأصلُ إلى النّقاء. أحبُّ ذلك... صحيحٌ أنّ صوت حوت العنبر الذي يرافقُ كلّ استفراغٍ يشعرني بأنّه صادرٌ عن شخصٍ يقفُ إلى جانبي، أو عن جثّة عملاق، ولكنّي أعرفُ أنّني أنا من يُحدثُ هذه الضّوضاء.

هليلويا[1]، لم يعد هنالك ما أتقيّؤه. أنا الآن أثيريّ، سماويّ وملائكيّ.

أعودُ إلى المطبخ كي لا أتخلّف عن اتّصالي التّخاطريّ مع أمّ كلثوم. وأنا أتمدّدُ بجوارها، ألاحظُ أنّي تيبّستُ في الوقت المناسب... فالأمتار الثّلاثة التي قطعتها قبل أن أنهار هنا استنفدت جهدي، إذ كنتُ أجرّ قدمين من الرّصاص وأنسّقُ بصعوبةٍ بين أطرافي المتيبّسة.

وأنا راقدٌ على ظهري، أتنفّسُ بشكلٍ أفضل. أحلقُ في السّقف الأبيض فيجيبني بإرسال القطن. يرسلُ نحوي ندفًا قطنية، بل الكثير

---

(1) هللويا أو هليلويا عبارة عبرانية معناها «سبحوا يهوه» وهي عبارة للتّسبيح والحمد للربّ. وتعني أيضاً (هلّلوا، وتعني اذكروا اسم الله) وكانت توضع في مطلع المزامير والأغاني أو في خاتمتها.

منها. إنّه يثلجُ نعومةً. وها إنّي أُدفنُ تحت طبقات من الرّيش القطنيّ، طبقات بالعشرات، تعزلني وتغرقني وتخدّرني. يا للبهجة!

تهتزّ الغرفة مجدّدًا وتختفي الجُدران. إنّنا نعاودُ الرّحيل.

ثمّة ببّغاواتٌ تثرثر. يمرُّ الكونُ أمامي مُستعرضًا بسخاءٍ مناظر طبيعيّةً بألوانٍ زاهيةٍ وقويّة. هنالك الكثيرُ من الثّعابين، الكثير جدًّا، حتّى في داخلي. نعم، ثمّة زواحف تنسج شبكةً تُضيّق الخناق عليّ، زواحف يندفعُ من حراشفها ضوءٌ فضيّ. لا أعرفُ أيخيفني هذا أم يسعدني. بلى أعرفُ، إنّه يُفزعني. الكلّ يُطالب بموتي: ثعابين البوا والكوبرا والبايثون وثعابين الحدائق والصّخور والغيوم وقمم الأشجار والأمواج الغاضبة. إنّها تتآمرُ على سحقي. حتّى الببغاواتُ تتحوّل إلى نسور. أنجدوني، أريد أن يتوقّف هذا، أريدُ أن أحرّر نفسي وأهرب.

كيف أقومُ بذلك؟ لقد حاولتُ أن أعيد الاتّصال بالمطبخ مستخدمًا راحتيّ وعظام كتفيّ وأسفل ظهري وكعبيّ، ولكنّ الأمر بدا مستحيلاً، فجسدي لم يعد يستجيبُ لما أريد. ما عدتُ أتحكّم بأيّ شيءٍ.

ها إنّي عالقٌ في هلوساتي مثلما يعلقُ دبّورٌ في المربّى. لا توجدُ وسيلةٌ كي أتخلّص منها. إذن، هل عليّ أن أرضخ؟

طالما أنّي واقعٌ تحت تأثيرها، ألا يجدُر بي أن أستسلم؟

أليست هزيمتي واستسلامي أروع ما يمكنني تقديمه الآن؟

أستسلمُ.

أرضخُ لهذه الأحجية مُحرّكًا رأسي من اليمين إلى اليسار.

يختفي خوفي مُكافأةً لي.

تحتكّ بي نجومٌ لا تُعَدُّ ولا تُحصى. أطفو باتّجاهِ سمتٍ[1] مظلمٍ. أرى في مركزه ثقبًا كبيرًا. تحرسُ أمّ كلثوم الثّغرة، جالسةً القرفصاء، وهي تبدو أصغرَ سنًّا وأكثر أناقةً، بعقصةِ شعرٍ ضخمةٍ، وزينةٍ فاخرة. ها هي قدّيستي! تبتسمُ لي وبيدٍ ممشوقةٍ تدعوني إلى الدّخول.

أدخلُ إلى الفتحة وأتّخذ ممرًّا مظلماً وفارغًا ثمّ أجدُ نفسي أمام نورٍ.

إنّه عينٌ. عينٌ هائلةٌ. عينٌ تشغلُ المكان كلّه.

تنظرُ العينُ إليّ. تنتظرني.

أرتجفُ.

حولي، ثمّة العدم.

أمامي، ثمّة الربّ.

أشعرُ بأنّي سأسقطُ إن لم أقترب.

ماذا أفعل؟

هل أتوقّف؟ هل أواصل؟

إنّها مسألةُ موتٍ أو فهم.

(1) Zénith: كلمة من أصل عربي هي السمّت أو السّمت الرأس وتعني في علم الفلك نقطة ينتهي إليها الخطّ الخارج من مركز الأرض أي النقطة التي تقعُ فوق رأس المشاهد عموديًا.

-16-

تتفحّصني «العينُ الكبيرة» المضيئةُ. أَسْتَسْلِمُ للدّفء المنبعث من نظرتها.

- أهو أنت؟

- من أنا؟

- الربّ.

تصمتُ «العين الكبيرة». ومع أنّ الظلام يطوّقها تبعث في الحلكة دفئًا مُريحًا.

- أتصوّرُ أنّك جئت كي تطرح عليّ أسئلةً.

- ما أدراك بذلك؟

- إنّها صفةٌ مميّزةٌ للبشر.

- آه... ألا تتصرّف الحيوانات بالطريقة نفسها؟

- في علاقتها بي هي تبحثُ عن الحماية والسّكينة والحبّ، ولكنّها لا تأتيني حاملةً أسئلةً.

- البشرُ أيضًا يرفعونُ إليك طلباتهم، أليس كذلك؟

- أنا لا أصلح لذلك.

- ماذا؟ ألا تنصت إلى الصّلوات التي تتدفّق عليك في كلّ لحظةٍ؟

- إنّ الصّلاة الحقيقيّة لا تصاغُ في الطلب وإنّما في الشكر.
- يا له من خبرٍ مروّع! إذن، أنت تغلق أذنيك أمام الطلبات، حتّى تلك التي تصعدُ مبلّلةً بالدّموع وملطّخةً بالدّماء ومتهدّجةً من اليأس؟

لا تُحيرُ «العين الكبيرة» جوابًا.

- لماذا تنأى بنفسك؟
- عن ماذا؟
- عن العالم.
- لقد خلقته. وليس لي أن أتدخّل أكثر.
- ولِمَ تنأى بنفسك عنّا، نحن البشر؟
- كي أترككم أحرارًا. أحرارًا في أن تؤمنوا أو تكفروا. أحرارًا في أن تسلكوا طريق الخير أو طريق الشرّ، أحرارًا في أن تستشيروني أو تُهملوني. أرى أنّ على الربّ أن يختبئ، ألاّ أفرض نفسي سواءً عبر البرهان العقليّ أو عبر التّدخّل المدوّي، معناه أنّي أحفّزكم وأحترمكم.
- مخاطرةٌ كبيرةٌ.
- خطرٌ على مَن؟ حتمًا ليس عليّ.
- إنّه خطرٌ علينا نحن، ألاّ نملك أيّ يقينٍ بخصوصك.
- لا بأس. يتبقّى لديكم الإيمان.
- ليس كلّ النّاسِ يمتلكونه.
- الإيمانُ ليس قسريًّا، فأوّل ما يُعرَّف به هو عدم الثّبوت.

– أنا مثلاً لم أؤمن بك مطلقًا.

– إنّه أمرٌ مؤسف. فأنا أؤمن بك.

تخفضُ «العين الكبيرة» بصرها، تصمتُ ثمّ تستأنفُ حديثها:

– أنت تعتقدُ أنّي غائبٌ، ولكنّي موجود. إذا لم يأتِ الربّ إليك، فعليك أن تأتي إليه باستمرار. لا تخلط الأمور. أنا أعيش في كلّ مكانٍ، طوال الوقت. ولكنّ البشر عادة ما يصيبهم العمى والصّمم أمام الربّ لأنّهم لا يدركون من الأمور غير ضئيلها، فهم لا يفتحون عقولهم إلاّ قليلاً أمام إدراك «العظيم». أنت نفسك اضطررت إلى بَلْعِ مخدّر كي تخرج من عقلك القاصر –ذلك الذي يفترض أنّه مستقلّ– وتلتحق بي.

– ولكن لعلّك تنزل بنفسك إلى مرتبة الحلم! أذكّرك بأنّني تعاطيتُ مخدّرًا وأنّني أهلوسُ في هذه اللّحظة...

– أنت تصوّرُ الهلوسة كخديعةٍ في حين أنّها تضعُ حدًّا لكلّ خديعة. بعيدًا عن صناعة الوهم، الهلوسة تكشفُ الحقيقة. إنّ الياغيبه لم يؤثّر في وعيك بل وسّعهُ.

– بصراحةٍ، ألم تجد أفضل من المخدّرات كي تقودنا إليك؟

– أنا آسف، أنتم لم تجدوا وسيلةً أفضل.

أسترخي، ويسترخي هو. يحملني الفراغُ الممتدّ تحتي، بمرونةٍ لطيفة. تجتاحني السّكينة. لماذا يجب عليّ أن أتكلّم؟ لقد أُنعم عليّ بلقاء الربّ، وسيكون من الأفضل أن أستمتع بذلك.

تدقّق «العين الكبيرة» النّظر فيّ. تنتابني رعشةٌ. أفكّر في الأسئلة

التي أرسلها شميت إليّ وأكسر الصّمت:

- لقد جئت لأسألك عن كتبك.

- بكلّ سرور.

تدمعُ قرنيّة «العين الكبيرة» قليلاً وتتلألأ. هل يعاني هو الآخرُ من غرور المؤلّف؟

للمرّة الأولى يسبقني إلى السّؤال:

- أيّ كتبي؟

- كتبك الثلاثة.

- فليكن.

- لماذا قرّرت أن تكتب؟

- في الواقع، أنا لم أكتب وحدي، هناك من ساعدني.

- نعم، أعرفُ ذلك، لقد استخدمت كتّابًا خفيّين[1].

- أفضّل أن أسمّيهم «الأنبياء».

- الأمر سيّان عندي، أنبياء كانوا أو كتّابًا خفيّين، لقد كتبوا نيابةً عنك.

- من يكتب عندما أكتب؟ لا، هم لم يكتبوا نيابةً عنّي. هم يكتبون انطلاقًا ممّا كنتُ اقترحته عليهم. قليلاً من الاحترام أيّها الشابّ! لا تتّهمني بالخداع.

(1) Nègre أو nègre littéraire: مفردة فرنسية تعني «الكاتب الخفيّ» وهو كاتب أو محرّر يعمل على تأليف الكتب والمقالات والقصص والتقارير لكنّها تسجّل رسميًا باسم كاتب آخر، غالبًا ما يكونُ معروفا.

- لماذا لم تمسك بالقلم؟

- بأيّ يدٍ؟

تومض «العين الكبيرة». ثم تضيف:

- وبأيّ كلمات؟ لقد اخترعت المخلوقات اللّغة كي تتواصل مع مثيلاتها. أمّا أنا فالوحيد من نوعي. ولأنّي لا نظير لي، فأنا لا أتكلّم. إنّ الخالق لا تنسحب عليه حاجات المخلوقات.

- ومع ذلك، ها نحنُ نتناقشُ في هذه اللّحظة!

- أنت تعتقدُ ذلك... في الواقع، أنا أؤثّر في ما تفكّر فيه خارج منطق المفاهيم، بينما أنت تقدّم لي الجمل.

- إذا غلّفتك بالكلمات فسأكونُ قادرًا على أن أخفيك.

- لا تتباهى، فالمؤلّف هو من يوجّهك. أنت تسمعني ثمّ تكتب رسالتي في لغتك.

- كيف أتأكّد من قدرتي على إنجاز ذلك؟

- أوْلى بك أن تكون على يقينٍ من أنّك لن تنجح. ومع ذلك، الأمرُ يستحقّ المحاولة.

- ما تزال غامضًا.

- لا خيار لديّ.

- كيف يصبحُ المرءُ ربًّا؟

تتّسعُ الحدقة في مركز «العين الكبيرة»، كأنّها تعبّر عن دهشتها.

- لم يسبق لي أن طرحتُ على نفسي هذا السّؤال.

- حسنًا، أنا أطرحه عليك: كيف يصبحُ المرءُ ربًّا؟

تَطْرِفُ «العين الكبيرة».

- لقد حدث هذا... رغمًا عنّي... ولكن ليس دوني.. فأنا الكلّ. إنّه شكل من أشكال الإكراه.

- ألم تقل لنفسك «لاحقًا، سأصيرُ ربًّا» عندما كنت صغيرًا؟

- لم أكن صغيرًا مطلقًا.

- ولكن...

- ولم أسع قطّ إلى أن أكونَ ربًّا لأنّي ربٌّ.

- إذن، أنت لستَ حرًّا؟

- هذا واضح!

- هذا يعني أنّ البشر يتفوّقون على الربّ بشيءٍ مَا: «الحريّة».

- أنت تولي الحريّة أهميّة بالغةً. أمّا أنا فلا أعرف غير الضروريّ.

- ألا تعرفُ فيم يتمثّلُ الواجب؟

- الواجب؟ ذاك الذي قد نتّفق بخصوصه وقد لا نتّفق؟ ذاك الذي في مقدورنا أن ننجزه أو نهمله أو نرفضه؟ الحقّ أنّي أجهلُ هذا «المُحتمل». إنّ حرية التصرّفِ ليست إحدى نقاط قوّتي.

- ماذا عن الخير؟ وماذا عن الشرّ؟

- أنا أعلى من هذه المفاهيم. فتلك العلامات التوجيهيّة وُضعت خصّيصًا من أجلكم.

- أنت من وضعها؟ أم نحنُ، البشر؟

- لقد ساعدتكم.

- كيف ذلك؟

- من خلال الكتابة، تحديدًا. لنعد إلى موضوعنا وسبب زيارتك لكتبي.

- لماذا استغرقت وقتاً طويلاً في الكتابة؟

- أرجو المعذرة؟

- لقد بدأتَ الأمر، في ما أعلم، مع موسى عندما سلّمته الوصايا العشر.

- صحيح.

- ولكنّ موسى -هذا الزعيم التاريخي- عاش قبل ستّة وعشرين قرنًا...

- وماذا في ذلك؟

- العلماءُ يفترضون أنّ الجنس البشريّ ظهر قبل مائتي ألف عامٍ في إفريقيا، أمّا أنت فانتظرت 197400 سنةً لتعلن عن وجودك. ها نحنُ أمام كاتبٍ كسول. ليس فيك ما ينمّ عن طفلٍ مدلّلٍ مُطلقًا![1]

- أنا لست خاضعًا للزّمن، لأنّي ببساطةٍ أحيا خارجه. وإذا ما غطستُ فيه أحيانًا، مثلما تغطسُ أنت في نهر، فإنّي أخرج منه.

- عندما تخاطبنا، هل تنزلُ إلى نهرِ زمننا؟

(1) استعارة مفارقة تشيرُ إلى كسل الإله مثل الطفل المدلّل.

- صحيح.
- لماذا انتظرت 197400 عامًا؟ ثمّة أجيالٌ من البشر لم ترشدْهم.
- بلى، بلى، لقد أرسلتُ الرّسائل ولكنّ أرواحهم الشّاعريّة حوّلتها على الفور إلى خرافات وأساطير وملاحم وقصصٍ فاتنةٍ، خانت رسائلي. لقد اختبرتُ طويلاً هذا الشّعور بالعجز.
- عجزك؟
- بل عجزهم. إنّهم يغيّرون كلّ شيء. منذ البدء وهم ينمّقون ويبالغون. مثلاً، أنا لم أبق ربًّا مطلقًا، بل تشتّت إلى آلهة كثيرة.
- لماذا؟
- إنّه السّأَمُ. كنتُ أُغذّي حاجاتهم الرّوحيّة، وفوق ذلك أُشبعُ شهيّتهم إلى الفرجة. تخيّل، لم يكن لديهم كتبٌ أو مسارح أو دور أوبرا أو قاعات سينما أو أجهزة تلفزيون أو حواسيب! وأنا من ملأ لهم هذه الفجوة، إذْ كانوا يفضّلون أن يحتكّوا بشخصيّاتٍ كثيرةٍ على أن يحتكّوا بشخصيّةٍ واحدة. زد عليه أنّ خرافاتهم كانت تُنتقلُ شفويًّا، فيُضيف كلّ فمٍ بهرجةً لما يذيعهُ. وفي نهاية المطاف، لم يعد الرّاوي الأوّلُ قادرًا على تمييز خطابه. ولكنّ اختراع الكتابة غيّر كلّ شيءٍ، فبحفر البشر الكلمات على الحجارة، هذه الذّاكرة الأكثر موثوقيّة من ذاكرتهم، اهتدوا إلى الخالد، التّاريخ والقصص.
- لقد كان الآشوريون والمصريّون أوّل من عرف الكتابة ولكنّك مع ذلك لم تُملِ عليهم أيّ شيء.

– لقد راهنتُ على اليهود.

– لماذا؟

– لأنّ اليهود كادحون وأذكياء وعمليّون وأشدّاء! وهم أيضًا يعرفون الحساب مثلما يعرفون الكتابة. وحتّى لو خرج منهم بعض الحالمين –وهم استثناءاتٌ تشذّ عن القاعدة– فإنّهم عادةً ما يوازنون جيّدًا بين ما يمشون فوقه وما يفكّرون فيه، بين الأرض والسّماء. في ذلك الوقت تحديدًا، كانت تنقصهم أرضٌ...

– إنّه زمنُ الرّحيل.

– صحيح. لقد افترضتُ أنّ حرمانهم من أرضٍ خاصّةٍ بهم سيجعلهم أكثر قدرة على التقبّل فراهنتُ عليهم.

– لقد اخترت هذا الشعب.

– لنا أن نصف الأمر كذلك.

– كانت البداية بموسى؟

– لقد كان صبيًّا رائعًا، تلقّى تربيته بين المصريّين الأرستقراطيّين. هو متعلّمٌ ومتطوّعٌ ونشيطٌ ويمتازُ بسلطةٍ فطريّة فضلاً عن كونه زعيمًا حقيقيًّا. إنّه صبورٌ ونشيطٌ، حكيمٌ وحازمٌ في آن. لقد أظهر صفاتٍ متناقضةً جعلتني أثقُ فيه. لقد جازفت!

– لقد أمليتَ عليه عشر كلمات، سُمّيَت منذ ذلك الحين «الكلمات العشر»، أو «الوصايا العشر». أُهنّئك! إنّها وصايا موجزة ولكنّها ناجعة.

– شكرًا.

- لماذا كانت وصايا؟
- إنّ قوةّ السّلطة تكمنُ في عدم تبريرها، إذ عليها أن تكتفي بالإبلاغ. إنّ وصيّة «لا تقتل» تتركُ أثرًا في العقل أكثر من «يجب ألاّ تقتل إنسانًا مّا لأنّ ذلك يعني أنّك تقتلُ نظيرك، أي أخاك أي نفسك أي الإنسانيّة جمعاء». أنا الربّ. أنا آمرُ. أمّا الشّرحُ فأتركه للفلاسفة.
- هل أعجبك ما قام به موسى؟
- إذا استثنينا بعض التّفاصيل يمكن القول إنّه أدرك بوضوحٍ ما قلتهُ له.
- ومن وقتها أصابتك لوثةُ الكتّاب. كم عدد الكتّاب الذين استخدمتهم في الكتاب المقدّس؟
- ثمانية وأربعون.
- ماذا؟ هل مازلت تتذكّر ذلك بعد مضيّ آلاف السنوات؟
- أنا أتذكّر كلّ شيء. إنّ ثلاثة آلاف سنةٍ في الماضي، أو ثلاث ثوانٍ في الحاضر أو ثلاثة قرون في المستقبل، لمتساوية في ذاكرتي المستقرّة خارج زمنكم.
- ما قمت به يدهشني. فقد بدأت بعشر وصايا دقيقة، مؤسّسة ومختصرة ثمّ ضاعفت الأحجام بالعشرات وملأت مئات الصّفحات. هل كنت تكرّس نفسك باستمرار لما هو جوهريّ؟
- أرجو المعذرة؟
- أمّا أنا، فأستنتجُ العكس تمامًا حين أقرأ لك. لماذا تقترحُ كلّ هذا

الكمّ من القصص المختلفة؟

- كي يعثر كلّ واحدٍ منكم على مكانه داخل إحدى القصص ويتلقّى الوصيّة الفريدة التي ستكون موجّهةً إليه... فهذا يجد نفسهُ في قابيل والآخر في نوح والثالثُ في يهوديت أو شمشون أو أيّوب أو إستر أو دليلة. نحن لا نكتب لأنفسنا بل للآخرين يا أوغسطين. إنّ كتابتي تؤدّي وظيفةً مزدوجةً، فهي النّور والمرآة. النّورُ كي يضيء طريقك والمرآةُ كي تتعرّف على نفسك. إنّ التعدّدية، بل والموسوعيّة، حاضرتان في مشروعي.

- حسنًا، ولكنّ قصّة الخلق...

- ماذا؟

- سفر التكوين.

- نعم؟ ما به؟

- لماذا كتبت أشياء لا معنى لها؟

- أنا؟

- كان باستطاعتك أن تتنبّأ بأنّ البشر سيطوّرون في نهاية المطاف علومهم، وسيبحثون عن منشإ العالم باستخدام العقل، ومن ثَمّ سيُدركون قوانين الطبيعة والتطوّر. كان يمكنك أن تخمّن أن لا أحد في المستقبل سيصدّق قصّتك الرمزيّة. سبعة أيّام! سبعة أيّام للانتقال من الفوضى إلى الكون! ساعات قليلة لخلق الأنواع الحيّة! والأسوأ من ذلك، هو خلق حوّاء من ضلع آدم! لقد أطلقت رصاصة على قدمك.

- بالتّأكيد، كنتُ أشكّ في أنّ هذا سيحدث.

- إذن؟

- كيف تريدُ منّي أن أقدّم تصوّرًا علميًّا لعمليّة الخلق في زمنٍ لم تكن فيه العلوم موجودةً. لا أحدَ كان سيفهم ذلك.

- أنا لا أقبلُ هذه الحجّة. كان عليك أن ترشدنا.

- وهذا ما فعلته. لقد أرشدتكم كي تبحثوا بأنفسكم.

- لماذا لم تكشف الحقيقة؟

- نحن نقولُ الحقيقة إذا كان هناك من يسمعها. إلى جانب ذلك، هل تملكون اليوم الحقيقة حول الكون؟

- نعم، يبدو لي أنّ آخر النّظريات الفيزيائية...

- النظريّة الأخيرة ستظلّ النّظرية الأخيرة. لقد وُجد ثمّة مثلها في الماضي. وسيكونُ مثلها في المستقبل. وبعد قرنين من الآن، سيسخرُ البشرُ ممّا يسمّيه معاصروك الحقيقةَ.

- هذا صحيح. ولكنّنا نحنُ البشر محدودون أمّا أنت فلا.

- بلى!

- أرجو المعذرة؟

- أنا محدودٌ بمحدوديّتكم.

تتجوّل «العين الكبيرة» في مدارها كأنّها تشعرُ بالانزعاج من تكرار هذه المسلّمات. تَثبُتُ في مكانها وتحدّق فيّ. إنّها تنتظر. أشعرُ بأنّها تتلاشى بسلاسةٍ وبأنّ تألّقها يتضاءل... أسارعُ إلى استئناف حديثنا:

- نصلُ الآن إلى المسألة الجوهريّة: لمَ كلّ هذا العنف في الكتاب المقدّس؟

- هذا سؤال جيّد. أشكرك على طرحه.

تعود «العين الكبيرة» إلى تألّقها.

- احذر، إنّ رفيقتك أمّ كلثوم تقضمُ أصابع قدميك.

- أرجو المعذرة؟

- لا أعرفُ ما الذي اشتبهَ عليها -ربّما اعتقدت أن أصابعك قطع حلوى أو مكسّرات أو رقاقة بطاطا مقليّة- ولكنّها تشرعُ في مصّ الإصبع الخامس لقدمك اليمنى، ذلك الأكثر لينًا.

على الفور، ألتحقُ بمطبخ الصّحيفة دون أن أصدر أيّ حركة. راقدًا على الأرضية المشمّعة، أرفعُ رأسي وأكتشفُ أنّ أم كلثوم تهرهرُ وهي تمصُّ إصبع قدمي. بالقربِ من شعرها تستقرّ فردتًا حذائي. ما أدهشني، ليس أنّها ترضعُ إصبعي، وإنّما تمكّنها من نزع جوربَي وفردتا حذائي الرياضيّ.

أعتمد على يديّ وأبتعدُ عنها لأستعيدَ جسدي كاملاً. يختفي المطبخُ على الفور وألتحق بـ«العين الكبيرة». يبدو أنّي أصبحتُ متمكّنًا من الطريق.

تحدّقُ «العين الكبيرة» في وجهي، لا أعرفُ في أيّ تفصيلٍ بالضّبط -اتّساعُ القزحّية أو رطوبة القرنيّة- ولكنّي أُقدّر أنّها تسخرُ منّي. وقد سمعت ما أفكّر فيه، ترتجُّ منزعجةً وتستأنفُ المحادثة:

- عند أيّ نقطة كنّا؟

- كنّا نتحدّث عن العنف.

- صحيح! كثيرا ما يُساءُ فهمي بخصوص هذه النقطة، أو بالأحرى، لم يعد أحد يفهمني. لقد تغيّرت الأزمنة بشكلٍ جذريّ... لطالما تصوّرتُ الكتاب المقدّس كتابًا يناهضُ العنف، ولكنّ البعض يستخدمه للتعبير عن عنفه باسمي.

- لا تتجنّب الوقائع! في فقرات كثيرة منه تترك العنان لنفسك.

- ليس أنا بل شخصيّاتي.

- بل أنت! لئن تجاوزتك الشخصّيات في بعض المناسبات، فثمّة حالات أخرى لا يبقى معها مجالٌ للشكّ: لقد أطردت حوّاء وآدم من الجنّة الأرضيّة وأرسلتَ الطوفان إذ غضبت ثمّ قتّلت المصريّين كي يتمكّن موسى وشعبه من الرّحيل.

- هذه بيداغوجيا.

- أرجو المعذرة؟

- ألم تلاحظ أنّي أبدأ الكتاب المقدّس بلوحةِ سلامٍ وأنهيه بالطريقة نفسها؟

- لم ألاحظ شيئًا من هذا القبيل.

- في سفر التكوين، أرسمُ صورة حديقةٍ من المسرّات، تلك السّهوب الرّائعة التي عاش فيها آدم وحوّاء سعيدين ثمّ أعيدُ رسم هذا العالم المتنعّم بالسّلام مجدّدًا في آخر سطور رؤيا نهاية العالم، بمعنى أنّ ما تمتّعتَ به في البداية، ستتحصّلُ عليه في الأخير. إنّ الأمل هو الوجه الآخر للحنين. لكنّ الرّجل والمرأة

لم يرغبا في جنّة عدن هذه. لقد أكلت حوّاء من ثمرة المعرفة فأُطرد الزّوجان، هو عوقبَ بالعمل الشاقّ وهي بآلام الولادة. ماذا تستنتجُ من هذا؟ يجب أن ترغب في الجنّة. سيتمكّن البشر من ذلك عبر اختبار الشرّ والمعاناة والظلم. إنّ المرء لا يتعلّم إلّا بالجهد ولكنّ سعادة النّهاية ستحلّ محلّ سعادة البداية، فالسّعادة المكتسبة أقوى من السّعادة الممنوحة. وبين هاتين المسرّتين، أرسمُ طريقًا، فالكتاب المقدّسُ هو كتابٌ توجيهيّ. إنّ العنف يظهرُ في حياة الإنسان نتيجة أفعاله وأنا أعلّمه كيف يتخلّص منه. فمن مقتل هابيل إلى الصّلب ثمّة مراحل مُرتّبة. ومن الطبيعيّ أنّ كلّ مرحلةٍ يقع إخراجها من السّياق العام ستثير صدمةً. لذا يجب أن تقرأ من الزّاوية الصّحيحة، أي داخل الخطّة الشّاملة. وبحلول النّهاية، سيبدو كلّ ما مرّ به الإنسانُ عندئذٍ أمْرًا عفا عليه الزّمن.

- لكم أنت طيّبٌ عندما تبدو واثقًا من نفسك!

- لقد قدّمتُ لك مرجعًا لتحرير نفسك من العنف.

- لن تتنصّل من فعلتك بهذه السّهولة. عندما أقرأ لك، تصدمني هذه الحقيقة: أنت متورّطٌ في العنف. فبعد موسى، التجأت إلى يوشع، أمير حربٍ متوحّش وقاسي القلب غزا أرض الميعاد وسقاها بالدّماء. لقد أباد جميع السّكّان في أريحا، الرّجال والنّساء والأطفال والشيوخ، ممارسًا باسمك عمليّة إبادة بمعنى الكلمة الدّقيق، فهل كان لذلك من نفع؟ ولقد شنق الملوك الكنعانيّين الخمسة. فهل كان لذلك من نفعٍ؟ ولقد عاش على تلك الحال إلى أن بلغ المائة وعشر سنوات. فهل كان لذلك من نفع؟ ثمّ

في مرحلةٍ لاحقةٍ، ذَبَحَ نبيّكَ إيليا أربعمائة كاهنٍ من كهنة بعل بتواطؤٍ منك. بعد ذلك...

- توقّف! أنت تفكّر في هذا من وجهة نظرك الحاليّة، أي من وجهة نظر مواطنٍ حديثٍ وعقلانيٍّ، ينتمي إلى حضارة أعلنت حقوق الإنسان وتكرّر باستمرار أنّ العنف يمثّل شرًّا. في ما مضى، لم يكن للإنسان أن يحيا دون عنف. لقد كان العنف منتشرًا في كلّ مكان. والقبائل والبدو الرحّل يتقاتلون من أجل حيازة كلّ شيءٍ، كلّ بئر ماءٍ، وكلّ حقلٍ، أو طعامٍ أو غابةٍ أو حيوان. والجميع يعبدون آلهةً متوحّشةً كي يبثّوا الرّعب ويُروّجوا فكرة أنّهم أقوياء. وكان عليّ أن أتكلّم مثل نمرٍ لا مثل فأرٍ حتّى يستمعوا إليّ. ما كان لي أن أبدوَ قويًّا لو تخلّيتُ عن العنف. ولكي أستميل ذلك العالم، استعملتُ شعاراته.

- هنا مربط الفرس، أنت لا تخطئ مطلقًا! ألم يحدث أن قمت بعمليّة نقدٍ ذاتيّ؟

- بلى. ولهذا السّبب ألّفتُ كتابي الثاني.

- العهد الجديد؟

- نعم تلك القصص حول يسوع المسيح.

- هل كانت الفكرة موجودةً في ذهنك منذ البداية؟

- بالطبع.

- أجد صعوبة في تصديق ذلك.

- اقرأ العهد القديم جيّدًا، واقرأ العهد الجديد جيّدًا، وسترى أنّني

في الأوّل وعدتُ بالثّاني.

- ألأنّك أعلنت عن مقدم المسيح المخلّص؟

- تمامًا! لقد خطّطتُ للكتاب الثاني.

- اممم...

- وشرعتُ أيضًا في الإشارة إلى الحلّ الذي من شأنه أن يطهّركم من الوحشيّة. سأروي لك نادرةً كي تقتنع: ثمّة مُنشدٌ دينيّ توسّل إلى الربّ أن يسحق أبناء الأعداء على أسوار المدينة. ستقول هذا عنفٌ؟ لا، إنّه إفراطٌ في العنف. أن يطلب الإنسان من الربّ النيابة عنه في الضرب فهذا يعني أنّه ينأى بنفسه عن ذلك. إنّ الإنسان يسعى إلى إبعاد الكراهيّة عن واقعه وإرادته.

- ولكن ليس عن تفكيره!

- صحيح. لهذا كان عليّ أن أنهي عملي وكتبتُ كتابي الثاني. إنّ يسوع المسيح يدينُ العنف. فهو لا يبدو حنونًا ومحبًّا ومداويًا وقريبًا من الضّعفاء والمرضى والنّساء والأطفال فحسب، ولا يمتنع عن رجم الزّانية فحسب، بل يقدّم نفسه أضحيةً على الصّليب. إنّ احتضاره يكشفُ الفضيحة: الربّ نفسه يصبحُ ضحيّةً، الربُّ يموتُ نتيجةً لعنف البشر. ذلك الذي كان بإمكانه أن يتصرّف كأسدٍ، بالنّظر إلى قدراته، اختار أن يتصرّف كحمل. لقد عانى من أجلكم مشيرًا إلى غضبكم الغبيّ وحثّكم على استئصاله. لقد ضحّى بنفسه كي يعلّمكم ثمّ يصلح أحوالكم. إنّه لمن الصعب أن أوضّح أكثر، أليس كذلك؟

- لقد أصبت.

يخيّم الصّمت. تغدو «العين الكبيرة» مذهّبةً ومزهوّةً. أقرّر أن أحرمها فرصة الثّناء على نفسها.

- فعليًّا، لقد كشفت كلّ شيءٍ في هذين المجلّدين، ونجحت في تحقيق تقدّم رائع. لذا كان عليك أن تتوقّف عند هذا الحدّ.

- صحيح.

- إذن، لماذا ألّفت جزءًا ثالثًا؟ لماذا القرآن؟

-17-

يصيبُ الذّبول «العين الكبيرة». حولها، تتسلّل البرودة إلى الظلمات. تغمغمُ:

- الإسلام، بالطبع... لماذا الإسلام؟

يحتكُّ بنا غبارٌ مضيءٌ ناتجٌ عن تيّار هوائيّ مَجَريّ. أرتجفُ وأترنّحُ وقد شعرتُ فجأةً أنّ الفراغَ لم يعد يُطيق حملي. تكافحُ ذراعاي كي أستعيد توازني.

تقولُ «العين الكبيرة» أخيرًا:

- لقد فشلت.

- أنت؟ أنت تفشل في شيء مّا؟

ترمشُ «العين الكبيرة».

- أعترفُ أنّه إذا لم يستمع إليّ البشرُ فذلك لأنّي فشلتُ في أن أجعلهم يستمعون إليّ. إنّي أُصادق على نصيبي من الهزيمة.

- هل تتحدّث عن العهد الجديد؟

- نعم.

- عن المسيحيّة؟

- صحيح. إنّي أُطلقُ تسمية المسيحيّة على عواقب كتابي الثاني. يا

له من فشلٍ!

- أنت تمزح! إنّ الأناجيل تشكّلُ قصيدةً رائعةً بسموّها المؤثّر.

- أكثر ممّا ينبغي...

- حتّى إنّ المُثقّفين، الذين لا يعتقدون فيك أو في الدّيانات، يمجّدون الصّفات الرّوحيّة ليسوع المسيح. لقد أطلق عليه سبينوزا، الفيلسوف البارز، لقب «المعلّم الأسمى».

- هذه هي المشكلة: لم يحصد كتابي الثاني سوى نجاحٍ اعتباريّ، إذ لم تثنِ عليه سوى النّخبة، هذا النّادي المغلق أو القِلّة السّعيدة. لكم وددتُ لو كان نجاحهُ شعبيًّا.

أتنفّس بصعوبةٍ وقد تملّكتني الخشية من أن تكون «العين الكبيرة» قد فقَدت عقلها. وينتابني الغضبُ فأصرّح:

- صحيحٌ أنّ المسيحيين الأوائل اضطهدوا واستشهدوا وأُعدموا ولكنّ الأناجيل تمّ الاطّلاع عليها والتأمّل في تعاليمها وشرحها وترجمتها وتقديسها، لتغطّي كامل حوض البحر الأبيض المتوّسط وتخترق مناطق الشّمال. وفي غضون بضعة قرونٍ، أزاحت العقائدَ الوثنّيةَ وثبّتت نفسها بوصفها عقيدةً مهيمنةً. يا لهُ من انتصارٍ! أنتَ لم تحصد هذا النّجاح مع كتابك السّابق.

- صدقت... فالعهد القديم لم يكتسب سوى شهرة محليّة.

- بل إقليميّة! فلا أحد قرأه خارج منطقة يهودا[1].

---

(1) يهودا: هي تسمية تاريخية يونانية-رومانية لمنطقة جبلية في جنوب فلسطين. تمتدّ هذه المنطقة من ساحل البحر الميّت باتّجاه الغرب وتشمل القدس والخليل وبئر السبع.

- أعترفُ بذنبي! لقد استعنتُ بموسى كمحرّرٍ ثمّ بمجموعة من الحرفيّين المحلّيين، ونتيجة لذلك عانت الدّيانة اليهوديّة من نقيصةٍ هي فكرة «الشعب المختار». فعلى الرغم من أنّني صمّمتُ عمليّة انتشارها في العالم ونصحتُ بذلك أكثر من مرّة أثناء تدخّلاتي، احتفظ اليهود بها لأنفسهم. لقد استولوا عليها وحوّلوها إلى هويّة أثراها ماضٍ مشترك. ماذا نستنتجُ من هذا؟ إنّ هذه الرّوحانيّة قد تعفّنت داخل القبائل التي اخترتها كي تكون ناطقةً باسمي. ولأنّي أردتُ توسيع قاعدتي الجماهيريّة، صمّمتُ المسيحيّة لتكون ديانةً يهوديّة متاحةً لغير اليهود.

- لقد حقّقت النّجاح! فالمسيحيّة غزت العالم.

- وهل كان «الغزو» هو القصد منها؟

تتردّدُ «العين الكبيرة» متأملةً ثُمّ تضيفُ:

- سأُخبرك بسرّ: لقد استمتعتُ في البداية بالمسيحيّة. كنتُ قد اخترعتُ شكلاً أدبيًّا مبتكرًا: القصّة نفسها تُروى من أربع وجهاتِ نظرٍ مختلفةٍ. لقد رويتُ مغامرةَ يسوع المسيح على لسان متّى ومرقس ولوقا ويوحنّا. ولم يسبق لأحدٍ أن جرّب هذا الأسلوب.

- حقًّا، لقد كان أسلوبًا مبتكرًا.

- إنّه أكثرُ من مجرّد أسلوبٍ مبتكرٍ، إنّه ناجعٌ.

- ناجع؟

- لقد رغبتُ في تحفيز جمهور قرّائي، وإجبارهم على التّفكير

والزامهم بالتّساؤل. فالأناجيلُ الأربعةُ تصفُ البَطل ذاته ولكن بطرقٍ مختلفةٍ وبحساسيّاتٍ مختلفةٍ، فيوحنّا مثلاً يتمتّع بتعليم فلسفيّ، وفي المُقابل يلتصقُ مرقس بالأحداث، أمّا متّى فيتحدّث إلى اليهود بشكلٍ خاصّ. وإذا كانت بعضُ الأحداث مُشتركةً في الرّوايات الأربعة، فبعضُها الآخر لا، وهو ما يعجّلُ بالقارئ إلى لعبة بحثٍ خفيّةٍ كي يعيد تشكيل الوقائع. فأنا لم أعد أحتملُ السذّج من القرّاء!

- أنت؟

- قبل قليل، كنت تلومني بخصوص قصّة التّكوين! لماذا؟ لأنّك فسّرتها في معناها الظّاهر. لقد تقبّلتها كتقريرٍ رسميٍّ حول البدايات والحال أنّي كنتُ أقدّمُ لك أسطورةً شاعريّةً. إنّ البشر يميلون، بطريقةٍ مؤسفةٍ، إلى اعتبار القصص ترجمةً للواقع. ولكنّي نسفتُ ردّة الفعل هذه بالأناجيل التي أمليت. وأتحت للقارئ الحصيف للشهادات الأربع أن ينتجَ نصًّا -هو نصّهُ- يكتبه من خلال المقارنات والتّقاطعات. إنّ الغاية المُثلى هي إنشاءُ خمسة أناجيل: أناجيل الحواريين وإنجيل القارئ.

- «جميعكم كُتّاب». أكان هذا شعارك في تلك المرحلة؟

- لا، بل: «جميعكم أذكياء!»

تصمتُ «العين الكبيرة» برهةً.

- لقد أذنبتُ جرّاء طموحي. ففي ما يتعلّق بالكتب المُقدّسة، لا يمكنُ تغيير عادات القرّاء بكتابٍ واحد.

- انتظرْ، ثمّة تفصيل يُزعجني. وأنت تقدّم تفسيراتك ذكرت أربعة كتب «أمليتها» على الحواريّين. هل تلمّحُ بذلك إلى أنّهم لم يروا يسوع المسيح؟ وإلى أنّ المسيح لم يوجد مطلقًا؟

تومضُ «العين الكبيرة» ببطءٍ.

- ثمّة طرائق مختلفة لإملاء شيء مّا، إمّا بإلهام الأفكار وإمّا بصناعة الحقيقة.

- وفي هذه الحالة؟

تصمتُ وترمشُ بجفنها.

- نحنُ نتحدّث عن الأدب، نعم أم لا؟

- نعم... ومع ذلك يُساورني الشكّ في أنّ الأدب يعنيني أكثر من الحقيقة. أنا أحتاجُ إلى أن أعرف: هل حياةُ المسيح حقيقة واقعة أم لا؟

- لديك تصوّر ضيّق عن مفهوم الحقيقة. فالحقيقةُ عندك هي كلّ ما يسبق الكتاب الذي سيرويها. أمّا أنا فأرى أنّ الحقيقة هي ما يأتي بعده وما سيحدثُهُ من أثر. لقد استمتعتُ بتحرير العهد الجديد لأنّ البشر سيستخلصون منه عقيدةً. لقد نثرتُ البذور.

- أنت تتفادى الإجابة.

- إنّ يسوع لم يعرف سوى يسوع، ولم يعرف المسيحيّة. لقد جاء في كتابي أنّ المسيح اليهوديّ رأى نفسه يهوديًّا ومارس يهوديّتهُ. ثمّ ولدت المسيحيّة بعد موته مختلفةً عن اليهوديّة -وهو الأمر الذي لم أتوقّعهُ- نظرًا إلى أنّ بعض اليهود أنكروا عليه أن يكون المسيح

ونزلوا به إلى مرتبة نبيّ. وهذا فعلاً غير مهمّ! فالمسيحيّة هي ما كنتُ أتطلّعُ إلى خلقه عبر هذه الكتب.

- قليلاً من الدقّة أرجوك. هل أعطى يسوع المسيح إلى هذا العالم؟

- لقد كتبتُ ذلك.

- أجبني.

- إنّ الشجرة هي ما يهمّني لا البذور.

- أجبني!

- إنّ المسافة بين الحقيقة الواقعيّة والحقيقة الرّوحانيّة هي ذاتها التي تمتدّ بين البذرة والشجرة.

- قلتُ أجبني...

- لقد أجبتك ولكنّك لا تدركُ ذلك.

تبدو «العين الكبيرة» واثقةً من نفسها جيّدًا، أمّا أنا فيُصيبني الوهن وتهاجم معدتي تشنّجات مؤلمة تشي بأنّي سأتقيّأ. أبتلعُ ريقي وأحاول أن أسيطر على تنفّسي. لن أسمح بذلك! عليّ أن أستمرّ. لن أقطع هذه المقابلة، وقد بلغت ذروتها، حتّى لو تطلّب الأمرُ أن أكرّس جزءًا من جهدي لمقاومة تأثيرات المخدّر.

ثمّة ألوان أخّاذة تثري قزحيّة «العين الكبيرة» وقد بدت عليها السّعادة:

- في البداية، هنّأتُ نفسي على خلق المسيحيّة. إذ بدا لي أنّي عرضتُ، في هذا الكتاب الثّاني، بوضوحٍ درجة التعسّف والظلم والفسوق والحماقة التي يمكنُ أن يقود إليها العنف. لقد قتلتُ الكراهية

على الصّليب. وتصوّرتُ أنّ كلّ إنسانٍ، وقد نظر إلى البريء يموت على الصّليب، سيرى العاقبة الشنيعة لعنفه الشخصيّ وأنّ يسوع المحتضر قد شفى العنيف من عنفه، داعيًا النوع البشريّ إلى البحث عن الحلول خارج منطق الجبروت وإلى بناء عالمٍ جديد يحلّ فيه الإحسانُ محلّ الخوف. يا لهُ من برنامجٍ جميل! أعني أن يتوقّف الإنسانُ عن الخوف من الآخرين، و يحبّهم بدل ذلك.

- إنّها طوباويّة.

- نعم، صحيح! لقد وضّحتُ الحقيقة في ضوء مُثُلٍ عليا واعتقدتُ -بسذاجتي ككاتبٍ راضٍ عن نفسه- أنّي حرّرتُ العقول، لا من وحشيّتها فحسب وإنّما من غبائها أيضًا. لو فككتَ شفرة الأناجيل لرأيتَ يسوع المسيح وهو يُراجع الحقائق المزيّفة التي عاش عليها عصره. فهو يتورّع عن النّظر إلى النّساء ككائناتٍ دنيا، مخصّصًا لهنّ أهمّ النّبوءات. ويتجاوزُ العائلة بالمفهوم الضيّق، إذ يُدين تصرّفات إخوتهِ الضارّة، ويشيرُ إلى أخوّةٍ أسمى هي الإنسانيّة. بل إنّه يتجرّأ أكثر ويهاجمُ المؤسّسات الدّينية ويطرد التّجار من الهيكل ويندّدُ بالممارسات الخالية من أيّ معنى، مكرّرًا **«السّبت، إنّما جُعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السّبت»**[1]. فورع الإنسان لن يظهر، في نظره، باحترام الشعائر احترامًا شكليًّا، ولن يصل إلى التّقوى إلاّ إذا طهّر

---

(1) إنجيل مرقس، الإصحاح 2 الآية 27.

روحهُ ونواياه. حين أعطيتُ الحياة للأناجيل كنتُ أحفّز البشر إلى تبجيل الرّوحِ على الشّريعة.

تنتظرُ العين بضع ثوانٍ ثمّ تقولُ متفجّعة:

- للأسف...

- ماذا؟ ألا ترى أنّهم تحسّنوا؟

- قليلاً. قليلاً جدًّا. لم تتغلغل المسيحيّة إلاّ في إطارٍ ضيّق.

- لكنّ المسيحيّين يعدّون بالملايين منذ قرون!

- ليس بإمكان الكمّ أن يخفي غياب الجودة. لقد فشلتُ.

تتنهدُ «العين الكبيرة» ثمّ تُتابع:

- إنّ إفهام الإنسانِ أنّه ضلّ الطريق حين سُمّر الربّ على الصّليب، كانت فكرةً عظيمةً، ولكنّها لم تنجح.

- لماذا؟

- لأنّي أدنتُ مسؤوليّته. والإنسان لا يحبّذ عالمًا يكون فيه مذنبًا. فهذا يدخل الاضطراب على سكينته.

- وبعد؟

- لقد عدتُ أدراجي. إنّ المسيحيّة لم تُتقبّل لأنّها لم تفهم. ولزمنٍ طويلٍ، أنكرتُ الحقيقة، حقيقة مأسَسة الأناجيل وهيمنتها والمجازر التي ارتكبت باسمها. إنّ يسوع المسيح هو خالق العلمانيّة عندما أعلن: «**أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله**»[1] أو

(1) إنجيل مرقس الإصحاح 12 الآية 17.

«يا إنْسانِ، من أقامني عليكما قاضيًا أو مُقسّما»[1]، ولكنّ النقيض هو ما تطوّر: فرجل الدّين بدلاً من تحرير نفسه من السّياسي والعسكريّ والاقتصاديّ والمدنيّ، تسلّل إلى هذه المجالات بل سبق الجميع إليها. لقد قضّيتُ بضعة قرونٍ كي أدرك ذلك، ثمانية على وجه التّحديد. وعندئذٍ قرّرتُ أن أُمسك القلم مجدّدًا أو بالأحرى أن ألتمس خدمات محمّد.

– وأمليتَ القرآن. ولكن فيمَ يكمنُ تطوّرك مقارنة بالمرحلة السّابقة؟

– في أن أخاطب البشر كما هم وأقبل تمزّقهم بين النّوازع الحيوانيّة والنّداءات الروحانية، بين الجسد والرّوح، بين الأنانيّة والسّخاء. فأُؤلّف كتابًا يوصيهم بالتّوازن وبالوسطيّة. وبعد ذلك، أوضح أنّ الإنسان لا تربطه علاقةٌ خاصّةٌ، مُتّخذًا تلك المسافة التي حاول اليهود والمسيحيّون باستمرارٍ أن يتجاهلوها بل وأن يختصروها. وبذلك أجعلُ نفسي منفصلاً وبعيدًا. لا أتدخّلُ في تاريخكم ولا أتورّطُ معكم، باستثناء الكتابة إليكم بطبيعة الحال.

– لقد أحدثتَ ثورةً من وجهة نظر أدبيّة.

– صحيح. لقد تخلّيت عن تلك الحكايات المعقّدة في العهد القديم وعن القصص الرّمزية في العهد الجديد لأنّ تأثيرها خيّب أملي، فغالبيّة النّاس قنعوا بذلك الفهم المشتّت ولم يتغيّروا مثلما كنتُ أتوقّع. أمّا في القرآن، فأبدو عمليًّا. أكتبُ الوصفات. وأؤطّر

(1) إنجيل لوقا الإصحاح 12 الآية 14.

حياة الإنسان من لحظة ولادته إلى موته، منظّما الأيّام واللّيالي طالبًا منه أعمالاً بسيطةً للغايةَ ولكنّها ملزمةٌ: نظافةٌ شخصيّة وتغذية جيّدة، وخمسُ صلواتٍ في اليوم تجعله متواضعًا -بما أنّها تُعيدهُ إلى منزلته كمخلوق فانٍ- وسيطرةٌ على الشّهوات من خلال صوم رمضان. باختصارٍ، أرسمُ أفُقه الرّوحيّ دون أن أفصِلَ روحَه عن جسدِه.

- يبدو لي هذا رائعًا.

- أليس كذلك؟ أضف إليه أنّي اعتبرتُ التّسامح واجبًا: «لا إكراهَ في الدّين» حثًّا على احترام المعتقدات.

- هل أشرت إلى هذه النقطة كي يتّفق المعجبون بكتابيك الأوّل والثاني مع المعجبين بالكتاب الثّالث؟

- صحيح. فكتبي الثّلاثة تتحدّث عن إلهٍ واحد، ولكنّه ليس نفسه فيها جميعًا. لذلك أردتُ إنشاء روابط. في القرآن، أتحدّثُ عن كتاب مبين أحتفظُ به في السّماء في اللّوح المحفوظ، أُمُّ الكتاب الذي لا يعرفه أحدٌ سواي، ذلك الذي أعرتهُ إبراهيم وموسى وعيسى ثمّ أعطيتهُ محمّدا. لقد أعطيته إيّاهُ لفترةٍ أطول من الآخرين كي يصبح الكتاب المرجعيّ هذه المرّة. فليس للكتاب عندي سوى دين واحد هو الإسلام، أمّا اليهوديّة والمسيحيّة فديانتان لديهما كتب.

- إذن، هذه الدّيانات التوحيديّة تشكّل عائلةً مكوّنة من ثلاثة إخوةٍ.

– ثلاثة إخوةٍ غالبا ما يتقاتلون فيما بينهم، ولكنّهم يظلّون ثلاثة إخوةٍ.

– أنا سعيدٌ لسماع ذلك.

– شكرًا. وبمناسبة الحديث عن القرآن، لقد غلّفتُ الوصايا بشعرٍ لا مثيل له، شعر مازلت أستمتعُ به إلى الآن. اسمع: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1] أو ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[2].

يتردّدُ صدى ضجّةٍ في الفضاء اللاّنهائيّ. أتبيّن فيها صوت انفجارٍ، تتمايلُ النّجومُ بفعل ذلك ويُسمعُ من الأقاصي صوت جلبة هي مزيجٌ من الصّراخ والدّموعِ والتضرّعات. غير أنّ «العين الكبيرة» المنشغلة بتذوّق حلاوة تعبير القرآن لا تنتبه لشيءٍ من ذلك. في المقابل تعيدني الأصواتُ المدوّية إلى الأسئلة التي أرسلها إليّ شميت وأستأنفُ حديثي:

– اسمح لي بأن أعبّر عن دهشتي. عندما أتصفّحُ القرآن، أقعُ على مقاطع متناقضةٍ. فإذا كانت بعض السّور تدعو إلى الحبّ، والرّحمة ونبذ القوّة الغاشمة، فإنّ بعض السّور الأخرى تُبرّر

---

(1) سورة ق الآية 16: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

(2) سورة النور الآية 35: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

المذابح. أحيانًا تؤكّد على أن «لا إكراه في الدّين» وأحيانًا أخرى تعلنُ «كلّ يهوديّ يقعُ بين أيديكم، اقتلوه»[1].

– إنّ الإملاء لا يعني التّأليف. أنا لم أكتب القرآن، كما ذكّرتك عندما أشرتُ إلى أمّ الكتاب، وإنّما أوكلتهُ إلى البشر. إنّه يتضمّنُ تاريخ نزولٍ وسياقًا وتقديراتٍ. ألا تعرفُ أنّ النّسخة التي اطّلعت عليها لم يقع تثبيتها إلاّ بعد مرور مائة وأربع وأربعين سنة على وفاة محمّد[2]؟

– يا له من عذرٍ! إذن نحنُ مصدرُ التّناقض لا أنت؟

– هو ذا: عدتم مجدّدًا إلى الإشكال نفسه!

– ماذا؟

– عدم الفهم!

– أنت من عاد! إنّ العهد القديم ممتلئٌ بمثل هذه التناقضات.

– أنت ترهقني...

– أنت تدعو إلى الجهاد، إلى الحرب المقدّسة.

– الجهادُ لا يعني «الحرب المقدّسة» بل يعني «مغالبة أهواء النّفس».

---

(1) حافظنا على النّص الذي أوردهُ الكاتب ويبدو أنه اختلطت عليه الأمور بين القرآن الكريم، الذي لم يرد فيه نصّ يصرّح بقتل اليهود، والحديث الذي رواه ابن عمر وقد جاء فيه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: (تُقَاتِلُكُمُ اليَهُودُ فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يَقُولُ الحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي، فَاقْتُلْهُ)، وهو حديث رواه البخاري ومسلم.

(2) خطأ آخر وقع فيه المؤلّف، فالقرآن جُمع في عهد أبي بكر الصدّيق في السنة 12 هجريًا، علما أنّه عند وفاة النّبي محمّد كان القرآن محفوظا في الصّدور، ومكتوبًا في الرقاع واللّخاف والعسب والأكتاف، لكنّه مفرّق ولم يرتّب في مصحف واحد إلى أن جمعه أبو بكر الصديق.

إنّه يعبّرُ عن الصّراع الدّاخليّ.

– ولكنّ هذا لا ينطبق على السيّرة، سيرة النبيّ، ولا على المغازي أيضًا، تلك الحملات العسكريّة.

– هما ليسا من القرآن!

– ألم تقل في القرآن: «أبيدوا المتشدّدين إلى آخر رجلٍ فيهم»؟[1] أو ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[2]؟

– ثمّة ما قلتهُ وثمّة ما يتعيّن على المرء أن يفهمه. هذا لا يصدّق! إنّ هؤلاء المفكّرين الذين يدرسون أفلاطون دون أن يتحرّجوا من كونه تاجر رقيق أو نيتشه دون أن توقفهم معاداته للساميّة، يغدون متعصّبين كلّما تعلق الأمرُ بي. هاهم يفقدون حاسّة التّمييز ويتوقّفون عن التّأويل ولا يميّزون الحقائق من الأكاذيب، ويتخلّصون من روح النّقد. إنّهم يتجاهلونني جميعًا، بفظاظة، بدلاً من مناقشتي.

– هذا طبيعيّ، فأنت الربّ.

– وماذا بعد؟

– نحنُ ننتظرُ منك أن تخاطبنا بوضوحٍ لا لبس فيه.

– أن آمركم؟

---

(1) لا توجد آية واحدة في القرآن بهذا المعنى.

(2) من سورة التوبة الآية 5: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

- بل أن تشرّع أحكامًا منطقيّةً. لم يعد بإمكاننا أن نقبل تناقضاتك.

- أنا لا أطلب منكم أن تقبلوها بل أن تدرسوها.

- في نهاية المطاف، أنت الربّ!

- نعم، ولكن أنتم بشر! أعني أنّكم أحرار. أنا لن أدوس على إرادتكم الحرّة ولا على ملَكة النقاش عندكم ولا على قدرتكم على الاختيار.

- ابقَ ربًّا بحقّ الله!

- يا لحيرتكم! إنّ الربّ لا يدعوكم إلى الخضوع بل إلى الاستنتاج. عليكم أن تقوموا بعمليّة الفرز!

- أن نفرز أقوال الربّ؟ بأيّ حقّ؟ وبأيّ سلطة؟ هل ستهيمن نزواتنا على قدرتك الكليّة؟ هذا هراء! فحسب ما ألتقطهُ من القرآن، أجدني أمسك بين يديّ كتاب سلامٍ وكتاب حربٍ. وفي ما يخصّني، أحترمُ المسلم الذي يتبنّى الكلمات الرّقيقة، وأدين ذاك الذي ينتقي الكلمات العدوانيّة، ولكنّي أظلّ عاجزًا عن تحديد من فيهما يتصرّف كمسلمٍ حقيقيّ. ما هو الإسلام النقيُّ، بالمعنى الكيميائيّ للكلمة؟ إنّ القرآن يحتوي على ما لا يقلّ عن قرآنين.

- لا يوجدُ كتابٌ، ثمّة قراءات.

- لن أقبل بهذا التّبرير! عندما تخاطبنا، نحنُ لا نرتّب وصاياك هرميًّا. من نكونُ كي نسمح لأنفسنا بهذا؟ هل يجبُ على المخلوق أن يقوّم الخالق؟

- على المخلوق أن يقوّم نفسه، هذا هو المسارُ الذي يقترحهُ أيّ كتابٍ مقدّس.

- لماذا لا تعلنُ عن نفسك بوضوح؟

- كي أظلّ محجوبًا ولأنّي أعوّلُ على حرّيتكم. من وقت إلى آخر، أقدّمُ لكم بعض التّفسيرات ولكنّي أحرصُ جيّدًا على ألاّ أمدّكم بالوضوح.

- أرى هذا خطأً.

- ليس إذا التزمتُ بمشروعي الأوّل: أن أجعل البشر أحرارًا.

- إذن، فتاريخُ الخطإ يعود إلى هناك: جعلنا أحرارًا.

- ما كنتَ لتناقضني لو لا أنّك تتمتّع باستقلاليّتك.

ثمّة جلبة حشودٍ ترتفعُ حولنا في الظّلمات. أحيانًا، أرى وجهًا يحمرّ، أو سحنةً متقلّصةً أو رأسًا تسيلُ منه الدّماء. ومن بعيد يقومُ جيشُ أشباحٍ متوحّشةٍ باستعراضٍ عسكريّ، أشباحٌ بالآلاف تشهرُ سيوفها ورماحها وبنادقها وهي تردّدُ أناشيد غاضبة. إضافةً إلى أنّ بعض النّجوم المعلّقة في الظّلام تتحوّل عيونًا قاسية.

لاحظت «العين الكبيرة» أنّ الفراغ استوطنته الوجوهُ الصّارخة فخفضت من صوتها وهي تقول:

- لقد أعطيتكم ثلاثة كتبٍ ولكن عليكم أن تقرؤوها، أعني أن تقوموا بتحليلها وتفكيكها وتقييمها وأن تعطوها الحياة بما تكرّسونه لها من وقتٍ واهتمام. إنّ الكتاب يقترحُ، أمّا القارئ فينظّم. والقراءة هي ما يصنعُ جودة الكتاب.

- أنت تؤكّد هذا؟

- بالطبع. عندما يتحدّث البعضُ عن كتبي، أشعرُ بأنّي ارتكبتُ حماقةً. وعندما يمارسُ آخرون تمرين القراءة، أشعرُ بالرّاحة لأنّي ألّفتُ هذه الأعجوبة. فالرّجل السّطحيّ يجعلُ الكتاب بسيطًا، بينما يضيف إليه الرجل العميقُ كثيرًا من العمق. إنّ الكتاب يشبه فندقًا إسبانيًّا: كلّ زبون يأتي بغدائه.

- كالعادة، إذا كثرت حالات سوء التّفاهم، تتفصّى أنت من المسؤوليّة!

- سوء الفهم يرتكبه من لا يسمع، أليس كذلك؟

- سألخّصُ حجّتك: أنت تكتبُ بشكلٍ جيّدٍ ونحنُ نقرأ بشكلٍ سيّئٍ.

- إنّ القراءة السيّئة لا يُقصد بها رمي الكتاب، بل تعني أن يأخذ المرء النصّ كأمرٍ مسلّم به، أن يبتلعهُ نيئًا دون أن يمضغه بعقله. فالقراءة الجيّدة تفترضُ ضمنيًّا اتّخاذ مسافةٍ نقديّةٍ.

- ماذا؟ الربّ يوصي البشر باتّخاذ مسافة؟

- لو لم أطلب منكم هذا فمن سيطلبه منكم؟ إنّ أولئك الذين لا يعلمون سيصبحون أصوليين. وسيتكاثرونُ ويستقطب بعضهم بعضًا. أنت نفسك التحقت بهذا القطيع الصّاخب.

- أنا؟ أنا، أصوليّ؟

- حتمًا. أنت تتحدّثُ كمتعصّبٍ.

- أنا!

- أنت تمسك بالكتاب المقدّس وتحرّم على نفسك التفكير، إلّا الإسلاميّ الذي يقتطعُ آياتٍ من القرآن ويطبّقها بذريعة أنّها تخرجُ من الفم الإلهيّ يتصرّفُ مثلك: لا يمارسُ إرادته الحرّة.

- أن نختار بين سور الربّ هو حقًّا أمرٌ يصدمني.

- أنت تجيب مثل أصوليٍّ ملحدٍ. فمع أنّك لا تعتقدُ في الربّ تحلمُ به قويًّا وواضحًا. يا لها من سذاجةٍ! بل يا له من انحطاطٍ! أنت لا تكفر بالرّب فحسب وإنّما تكفر بحريّة الإنسان.

- لقد قلت في القرآن: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾[1].

- لا ريب فيه بالنّسبة إليّ. لكنّي آملُ أن يثير شكّك.

- إذا كان علينا أن نفسّر كتبك، فلماذا نلتجئ إليك؟ ليس لنا إلاّ أن نؤلّف كتبنا نحن.

- وهذا ما تفعلونه. لا توجد مكتبةٌ واحدةٌ قادرةٌ على استيعاب مليارات الكتب التي ألّفتموها.

يحيطُ الضّبابُ بالبعيد. ثمّة ملايين من الوجوه تحيط بنا، وجوه عرفت الكراهية والأوبئة والآلام والجهل والجوع والشدّة والهرطقات والعبوديّة والإبادة بالغاز ومحاكم التفتيش والموت المفاجئ والموت ظلمًا. تصلنا صرخاتها بكلّ اللّغات.

نحاولُ التركيز كي نستكمل محادثتنا. تتوهّجُ داخل «العين الكبيرة» انعكاساتُ نهاية العالم.

(1) سورة البقرة الآية 2: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

- في الواقع، لقد أوجدت مؤلّفاتي الثلاثة حالات من الغموض والالتباس والاشتباه والفوضى. في كلّ مرّة كنت ألتمس ذكاء الشّعوبِ وفي كلّ مرّةٍ ترفضُ غالبيّتها ذلك. صغيرٌ هو عدد الذين يفكّرون. من خلال معاينة الواقع، أرى أنّك كنت على حقّ فيما ذكرته قبل قليل: لعلّي أخطأت؟

- متى؟

- عندما خلقتُ الإنسان حرًّا. ربّما كان عليّ تعديلهُ بمنظومة من الغرائز مثل الحيوانات، فلو فعلت لما كنّا نتخبّط في هذه الورطة.

- لو لم تخلق الإنسان مستقلاً، لما شعرت بالرّغبة في الكتابة.

- مع كلّ كتابٍ لي، كنت أحاول إرشادهُ وجعله أفضل. لكن للأسف، يظلّ الإنسانُ عصيًّا على الإصلاح.

- هل يهيمنُ أحد نصوصك على البقيّة؟

- لا، لن أقول ذلك مطلقًا!

يرتجفُ صوت «العين الكبيرة» في الظلّ، ويغطّي على الأصوات الصّاخبة الكثيرة. فتتجمّدُ الأرواحُ من حولنا في أماكنها متفاجئةً. ثمّ تحدّقُ «العين الكبيرة» فيّ وتقول:

- أنت تسألني، على وجه الدقّة: هل ثمّة واحدة من دياناتي التوحيديّة أفضل من البقية؟

- نعم.

- أيّها لا يقفُ بمنأى عن الغباء. وأيّها ليس بمنأى عن الذّكاء. في كلّ ديانةٍ، سيجدُ الكسولُ ما يبحث عنه، أي أسوأ ما فيها. وفي

كلّ ديانةٍ، سيجدُ المتنبهُ ما لا يبحثُ عنه، أي أفضلَ ما فيها.

بينما تحتجبُ «العين الكبيرة» أسأل:

- هل أنت بصدد إعداد كتابٍ رابعٍ؟

- لن أكتب مجدّدًا يا أوغسطين. إنّي أضعُ حدًّا لمسيرتي الأدبيّة. فعندما ألّفتُ كتابًا، فعلتُ ذلك كي أخلق علاقةً. وعندما ألّفتُ ثلاثةً، فعلتُ ذلك كي أخلق بصيرةً. لكن لم يكن لديّ قرّاء في مستوى مشروعي.

- لا تقل هذا... أنت تبالغ.

- لم يفهموا شيئًا من كتبي. إنّهم يطبعونها ويبيعونها ويشترونها ويرجعون إليها لكنّهم يقرؤونها كيفما اتّفق. أنا أتألّمُ لحال الإنسان!

تختفي «العينُ الكبيرة» فجأةً وتختفي معها جحافلُ البؤساء. ينفتحُ الفراغُ اللاّنهائيّ تحتي، أسقطُ، أصرخُ... وأقعُ فوق أرضيّة المطبخ المشعّة وذراعاي متصالبتان.

وعلى امتداد الجدران والأثاث يتردّدُ صدى جملة «العين الكبيرة» الأخيرة مُنسحقًا ومبعثرًا ومهموسًا:

- أنا أتألّمُ لحال الإنسان!

-18-

تُعملُ الشمس منشارها في رأسي. في السّابق، لم أكن ألاحظ أنّ أشعّة الشمس تمزّق الأجساد وهي تصدرُ صفيرًا فظيعًا. وها إنّها تجرحُ صدغي الأيسر، وتصرُّ على ذلك. إنّها تكرهني.

أتلوّى على جانبي كي أتفاداها.

أنا الآن بعيدٌ عن مرمى مديتها. لقد نفذتُ بجلدي.

يرتفعُ جفناي.

أين أنا؟

من قماشٍ شمعيٍّ ضخم، ذي ألوان مُحَدِّرةٍ، كان مطروحًا أمامي تخرجُ همهماتٌ وقرقراتٌ وأنّاتٌ. ثمّة روائح مختلفة تهاجمُ جيوبي الأنفيّة، بعضها نفّاذ، وبعضها الآخر ثقيل، فيها زناخة ونتانة وعفن، وجميعها تثيرُ الاشمئزاز. ثمّة أيضًا عنكبوتٌ يقفُ غير بعيدٍ عن وجهي. عنكبوتٌ ضخمٌ ولزجٌ يجثمُ، بجسده اللّحيمِ وقليل الشّعرِ، متأهبًا للانقضاضِ عليّ. أرتجفُ من الخوف. وإذ أحاولُ إبعاده أدركُ أنّه لم يكن سوى يدي اليمنى.

يرنُّ الجرسُ.

يخرجني هذا الصّوت المألوفُ من خمولي ويعلنُ عودتي إلى حياتي

اليوميّة. أنهضُ من رقدتي. وما إن أتكئ حال اتّكائي على الأرضيّة كي أجلس حتّى أكتشف أنّ أطرافي المتصلّبة ثقيلة جدًّا.

أين أنا؟

أنظر حولي فإذا بمطبخ صحيفة الغد في حالة فوضى عارمة وقد انتشرت بين الأثاث المقلوب بركٌ من القيء والبول والبراز وشظايا مختلفةٍ لأوعيةٍ وكؤوسٍ وصحونٍ. أميلُ نحو القماش الشمعيّ فأميّز أمّ كلثوم في فستانها المزيّنِ بصور الأدغال. إنّها تشخرُ مثل خنزيرٍ بينما تسيلُ من فمها خيوطُ لعابٍ سميكةٌ وتُضفي عليها مساحيقها التي فسدت سحنةَ من تعرّض للضرب، أمّا بطنها فيُصدر أصوات مواسير بصدد التفريغ.

يرنُّ الجرسُ مرّةً أخرى.

يا للكارثة! إنّ غرفة المطبخ تبدو كالمستنقع. لقد قلَبنا، أنا وأمّ كلثوم، المكان رأسًا على عقب تحت تأثير الأياهواسكا.

أفشلُ في النّهوضِ ولكنّي، وقد عقدتُ العزم على التصرّف كما لو أنّ شيئًا لم يحدث، أستجيبُ لصوت الجرسِ وأزحفُ للوصولِ إلى قاعة الاستقبال. أتفادى بعض برك القيء وأنا أعبرُ الممرّ وأواصلُ جرّ جسدي الذي يبدو كأنّه غارقٌ تحت طبقات كثيفة من القطران.

يعاودُ الجرس الرّنين.

كلّ سنتمتر أقطعه يجهدني أكثر.

– نعم، نعم، أنا قادم...

يذهلني صوتي، الرّخو والمرهق، وصداه يتردّدُ في كلّ مكانٍ دون

لا أعرف من أين يخرج.

أقومُ بدفعةٍ أخرى. ها أنا الآن مستلقٍ أمام الباب الأمامي.

- من؟

- إنه أنا يا أوغسطين، أنا شميت.

أتنفّسُ الصّعداء. وأنا أسمعُ صوت الكاتب، أتخيّلُ لو أنّ بيغارد أو زميلاً أو رجل شرطة، هو من يدقّ الجرس مكان شميت الذي يبقى قدومهُ أقلّ المفاجآت السيّئة وطأةً.

أشعرُ بخوفٍ مُتأخّرٍ.

- هل أنت بخير؟، يسألني من وراء الباب.

- نعم... لقد تمكّنتُ من جرّ نفسي إلى هنا.

- هل أنت قادرٌ على فتح الباب؟

- أوه، أوه... إنّ حالتي سيّئة للغاية. لا أستطيعُ الوقوف على قدميّ. لقد حطّمنا كلّ شيءٍ وأفسدناه، أنا وأمّ كلثوم.

- أمّ كلثوم؟

وأنا أهمّ بوصف أمّ كلثوم ينتابني إرهاقٌ مفاجئٌ وأقمعُ رغبتي في التقيؤ مجدّدًا فألوذُ بالصّمت. ماذا لو نعستُ قليلاً...

- افتح الباب يا أوغسطين! سأساعدك على ترتيب المكان.

- حسنًا.

من المؤكّد أنّي أذعنُ لكلّ شيءٍ هذا الصّباح: الأوامر أو جرس الباب...

بتركيزٍ أخرق، أحاولُ الوصول إلى القفل، معتمدًا على نفسي أولًا، ثمّ مستعينًا بحامل المظلاّت قبل أن أستنجد بمقعدٍ صغير في منتصف المحاولة -وقد ارتحتُ قليلاً وأخذتُ نفسًا عميقًا- وأتمكّن من فتح الباب أخيرًا.

- ها هو يفتح!

- هل يمكنني دفعُ الباب؟

- انتظر.

أتركُ نفسي أقعُ على الأرض وأبتعدُ مسافةَ مترٍ عن الباب زاحفًا على ظهري، ومفتونًا بالبراعة التي أظهرها مع كلّ حركة بهلوانيّة أقوم بها.

يظهرُ شميت من وراء الباب وينظرُ إليّ. تتّسعُ عيناه من الذّعر وترتسمُ على وجهه تكشيرة إذ يشمّ الرّائحة الكريهة فيعضّ على شفتيه قبل أن ينحني في اتّجاهي ويسألني:

- بماذا تشعر؟

- بالألم.

- بالألم؟

- في كلّ مكان.

- هل أنهيت الرّحلة؟

- نعم.

- هل قابلته؟

- نعم.

يضع شميت يده على فمي.

- لا تقل أيّ كلمة!

يبتسم وعيناه مبتهجتان، ثمّ يشرح لي بصوت حازمٍ:

-لا تقل شيئًا. أريدك أن تكتب ما عشته. احتفظ بهذا لنفسك.

يدير رأسه، ويلقي نظرة على المكاتب والممرّات.

- أين فَعلتَ ذلك؟

- في المطبخ.

- هناك؟

- مع أمّ كلثوم.

- إمم... حسناً، سأعتني بكلّ شيءٍ. لقد جئت من أجل ذلك. عندما تلقّيت رسالتك الإلكترونية في اللّيلة الماضية، خمّنتُ أنّك ستكونُ بحال سيّئة هذا الصّباح.

تنزلق يدا شميت تحت إبطيّ، يرفعني، ثم بحركة قويّة، يأخذني بين ذراعيه فأستسلمُ وكأنّي باقةٌ من الزّنابق. يضعني فوق أريكة تحاذي المطبخ، ويدخلُ إلى هناك.

- ما هذا بحقّ الربّ!

أضحكُ لانزلاقه في إحدى البرك القذرة. ها هو الآن يقترب من القماش الشمعيّ الملوّن الذي يصدر الأصوات.

- ماذا؟

يعودُ ناحيتي ويهمسُ شاحبًا:

- هل هذا الشيء... هو أمّ كلثوم؟

أشعر بحمحمةٍ داخلي تلوي أمعائي، فأطلقُ شهقةً.

ودون أن ينتظر شميت إجابتي يمسكُ بممسحة هاتفًا:

- إلى العمل!

أعجزُ عن مساعدته لمعاناتي من العرق الغزير والطّنين في أذنيّ، ويبدو أنّه تفطّن إلى ذلك فانهمك في عمله راكضًا بين المطبخ والحمّام بدلائه، ماسحًا الأرضيّة وفاركًا وداعكًا ومطهّرًا ومُجفّفًا قبل أن يفتح النّوافذ ويعطّر الغرفة.

يستعيدُ المكانُ مظهره العاديّ.

يركعُ شميت بالقرب من أمّ كلثوم ويربّتُ على خدّيها المترهّلين.

-سيّدي... سيّدي... استيقظ أرجوك... سيّدي... هل تسمعني... سيّدي؟

تتوقّف أمّ كلثوم عن الشّخير، إذ ينقطع تنفّسها مرّتين وهو ما يُنذر بالخطر، ولكنّها لا تجيب.

- هل هو في غيبوبة؟

- ليس «هو» بل «هي».

- آه...

- لطالما بَدَتْ أمّ كلثوم وكأنّها في حالة سباتٍ وهي مستيقظة. لذا أرى من الطبيعيّ أن تكون هكذا وهي نائمة.

- ساعدني على إنعاشها.

أتكئ على كتف شميت وننحني فوقها.

- أمّ كلثوم! أوه أوه!

ولكنّها لا تستجيب. أرى جهاز تشغيل الموسيقى الخاصّ بها موضوعًا على رفّ بجانب الحوض فأشير إلى شميت:

- شغّل لها أغنياتها المُفضّلة.

يمسكُ شميت بالجهاز ويعالج الأزرار إلى أن تصدح أغنية «غنّيلي شويّة شويّة».

تفتحُ أمّ كلثوم جفنيها سعيدةً.

أنحني نحوها.

- بماذا تشعرين؟

- بالصّداع.

- لا غرابة! لقد سقط هرمٌ فوق رأسك.

تتّسع حدقاتها برهة ثمّ تفهم الدّعابة فترتسم ابتسامةٌ فوق شفتيها. أربّتُ على كتفها وأقول:

- أمّ كلثوم، أخشى أن تكوني شربت منقوع حشائشي بالأمس.

- واو! إنّها بضاعة جيّدة، ومن الصّنف الأوّل.

تضحك.

- هل تستطيعين النّهوض؟

تمرّر الأمر إلى عضلاتها ولكنّها لا تستجيب فتوجّه إليّ إيماءة أسَفٍ، تشبه إيماءة طفلٍ مذنبٍ، ثمّ تنفجرُ ضحكًا.

يتدخّل شميت:

- يجب أن تغيّر ملابسها. إنّ فستانها متّسخٌ.

تدركُ أمّ كلثوم حجم الأضرار وتشيرُ إلى صورة أحد الأسود فوق فستانها وقد تلقّى في فمه قطعة كعك خرجت من قيئها وتصرخُ قائلةً:

- لقد كان جائعًا، هو الآخر!

ثمّ تضحك. وأضحكُ أنا أيضًا. قبل أن تسيطر نوبةُ الضّحك علينا معًا. بل ها هي أمّ كلثوم تضحكُ وتبكي في آنٍ واحد. يحملق شميت فينا بدهشة.

عندما نهدأ -بفعل الإرهاق أكثر ممّا هو بفعل انعدام السّرور- يكشفُ لي شميت عن سرّ قلقه:

- يجب ألاّ يجدكما أحدٌ في هذه الحالة. هيّا، لنغادر!

في تلك اللّحظة، يُسمعُ صوتُ مفتاحٍ يدور في قفل الباب الأماميّ. أرتجفُ.

- إنّه بيغارد!

أعرفُ تلك القرقعة التي تحدثها حاملة مفاتيحه، وطريقته في دفع مصراعي الباب وسحب المشجب نحوه.

أوشوشُ بسرعةٍ:

- كم السّاعة الآن؟

- إنّها السابعة صباحًا.

- لم يسبق له أن قدم في مثل هذه السّاعة المبكّرة...

- الأمر اليومَ مختلف فالأحداث الإرهابية التي شهدتها اللّيلة الماضية...

- ماذا؟

أقفُ مذهولاً. ولكنّ شميت لا يمنحني الوقت كي أعبّر عن ذهولي:

- أين سنختبئ يا أوغسطين؟

- أرجو المعذرة؟

- أنت وأمّ كلثوم وأنا؟

- لقد قُضي علينا...

فجأةً، تُظهر أمّ كلثوم سرعة بديهةٍ مُذهلةٍ:

- اختبئ في حجرة المؤونة وَسأبقى أنا خارجًا.

- لا، سيطردك.

- هيّا اختبئ!

أمسكُ شميت من ذراعه وأدفعهُ نحو مخزن القوارير الذي نستخدمه أيضًا لوضع القمامة. وبينما خطوات بيغارد تقتربُ منّا، وهو أمرٌ ينذرُ بالخطر، أتمكّن من إغلاق الباب في الوقت المناسب. وما إن يحلّ بيغارد بالمطبخ وهو يُدندن لحنًا حتّى يقول:

- أريدُ قهوةً سريعةً.

تتوقّف دندنته المرحة. من المؤكّد أنّه رأى أمّ كلثوم مستلقيةً على الأرضيّة.

- ماذا تفعلين هناك؟

- أرتاح.

- لا يسمحُ لك بالنّوم هنا! ما هذه الرّائحة؟ ولكن... هل تقيّأت على الأرضيّة؟ أوه، يا لك من قذرة! هي لا تنام بل ترتاحُ بعد أن أفرطت في الشّراب!

وإذ تلتزم أمّ كلثوم الصّمت يضغطُ الغضب على حلق بيغارد:

- اخرجي! أنت مطرودة!

- لا.

- فات أوانُ هذا، أنت مفصولة!

- لو أطردتني، سأقول كلّ شيء.

يخيّمُ صمتٌ مطبقٌ على الغرفة. ثمّ تستأنفُ أمّ كلثوم حديثها بلهجةٍ بطيئةٍ وحازمةٍ:

- سأخبرُ الشرطة بما كنتُ قد أخفيتهُ عنهم. وسأعترفُ أيضًا بما توسّلت إليّ أن أخبرهم به.

يخيّم الصّمتُ مرّةً أخرى قبل أن يقطعه بيغارد وهو يقول بلينٍ:

- حسنًا، لن نصلَ إلى درجة إحراج أحدنا الآخر. لن أفصلك. فبفعل المفاجأة... والغضب... لم أتمالك نفسي. ثمّ إنّي كنتُ أمزحُ معك! هيّا انهضي. حفاظًا على كرامتك، لا أريدُ أن يراك الآخرون في هذه الحالة...

- بل لتحافظ على كرامتك أنت! كم مرّةً تساءلوا عن سبب احتفاظك بي...

يسعلُ بيغارد ثمّ يقولُ بنبرةٍ واضحةٍ، متضاحكةٍ وشبه مُطمئنّةٍ:

- هل تريدين أن أساعدك على النّهوض؟

- دعني وشأني.

ينبري بيغارد يُغنّي بمرحٍ، يشغّل آلة القهوة ثمّ يبتعد إلى داخل الصّحيفة، وهو يصفّرُ مختالاً بطريقةٍ متبجّحةٍ. إثر ذلك يدخل مكتبه ويُغلقُ الباب وراءه.

بعد بضع ثوان، أهمسُ في أذن شميت:

- الطريقُ آمنة.

أدفعُ مصراعَي الباب عائدًا إلى الغرفة، وأنا أتقدّم أتعثّر في أحد المقاعد فتضع أمّ كلثوم إصبعها على فمها لتذكّرني بضرورة التزام الصّمت، ثمّ نمرُّ أمامها، أنا وشميت، على رؤوس أصابعنا.

عند فرجة الباب، تقفُ الصّبيّة الصّغيرة ذات الضفيرتين.

- صباح الخير يا أوفيليا.

ما إن ألقي التحيّة حتّى يهمس شميت مُتسائلاً:

- لمن تتحدّث؟

أُفهمه بإشارةٍ من يدي أنّي سأشرحُ له ذلك لاحقًا.

تحدّقُ أوفيليا بإعجاب في أمّ كلثوم الرّاقدة على الأرضيّة المشمّعة مثل حوتٍ يلهثُ فأسألها:

- هل تعرفينها؟

تقطّبُ جبينها، تحرّك أنفها وتعضّ شفتها السّفلى.

- لا...

تستديرُ نحوي وهي تضيّقُ عينيها وتُضيف:

- ولكنّي عرفتُ أخاها.

بعد عشرين دقيقةً، أجلسُ وشميت متواجهين، حول طاولة في إحدى الحانات، مُستمتعين بوجبة إفطار شهيّة. يهاجمني نور الشمس مرّة أخرى، حتّى وأنا أنتحي ركنًا ضليلاً، فأشعرُ بأنّ عقلي مبعثرٌ وأنّ آلام رأسي تعمّقت من سكري.

تهتزُّ الحانةُ بمشاعر السّخط والتنهّدات. ينتقلُ هاغارد -مالك الحانة- من طاولةٍ إلى أخرى وهو يبدو مُنشغلاً بمناقشة الأحداث مع زبائنه أكثر من انشغاله بخدمتهم. وكلّ شخصٍ هنا يشعر بأنّ الأحداث تجاوزته.

أخبرني شميت للتوّ بأنّ الحرائق الإجراميّة اجتاحت شارلوروا أثناء اللّيل، وبأنّه وقع افتعالها بطريقة يدويّة تتمثّل في تعبئة قوارير الجعّة بالوقود، ومع ذلك فإنّ تنوّع الأهداف كشف عن ذهنيّة شديدة العنف، إذ وقع استهدافُ كنيسةٍ ومعبدٍ يهوديٍّ وجمعيّة علمانية والفرع المحلّي لمنظمة العفو الدوليّة. وبذلك لم يترك الهجوم الإسلامي أيّ شكٍّ في هويّة مُرتكبيه حتّى والسّلطات تواصل انتظار بيانٍ يتبنّى العمليّات. طبعًا من حسن الحظّ أنّ الهجومات لم تسفر سوى عن خسائر ماديّة، دون تسجيل أيّة إصاباتٍ باستثناء ما لحق رجال الإطفاء أثناء تدخّلهم، ولكنّ الأضرار الرمزّية ما تنفكّ تتضخّم.

حولنا في المقهى، أرى وميضًا جديدًا ينبثق من النظرات، وميضًا يعكسُ الحذر والقلق والغضب. وبعد أن كان السّكّان أناسًا ميّالين إلى عدم التّصديق، تحوّلوا إلى مرتابين. وبقدر ما أحدث الانفجارُ الذي هزّ ساحة شارلوروا موجةً من الأخوّة الحارّة، صار الخوفُ الآنَ يلتهم

[قل]وب السّكّان. فأمام الهجوم الإرهابيّ الأوّل، أظهر أهالي المدينة [تض]امنهم وأعلنوا أنّ حقد الإرهابيين لن يلوّث أرواحهم مؤكّدين [تمس]كهم بقيمهم الإنسانيّة أو المسيحيّة، ولكنّهم الآن، بعيدًا عن المطالبة بالسّلام، يستعدّون لشنّ حربٍ على عدوّ خبيثٍ وجبانٍ، عدوٍّ بإمكانه أن يضربهم في أيّ لحظةٍ.

يبعدُ شميت صحنه بحركةٍ من يده وقد تجهّم وجهه.

- إنّ ما يهدّدنا أكثر هو ما لا نعرفُ كنهه. فالخوف يتغذّى على المجهول. هل في وسعك أن تفهم دوافع غلامٍ من شارلوروا لم يعبر الحدود يومًا، كحسين بدوي، وهو يرتكبُ مذبحةً باسم معارك تدور رحاها في سوريا ومصر وبلدان لا يعرفها؟ كيف لا أفزعُ أمام ذلك الذي يختارُ أهدافه بشكلٍ عشوائيٍّ؟ ليس مهمًّا أن يكون المرء شابًا أو شيخًا، مسيحيًّا أو ملحدًا أو مسلمًا، صالحًا أو منحرفًا أو عبقريًّا، يكفي أن يكون فرنسيًّا أو بلجيكيًّا كي يصبح فريسته. بل وأسوأ من ذلك، يكفي أن يكون موجودًا هنالك، حتّى على سبيل الصّدفة ليغدو هدفًا. هل في مقدورك أن تفسّر لماذا يفسدُ شخصٌ حياته لينهي حياة الآخرين؟ ولماذا يقبل على الموتِ بكلّ هذا الغضب أكثر من إقباله على الحياة؟ إنّ المتعصّبين ينتصرون يا أوغسطين. والرّعبُ هو ألاّ نفهم شيئًا من كلّ هذا.

يواصلُ شميت تعليقه الجنائزيّ بصوتٍ مهتزّ:

- ها قد دخلنا زمن الارتباك. فبمهاجمتهم للمسيحيّة واليهوديّة والجمهوريّة، يولّدُ المتطرّفون الإسلاميّون حالةً من الرّيبة المنهجيّة بخصوص منزلة الإسلام.

- مع ذلك، لا يوجدُ إسلامٌ واحد.

- اشرحْ هذا للنّاس! إنّهم لا يستمعون إلاّ لذلك الذي يتكلّم بصوتٍ عالٍ، أي لصوت المتطرّف الإسلاميّ. لقد حسبها المتطرّفون جيّدًا! ستتراجعُ مجتمعاتنا نحو الظلاميّة والقطعيّة والتحجّر الفكريّ، بدل التكيّف بمرونة مع الحاضر. تسحقنا صدمات الأيّام الأخيرة تحت وطأة المخاوفِ والمعاناة. إنّ رحلتنا نحو الجحيم تنطلق. لن يردّ النّاسُ على الألم بالتّسامح. ليس الآن. وسواء تعلّق الأمرُ بنا أو بالمسلمين، سيسقطُ النّاسُ داخل الهوّة الغبيّة نفسها: العودة إلى الوراء وصناعة المستقبل بأدوات الماضي. سيصبح الحنينُ إلى الماضي دمويًّا. وبينما يتعيّنُ علينا أن نكبر داخل الإنسانيّة كي نتعلّم قيمة العيش المشترك، سنخفّضُ من سقف مطالبنا. إنّ الحياة الإيمانيّة، التي بإمكانها وحدَها أن تجلب لنا كثيرًا من الحكمة والانفتاح، ستتحوّل إلى ساحة حربٍ، وسيشتعلُ التنافسُ بين الدّيانات.

- لم يسبق للتّنافس بين الدّيانات أن دمّر الربّ قطّ.

- لكن في مقدوره أن يُدمّر البشر. إنّ زمن الحروب يشارفُ على النّهاية. خلال الألفيّات السّابقة، وأثناء أسوإ الفظائع المرتكبة، استمرّت بقيّة من ذكاء في قلب الفوضى، هي القواعد. قواعدُ الحرب، ذاك ما أنقذ البشريّة من البشر، حتى وهم ينحدرون إلى أخبث ما فيهم وأسوئه. أمّا الآن، فالخطر يجثمُ في كلّ مكانٍ، بلا أعداء يمكنُ رؤيتهم وبلا قوانين، حتّى إنّنا بصدد بلوغ نقطة يصبحُ معها انقراضنا ممكنًا.

- تقصدُ مَا أخبر عنه الكتاب المقدّس؟ نهاية العالم؟

- نعم. نحنُ سندمّرُ أنفسنا إذا لم ننبذ العنف. لا يوجدُ شيء يتناسلُ سريعًا مثل العنف. إنّه أشبه ما يكون بمرض السّرطان، فكما يُضاعف ذاك من الخلايا السرطانيّة والأورام، يُوسّع هو من حلقات الثأر والعقاب والعمليّات الانتقاميّة...

- ماذا نفعل؟ هل نتفاوض؟

- لا تفاوض مع التّهديد.

- إذن؟

- إنّ مصيرنا في أيدي أولئك الذين يثيرون، للأسف، تحفّظ الجميع: المسلمون. يتوجّب عليهم أن يبرزوا دون عُقَدٍ ويعارضوا المتطرّفين الإسلاميين، وأن يظهروا القيم التي يتقاسمونها مع غير المسلمين. وعلى الفنّانين والمفكّرين والصّحفيّين، من كلّ حدبٍ وصوبٍ، أن يساهموا في توعية النّاس. فالأزمة الروحيّة لن تحلّ إلاّ روحيًّا.

أميلُ نحوه وأسأله بصوتٍ خافتٍ:

- هل تريدُ أن أخبرك بفحوى لقائي مع الربّ؟

- هذا ممّا لا سبيل إليه. عليك أن تكتبها. أن تكتبها لا غير.

- لماذا؟

- لأنّ الأمر المهمّ يجب أن يجد بابًا، بابًا واحدًا، ولو ضيّقًا، للتعبير عن نفسه. وعليك أن تختار باب الكتابة. فعندما تكشفُ عن القصّة بطريقة شفاهيّة، أنت تضعها أمام خطر التّبسيط والتّقليل

من الأهمّية، بل والفقدان.

– رغم ذلك، يبدو لي...

– الكتب التي تحدّثتُ عنها لم أؤلّفها. عندما كنتُ أحدّثُ أقاربي عن رواياتي، كان حديثي يتحوّل إلى مقبرةٍ لها دون أن أدرك ذلك.

– إلى هذا الحدّ؟

– أولئك الذين يعلنون أنّهم سيكتبون، لا يكتبون مطلقًا.

يشرعُ في شرب قهوته الثّالثة.

– متى تنهي تدرّبك في صحيفة الغد؟

– بعد عشرين يومًا.

– كم تجني من هذا التدرّب؟

في كلمات قليلة، أفضحُ حقيقة تدرّبي، ومجّانيّتهُ، وافتقاره المحتمل للآفاق المهنيّة، ومتاعبي المادية. فيضربُ شميت على الطاولة ويقول:

– سأدفع لك ألفي يورو مقابل أن تكتب لقاءكَ مع الربّ.

– هل أنت جادّ؟

– بل أنا نصيرٌ. أأنت مرتاح في منزلك بشكل يمكّنك من العمل؟

هل سأعترفُ له مرّةً أخرى بالحقيقة؟

منذ اليوم الأوّل، كانت الصراحةُ أسلوبًا ناجحًا معه، لذلك أجدُني أجيب:

– أنا أقطنُ الأماكنَ المهجورة.

يتراجع شميت بكرسيّه، ينظر إليّ، ويلقي نظرتين أو ثلاثًا حوله كأنّه يبحث عن موافقة من أشخاص وهميّين ثمّ يقول:

- ستسكن في غيرمانتي لمدّة شهر. ثمّة بيتُ ضيافةٍ -ملحقٌ بالقصر- وقع تشييده في نهاية الحديقة. ستتمتّع بالاستقلاليّة التّامّة، وسيكون بإمكانك أن تطهو طعامك هنالك. أمّا أنا، فسأعيشُ في منزلي، لكنّني غالبا مّا أتغيّب لكثرة سفري، لذلك لن أزعجك. وفي المُقابل أطلبُ منك ألاّ تزعجني. من ناحية أخرى، عليّ أن أحذّرك، بعد شهرٍ واحدٍ ستحصلُ على الصكّ وتغادر. هل أنت موافق؟

يرفع صوته متظاهرًا بنوعٍ من التجهّم العدائيّ لإخفاء لطفه.

أضربُ راحتهُ الممدودة إليّ.

- شكرًا لك.

- لقد شكرتني مرّةً، ولا داعي إلى أن تكرّر ذلك بعد الآن. اجمع أمتعَتَكَ. سأعود إلى هنا في السّادسة مساءً.

يمدّ لي ورقة ماليّة من فئة الخمسين أورو.

- خذ، هذه سلفة على مرتّبك.

أضع المال في جيبي، وأمتنع عن شكره لأنّ ذلك يزعجه ثم أسأله:

- هل تفعل كلّ شيء بهذه الطريقة؟

- كيف بهذه الطريقة؟

- أعني بهذا الحزم! لقد رأيتك تنظّف المكاتب هذا الصّباح، كنت شديد التركيز وكأنّ حياتك تتوقّفُ على ما تفعله.

- أنا منشغلٌ باستمرار، يقظٌ ومتأهّبٌ. ولا أتحرّكُ إلاّ استجابةً لأحد أمرين: العملِ بجدٍّ أو النّوم. ودائما ما تكونُ ذاكرتي وانتباهي في حالة تأهّبٍ قصوى، حتى وأنا ألعب الورق، أو أناقشُ موضوعًا بحماسةٍ، أو أُشاهد مُكرهًا عرضًا مسرحيًّا تافهًا.

- منذ صباح اليوم وأنت تهتمّ بي كأنّك إزاء مسألة حياةٍ أو موت.

- كلّ شيءٍ هو مسألة حياة أو موت!

يمسكُ ذراعي براحته العريضة الدّافئة.

- إنّ الحياة يمكنُ أن تنتهي بين لحظة وأخرى يا أوغسطين. قد يبدو لك الحاضرُ قويًّا، ومع ذلك فإنّه ينكسرُ بأسهل من انكسار شعرة. شريانٌ ينسدُّ... عرقٌ ينقطع... دمٌ يتدفّق في الدّماغ... سقوط... قنبلة... سكّيرٌ يُمسكُ بالمقود...

- هل تُفكّر في ذلك؟

- أنا لا أُفكّر في ذلك، ولكنّ أفكاري تتقاطعُ على هذه الخلفيّة.

- هذا أمرٌ محزن.

- بل هو أمرٌ مبهجٌ، ومحفّز ومفعمٌ بالحيوية.

- لا يوجدُ داعٍ لاستعجال الموت.

- ولكن يوجدُ داعٍ لاستعجال الحياة. لقد مات أشخاص كثيرون أحببتُهم، ولهذا لن أترك ثانيةً واحدة من هذه الحياة تتعفّن. إنّ شعاري هو العملُ بجدٍّ وسرعةٍ وإنجازُ أشياء كثيرة.

يبدو واضحًا أنّ حيويّته مُستمدّةٌ من هذه القناعة، فالعملاق يحصل على طاقته من إحساسه بهشاشته الشديدة. أفكّر في المرأة المتفاجئة، تلك

المرأة الميّتة التي ترافقه وسبق أن روى لي قصّتها. هل خمّن ما أفكّرُ فيه؟ تنتفخُ عروق رقبته، وتلتمعُ عيناه من الانزعاج، وأشعر أنّه سينهالُ عليّ ضربًا.

- أنا آسف يا سيّد شميت، لقد أغضبتك.

- لطالما أغضبني أن أبرّر ما أنا عليه.

يسدّدُ فاتورة صاحب المقهى.

وأنا أرتدي معطفي الواقي، أستديرُ نحو الشّارع وأشيرُ بإصبعي إلى رجلٍ طويلٍ ونحيلٍ، يقفُ على مسافة عشرة أمتار عند الرّصيف، مُستندًا إلى شجرة وموجّهًا نظراته إلينا.

- ذلك الرّجل، هناك، هل تعرفه؟

يلقي شميت نظرة مشتّتة عبر بلور النافذة.

- أين؟

- هناك؟

ما إن أشير إلى الرّجل ذي العينين الرماديّتين حتّى أكتشف اختفاءه، من المؤكد أنّه أدرك مراقبتي إيّاه.

- هذا غريب. لقد كان يراقب الصّحيفة هذا الصّباح إبّان خروجنا. ثمّ أجده هنا! إنّ عينيه الرّماديتين تبدوان لي مألوفتين. هل رأيتهما بالأمس؟ وهل حدث ذلك أوّل أمس أيضًا؟

يميل شميت باهتمامٍ مُتفاديًا انعكاسات الضّوء الحاجبة لمجال رؤيتنا علّه يرى الرّجل المجهول الذي اختفى. ولكن دون جدوى... يخفض جبينه ويقولُ مداعبًا:

- حسب رأيك، من كان يراقب؟ أنت أم أنا؟

أردّ على الفور:

- أنا!

يرفع شميت أحد حاجبيه، متفاجئًا من حدّتي مَعَ أنّه كان يمزح.

- أنت؟ لماذا؟

- لا أعرف.

يضحكُ.

- أنت تحبطني يا أوغسطين، كنتُ أعتقدُ أنّي مشهور وإذا بأحدهم يفضّلُ أن يلاحقك أنت.

أبتسمُ هازًّا رأسي دون أن أجرؤ على الاعتراف له بسبب اضطرابي. يعود عرقي الباردُ إلى السّيلان.

من يكونُ هذا الغريب ذو عيني الذئب، هذا الذي يعترضُ طريقي منذ يومين؟

هل هو الميّت الذي يرافقني؟

-19-

يجندل مومو جنودًا صينيّين على شاشة عملاقة. تتكدّسُ الجثث، ويتلطّخُ بلّور الشّاشة بدماءٍ سرعان ما تختفي فور ظهور كتيبةٍ جديدةٍ من المحاربين الهارعين بتلهّف إلى الموت. ذراعُ مومو لا ترتجفُ. إنّه يقتلُ مثلما يتنفّس.

يقفُ حسين خلفهُ، منتبهًا وعدوانيًّا، بعينه المتحجّرة وفمه المشدودِ على شكل ابتسامة تنضحُ كراهية. كان قد اكتسب وزنًا إضافيًّا، بعد أن أفاق من صدمة موته، وتضاعف حجمه وزادت قوّته. وكما لو أنّه ملاكُ الموت، يسحقُ شقيقه الأصغر بظلّه، وهو يفردُ ذراعيه كما يفعل طائر جارح يفردُ جناحيه. وكلّما ضغط مومو على الزّناد إلاّ واستحثّه حسين وحفّزهُ وصَرَخَ فيه مستمتعًا بالمجزرة التي ينفّذها من خلال أخيه.

هل يدركُ مومو السّلطة التي يمارسها أخوهُ المتوحّشُ عليه؟ لستُ متأكّدًا من هذا... إنّ هدوءهُ يخفي شيئًا من العنف وكأنّه واقعٌ تحت تأثير سحر مّا. ألمسُ كوعه قائلاً:

- هل تحبّ هذه الألعاب؟

متفاجئًا، ينتزعُ مومو نفسه من خموله القاتل ويحدّقُ في وجهي قبل أن يجيب:

- في السّابق، كنتُ أكرهُ هذا.

ينتشرُ الجنودُ الصّينيّون الآن على الشّاشة، وابتسامةٌ قاتلةٌ ترتسم على شفاههم بعد أن زالت العوائق أمامهم. إنّهم يستعيدون تفوّقهم يحتجُّ حسين غاضبًا بينما ينظرُ مومو إلى بندقية كلاشينكوف بلاستيكية ترقدُ بين راحتيْه.

- في الواقع، هذه الألعاب تسرّي عنّي الآن.

على وقعِ هذه الكلمات، يشعرُ حسين بالانتصار، ثمّ يوجّهُ بغضب حركةً بذيئةً في اتّجاه المقاتلين الصفر. حولنا، ثمّة مراهقون بالعشرات، يجلسونُ مباعدين بين سيقانهم والبنادقُ في أيديهم وهم يطلقون النّار أيضًا على مجموعةٍ من الأهداف: جنودٍ روسٍ، ديناصورات، قراصنة، مصّاصي دماء، بل إنّ أحدهم يطلق النّار على حشدٍ من المشجّعات وهو يصرخ كلّما سقطت إحداهنّ قتيلةً: «أيّتها العاهرة!». كان نادي ألعاب الفيديو ماخورًا فيما مضى. وهو يشبه بستائره الأرجوانيّة وجدرانه المصنوعة من خشب الأبنوس المغطّى بالمخمل وسقفه المزوّد بالمرايا، ذلك الماخور في كلّ شيء، باستثناء تفصيلٍ واحدٍ وهو أنّ التأوّهات تخرجُ من الآلات.

يستديرُ مومو نحوي قائلاً:

- أوغسطين، اقبلني داخل المجموعة!

- أيّ مجموعة؟

- مجموعتك، تلك التي ينتمي إليها حسين.

أخطو خطوةً إلى الوراء. ها هو الأمر يحدث مجدّدًا! إنّي أحصدُ ثمار

ملي... عندما التقينا قرب حاوية القمامة حيث كان مومو يبحثُ عن حاسوب حسين، استعرضتُ عضلاتي مدّعيًا أنّني صديق الإرهابيّ. بعد ذلك، كلّما طرح عليّ مومو سؤالاً جهلتُ إجابتَه، كنتُ أتّخذ هيئة من يعرف أكثر بكثير ممّا يمكن أن يفصح عنه. وأخيرًا، أقنعته بأنّني مسحتُ الرّسائل الخطيرة من القرص الصّلب. لا شكّ أنّ مومو، في وحدته التي خلّفها حزنه، تشبّث بهذه الفرضيّة. يثبّتُ نظراته عليّ بغيظٍ قبل أن يقول:

- هل تراني صغيرًا جدًّا على هذا؟

أربحُ الوقت وأنا أومئ برأسي. لكنّه يستطرد:

- عمري أربعة عشر عامًا. هناك من بدأ هذا الأمر قبل هذه السنّ.

- بدأ وانتهى! في السّودان، إنّهم يفجّرون أنفسهم في سنّ الحادية عشرة.

- هذا لا يزعجني. أنا جاهز.

أحاول أن أبقى هادئًا وأنا أتظاهرُ بأنّه سبق لي أن خضتُ مثل هذا النقاشِ أكثر من مائة مرّةٍ.

- ما الذي يدفعك إلى تنفيذ عمليّة؟

- أخي!

أتطلّعُ إلى حسين الواقف عند رأسه وقد عقد ذراعيه وهو يحدّقُ إلينا، مؤمنًا بتفوّقه.

- هل تراه؟

- أرجو المعذرة؟

- هل تسمعه؟

- ماذا؟ أنا أحدّثك عن حسين الذي مات.

- وأنا أيضًا.

- كيف تريدني أن أراه أو أسمعه؟

لم يكن مومو إذن يعرفُ أنّ ثمّة ميتًا يرافقه، وهو أمر يجعلهُ هشًا ويسهل التّلاعب به. أعرفُ، بخبرتي، أنّه أفضل للمرء أن يرافقهُ ميتٌ يستطيع أن يراه وأن يتناقش معه بل ويتشاجر معه، من أن يرافقه ميتٌ لا يراهُ، ميتٌ يوشوشُ في أذنه ما يجب عليه أن يفعله.

أحاولُ مواراة فكرتي السّابقة وأنا أقول بحذر:

- لقد تخيّلتُ أنّهُ كان يظهرُ، ربّما في أحلامك.

- كنتُ سأحبّ ذلك. في الحقيقة، لم أكن أعرف حسين حقًا. أدركُ ذلك الآن. لهذا السّبب أريدُ أن أسلك الطريق التي اختارها.

أتطلّعُ مشفقًا إلى المراهقِ الذي يتّبع، بدافع المحبّة، طريق الحقد. فلأنّه لم يفهم دوافع أخيه، يحاولُ أن يقترب منه عن طريق إعادة إنتاج أخطائه.

- لا أحد يهتمّ لأمري.

- هذا خطأ! أنت تعني الكثير لأمّك.

- إنّها لا تفعل شيئًا سوى البكاء.

- البكاء على حسين؟

- نعم.

- هل تتمنّى أن تبكي عليك؟ بل أكثر من ذلك، هل تريدُ أن تمنحها الفرصة؟

يخفضُ مومو رأسه متأثّرًا. من فوق كتفه، يظهرُ حسين ازدراءهُ ويصرخُ محتدمًا في رقبة أخيه. بعد ثلاثين ثانية، يعودُ مومو إليّ، قائلاً بشرود.

- لقد بدأت في قراءة القرآن.

- باللّغة الفرنسيّة أم العربيّة؟

- باللغة الفرنسّية مباشرة من الأنترنت.

- من الأنترنت؟ إذن أنت لم تطّلع سوى على مقاطع.

- وماذا في ذلك؟ لقد دوّنتُ المقاطع المهمّة. كلّما أكرّرها أكثر، تصبحُ أفكاري أكثر وضوحًا. إنّي أحتاجُ إلى جذور.

- هيّا، العب دورًا جديدًا.

أتركُ قطعةً نقديةً تنزلقُ داخل الآلة. تضيء الشّاشة ويظهر الجنود الصّينيّون. يمسكُ مومو مدفعه الرشّاش ويواجهُ الجنود. يشعرهُ الغضبُ بالغبطة، عضلاته الشّابّة ترتجفُ، وقد وجدت طاقتهُ كلّها مكانًا تصرفُ نفسها فيه. يشيرُ العدّادُ إلى أنّه جندل ثلاثمائة رجل في دقيقتين. يستديرُ إليّ مبتهجًا، ثمّ يقول:

- كما تعلم، أستطيع أن أفعل ذلك في الواقع. أعطني فرصتي فقط. هكذا يراني إذن، شفيعهُ... ذاك الذي سيمكّنه من عبور المرآة، ويضعهُ في قلب اللّعبة.

أقومُ بحركةٍ دائريّةٍ وأنظر إلى المراهقين الذين يلهون وقد بدا لي أنّي

أتأمّلُ جيشًا من السّائرين نيامًا. لقد أخذوا إجازةً من الواقع، سابحين في هرموناتهم وقد أعمتهم المتعة. إنّهم يجرحون ويقتلون ويطلقون الرّصاص ويمزّقون ويبيدون أطيافًا لا يعرفون عنها شيئًا.

أرتجفُ. إنّ التوحّش يبدأ هنا، في جنّة التّرفيه الافتراضيّ. إنهم يتصرّفون مثلما نتصرّفُ نحنُ في أحلامنا، بلا إنهاكٍ أو خوفٍ من العواقب ودون عقابٍ. داخل عقلي، أشكرُ أبويّ المجهولين لأنّهما تركاني يتيمًا ولم يهديا إليّ ألعابًا إلكترونية. إنّ الكتبَ تظلُّ رفقتي الوحيدة في مقاومة الملل.

يقفزُ مومو من المنصّة التي يقف فوقها كي يطلق النّار ويقولُ لي:

- لن أخيّب ظنّك. سأكونُ أهلاً لثقتك.

يحيّرني تصميمهُ. فبدافعٍ من الرقّة والامتنان، يستعدُّ لارتكاب الأسوإ. ما العملُ الآن؟

في تلك اللّحظة، أرى الرّجل، صاحب عينيْ الذئب، مستندًا إلى آلة فليبر[1] في آخر القاعة. عندما يلاحُظ أنيّ تفطّنت إلى وجوده، يديرُ ظهره ويتظاهر بأنّه مستغرقٌ في مكالمة هاتفيّة.

ما العملُ الآن؟

يمسكُ مومو ذراعي قائلاً:

- لقد وجدتُ المعنى من حياتي.

---

(1) الكرة والدبابيس أيضاً تعرف بالـفلِبر (بالفرنسية: Flipper)، هي إحدى لعب المرات وهى تعمل عن طريق قطعة معدنية إذ يحاول اللاعب تسجيل النقاط عن طريق التلاعب بكرة معدنية تكون موضوعة داخل صندوق مغطى بالزجاج ويسمّى جهاز الكرة والدبابيس.

- أن تبرِّرَ أفعالَ أخيك؟

- وأواصلَ ما قام به.

- أتعرفُ يا مومو إلى أين سيقودك هذا...؟

- لستُ خائفًا.

- ألا تخافُ الموت؟

- حياتي سيكونُ لها معنى لو خدمتُ قضيّةً.

- ألا تخافُ أن تقتل أبرياء؟

- ليس هنالك أبرياء! إمّا خونة وإمّا أبطال. وأنا اخترتُ معسكري.

- أنت تعتقدُ أنّك تعرف القواعد، ولكنّ الأمر لا يتعلّق بلعبة يا مومو، بل بالحياة الحقيقيّة.

- بالضّبط. أنا أريدُ تصحيحَها.

- بل أنت تريدُ محوَها، إنّها لا تشبهُ ما تتمنّاه.

- من الطبيعيّ أن تختبرني، ولكن خذني على محمل الجدّ.

- هل تصلّي؟

- أنا أصلّي كي تستمع إليّ. ما هو اسمك الحقيقي يا أوغسطين؟ أعني اسمكَ الجهاديّ؟

أهزّ كتفيّ. ما تزالُ لحظات صمتي تبهرُ مومو الذي لم يكن ينتظرُ أن يحصل على إجابةٍ منّي. في ركن القاعة، يراقبنا الرّجل صاحب عيني الذئب.

يهمسُ مومو قائلاً:

- هل مجموعتك هي من تقف وراء حرائق اللّيالي الأخيرة؟

- حتمًا لا!

يبتسمُ مومو وتلتمعُ عيناه.

- كنتُ أعرف ذلك!

- وكيف عرفت؟

- يُمكنني أن أعلّمك أشياء كثيرة...

فجأةً، يحلُّ محلّ المراهقِ المتجهّم ذلك الطفل الذي كانه منذ بضعة أشهرٍ، ذلك الذي يوجّه إليّ نظرةً فاتنةً وأنثويّةً.

أتلعثمُ وأنا أبحثُ عن مخرجٍ من الورطة:

- سأرحل يا مومو.

- إلى أين؟

- لا أستطيع أن أخبرك.

- هل ستذهب... إلى هنالك؟

لا يوجد داعٍ للتّأكيد، ذلك أنّه اقتنع على الفور بأنّي سأرحلُ إلى سوريا.

يعلو الحزنُ وجهه وهو يقول:

- إنّي أحسدك. متى تعود؟

- بعد شهر.

- آه... أعطني عنوانك أو بريدك الإلكتروني أو رقمك الهاتفيّ.

وإذْ أعجز عن مدّه بأيّ عنوان، أتّخذُ هيئةً صارمةً وأوشوش له:

- أعطني بريدك الإلكتروني يا مومو وسأكتبُ إليك.

يغمره الامتنان قبل أن يرطنَ:

- أوه شكرًا... شكرًا... هل ستكتبُ إليّ؟

- أقسمُ لك أنّي سأفعل.

تجتاحهُ الفرحة. يبدو أثقل بعشر كيلوغرامات إضافيّة. تتألّق عيناه.

- وأنت يا مومو، هل ستعلمني بهويّة من قاموا بإشعال الحرائق في شارلوروا؟

- نعم! بالمناسبة، ما رأيك فيما حدث؟

أتنحنحُ كي أبدو مثل أستاذٍ:

- إنّها مبادرة جيّدة، فقد دبّ الذّعر بين أهالي شارلوروا حتى أصبح الكلّ يجرّمُ الكلّ. لكن العمليّة تظلّ عمل هواة... في مستوى عصابة أطفالٍ. لو لم تنفجر قنبلة أخيك في البدء لما تحدّث أحدٌ عن الحرائق ولما كان لها أن تصيب النّاس بالذعر.

- هل كنت تتوّقع عمليّة أفضل من ذلك؟

- بالطبع. قل لي من فعلها.

يستعدُّ مومو ليقدّم الإجابة، يفتحُ فمه ثمّ يرفعُ جبينه نحوي فجأةً ويتطلّع إليّ قبل أن يقول:

- سأخبرك بهذا عندما تكتبُ إليّ.

يرفعُ مومو قبّعة المعطف، يضع فيها رأسه، يدفنُ يديه في جيبيْ معطفه، ثمّ يخفضُ رأسه بين كتفيه ويختفي سريعًا متسلّلاً بين اللاّعبين. شبحي ذو العينين الرّماديّتين كان هو الآخر قد اختفى.

حولي، تتواصلُ حالات الاحتضار الرقميّة مغلّفةً بالحشرجات المعدنيّة.

أغادرُ قاعة الألعاب.

عند الرّصيف، يقفُ تيرليتي، بشعره وعينيه الدّاكنتين، مستندًا إلى إحدى الواجهات وهو يدخّنُ. يكشفُ معطفه الواقي الترابيّ اللّون عن حالته وكأنّه جلد ثانٍ. كان مثله معطفًا منهكًا ومتغضّنًا بسبب ليالي الأرق وقذرًا عند حواشيه، ومع ذلك، كانت ياقته مرفوعةً بفخامةٍ كما لو كانت بذلةً عسكريّةً.

- إذن يا أوغسطين، أليس لديك ما تخبرني به؟

- بلى: صباح الخير سيّد تيرليتي.

ينفخُ في سيجارتهِ التي يثبّتها عند ركن فمه. يشتعلُ التّبغ بعنفٍ بينما يتقاصرُ ورق السّيجارة تاركًا أثرًا أسود اللّون. إنّ هذا الشرطيّ لا يدخّن بل يشوي سيجارته.

- لديك رفقة سيّئة، في ما علمت.

- مومو بدوي؟

- إلاّ إذا كان هو من لديه رفقة سيّئة وهو يلتقيك هنا.

إنّ مثابرته على عدم الثقة فيّ تدهشني وتطربني في الوقت ذاته. فبالنّسبة إليه، أنا لستُ ذلك الجمبري التّافه، بل أمثّل خطرًا محتملاً. هل هو من أذن بمراقبتي؟ هل يكونُ الرّجلُ ذو العينين الرماديّتين أحد مخبريه؟ يشملني الغرور وأنتظر السّؤال التّالي.

- فيم تحدّثتما؟

- لقد أخبرني أنه منقطعٌ عن الدراسة وحاولتُ إثناءه عن ذلك.

- وبعد ذلك؟

- تحدّثنا عن الحرائق.

- آه!

- آملُ أنّك لا تشكّ فيّ؟

- لقد كنت نائمًا في قاعة التّحرير لحظة اندلاع الحرائق.

الآن، أنا متأكّد من أنّ الرجل ذا العينين الرّماديّتين يزوّده بالمعلومات.

تمرُّ المتشرّدة المرضعة فوق الرّصيف، وهي تضمّ دميتها إلى صدرها، كما لو أنّها انتهت من إرضاعها للتوّ، قبل أن تقول لأحد العابرين:

- صدقة لرضيعي ولي، أرجوك.

ولأنّه لم تسبق لي رؤيتها في ضوء الرّبيع السّاطع، أكتشفُ أنّ سنّها تزيدُ عن الستّين عامًا. ينتهي الأمرُ بالعابر المنزعج الذي تلاحقهُ إلى أن يلقي إليها بقطعتين نقديّتين، على سبيل المساعدة ولكن أيضًا ليبعدها عنه. يسألُ تيرليتي المرأة بقسوةٍ:

- جوسلين، ربّما عليك أن تغيّري طريقتك! ألا تعتقدين أنّك تجاوزتِ سنّ الإنجاب؟

تتوقّف جوسلين في مكانها متفاجئةً، تتطلّع إلى الدّمية المصنوعة من البلاستيك الورديّ، تفكّرُ ثمّ تقول لتيرليتي بلهجةٍ جافّةٍ وهي تلوّحُ بقطعتيْ الأورو اللّتين حصلت عليهما للتوّ قائلةً:

- إنّ المرءَ لا يغيّر فريقًا رابحًا!

ثمّ تديرُ له ظهرها باستهزاءٍ. يهزُّ تيرليتي كتفيْه ويُحرّفُ بصره نحوي قبل أن يقول:

- أليسَ لديك ما تخبرني به؟

يذرعُ المسافة بيننا في خطوتين قبل أن يحاصرني بذراعيه، على بعد سنتيمترات منّي، قريبًا جدًّا حتّى أنّي لم أقدر على تحرير نفسي. إنّه يسحقني ويجتاحني. رائحة الذّكورة الممتزجة فيه برائحة التّبغ اللاّذعة، تتسلّلُ إلى مسامّي وأحسّ بدفء جسده الجافّ في جسدي، فأرتجف.

يسألني:

- من ارتكب هذه الهجمات؟

- لا أعرف، ولكن...

- ولكن؟

أتردّدُ. ها هما فخذاي يرتجفان. كان تيرليتي يهدّدني، لكنّي كنت أشعر كما لو أنّ أحدًا مّا يقبّلني في تلك المسافة بيننا. لا أعرفُ إن كنتُ أريدُ إطالة هذه اللّحظة أو قَطْعَهَا. تسبرُ عيناه أغواري، تجسُّ نبضي وتضغطُ عليّ. كم من الوقت سأصمدُ دون أن أنهار؟

أتلعثمُ:

- مومو، هو، إنّه يعرف. أو يدّعي أنّه يعرف.

- اممم... إنّه قاصر. سَنُتَّهَم بسهولة بمضايقة القصَّر.

- إذن؟

- اجعلهُ يخبرك بكلّ شيء ثمّ تعالَ وأخبرني.

ينتزعُ نفسه منّي، يتراجع إلى الوراء ثمّ يخرجُ سيجارةً. بعد أن

يشعلها، يستنشقُ الدّخانَ المنبعث منها ببطءٍ، مغمضًا جفنيْه نصف إغماضة، ويتركه يتجوّل داخل جسده كلّه. إنّه لا يخفي شعوره بالمتعة، ويتذوّق كلّ جسيمٍ، بحسّية تصلُ إلى درجة الفحش.

- هل تعرف، أنا أحبّك يا أوغسطين.

تضربني جملته كما لو أنّها لكمةٌ حتّى إنّ غرابتها لم تتركني، للوهلة الأولى، أبحثُ عن الردّ المناسب، لذلك أجيبه:

- هكذا إذن؟ كيف ستتصرّف لو كنت تكرهني؟ أرني الفارق.

تحجبُ خيبة الأمل وجهه. يلقي عقب سيجارته كما لو كان السّببَ في إزعاجه، يهزّ كتفيه ويبتعد.

«سأنتظرُ اتّصالك»، يضيفُ هذه الجملة، من وراء ظهره، ويصعدُ إلى سيّارته.

عند الرّصيف المقابل، يظهرُ الرّجل ذو العينين الرماديّتين مجدّدًا، وهو يتظاهر بأنّه منشغل بقراءة الصحيفة.

ينتظرُ شميت أمام حانة الفرسان.

كنتُ قد أخذتُ حقيبتي من مصنع اللّوالب. ثمّة شعورٌ غريبٌ استحوذ عليّ، فعندما ذهبتُ إلى هنالك، منتصرًا، وسعيدًا لأنّي تخلّصتُ من حالة عدم الاستقرار والفقر، كان هنالك شعورٌ بالضيق ينمو داخلي باطّرادٍ وأنا أجمعُ ملابسي. لقد أوضحَ غواقُ غرابٍ متفجّعٍ المسألة في ذهني: كنتُ أشعرُ بالخوف. إنّ العيش في منزل ملحقٍ بقصر لمدّة شهرٍ، وجني المال، كانت مسألةً تقلقني. لقد كانت الأنقاضُ والغبار والرّطوبة ورائحة الأخشاب المتعفّنة والتّيارات الهوائيّة ونعيب الطيور

اللّيليّة، تجعلني أحسّ بالأمان، لأنّها تشعرني بالألفة وتطوّقني. هل سيعجبني ما سيستجدُّ في حياتي؟ هل سأكون قادرًا على العيش في بيئة فخمة؟

عندما كنتُ أعودُ أدراجي كي أتسلّق الحائط، شعرتُ أنّ المصنع المهجور يشيّعني للمرّة الأخيرة، مثل صديقٍ قديم، دون اعتراضٍ وهو يهمسُ لي بكرامةٍ: «إنّه لمن الطبيعيّ أن تهجرني، فأنا لا أملك الكثير لأقدّمه لك». قبل أن أقفز إلى حاوية القمامة، غيّرتُ رأيي وتأمّلتهُ: لقد كنتُ غنيًّا حين سكنتُ عنده. كان سخيًّا معي، بمبانيه الثلاثة الواسعة وورشاته وملحقاته الصّغيرة وفنائه غير الممهّدِ وبئره التي تغمرها الأعشاب. لم يكن هنالك أحدٌ يطالبُ به. وإذ كنتُ لا أمتلكُ شيئًا، فإنّ المصنع كان لي. لم أكن أتقاسمهُ سوى مع بعض القوارض الهادئة والعناكب المتحصّنة بأركانها، ولم يكن ثمّة ما يزعجني سوى ما تحدثهُ الطيورُ عند دخولها أو خروجها من المصنع.

في الحافلة التي أقلّتني إلى المصنع كما في الحافلة التي أعادتني، كان المجهولُ ذو العينين الرماديّتين يحرسني من بعيد. أمّا الآن، في ميدان شارلوروا، فهو يقفُ على بعد خمسين مترًا منّا. أخبرُ شميت بأمره:

- ذلك الرّجل هنالك، هل تراه؟

- لا.

- لا؟

أستديرُ وأستنتج أنّه ربّما اضطرّ إلى الهرب داخل أحد الأزقّة.

- أعتقدُ أنّه ينتمي إلى جهاز الشرطة وأعتقد أنّه يراقبني.

يشحبُ وجه شميت ويتفرّس في وجهي قائلاً:

- لماذا تتعقّبك الشرطة؟

- إنّها تشتبهُ في أنّي انضممتُ إلى مجموعة إرهابيّة.

يهزُّ شميت كتفيه بارتياحٍ لأنّ الفكرة بدَت له عبثيّةً. لا تتركُ هيئته الجسديّة أيّ مجالٍ للشكّ: إنّه يستبعدُ تمامًا فكرة أن أكون متطرّفًا. من أين أتى بهذه القناعة؟ ففي النّهاية، أظلُّ شخصًا مجهولاً بالنّسبة إليه، وهوما يفترضُ أن يكون حذرًا معي. إنّ ثقتهُ فيّ تشعرني بالإهانة.

- ألا يبدو لك أنّني قد أكون إرهابيًّا؟

- أوه لا!

- لماذا؟

- لأنك تطرحُ الأسئلة. المتطرّفُ ليس لديه أسئلة، بل أجوبة فقط.

- هنالك متطرّفون أذكياء.

- إنّ الإيمان المطلق لا يعبّر عن الذّكاء بل عن الإرادة. إنّه لا يمثّل طريقة لمعرفة العالم، بل يمثّل التزامًا تجاه العالم. دائما ما تعترض الأصوليّ أسبابٌ للشكّ ولكنّه يرفض أن يشكّ. إنّه يفضّل تمثّلاته الخياليّة على الواقع إلى حدٍّ يقومُ فيه بتطهير هذا الواقع بالكلاشنكوف بمجرّد أن يناقض تمثّلاته. أمّا أنت، فإنّك تبحث بل إنّك لا تتظاهرُ بأنّك عثرت على ما تبحث عنه...

- شكرًا على ثقتك فيّ.

ينفجرُ ضاحكًا.

- إنّ الأمر لا يتعلّق بالثقة بل بالتبجّح، فأنا لا أتخيّل صبيًّا درس نصوصي بكلّ هذا الشّغف والدّقّة يمكنُ أن يكون قاصر الفهم!

أشاركهُ مرحه وأضيف:

– لو تعرف فقط ما قاله لي الربّ بهذا الخصوص...

– اصمت! لا تقل أيّ كلمة! أنا أرغبُ في قراءة ذلك لا الاستماع إليه.

يلفتُ انتباهي إلى الرّجل ذي العينين الرماديّتين الذي يعاودُ الظهور:

– حسنٌ، هل ترغبُ في أن نجعل الشرطّي الذي يراقبك يفقدُ أثرنا؟

– لم أكن أجرؤ على طلب هذا منك.

– هذا رائع! لم يسبق لي أن فعلتُ هذا سوى في كتبي.

إنّه يفكر قبل أن يشعّ وجهه ويقول شيئا مّا إلى سائقه. يدعوني إلى أن أتبعه. يصبحُ الرّجل ذو العينين الرماديّتين على مسافة عشرين مترًا وراءنا. نصلُ أمام مسرحٍ.

– تعال!

ندخلُ المسرحَ بحيويّةٍ. يقبّلُ شميت أمينة الصندوق ويستحضرُ معها مسرحيّاته التي مُثّلت على خشبة هذا المسرح قبل أن يعلن أنّه يرغبُ في إلقاء التحيّة على جيرارد، مدير المسرح.

– سأناديه لو رغبت في ذلك، تقترحُ أمينة الصندوق.

– لا، أنا أعرفُ طريقي.

يقودني بسرعة نحو الأماكن الأشدّ عتمةً في المسرح، نتجاوزُ عددًا من الأبواب، ونذرعُ الممرّات ثمّ يدفعُ بابًا مقاومًا للحرائق.

يفاجئنا ضوء النهارِ المبهر فترمشُ عيناي.

- هيّا، إنّه البابُ الذي يخرجُ منه الفنّانون!

يشيرُ شميت إلى السيّارة التي تنتظرنا. نقفزُ فيها فينطلق السّائقُ بنا. بعد دقائق قليلة، تجري بنا السيّارة فوق طرقات الرّيف المسالمة، دون أن تكون خلفنا سيّارة واحدة.

- ها قد نجحنا! يقولُ شميت متعجّبًا. لقد كان الأمر يسيرًا حتى إنّني أكادُ أشعرُ بخيبة أملٍ.

- يبدو أنّك تستمتع بكلّ شيء.

يتطلّعُ إليّ مذهولاً.

- حتماً أنا أستمتعُ بكلّ شيء.

يتنهدُّ ويبتسمُ في الآن نفسه.

- إنّ الحياة مأساةٌ، فلنعشها إذن كملهاةٍ.

-20-

في الخارج، تتجوّل الكلابُ داخل الحديقة وهي تتنازعُ كرة قدم قديمةً. محتدمةً وسريعةً، هي تتظاهرُ بأنّها تتقاتلُ ولكنّها تظهرُ سعادة صافيةً من خلال قفزاتها ومطارداتها واختصامها وحركاتها المخادعة ونباحها وتهديدها. عندها، يتفوّقُ اللّعبُ على المنافسة، فمتعتها لا تكمنُ في الفوز بل في الانتشاء. حولها، تعرضُ نباتات الرندندرة[1]، التي تجتذبها السّماءُ الشّاحبة، أزهارًا ورديّةً وبيضاء وبنفسجيّة، بينما تنشرُ شجرةُ كرزٍ بسخاءٍ تويجاتها التي يشبهُ لونها لون القشدة. إنّ الرّبيع يحلُّ في والونيا[2] تحت أشعّة شمسٍ ما تزالُ فاترةً.

يستحثُّ شميت، المقرفصُ فوق مصبطةٍ تحاذي الحديقة، كلابهُ ضاحكًا وسعيدًا لسعادتها. لا يوجدُ بالنّسبة إليه شيءٌ آخر مهمّ في تلك اللّحظة.

أشعرُ بالألم أمام هذا المنظر الرّيفي والمثاليّ الذي أراهُ عبر نافذة المنزل الملحق بالقصر. فمنذ خمسة عشر يومًا، يلتهمني ألمٌ من الدّاخل، ألمٌ ما ينفكّ يزدادُ حدّةً. ودون أن أكشف عنه لِأَحَدٍ، أحيا حياةً مزدوجةً،

---

(1) الردندرة rhododendron: نَبَات دَائِم الخُضْرة ذُو غِلاَف سَمِيك عَلَىَ شَكْل بُوق.

(2) هو إقليم من بين الأقاليم الثلاثة المكوّنة لبلجيكا ويسود فيها استخدام اللغة الفرنسية (الإقليم الفلامندي، إقليم بروكسل العاصمة).

ملدوغًا بألف ندمٍ. فمن جهة، أؤدّي المهمّة التي كلّفني بها شميت، وأكتب لقائي مع «العين الكبيرة» مستفيدًا من الرّفاه الذي وفّره لي، ومن جهة أخرى، أتواصلُ خفيةً مع مومو عبر رسائل فيها مضرّة لي. وفي كلّ واحدةٍ من تينك الحياتين، أحتفظُ بصمتي كي لا تتداخلا. لا أشعرُ أنّي منافقٌ بل أحسُّ أنّي انشطرتُ إلى شخصين، أوغسطين الذي يكتبُ نصًّا فلسفيًّا يتلقّى عليه أجرًا، وأوغسطين الذي يتبنّى خطابًا إرهابيًّا كي يكسب ثقة مومو ويتابعَ مسار تطرّفه ساعةً بساعةٍ.

إنّي أنشطرُ وأتجزّأ. ثمّة سكّينٌ يقطعُ جسدي كما روحي. أنا الآن صريحٌ أكثر من كوني متناقضًا.

وتمامًا مثلما أخبرني شميت، لم يزعجني الكاتبُ إطلاقا. إنّه يسافرُ باستمرار، وبمجرّد عودته إلى القلعة/ المزرعة، ينعزلُ في برجه كي ينهي روايته. كلّما عاشرته أكثر، قلّت معرفتي به. ومثل أفقٍ، يتراجعُ هو كلّما تقدمّتُ نحوه. بالأمس، عندما صارحتُه بهذا، مؤكّدًا أنّي إذ أفعل ذلك، لا أجامله أو أنقده بل أشخّص، أجابَ ببساطةٍ:

- كيف ترغبُ في معرفة شخص مّا هو نفسه لا يعرفُ نفسه ولا يصرُّ على معرفة نفسه؟

- لكنّ سقراط[1] قدّم هذه النّصيحة: «اعرف نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ».

- لقد أراد سقراط أن يكون فيلسوفًا، لا كاتبًا روائيًّا أو مسرحيًّا.

أنا لا أكتفي بنفسي، بل أقدّس الآخرين، أولئك الذين يهمّونني

(1) سقراط (469 ق.م - 399 ق.م) حكيم وفيسلوف يوناني كلاسيكي. يعتبر أحد مؤسسي الفلسفة الغربية، لم يترك سقراط كتابات وجلّ ما نعرفه عنه مستقى من روايات تلامذته عنه.

أكثر من شخصي. أنا لا أساوي غير فراغي ونظرتي وغيابي. إنّ جدارًا بألف بابٍ مفتوحٍ، ليس جدارًا حقًّا.

عندما لا يخصّصُ وقتًا للرّائعة مايا، ربيبته ابنة العشرين عامًا، وهي تراجع اختباراتها في مادّة العلوم السياسيّة، يقدّمُ لي نصائح كي أكتب:

– إنّي أتّخذُ أفلاطون[1] مثالا أقتدي به سيّد شميت.

– لماذا؟

– إنّه أفضلُ من يكتب الحوارات الفلسفيّة.

– ماذا عن ديدرو؟[2] وبيركلي؟[3]

– يجبُ أن أكتب على طريقة أفلاطون.

– ابحث عن نفسك أوّلاً. إنّ المرء ليس هو الكاتب الذي يقرّرُ أن يكونه بل هو الكاتب الذي فيه. لا تخدع نفسك بل ولا تستعجلها أيضًا. إذا كان الكاتب في داخلك موجودًا فهو ينتظرك، متأنّيًا ومفعمًا بالنشاط وسليمًا، عند طرفِ ريشتك بعد آلاف الجمل التي ستقودك إليه بنزقٍ، ولكن أيضًا بشكلٍ مؤكّد.

أثناء إعادتي المستمرّة لكتابة الصّفحات، كنتُ أستخدمُ «الحاسوب الخاصّ بالضيوف»، هذا الجهازُ الذي كان أصلَ الازدواجية التي

(1) أفلاطون (عاش 427 ق.م – 347 ق.م)، فيلسوف يوناني كلاسيكي، كاتب لعدد من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسسًا لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو.

(2) دنيس ديدرو (1713–1784) فيلسوف وكاتب وموسوعي فرنسي، وهو أيضًا كاتب مسرحي وكاتب مقالة وفني.

(3) جورج بيركلي (1685 –1753) فيلسوف بريطاني–إيرلندي وأسقف أنجليكاني يعتبر من أهم مساندي الرؤية الجوهرية في القرن الثامن عشر الميلادي.

أحيانا. فبعد أن أنشأتُ عنوانًا إلكترونيا في اللّيلة الأولى، لم أستطع منع نفسي، في اليوم الموالي، من مراسلة مومو، فردّ على الفور. وكالعادة، كان ينسبُ إليّ أفكارًا ونوايا وأنشطةً. لقد كان يسكنُ داخل غيابي ويغذّي غموضي. وهكذا، كنتُ بالنّسبة إليه، موجودًا فعلاً في سوريا بصدد تجهيز الخدمات اللّوجستية للعمليات الإرهابيّة الجديدة. وبسبب ضعفي وخمولي وفضولي، سمحتُ له أن يفرط في الخيال. بل الأسوأ من ذلك أنّي أرسلتُ إليه، للتّأكيد، صورتين مسروقتين من الأنترنت، واحدة لغرفة تشبهُ غرفة راهبٍ والأخرى للصّحراء. ومدفوعًا بغريزة أجهل كنهها، صرتُ منذ ذلك الوقت أمنحُ أذني لهذيانه. وهكذا اكتشفتُ أيضًا أنّه يطّلعُ إلى حدّ الانتشاء على مقاطع فيديو ساديّةٍ تشيدُ بالأعمال الإجراميّة المرتكبة باسم الربّ، وأنّه يشاركُ داخل منتديات المتطرّفين، ويستمتعُ بمشاركة قناعاته الجديدة مع مستخدمي شبكة الأنترنت من الفجر إلى منتصف اللّيل. لقد أحدث ثقبًا داخل جدار عزلته ليتواصل مع انعزاليّي العالم كلّه، ويسبح الآن في فلك كوكبة نجومٍ عالميّةٍ. أمّا أنا، فأحتفظُ بدورٍ خاصٍّ داخل خارطته الذهنيّة، هنالك حيث أحتلّ مكان الأخ الأكبر الذي يريدُ أن يثير إعجابه. لماذا غرقتُ في هذا الفخّ؟ ألأنّ الأمر كذبةٌ أم لأنّه يتعلّق بواحدةٍ من حقائقي؟ إنّي أتناثرُ، وأتذرّى وأذهبُ في كلّ اتّجاهٍ. أمام أيّ شخصٍ، أميلُ إلى الكشفِ عن تعاطفي وأغذّي المناقشة لصالحه فأنا أتحدّث كشميت مع شميت، وكبواترونو مع بواترونو وكتيرليتي مع تيرليتي وكمومو مع مومو. ما هو الرّابطُ في كلّ هذا؟ إلى هذا الحدّ أرغبُ في إثارة إعجاب الآخرين؟ إلى هذا الحدّ أفتقدُ اعتراف الآخرين بي؟ إنّي أجدني مثيرًا للشفقة...

من وقتٍ إلى آخر، أبذل جهدًا لترشيد سلوكي، وأكادُ أنجحُ في ذلك عندما أخبرني أنّي أشتغلُ بأمانةٍ لحساب شميت وبواترونو وتيرليتي، مدفوعًا بالرّغبة في التّحقيق. إلاّ أنّي أكتشفُ سطحيّة تفسيراتي، هذا لأنّها تطفو فوق مستوى المنطق، ومع ذلك لا ألتزم بالمنطق، فثمّة شيءٌ مّا عميقٌ وأعمى وقويّ ولا يقاوم يدفعني إلى أن أتآخى مع عنف مومو. كلاّ، لقد حاولتُ، منذ الرّسائل الأولى، أن أعقّل المراهق، ولكنّي تخلّيتُ الآن عن تحفّظي وتركتُ سمّه ينتشرُ داخلي.

من يتكلّم داخلي؟ من يعملُ داخلي؟

هذه الأسئلة التي طرحها شميت على نفسه، أثناء لقائي معه، تدورُ برأسي أنا أيضًا. من يكتب عندما نكتب؟ الأمرُ بالنّسبة إليه، واضحٌ: إنّه يحيا مع جدار من الموتى، موتى وقع انتقاؤهم، يلهمونه وينقدونه ويوقظونه ويحفّزونه كي يكون بإمكانهم التدخّل في هذا العالم. ولكن ماذا عنّي؟ ففي مرّتين، أملتُ -أو ربّما خشيتُ- أن أقتربَ من الميّت الذي يرافقني-سواء كان ذلك الرّجل العجوز في المستشفى أو الرّجل الذي يملك عينيْ ذئبٍ- ولكن لسوء حظّي، هما ينتميانِ إلى الحقيقة العارية. لا أدري ما الذي يجعلني متمسّكًا بمخالطة ما لا أفهمه سواء كان كاتبًا أو ربًّا أو عينًا كبيرةً أو مراهقًا متطرّفًا. لماذا أكتفي بتحليل الأمر دون أن أعيشه؟

يتّجهُ شميت إلى منزلي مع كلابه وهي تركضُ في حلقةٍ حوله. أنزلُ لألقاه.

عندما تراني الصّغيرةُ دافني، تجلبُ لي الكرة كي أشترك مع الكلاب في لعبتها. لا أستجيبُ إليها، أنا الذي لم يتعوّد على حالات الشّغبِ

هذه. يمسكُ شميت بالكرة، ثمّ يتابع المقابلة الرياضيّة بين الكلاب قبل أن يسأل عن أخباري. ودون أن أذكر شيئًا عن حالة الانقسام الدّاخلي التي أعيشها، أحوّلُ مجرى الحديث نحو محنتي الأدبيّة وأعترفُ بنفاد صبري في إنهاء كتابة لقائي مع العين الكبيرة.

– أنت لا تريدُ أن تكتب يا أوغسطين، أنت تريدُ أن تنهي ما تكتبه.

تتقافزُ كلابهُ إلى الأعلى، أكثر فأكثر، بينما يرفعُ الكرة في الهواء. أدركُ بغتةً أنّ بين المخلوقات الثلاثة التي تمشي على أربع، وهذا الكائن الذي يمشي على قدمين، قاسمًا مشتركًا: الفرح. بل إنّني كلّما لمحت الكاتب جالسًا على طاولته يعمل، أراهُ مبتسمًا، منتبهًا، سعيدًا، مركّزًا، ومستغرقًا بالكاملِ في تلك اللّحظة، مثل ذلك الكلب الذي يجري وراء الكرة.

– لا تفعل أيّ شيءٍ كي تنهيه بل افعلهُ كي تفعلهُ. إنّ البشرَ يجهدون أنفسهم كي يحتلّوا المستقبل، ولكن ليس الحاضر. إنّهم يتجهّزون للحياة ولكنهم لا يستمتعون بالحياة. إنّك تكتبُ نصّك الآن، وليس لحظة انتهائك منه.

– أنا خائفٌ.

– أحسنت.

– أما تزالُ تشعرُ بالخوف؟

– نعم، عندما أعمل بطريقةٍ جيّدةٍ. فعندما أعمل بطريقةٍ سيّئةٍ، لا أشعر بأيّ خوفٍ.

– أرجو المعذرة؟

– إنّ المرء لا يبدعُ إلاّ إذا وازن بين الخوف والمهارة. إذا خفتَ ممّا

تفعله كثيرًا، فلن تقدرَ على الخلق. إذا سيطرتَ على ما تقوم به بشكلٍ مبالغٍ فيه، لن يكون في وسعك أن تضع نفسك موضع خطرٍ ولن ينزلق أيّ شيءٍ مهمٍّ تحت ريشتك.

- ومع ذلك، فإنّ المهارة تتطوّرُ مع الوقت. أتخيّلُ أنّك اليوم تبدو مرتاحًا أكثر من يوم أمس.

- هذا هو الفخّ... لهذا السّبب، يصابُ إبداع البعضِ بالجمود، وَقَدْ تتراجعُ قيمته، في حين أنّهم طوّروا من أساليبهم الفنّية. إنّهم يكتفون بإضافة إصدارٍ آخر إلى كتبهم دون أن يشعروا بتلك المغامرة الكبيرة. في مقابلِ ذلك فالذي يعتمدُ على مهارته المتنامية كي يوسّع أيضًا من دائرة خوفه، هو شخص يغامرُ أكثر ويعدّ نفسهُ لمفاجآتٍ رائعةٍ. سأتوّقف عن هذه المهنة متى توقفتُ عن الارتجاف. إلى أين وصلت؟

- إلى ما لا يحصى من مسوّداتٍ مرميّةٍ. أنا لا أسيطرُ على موضوعي.

- ممتاز. على المرء أن يكون حذرًا من المواضيع التي يسيطرُ عليها. بل سيكون من الأفضل لو سيطرت هي عليه. كلّما تقدّمتُ في عملي، قلّ اكتشافي لذلك الذي يكتبُ داخلي عندما أكتب. إنّ النصّ يكتبُ نفسه.

أشعرُ بقشعريرةٍ. أرغبُ في الحديث عمّا يثيرُ اضطرابي، أفكاري المتنافرة، ازدواجيّتي، القوى المتناقضة التي تقودني إلى الاقتراب منهُ بينما أطوّرُ تواطؤًا قاتلاً مع شابٍّ متطرّفٍ.

يتفرّسُ في ملامحي. ثمّة ارتجافٌ عصبيٌّ يغيّرُ ملامحه.

- ثق بنفسك يا أوغسطين فأنتَ ممتلئٌ. إنّ صوتك يَشهدُ على هذا

كما الشأن في حالاتِ صمتك: هنالك آلاف الأشياء التي تحتشدُ داخلك وستخرجُ.

يبتعدُ كي يلتحق بربيبته مايا وهي تراجعُ كتبها القانونيّة تحت أشعّة الشمس.

أعودُ إلى غرفتي وأشغّل الحاسوب. تظهرُ رسالة مومو: «بإمكاني أن أخبرك الآن: أنا من أشعلتُ حرائق شارلوروا».

كنتُ قد خمّنتُ هذا. بعد أن أطلق تنهيدة، أكتفي بالنّقر على لوحة المفاتيح باقتضاب:

«كلّها؟»

يجيبُ مومو سريعًا:

«نعم كلّها. كنتُ أتجوّل على درّاجتي الناريّة ولم يشتبه أحدٌ في أمري».

«كيف تمكّنت من إتلاف كاميرات المراقبة»

«بإطلاق مسابقةٍ على موقع فايسبوك سمّيتها «عمليّة الحريّة»، تفاعل معها طلاّب المدارس في المنطقة بشكلٍ جماعيّ. لقد ضايقت الشرطة أولئك الذين حَجَبُوا الكاميرات... ولكن ليس أنا».

«أنت شديد الذكاء».

«أعرفُ كيف سترى الأمر: عملُ هواةٍ وطفوليّ. ولكنّ هذا أكسبني شجاعة. الآن، أنا أعدّ لشيءٍ أفضل. أفضل بكثير. أنا أعدّ لشيءٍ مذهل!».

ألوذ بالصّمت. يجبُ أن تكون لديه الرّغبة في أن يكشف لي كلّ شيءٍ من تلقاء نفسه. كي أخدعهُ أكتبُ ببساطة:

«أنا في طريق العودة، بين طائرتين. سأتّصل بك في أقرب وقت ممكن. إلى لقاءٍ قريب».

أتركُ الحاسوب. هل عليّ أن أخبر تيرليتي؟ والإجابة تبدو لي بديهيّة، أقرّرُ أن أترك الأمر جانبًا. على تيرليتي أن ينتظر. طالما أنّه لن يزجّ بأبرياء في السّجن...

عندما أمرّ بالقرب من مشغّل الموسيقى، أضعُ أغاني أمّ كلثوم، الحقيقيّة، التي بدأت الاستماع إليها مذ غادرتُ صحيفة الغد. يرتفعُ صوتها، بين الأنغام الصّادرة عن الكمنجات والآلات الوترية المزمومة، مرنًا، دسمًا، شبيهًا بتدفّق العسل الأسودِ، سميكًا وغنيًّا بآلاف الاهتزازات. إنّ أمّ كلثوم لا تغنّي، إنّها تمسُّ شغَاف قلبي وتداعب جلدي، كأمّ وأختٍ وعشيقة في آنٍ واحد. تذوب هواجسي في أغنياتها ويصبح جسدي أفضل أصدقائي. أغيبُ عن العالمِ في انتشاءٍ محمولاً بالموسيقى.

ثمّة أصواتٌ خشنةٌ، خاطفةٌ ودقيقةٌ تصلُ إلى أذني.

من أين تأتي؟ هل هو العثُّ يأكلُ عوارضَ السّقف؟ أرفعُ عينيّ، خافضًا صوت الموسيقى، وأبحثُ عن آثار نُشارة. لم أعثر على شيءٍ والأصواتُ تتضاعفُ.

أتوجّهُ ناحية مصدرها، فيقودني ذلك إلى النّافذة التي تطلّ على الشّارع.

عند الرّصيف، أرى القاضية بواترونو، يرافقها ميشان، وهي بصدد قذف الحصى على بلّور نافذتي.

مذهولاً، أبعدُ مصراعي النّافذة. كيف عَثَرت عليّ؟

تقولُ صارخةً:

- لم تتأخّر كثيرًا. حسنٌ، هل ستفتح لي؟ يجب أن نتحدّث.

- ليس مسموحًا لي أن أستقبل أيّ أحد. لقد وعدتُ مضيّفي بذلك.

في تلك اللّحظة، وعلى مسافة خمسين مترًا إلى الأسفل، أرى سيّارة المنزل السّوداء تغادرُ البلدة، حاملة شميت ومايا.

تهزُّ القاضية بواترونو كتفيْها وتقول:

- ومن سيخبره بذلك؟

- على أيّ حالٍ، لديكِ طرقٌ غريبة...

- أنت دائم التذمّر. هل تفضّل أن أستدعيك إلى مكتبي؟

- أنا قادم.

أنزلُ وأفتحُ الباب الخلفيّ. تنزلقُ القاضية بواترونو إلى الدّاخلِ على الفوْر وهي تصرخُ في وجه ميشان:

- ميشان، هيّا اذهب إلى المقهى وانظرْ إن كنتُ هنالك.

- حاضر سيّدتي القاضية.

تشاهدهُ وهو يبتعد بهيئته الخرقاء المتعثّرة المنشغلة، ولا تمنع نفسها عن الهمس:

- يا له من مسكين...

- أنت تعاملينه بقسوةٍ.

- أنا؟

- أنت لا تعهدين إليه بأيّ عملٍ مهمٍّ.

- إنّه غير كفءٍ... هل سبَقَ لك أن طلبتَ من بقرةٍ إعداد ملخّص لملفٍّ؟

- ليس من باب اللّياقة أن تقارنيه ببقرةٍ.

- معك حقّ، فالبقرة تنجحُ على الأقلّ في تقديم الحليب.

- لماذا تجبرينه على مرافقتك في كلّ مكان؟

- أنا لا أجبره على أيّ شيءٍ. إنّه يلتصقُ بي. هو يعتقد أنّ ذلك من صميم عمله. حسنٌ، يكفي ما أضعناه من وقتٍ، لم آتِ إلى هنا للحديث عن ميشان: قل لي أين سنجلس؟

أقودها إلى الطّابق حيث تقعُ شقّتي الصّغيرة، في العليّة، شقّتي المكوّنة من غرفة ومكتب وحمّام ومطبخٍ صغيرٍ.

- إنّه فرساي![1]، تصرخُ القاضية بواترونو بإعجابٍ.

تتفحّصُ المجلّدات التي وضعها شميت على الرّفوف. ثمّ تقولُ مندهشةً:

- قل لي، هل يقرأ كاتبٌ كتب الآخرين؟

- بالتّأكيد.

- لا، هذا ليس مؤكّدًا. هل يأكلُ الثورُ شريحة لحم؟

منزعجًا، أسألُ عن سبب اقتحامها بلهجةٍ رسميّةٍ:

- كيف عرفتِ أنّي أسكنُ هنا؟

---

(1) فرساي: هي مدينة تقع في شمال فرنسا اشتهرت بقصر فرساي الذي بناه لويس الرابع عشر في القرن السابع عشر الميلادي.

- برأيك، ما هي مهنتي؟ بائعة معجّنات منفوخة بالكريمة؟
- هل أخبرك تيرليتي؟
- أعرفُ أشياء كثيرة يجهلها تيرليتي. إنّ المرءَ لن يقتصر على الشّعر والأندروستيرون[1] كي يمضي قُدمًا في الحياة...

تشرعُ في الغناء بنشازٍ مغطّية صوت أمّ كلثوم ثمّ تشير بإصبعها إلى مغلّف الأسطوانة.

- آه، هل تحبّها أنت أيضًا؟ متى اكتشفتها؟
- في الصّحيفة. في الواقع، ثمّة موظّفٌ اسمه روبرت بيترس، يعتقدُ أنّه أمّ كلثوم.
- هل هي مجنونةٌ؟
- بل هو المجنون. في الواقع، كنتُ أحبّهُ جدًّا.
- روبرت بيترس... روبرت بيترس... انتظر، إنّ هذا الاسم يذكّرني بشيء مّا...

تعضّ إصبعها ثم تصرخ:

-روبرت بيترس... إنّه المكلّف بالمسبح في منزل بيغارد! كان يشرفُ على الحوض الخارجيّ في الفترة التي كان يعيشُ فيها الحقيرُ مع ابنته. لقد عَثَر روبرت بيترس على الطفلة الغارقة.

مصدومًا، أستندُ إلى جدارٍ لأنّي بدأت أفهمُ السرّ الذي يربطُ بين أمّ كلثوم وبيغارد. أستخدمُ نبرةً محايدةً للغاية كي أسالها:

(1) وردت الجملة في سياق تلاعب بالألفاظ الهدف منها السخرية من كثافة شعر المحقق تيرليتي وهرموناته الذكوريّة.

– هل أفاد أنّ بيغارد لم يكنْ موجودًا في المنزل ذلك اليوم؟

– هذا صحيح، لقد أكّد ما ادّعاهُ الحقير...

هذا هو إذن السّبب الذي يجعلُ بيغارد يغفرُ لأمّ كلثوم كلّ عيوبها! إنّه يخشى أن تكشف كذبته في أحد الأيّام وتعترف أنّ بيغارد كان موجودًا في منزله، وهو دليل إضافيّ على لامبالاته التامّة بابنته. وربّما أكثر من ذلك...

تُوقِفُ القاضية بواترونو جهاز الموسيقى، ثمّ تجلسُ على حافّة السّرير في تسلّط.

– هل أحرزت تقدّمًا في تحقيقك حول العنف؟ حسنًا، أنا أعني تحقيقي، الذي تنجزه لحسابي... هل جرّبت العقار المخدّر؟ هل قابلت الربّ؟ أسرع، أعطني تقريرك!

– إنّ شميت يمنعني من الحديث عن الأمر وقد ألزمني بكتابته.

– إذن، أعطني الوريقات التي حبّرتها...

– لا، أنا سأحسّنُ من طريقتي، أنا...

– هذا لا يعنيني! ستتفوّق على فولتير[1] أو بروست[2] لاحقًا. أريدُ أن أحدّد كيف يبرّر الربّ الفظائع التي يأمرُ بها ويرتكبها البشرُ باسمه.

أقدّم لها نسخة من لقائي مع «العين الكبيرة».

---

(1) فرانسوا ماري آرouيه ويُعرف باسم شهرته فولتير (1694–1778) هو كاتب وفيلسوف فرنسي عاش خلال عصر التنوير.

(2) مارسيل بروست (1871 – 1922) روائي فرنسي، من أبرز أعماله «البحث عن الزمن المفقود».

تفتحُ القاضية بواترونو حقيبتها لتخرج منها النظّارات قبل أن تلتقط علبةً بنفسجّية اللّون.

- هل تريدُ قطعة حلوى؟

- لا، شكرًا.

- معك حقّ! إنّها فظيعة! إنّها معطّرة بالبنفسجِ مثل رذاذ الشعر الذي أستعمله. لذلك، أشعرُ أنّي أمصّ مشطًا. هذا يصيبني بالغثيان...

تلتقطُ قطعتيْ حلوى، تحشرهما في جانب فمها الأيسر، ثمّ تنهمكُ في القراءة. ووفقا للجمل التي تقرؤها، تتّسعُ عيناها ويتغضّنُ أنفها وتتقلّصُ شفتَاها، أمّا وجهها المستديرُ المسطّح فهو لا يعكسُ سوى شعورٍ واحدٍ في كلّ مرّةٍ، ويخلو نهائيًا من التّعبيرات المعقّدة، تمامًا مثل دميةٍ.

بعد نصف ساعةٍ، تضعُ القاضية بواترونو الورقة الأخيرة على اللّحاف، تتنهّدُ ثمّ تتطلّع إليّ.

- عندما أسمع الربّ يتكلّم، أصبحُ ملحدةً. أوه لا، أنا أرفض ربًّا كهذا رفضًا مطلقًا.

- إنّ الربّ هو كما هو، لا كما تحلمين به.

- ما حاجتنا إلى الربّ ما دام الإنسانُ حرًّا؟ سيكونُ من الأفضل الاستغناء عنه...

تخرجُ مشطًا من حقيبتها وتسوّي شعرها مستغرقة في التّفكير.

- هل هو هكذا حقًّا؟

- لقد بدا لي هكذا.

- أشعرُ بخيبة أملٍ. كنتُ أتمنّى لو كان قديرًا، غير أنّه تخلّى عن قدرته وهو يجعلنا أحرارًا.

- من خاب أملهم في الربّ، خاب أملهم في الإنسان أيضًا. وهم إذ يطالبون بربٍّ كلّي القدرة، يركضون وراء إنسانٍ بلا حرّيةٍ.

- هذا لا ينفي ذاك: نحنُ ما نزالُ خطأً داخل مشروعه.

- بالعكس، نحنُ نجسّدُ مخاطرتهُ الأسمى.

- مخاطرة بلا فائدة... إنّ عدم وجودنا لن يعطّل حركة العالم. وفي مقابل ذلك يمكننا أن ندمّر كلّ شيءٍ. لماذا يزعجُ نفسه بترك هذه الثّغرة، أعني لماذا لم يترك جزءًا غير مخلوقٍ في ما خلقه؟

- لقد فعل ذلك كي لا يزعج نفسه، بالتّأكيد. فنحنُ مصدر تسليته.

تضحكُ القاضية:

- هنا، أنا أسايرك. لو خلق الربّ عالمًا مثاليًّا، لشعُر بالسّأم مثلما نشعرُ نحن بالملل أمام ساعة سويسريّة. ولكن لا، أنا ما أزالُ عند رأيي: إنّ ربًّا كهذا لا يناسبني. أنا أفضّل الإلحاد.

تمدُّ الصّفحات نحوي.

- إنّي أعيدُ لك تحقيقك حول العنف...

- ولكن...

- شكرًا لك، سآخذ هذا بعين الاعتبار. لقد خسر الربّ وربحت أنت: لن أبحث عن مسؤولية العنف إلاّ من جهة البشر.

- نعم؟

- ما سمعته بالضّبط. ثمّة نتيجةٌ أخرى: لا أريد أن أسمع ثانيةً عن الربّ أو الرّسائل الإلهيّة أو الدّيانات. طالما أنّ على الإنسان أن يقرّر، فليصمت الربّ وليحتقره الإنسان. أنا أرى أنّه يتعيّن علينا وضع حدّ لهذه الأفكار البالية والتخلّص من مظاهر التّعالي المزيّفة. فإذا كان الإنسانُ هو وحده من يذنب ومن يعاقب، سأكتفي إذن بالإلحادِ والقضاء. ليست هنالك حاجة إلى الربّ، بل يجبُ حظره من حياتنا.

- ماذا؟ الإلحاد الإلزاميّ؟

- الإلحادُ الإلزاميّ، هذا هو الحلّ.

- إنّ الإلحاد الإلزاميّ فكرةٌ غبيّةٌ شأنها شأن نشر المسيحيّة أو الإسلامِ عنوةً. أنت تتصرّفين كمتعصّبة سيّدة بواترونو: إنّكِ تفرضين آراءك بالقوّة.

- الإلحادُ لا يفرضُ معتقدًا بل عدم الاعتقاد. إنّه لا يسترشدُ بكلمات الربّ وبالواجبات المحمولة علينا، بل يصدرُ إلينا أمرًا كي نتدبّر أمرنا.

- إنّ الربّ، هو أيضًا، يتركُ لنا هذه المسؤوليّة، لكنّه هو، على الأقلّ، يلهمنا ويفاجئنا ويرتقي بنا ويدهشنا. أيّ مقدّسٍ سيبقى لنا إذا لم نعد نعتقد في الربّ؟ أنا أحبّ جدًّا فكرة أنّنا لسنا رائعين وأقوياء وعظماء مثلما نتخيّل. أنا أحبّ فكرة أن الحياة تتجاوزنا. أنا أحبّ التواضع حقًّا.

وأنا أضعُ الأوراق قرب حاسوبي، ألمحُ رسالة جديدة من مومو. أقاومُ رغبتي في قراءتها.

تدقّقُ القاضية بواترونو النظر إليّ.

- ماذا تخفي عنّي يا أوغسطين؟

أصمتُ وأخفض بصري.

تلحُّ قائلةً:

- أنت تخفي عنّي أمرًا مهمًّا.

أرفعُ رأسي وأتوسّلُ إليها:

- اصبري قليلاً. سأحدّثك عن ذلك قريبًا.

توافقُ ببطءٍ، مقتنعةً بصدقي، ثمّ تقتربُ من النّافذة.

- انظر: هذا المسكين ميشان يتسكّعُ في الزّقاق. إنّه يثير الشفقة! انظر إلى هيئة الضّحيّة التي يحملها! هل لاحظت أنّه مبتلٌّ دائمًا؟ إذا تأخّرتُ بضع دقائق أجدهُ قد حصل على وابل من الأمطار فوق رأسه. ها هو الرّجلُ الوحيد القادر على تلقّي وابلٍ من الأمطار في قلب الصّحراء.

ثمّ تربّتُ على خدّي قائلةً:

- إلى لقاء قريب يا أوغسطين. سأنتظرُ أن تبوح لي بسرّك.

ما إن أجد نفسي وحيدًا حتّى أهرع إلى الحاسوب وأقع على رسالة مومو:

«الآن، كلّ شيء يسيرُ على ما يرام. سيكونُ هناك انفجارٌ غدًا مساءً».

لقد انقضت أربعُ ساعات منذ زيارة القاضية، قضّيتها أقاتلُ من أجل جملٍ تهربُ منّي. كنتُ قد أجبتُ مومو على الفور «ماذا؟ ماذا سيحدثُ

هذا مساءً؟ ما الأمرُ الذي يسيرُ على يرام؟»، ولكنّي لم أتلقّ إجابةً. إنّ الخطر الدّاهم -أو إغراءه- يشعرني بالاضطراب حتى إنّي أجاهد كي أحافظ على تركيزي.

كنتُ أريدُ الذّهاب إلى شميت لأناقشهُ في الأمر، لكنّه منذ عودته، كان قد أغلق على نفسه باب مكتبه ليكتب، ولم ينضمّ حتّى إلى مايا التي تركت دراسة القانون وذهبت إلى المسبح. لم أتحمّل حقيقة أنّ لديّ كلّ هذا الوقت المخصّص للتّفكير، وهو ما جعلني أشعرُ بالعار.

فإلى حدّ الآن، لم تترك لي الحاجة الملحّةُ إلى الحياة سوى فرصٍ قليلة للتأمّل في الحياة. ومنذ أن أقمتُ في ملحقِ القصر، كان لديّ الوقتُ للتّفكير. والنتيجة؟ عوض أن تتوضّح أفكاري، كلّ شيء يزدادُ عتمةً.

على السّاعة السّابعة مساءً، في ذلك الوقت الذي تطلي فيه السّماء الأسوار بأضوائها، بينما تزيلُ جدران القصر حرارة النّهار، يعبرُ شميت الحديقة ويطرقُ باب الملحق.

ثمّة قلقٌ يترك خطوطه فوق جبينه. نظراته تتفاداني. يتحرّكُ بشكلٍ أخرق مثقلاً بشيءٍ من الانزعاج حتّى إنّي لم أتعرّف إليه. بحركةٍ من يده، يدعوني إلى الجلوس قبل أن يجلس أمامي في جمود.

- لقد مررتُ بوقتٍ عصيبٍ للغاية يا أوغسطين. فبعد ظهر هذا اليوم، أزعجتني الشرطة وسألتني عنك.

أخفض رأسي مدركًا أنّي توقّعتُ دومًا أن تنتهي إقامتي بطريقة سيّئة.

ترتجفُ شفة شميت السّفلى بشكلٍ عصبيٍّ. يواصلُ كلامه بلهجةٍ قاسيةٍ تقاومُ عاطفته:

- الشرطة تعرفُ أنّنا التقينا. إنّها تعرفُ ذلك من خلال مقالك الذي صدر في صحيفة الغد وعبر الرّجل الذي يتبعك، ذلك الذي أفلتنا من مراقبته... لقد أنفقوا وقتًا كثيرًا كي يصلوا إلى هذا لأنّهم بحثوا عنّي في بروكسيل ثمّ في باريس.

- هل هم ينتظرونني في بيتك؟

- لقد أكّدتُ لهم أننا التقينا، وأنّي أحترمك، لكنّي لم أكشف لهم أمرَ استضافتك عندي.

- شكرًا لك.

- لقد رحلوا.

- أوف...

- اجمع أمتعتك وغادر غيرمانتي حالاً.

- لكن...

- لقد كذبت على الشرطة حتّى الآن. خلال دقائق، كنتُ سأقولُ لهم الحقيقة. افعل ذلك من أجلي يا أوغسطين، أرجوك.

يضعُ مظروفًا فوق ركبتيّ.

- خذ، هذا هو المال الذي وعدتك به. أنا أعتمدُ عليك في أن تسلّمني النصّ.

- أقسمُ لك!

- ولا تعترف لهم مطلقًا أنّك أقَمْتَ هنا يا أوغسطين. لا أرغبُ في أن تُوَجَّه إليّ تهمة الإدلاء بشهادة زورٍ أو تضليل العدالة.

- أقسمُ لك برأسي على هذا أيضًا. كن على ثقةٍ من هذا.

- الثّقة...

ينهضُ ويتوجّهُ متثاقلاً نحو الباب.

لكي أشعره بالاطمئنان، أعلن له بقوّة:

- سأذهبُ للتحدّث معهم. إذا كان رجال الشرطة يرغبون في استجوابي، فلن أختبئ منهم.

يفركُ جبهته.

- إنّهم لم يأتوا لاستجوابك يا أوغسطين، بل لاعتقالك.

- أرجو المعذرة؟

تشرعُ ساقاي في الارتجاف. ويسيلُ العرقُ على ظهري. ينحني جسدي على نفسه، كما لو أنّ أحدهم قَطَعَ أوتاره وأربطته.

يشرح شميت الأمر لي بصوتٍ حزينٍ:

«لقد أخبروني أنّ ثمّة انفجارات وقعت، أبلَغَ عنها أشخاصٌ كانوا قد سمعوا أصوات انفجاراتٍ مشبوهةٍ. واكتشفت الشرطةُ مختبرًا سريًّا، هو المكانُ الذي صُنعت فيه قنابل هي عبارة عن أحزمةٍ ناسفةٍ يدويّة الصّنع. وهنالك... عثرت الشرطة على آثارك.

- أرجو المعذرة؟

- لقد عثروا على بصمات أصابعك وعيّنات من حمضك النوويّ.

- مستحيل!

- لماذا ستكذب الشرطة حول وقائع خطيرة كهذه؟

- حسنٌ! أين يوجد هذا المختبر السرّيّ؟

- في مصنع مهجور. مصنع للّوالبِ.

-21-

إنّها الثّامنة والنّصف ليلاً.

تجري الخطّةُ تمامًا مثل حلمٍ. كنّا قد اختبأنا، مومو وأنا، في الطّابق السفليّ من المسرحِ، ننتظرُ فوقَ المصعد ليرفعنا إلى الخشبة. ثمّة ثلاثة أصابع من الدّيناميت، ملتصقة ببطني وجاهزة للانفجار تعيقُ تنفّسي، ولكنّ هذا لن يدوم طويلاً. سابحًا في عرقه وملطّخًا سرواله بالبول، يتحسّسُ مومو أيضًا خصرهُ الذي أصبح واسعًا بسبب الحزامِ النّاسف الذي يرتديه. نتبادلُ نظرات محمومة بينما يخفقُ قلبانا بشدّة.

تصلنا من الأعلى جلبةُ الأطفال الذين يحتلّون القاعة، وأصوات ضحكاتهم وصرخاتهم المهتاجة وصيحاتهم المتحمّسة. يهدّئُ الآباء والأساتذة من حدّة حماستهم لكنّهم يتساهلون مع صخبهم، لأنّ الأمر يتعلّق بأمسيةٍ احتفاليّة.

في جوفِ يدي، ثمّة جهاز متّصلٌ بسلكٍ: إنّه زنادُ التفجير.

كم تبقّى لديّ من الوقت في هذه الحياة؟

هذا اليوم لا يشبهُ يومًا آخر.

فبالأمس، وأنا أغادرُ منزل شميت، كان لديّ بضعُ ثوانٍ لأوجّه رسالة إلى مومو:

«لقد عدتُ من سوريا. نلتقي غدًا، على السّاعة التّاسعة صباحًا، في قاعة الألعاب».

بعد ليلةٍ قضّيتها أرتجفُ فوق مصطبةٍ وراء محطّة القطار، التحقتُ بمومو الذي كان ينتظرني في كازينو المراهقين. ماذا حدث؟ وما إن رأيت وجهه الشّاحب وجفنيه المحمرّين، حتّى غمرتني فرحة صادقة، هي مزيجٌ من المودّة والشفقة واليأس. وعلى الرّغم من أنّ كلّ واحدٍ منّا كان يرغبُ في تقبيل الآخر، بما أنّنا كنّا نشعر بالسّعادة للمّ الشّملِ هذا، فإنّ الرّصانة وتوخّي السّريّة جعلانا نتحفّظُ في إظهار مشاعرنا. ومع ذلك، كانت أعيننا تقولُ كلّ شيء.

- هل ستحدّثني عن سوريا يا أوغسطين؟

- بالطبعِ لا.

نتبادلُ الابتسامات.

- وأنت ماذا أعددت؟

في جملٍ قليلةٍ، يكشفُ لي مومو أنّه عمل متفجّرات يدويّة الصّنع. لقد تمكّن من تجاوز الصّعوبات مستعينًا بشبكة الأنترنت للحصول على التّفاصيل التّقنية، وبأبناء حيّه للحصول على الموادّ الأساسيّة.

- أين اختبأت لإجراء تجاربك؟

- غير بعيدٍ عن حاوية القمامة التي التقينا عندها، في ذلك المصنع الذي يقعُ خلف الجدار، المصنع الذي لا يذهب إليه أحد.

بعد ذلك، شرح لي الغرض من هذه القنابل: تدمير أحد المسارح.

- هذا المساء، ثمانمائة شخص، صبيان ومراهقون مع عائلاتهم وأساتذتهم، سيملؤون مسرح غرامون. إنّها فرصةٌ مثاليّة!

- هل سيكون هناك أشخاصٌ مسلمون أيضًا؟

- إنّهم يهودٌ ومسيحيّون وملحدون.

- ماذا عن المسلمين؟

- أنا لا أهتمّ. هم مسلمون سيّئون لا يستحقّون الحياة. على أيّ حال، أنا أكرههم كلّهم!

في تلك اللّحظةِ بالذّات، سمعتني أقولُ:

- سآتي معك.

جالسًا في عمق المقهى، حقيبتي بين قدميّ، أكتبُ مترصّدًا الزّبائن والعابرين خشية أن يُداهم تيرليتي أو رجال الشرطة المكان. لم أكن قد نسيتُ أنّني مفتّش عنه وأنّه سيتمّ اعتقالي فور ظهوري... من الآن فصاعدًا، لم يعد الوقتُ يجري في الاتّجاه نفسه: إنّهُ يتناقصُ عوضَ أن يتزايد، فأنا أقيسهُ انطلاقًا من كارثةٍ ستحلُّ قريبًا، سواء تعلّق الأمرُ باعتقالي أو بعمليّة هذه اللّيلة. سجينًا لهذا العدّ التنازليّ، أعي أنّي أستمتعُ بلحظات حرّيتي الأخيرة. بعد أن أضع قلمي، أمتّعُ نفسي بكرات اللّحم وصلصة الطماطم، هذا الطبق البلجيكيّ التّافه والمطمئن يُعتبر وجبة مثاليّة لرجل حُسم مصيره.

ترتجفُ يدي أحيانًا وأنا أرفعُ الشوكة إلى فمي.

ماذا سأفعلُ؟

ثمّة صورةٌ تنطبعُ في ذهني: أرى نفسي ومومو مختبئين، داخل كعكةٍ

مصنوعةٍ من الخشب الرّقائقي، متحزّمين بالمتفجّرات والصّواعقُ في أيدينا. إنّ مستقبلي يظهر لي هناك!

في وقتٍ سابقٍ، عندما كرّرتُ على مسامع مومو أكثر من مرّةٍ أنّي سآتي معهُ إذا ما وفّر لي حزامًا ناسفًا، ارتمى في حضني وعانقني. اعتصرتني ذراعاه وشعرتُ، من ارتجافات جسده، أنّه يكبحُ دموعه. فجأةً، تراجع إلى الوراء، وسحبني من يدي. بعد عدّة شوارع، وصلنا إلى مقهى أنترنت واخترنا حاسوبًا. أخرج من جيبه جهاز تخزين بيانات[1] ووضعهُ في الحاسوب.

تظهرُ مجموعة من الصّورِ، صور أطفالٍ يدخلون بالترتيبِ إلى المسرح. تحت إصبع مومو، تمرُّ المقاطع بوتيرةٍ متسارعةٍ. ثمّة عرضٌ للهواة كان قد بدأ، لتتعاقب بعده الفقرات الهزليّة. فجأةً، اجتمع الصّبيةُ الذين شاركوا في العرض، وسط خشبة المسرح، ودوّت ترنيمةُ عيد ميلاد قبل أن تظهرَ، من الأسفل، كعكعةٌ ورديّةٌ هائلةٌ مكوّنةٌ من عدّة طوابقَ يبلغُ ارتفاعها حوالي الثّلاثة أمتار. صفّق الأطفالُ متحمّسين وشرعوا في الغناء «عيدُ ميلادٍ سعيد».

أوقف مومو مقطع الفيديو.

- هذا هو: سنختبئ هنا، داخل الكعكة المصنوعة من الخشب الرّقائقي. خلال هذا الأسبوع، أضفتُ إليها بالفعل أكياسًا من المسامير والكرات الفولاذية، كي نتأكّد من أنّ الانفجار سيحدثُ أكبر قدر من المقذوفات. كلّ الجمهور الحاضر سيتأثّر

(1) جهاز تخزين بيانات يحوي ذاكرة وميضة تستخدم واجهة USB، يستخدم كوسيط عملي لتخزين البيانات ونقلها.

بالانفجار. ستكونُ مجزرةً حقيقيّة! ما رأيك في هذا؟ هذا الفيديو هو من حفلة مدرستي العام الماضي. لقد شاركتُ فيها. هذه المرة سأكونُ هناك أيضًا، حتى إن لم يكن مرحّبًا بي. إذن، هل أنت موافق؟

- موافق!

وكعلامةٍ على اتّفاقنا، خبطنا أكفّ بعضنا كما لو أنّنا نتّفقُ على نزهةٍ بريئةٍ بالدرّاجة. ثمّ ارتمى مومو مجدّدًا في حضني، متوتّرًا ومرتجفًا من الحماسِ والاندفاعِ والخوف.

أتوقّف عن الكتابة لألتهم كرة لحم جديدة. نعم، سأكونُ داخل الكعكة مع مومو، نعم، سأرتدي حزامًا ناسفًا، ولكن ليس لقتل الأطفال، بل لإنقاذهم!

تتسارعُ دقّات قلبي، وهْوَ ما يجعلُ أفكاري أكثر وضوحًا في كلّ ثانيةٍ. فإذا كنتُ أتواصل مع مومو لأسابيع، فإنّ ذلك كان لمنع وقوع الفظائع التي سيرتكبها. هذه هي مهمّتي! هذا هو المنطق الذي يقودني! كم مرّةً سألت نفسي: من يتكلّم داخلي عندما أتكلّم؟ من يعملُ داخلي عندما أعمل؟ هل أنا مؤلّفُ فكرتي؟ أنا لا أعرفُ أكثر من ذلك، ولكنّي على يقينٍ من أنّ الأمر يتعلّقُ بدافعٍ نحو الخير لا الشرّ.

يعبرُ أحد تفاصيل خطّتي ذهني. أقفزُ نحو البار وأطلبُ جهاز هاتفٍ.

- لم يعد أحدٌ يطلبُ منّا هذا، تقولُ صاحبة المكان متذمّرةً.

- لقد أضعتُ هاتفي.

- اثنان يورو.

تمدُّ لي الهاتف وتبتعد كي تنظّف الكؤوس. أضعُ يدي أمام ملتقط الصّوت كي أغيّر من نبرة صوتي.

- آلو، الشرطة، أنا في الاستماع، تقولُ امرأةٌ بصوتٍ مرهق.

- هل المحادثة مسجّلة؟

- أجل.

- هناك قنابل وضعت في مسرح غرامون. ستنفجرُ هذا المساء أثناء الحفلة. يجب أن تلغوا العرض وتغلقوا المسرح.

- آلو؟ ماذا؟ قدّم نفسك يا سيّدي. من...

- هذا المساء في مسرح غرامون. هنالك قنابل. ألغوا كلّ شيءٍ. إنّها مسألة حياةٍ أو موتٍ.

أضعُ السمّاعة مرتجفًا أمام حقارة ما أعلنت عنه وقلقًا من احتمال أن يكون أحد مّا سمعني في المقهى. لكنّ الزبائن يواصلون المضغ والشرب والحديث دون أدنى اهتمامٍ بأمري. هؤلاء الغافلون، إنّهم يتجاهلونني بينما أقومُ للتوّ بإنقاذ أطفالهم وأبناء إخوتهم وأصدقائهم! إنّ جحودهم يجعلني أكثر من بطلٍ...

تنجذبُ عيني إلى صحيفة مهملة فوق البار. ثمّة شريطٌ أسود، وجنائزيٌّ، يحيط بالصّفحة الأولى من صحيفة الغد كما لو أنّ الأمر يتعلّقُ ببلاغ عن حالة وفاةٍ. يمتدُّ العنوانُ على الصّفحة بأحرف كبيرة وغليظة: «حرّية الصّحافة اغتيلت»، فوق صورة عريضة لفيليبار بيغارد، بيديه

المكبّلتين، وعينيه اللّتين تشعّان بنظرات الضحيّة، وبالشريط اللاّصق الموضوع على فمه.

تفطّنت صاحبة المحلّ إلى دهشتي قبل أن تصرخ:

- يا له من لصٍّ، هذا البيغارد! لقد علمنا أنّه متورّطٌ في فضيحة الفواتير المزيّفة التي كانت تستخدم في تمويل الأحزاب السياسيّة. هو لم يكتفِ بهذا ولكنّه مدينٌ بالملايين لمصالح الضرائب.

- هل وقع إيقافه؟

- لا! لقد حقّقوا معه فقط. ما هذه الصّورة إلاّ مسرحيّة كي يبيع صحيفته الرّديئة... إنّه يتجرّأ على تقديم نفسه كشهيدٍ! يا له من قمامة... يبدو أنّه هرب بالفعل إلى جزر الكايمان. ونعم الخلاص!

أهزّ كتفيّ، وأعودُ إلى طاولتي، آخذ أوراقي وأنهي قصّتي قبل أن أضعها في مغلّفٍ أخضرَ كبيرٍ يحملُ شعار الصحيفة وعنوانها.

على السّاعة السّادسة مساءً، ندخلُ، مومو وأنا، إلى الكواليسِ عبر فتحة نافذةٍ تطلُّ على زقاق يمرُّ منه المترجّلون.

تأخذ العمليّة كثيرًا من الوقت، فنحن نتعاملُ مع متفجّرات. إنّ أيّ حركةٍ خرقاء ستكونُ قاتلةً، لذلك نتقدّم ببطءٍ وصمتٍ، منسجمين مثل مجرمين محترفين. بعد اختراقنا للمبنى، ننزلُ تحت خشبة المسرح كي نصل إلى الكعكة العملاقة. تحت الخشبة التي تفوحُ برائحة الزّيت والأتربة الكثيفة، تثيرُ الحبالُ والحواملُ الكثيرة دهشتي. أسفل قدميّ، أكتشفُ أعماقًا أخرى. ثمّة مستوى ثانٍ، بل وثالث، تحت الأرض حيث يقعُ إنزال لوازم الديكور. لا شكّ أنّ هذه اللّوازم المتراصّة تدعم

المشاهد المسرحيّة التي تتعدّدُ ديكوراتها، وكان أسلافنا يحبّونها.

يدفعُ مومو الباب السرّيّ الموجود في الكعكة الورديّة وندخل إلى الوعاء. ثمّة أكياسٌ تزيّنُ حاجز الكعكة الخشبيّ الذي سيواجهُ الجمهور.

- إنّي أكدّسها منذ خمسة أيّام، يعترفُ لي مومو وعيناه تلمعان.

- هيّا، لنضع الأحزمة!

- منذ الآن؟

- إنّهُ إجراء طبيعيّ.

بسلاسةٍ طبيعيّةٍ تشعرني بالارتباك، فرضتُ نفسي قائدًا. نشرعُ في تفريغ أصابع الدّيناميت بحذرٍ قبل أن أتوقّف.

- سأذهب للتبوّل طالما أنّه ما يزال بإمكاننا فعل هذا.

- ماذا؟

- هه يا مومو، ما يزال أمامنا ساعتان.

- هل تريدُ أن تهرب؟ أنت جبنت، أليس كذلك؟

- لا، أقسمُ لك.

أتظاهرُ بالغضب. نصف مقتنعٍ، يتذمّر مومو لبضع ثوانٍ ثمّ يفسحُ لي الطريق. أغادرُ الكعكة وأذهبُ ناحية الكواليس. وحالما أبتعد عن مجال رؤيته وسمعه، أسرع وأصعد إلى الطابق العلوّي.

يخيّمُ الصّمتُ والظلامُ في القاعة التي تعطيها أضواء الأباجورات الزرقاء الخافتة مظهر حوض أسماك. مستخدمًا مصباحي اليدويّ، أعثرُ على غرفة التّحكّم في الشرفة الأولى، المنفصلة عن جدار القاعة الخلفيّ.

أتسللّ داخلها، وأشعل النّور قبل أن أخرج من جيب سروالي جهاز تخزين البيانات الرقمّي الذي سرقتهُ من مومو، ذلك الجهاز الذي يحتوي على حفلة السّنة الفارطة. لحسن الحظّ، كنتُ معتادًا على غرفة التحكّمِ، ففي المدارس التي ارتدتها، كنتُ أعملُ دومًا مهندس صوتٍ أثناء الحفلات كي أتفادى الصّعود على الخشبة. أحمّل الفيديو على الجهاز وأبرمج بثّه على السّاعة الثامنة والرّبع.

بعد أن أُنْهِي مهمّتي، أهرعُ نحو الطابق السفليّ.

أصلُ لاهثًا قرب مومو الذي أحسّ بالذّعر عندما تركتهُ وحده. وبدلاً من أن يوبّخني على مدّة اختفائي، يتنهدّ بارتياح:

- لقد شعرتُ بالخوف...

- مِمَّ؟ من أن أهرب؟

- شعرتُ بالخوف...

- إنّها الرّهبة!

- هل تعتقدُ ذلك؟

- يقالُ إنّ نفاد الصبر هو مصدر الرّهبة. نحنُ نتحرّقُ شوقًا إلى تفجيرهم، أليس كذلك يا مومو؟

- بلى!

إنّه يريدُ أن يعانقني، وقد أصبح أكثر ودًّا وطفوليّة، ولكنّه يسيطرُ على انفعالاته لأنّه كان قد ارتدى الحزام النّاسف.

إنّها الثّامنة والنّصف ليلاً.

تجري الخطّةُ تمامًا مثل حلمٍ. كنّا قد اختبأنا، مومو وأنا، في قبو

المسرحِ، ننتظرُ فوق المصعد الذي سيرفعنا إلى الخشبة. ثمّة ثلاثة أصابع من الديناميت، ملتصقة ببطني، وجاهزة للانفجار تعيقُ تنفّسي، ولكنّ هذا لن يدوم طويلاً. سابحًا في عرقه وملطّخًا سرواله بالبول، يتحسّسُ مومو أيضًا خصرهُ وقد أصبح واسعًا بسبب الحزامِ النّاسف الذي يرتديه. نتبادلُ نظرات محمومة بينما يخفقُ قلبانا بشدّة.

تصلنا من الأعلى جلبةُ الأطفال الذين يحتلّون القاعة، وأصوات ضحكاتهم وصرخاتهم المهتاجة وصيحاتهم المتحمّسة. يهدّئُ الآباء والأساتذة من حدّة حماسهم لكنّهم يتساهلون مع صخبهم، لأنّ الأمر يتعلّق بأمسيةٍ احتفاليّةٍ.

في جوفِ يدي، ثمّة جهازٌ متّصل بسلكٍ: إنّه زنادُ التفجير.

يُدوّي صوتُ الدّقّات الثّلاث، ويبدأ العرضُ.

ما يزال أمامي بضعُ دقائق قبل أن تصدح موسيقى عيد الميلاد. لقد أنجزتُ جزءًا من خطّتي: المسرحُ فارغٌ، نحنُ لا نسمعُ سوى التّسجيل الصّوتي من حفلة السّنة الفارطة الذي تبثّه مكبّرات الصّوت بعد أن حمّلته على الجهاز، مومو لم يكتشف الخدعة، فنحن لا نسمع هنا، بين الألواح الخشبية، سوى أصواتٍ مكتومة ولا نتبيّن الكلمات. إذا فجّر قنبلتهُ، لن تكون هناك خسائر بشرّية. حسنٌ، باستثنائنا نحنُ الاثنين.

لم يبق أمامي الآن سوى أن أقنعهُ بالتّخلّي عن العمليّة.

في كلّ مرّة حاولتُ ذلك، طوال السّاعتين الأخيرتين، كان حسين يظهرُ فوق رأس أخيه ويغطّي على كلماتي بخطبه. لم يبقَ لمومو سوى الكراهيّة لتبرير وجوده هنا، تلك الكراهيّة التي كان حسين يشحنها باستمرارٍ، حتّى إنّه لم يعد في وسعي أن أفاتحهُ في الأمر بعد الآن.

أنا خائفٌ، ولكن ليسَ ممّا كنتُ أعتقدهُ. أنا لا أفكّرُ في الموت بل أخشى الحادث المباغت الذي من شأنه أن يعيقَ تنفيذ خطّتي. داخل المسرح، وكما كان الحالُ في قصر شميت، لا يمكنني الوصولُ إلى أفكار عبقريّة، بل أظلُّ عالقًا داخل الخوف من الحوادث المباغتة ومتخبّطًا داخل التّفاصيل. يا له من رأس ضيّقٍ رأسي هذا! بصراحةٍ، لو حدث لي أيّ مكروهٍ، فلن تفتقدني البشريّة.

داخل الكعكة، وعبر شقٍّ بين اثنين من طوابقها، أميّزُ الكواليس في الطابق السفليّ، والأخشاب والأسلاك في الظّلام، وأراقبها باستمرار، لأنّه لا يوجد شيءٌ آخر أضعُ عينيّ عليه. أمّا مومو، فلم يكن أمامه سوى الحاجز الخشبيّ.

في الأعلى، تنتشرُ أصواتُ التّصفيق.

نتبادلُ النّظرات، مومو وأنا، متسائلين عمّا إذا كان دورنا قد حان... لكنّ موسيقى مرحة تصدحُ معلنةً عن فقرةٍ هزليّةٍ جديدةٍ. نطلقُ زفراتٍ حارّةً. هل هو الارتياح؟ أم الانزعاج؟ أم الإحباط؟ أم الغضب؟ أنا عاجزٌ عن معرفة ذلك.

- مومو، أليس لديك أصدقاء في القاعة؟

أعلمُ أنّه لا يوجد أحد ولكنّ مومو لم يشكّ في الأمر.

- لا أصدقاء لي.

- لديك أصدقاء ولكنّك لم تعد ترغبُ فيهم.

- لديّ أنت.

- ألا تتخيّلهم، بلحمهم وشحمهم، وحقيقيّون جدًّا، وهم

يجلسون في مقاعدهم أو متنكّرين في أدوارهم؟

- اخرس!

أصبح مومو يتكلّم أكثر فأكثر بصوت حسين ونبرته وبحّته وقسوته. أشعرُ أنّ الميّتَ يستولي تمامًا على جسد الحيّ. كيف سأتمكّنُ مـ...

ثمّة شبحٌ يظهرُ في آخر الكواليس. أرتجفُ. ماذا؟ هل ثمّة أحدٌ مّا يمشي داخل المسرح؟ هل هو أحد التّقنيين؟ هل هو أحد الحرّاس؟

يقتربُ الظلّ من الكعكة ببطءٍ وأتعرّفُ إلى... القاضية بواترونو.

وإذ ترصدني عبر الشقّ، تحثّني على الالتحاق بها.

كيف يكونُ هذا ممكنًا؟

لماذا تعرّض نفسها لخطرٍ كهذا؟

صحيحٌ أنّها الإنسان الوحيد القادر على الوقوف في وجه رجال الشرطة وعبور حاجزٍ أمنيّ، ولكن لماذا؟

- مومو، عليّ أن أذهب للتبوّل مرّةً أخرى.

- لا! لقد قرب الوقت.

- دعني وشأني. سأعود.

- أنت ستهرب!

- ها نحن أولاء مجدّدًا! من القائد هنا؟ قلتُ لك إنّي سأعود.

بانتباهٍ شديد، أسحبُ نفسي خارج الكعكة، محاذرًا ألاّ أضغط على الصّاعقِ أو أصطدم بالمتفجّرات.

عندما أصلُ قرب القاضية بواترونو تدعوني إلى أن أتبعها بعيدًا داخل الكواليس.

- إنّها كارثة يا أوغسطين، هنالك ثمانمائة شخص يجلسون في الأعلى، بينهم خمسمائة طفلٍ!
- ماذا؟ لقد اعتقدت أنّ المسرح مغلقٌ.
- لقد تجاهلت الشرطةُ رسالتك! بإمكانك أن تتخيّل أنّه في الوقت الحالي، تتلقّى أجهزة الشرطة عشرات الإنذارات في اليوم بوجود قنابل قادمة من مكالمات مجهولة. لقد أرسل تيرليتي ضابطين قاما بتمشيط القاعة أوّل ظهر اليوم، ولمّا لم يعثرا على عبوّةٍ مريبةٍ، اكتفى بإصدار أوامره لمراقبة هويّات المتفرّجين عند المدخل وتفتيش حقائبهم.
- يجب أن تأمري بإخلاء المكان فورًا!
- تيرليتي لن يستمع إليّ.
- مستحيل!
- لم يعد تيرليتي يستمع إليّ.
- ولكن... أنت قاضية تحقيق.
- ولكنّي لستُ قائد الشرطة. اتبعني يا أوغسطين. دعنا نرحل في الوقت المناسب.
- هل أنت مجنونة؟ خلال دقيقتين، سيشغّل مومو حزامه النّاسف ويفجّر المسرح. ستكونُ نهاية العالم!
- إذن، لا تنتظر أن تصعد على خشبة المسرح، فجّر نفسك حالاً.

أرفعُ رأسي نحوها. أشعرُ أنّ جسدي يفرغُ من دمائه.

- لا. سأقنعُ مومو بأن يوقف العمليّة.

- لقد كنت تحاولُ منذ ساعة بالفعل!

- كيف عرفت ذلك؟

- أنا أسحبُ ما قلت لك يا أوغسطين. لا تفجّر نفسك على الفور. هذا الطابق لا يكفي... سينتجُ عن الانفجار قتلى أقلّ داخل القاعة ولكن العدد الأكبر سيكون على خشبة المسرح. هناك خمسون طفلاً على الأقلّ سيكونون فوقها. لا يوجدُ مخرج من هذا!

في تلك اللّحظة، أنتبهُ للظّلام تحت قدميّ، بين الألواح الخشبيّة التي نقف فوقها.

- بلى، هنالك حلٌّ. أن نذهب إلى الأسفل.

تنظرُ إليّ مندهشةً. أتطلّعُ إلى الأسلاك المعلّقة حولنا.

- المصعد الخشبيّ الذي يحملنا إلى الأعلى، بإمكاننا أن نستخدمه كي ننزل إلى الأسفل أيضًا. سيكونُ فوقنا طابقٌ أو اثنان. إذا فجّرنا أنفسنا أسفل المسرح فسيكونُ تأثيرُ الانفجار محدودًا في الأعلى.

تعلن موافقتها بوجومٍ. ولكن، بينما اعتقدتُ أنّي وجدتُ الحلّ، أشعرُ بالإحباط:

- لا... هذا مستحيل!

- ماذا؟

- من سيقوم بإنزال المصعد؟ لا يوجدُ عامل تشغيل في هذا الطابق.

- وأنا، ماذا أفعلُ هنا أيّها الحمار؟

أتطلّع إلى القاضية بواترونو وهي تتميّزُ غيظًا.

تكرّرُ شاعرةً بالإهانة:

- برأيكَ، لماذا أنا هنا؟

- إذا بقيتِ، سيقضى عليك معنا.

- عُدْ إلى كعكتكَ.

تهتزّ موسيقى عيد الميلاد فوقنا.

بعيدًا، يصرخُ مومو بصوتٍ يتلوّى من الخوف:

- أوغسطين!

- أنا قادم!

أسرعُ بالقدر الذي يسمحُ لي به حملي وأدخل إلى الكعكة. عندما يستقبلني، يبتسمُ لي مومو والدّموعُ تسيل من عينيه. فوقه، احتلّ حسين كلّ المساحة الباقية داخل المقصورة بهيئته الضّخمة، السّوداء، والمرعبة، وبفمه الذي شوّهتهُ الكراهية.

- مومو، يجب أن أخبركَ: هناك أناسٌ حقيقيّون في الأعلى!

- أعرف...

«عيد ميلاد سعيد».

يرتجُّ المصعد الخشبيّ. لثانيتين، أخشى أن يصعد إلى الأعلى، ولكنّي أشعرُ أنّهُ ينزل ومومو لا ينتبه لذلك، وهو يركّزُ كلّ جهوده وانتباهه على

الإصبع الذي سيضغطُ على زرّ التفجير. يمنعني حسين من الاقتراب منه. لن أتمكّن أبدًا من إيقافه.

«عيد ميلاد سعيد»

يتأرجحُ المصعد الذي يحملنا، يحتكّ، يئنّ، يصرُّ، يفرملُ قبل أن يتوقّف فجأةً.

- الله أكبر !، يصرخُ مومو.

صراخٌ يتلوهُ صمتٌ سرعان ما تطغى عليه الضوضاءُ.

يحدثُ الانفجار.

فجأةً، يغمرُ البياضُ كلّ شيءٍ.

إيريك إيمانويل شميت
غيرمانتي، 30 يونيو 2016
السيّدة قاضية التحقيق،

أحيلُ إليكمُ هذه الوثيقة الغريبة، مغلقةً داخل مظروفٍ أخضر كبيرٍ يحمل شعار صحيفة «الغد» وعنوانها، كانت وصلتني عبر البريد أيامًا قليلة بعد الهجوم المؤسف الذي تسبّب في احتراق مسرح غرامون، بشارلوروا، في شهر أبريل الماضي. إنّ الأمر يتعلّق باعترافٍ مطوّلٍ، مقسّم إلى واحد وعشرين فصلاً، يبدأ بقنبلة وينتهي بأخرى، اعتراف غنيّ بالتّفاصيل المهملة والشّخصيات المجهولة، موقّع من طرف صبيٍّ هو اليوم شخصيّة شهيرة للأسف، اسمه أوغسطين تروليبه.

لقد حسمت أجهزة الشرطة والقضاء ووسائل الإعلام المسألة: كان أوغسطين تروليبه واحدًا من أشدّ الإرهابيين توحّشًا في زمننا هذا طالما أنّه أعدّ المذبحة التي شهدتها ساحة شارل الثاني، والحرائق التي أعقبتها وأخيرًا الانفجار الفظيع الذي دمّر احتفالاً مخصّصًا للأطفال. إنّ هذا الذي يطلق عليه الصحفيّون الآن في جميع أنحاء العالم اسم «العقل المدبّر»، كان محور ملايين التّعليقات، لا بسبب الامتداد الكريه لرقعة آثامه فقط وإنّما لأنّه، على عكس الإرهابيّين المنحدرين من أصول مغاربيّة، ولد لأبوين بلجيكيّين -صحيح أنّهما مجهولان- ونشأ في أوساط غير متديّنةٍ. إنّ تطرّفه يربكُ تحاليلنا للظّاهرة.

أعترفُ أنّني -وكما تعلمون فلقد أخذت الشرطةُ إفادتي- عاشرتُ أوغسطين تروليبه الذي كنتُ أحمل عنه فكرةً طيّبةً. وليس مهمًّا أن يكون ما أقوله صادمًا فلا أحد بإمكانه دفعي إلى مراجعة الطريقة التي

كنتُ أراهُ بها. هل خدعني؟ هل نجح في إخفاء تطرّفه تمامًا مثلما يعتقدُ المفتّش تيرليتي؟ حتّى وإن بدوتُ ساذجًا، أنا أكرّرُ أنّي التقيتُ إنسانًا رقيقًا، حسّاسًا، محبًّا للأدب، سَؤولاً وحريصًا على السّلامِ والاستقامة، مثلما نتبيّنُ ذلك من خلال هذه الصّفحات.

اقرؤوا، من فضلكم، هذا النصّ الذي سيربككم. أنا لا أعرفُ أين أصنّفه. هل هو يوميّاتٌ تسردُ وقائع هذه الأسابيع المميتة أم هو نصٌّ روائيّ؟ من الذي كان يتحدّث أثناء كتابته، الروائيُّ أم كاتب اليوميّات؟ هل كان أوغسطين تروليبه هو نفسهُ حقًّا عندما كان يكتب؟ هل سنتمكّن من فكّ رموز كلمات الرّجل البريء الذي كانهُ أو الذي أراد أن يكونه؟

إنّ للوقائع أعينًا مفقوءةً، وأصواتًا خرساء، وهي لا تحكي شيئًا. إنّ أشلاء جسده التي عُثر عليها بين الحطام كشفت للمحقّقين أنّ أوغسطين تروليبه اقترف الجريمة بمعيّة محمّد بدوي. ولكن، حسب ما يتّضحُ من هذه الصّفحات، فإنّ وجود أوغسطين في ذلك المكان يكشف، بدلاً من ذلك، عن التّضحية التي أنقذت أرواح الأطفال في نهاية المطاف.

إنّ الجميع مسرورون اليومَ بالخطإ في عمليّة التّشغيل وهو الذي أرسل المرقى المحمّل بالمتفجّرات إلى الطابق السّفلي الثالث بدلاً من صعوده إلى خشبة المسرح، هذا لأنّه لم يسفر سوى عن أضرار مادّية ثقيلة في حين لم تسجّل خسائر في الأرواح. على الرّغم من ذلك، ألا يمكن أن يكون ما يصرّ النّاس على اعتباره عملاً أخرق فعلاً مقصودًا وواعيًا وشجاعًا؟ هذا ما تقترحهُ الرّواية التي أنهاها أوغسطين في يوم وفاتهِ مسكونًا بنبوءةِ نهايتهِ.

صحيحٌ أنّه لا يمكنُ للمرء أن يرى في هذا النصّ تقريرًا رسميًا، لأنّه يحتوي على مغالطات كثيرة أو وقائع غامضة. مثلاً، أنا أنكرُ أن أكون قد زوّدتُ أوغسطين ترولييه بالمخدّرات أو استضفتهُ في بيتي. وبالمثل، فإنّ وجود القاضية بوترونو في الكواليس أثناء تلك اللّيلة المميتة، هو أيضًا محض اختراع، فهذا التّحقيق لم يعرف مطلقًا قاضية اسمها «القاضية بواترونو» -لا داعي لإخباركم بهذا طالما أنّكم أنتم من يشرف على هذا التحقيق- ولم يقع اكتشاف آثار جثّة ثالثة بين الأنقاض.

إنّ طبيعة هذه القصّة، وهي تظلّ عصيّةً على التّحديد، لا تمنعُ من أن يقع أخذها على محمل الجدّ. إنّي أودُّ أن تتأمّلوها، سطرًا بسطر وكلمةً بكلمةٍ. فالأمرُ يتعلّق بنزاهة رجل وشرفه بل وإعادة الاعتبار له. فالصبيُّ الذي يطلقون عليه اسم «وحش القرن»، ربّما كان على الأرجح بطلاً.

إنّ عصرنا البارد، الناعم والأنانيّ، ينظرُ بازدراء إلى ذلك الذي يقدّمُ حياته لفكرة. في الماضي، كنّا نعتقدُ عكس ذلك، حيثُ يُعلى من شأنِ الفكرة القادرة على إنتاج التّضحية. واليوم كما بالأمسِ، ينتجُ التحيّزُ عن حالات الخلط هذه. إنّ الموت لا يُعلي من شأن قضيّة مّا، بل القضيّة هي ما يُعلي من شأن الموت. فأن يتقاتل البعضُ لإعلاء عقيدةٍ طائفيّةٍ، فإنّ ذلك لا يعزّز هذه العقيدة بل يعكسُ درجة أعلى من العمى. بينما عندما يقتلُ الفرد نفسه كي ينقذ أرواحًا، فهذا يبرزُ الإنسانيّة ويقدّمُ برهانًا على شجاعة استثنائية. داخل الكعكة القاتلة المحشوّة بالمتفجّرات، وقف محاربان متعارضان، محاربُ الموت «محمّد بدوي» ومحارب الحياة «أوغسطين ترولييه». واحدٌ قضى على العالم

والآخر قضى على نفسه أمام العالم. الإرهابيّ أعطى الوهم أهمّيةً أكبر من الواقع، بينما أعطى البطل الواقعَ أهميّةً أكبر من الوهم. الأوّل حذَف الواقع الذي كان يناقض وهمه والثّاني أنقذ الواقع الذي يمكنُ أن تزدهر فيه كلّ الأوهام.

أعتقدُ أنّ أوغسطين، على الرّغم من فقره ووحدته وافتقاده نموذجًا أسريًّا، لم يتحوّل إلى متطرّفٍ. صحيح أنّه عاش على هامش المجتمع ولم يتلقّ أيّ اعترافٍ به، لكنّه لم يسع إلى أن يعطي نفسهُ هويّة مع أنّه كان يجهلُ هويّته. هو لم ينتمِ إلى أيّ مجموعة، باستثناء المجتمع الإنسانيّ، ذلك الذي أحرق نفسه من أجله.

ليس مهمًّا إن وقعت مضايقتي، وليس مهمًّا إن كانت أجهزة الشرطة والقضاء تواصلُ استخلاصها للنتائج المعاكسة، فأنا مدينٌ لذكرى أوغسطين بهذه الرّسالة التي أضيفها إلى الملفّ.

أرجو أن تتفضّلوا، سيّدتي القاضية، بقبول أسمى عبارات الاحترام والتقدير.

إ. ش.

إليان بيتبول، كاتبة محكمة
شارلوروا، 5 يوليو 2016
سيّدي العزيز،

لقد أحلتُ رسالتك على الفور، بالإضافة إلى الوثيقة المرفقة، إلى السيّدة القاضية إيزابيل وايتس وهي ستعلمك في أقرب وقت ممكنٍ بالإجراء الذي ستتّخذهُ بخصوص ما أرسلته.

إنّ هذا البريد الذي أرسله إليك سرّيٌّ وخاصٌّ، فوظيفتي ككاتبة محكمة تجعلُ هذا الأمر ممكنًا. مؤخّرًا، وأنا أطّلع على خطابك قبل حفظه، أيقظ اسم ذكرياتي: القاضية بواترونو. سمحتُ حينئذٍ لنفسي بأن أقرأ الواحد والعشرين فصلاً التي كتبها أوغسطين ترولييه وتظهر فيها القاضية بانتظامٍ رفقة السيّد ميشان.

لقد قمتم بطرح فرضيّة مفادها أنّ الشخصية اختلقها أوغسطين ترولييه لأنّ الجميع يعرفون أنّه لا توجدُ قاضيةٌ باسم بواترونو تشاركُ في هذه القضيّة وأن القاضية إيزابيل وايتس هي من تشرف عليها منذ البداية.

ومع ذلك، توجد بالفعل قاضية اسمها بواترونو. أو بالأحرى، كانت هناك قاضية بهذا الاسم، هذا لأنّها ماتت قبل عشرين عامًا. كيف يمكنُ أن تكون موجودةً في قصّة جرت أحداثها في وقتنا الحاضر؟ لقد شعرتُ بالعرق البارد يغمرني.

يتعيّنُ عليّ أن أعترف لكم، يا سيّدي، أنّي كنتُ أقلّب داخل رأسي، ليلاً نهارًا، هذه الأفكار التي سأبسطها عليك الآن. حتّى وإن عددتموني

مجنونةً، فإنّي أرغبُ في إعلامك ببعض التّفاصيل.

لقد التقيتُ بالقاضية بواترونو قبل عشرين عامًا عندما عُيِّنتُ في هذه الدّائرة. كانت القاضية، المثابرة والأصيلة وغير التقليديّة، تثيرُ داخل مؤسّستنا التّعليقات المختلفة حولها، من أكثرها احتقارًا إلى أكثرها إطراءً. أمّا أنا، كنتُ أنتمي إلى الفريق المعجب بها. بلا شكٍّ، كانت تجعلني فخورةً كامرأةٍ لأنّها تحتلّ موقعًا كان حكرًا على الرّجال في السّابق. وحسب رأي المتدرّبة الشابّة التي كنتها، كانت تمسكُ قضاياها باقتدارٍ، وحيويّة، ودون تحيّز.

في تلك الفترة، كان يعترضني أيضًا مساعدها، السيّد ميشان، الذي خلَفته في هذا الموقع، وهو شخصٌ كان أقلّ بروزًا وأكثر تهرّبًا، تمامًا كما وصفتهُ القصّة بدقّة.

هنا بدأت دهشتي: كيف تمكّن شابّ في العشرين، هو أوغسطين ترولييه، من وصف أشخاصٍ لم يسبق له أن التقاهم وصفًا دقيقًا؟ إنّي لا أجدُ تفسيرًا لهذا الإنجاز. في الواقع، ووفقًا لحساباتي، فإنّ القاضية بواترونو والسيّد ميشان توفّيا بعد فترة قصيرة من ولادة أوغسطين ترولييه. من أخبر هذا الصبيّ عنهما؟ إنّ ردودَ القاضية بواترونو، الواردة في القصّة، تتوافق بدقّةٍ مربكةٍ مع الواقع، وتنسخُ هوسها بالقفز من موضوعٍ إلى آخر، وطريقتها في مزج المواضيع المبتذلة بالسّامية، والغريبة بالغيبيّة. ولأنّي حضرت الاجتماعات التي كانت تأخذُ فيها الكلمة، باستطاعتي أن أؤكّد لكم أنّي وجدتها كما هي، بأصالةٍ مذهلةٍ، أثناء قراءتي.

إنّ خدمة الحقيقة يمكنُ أن تؤدّي إلى ما لا يحمد عقباه. ونحن،

عندما نلتحقُ بوزارة العدل، لا نحصلُ على وظيفة فقط بل نكرّسُ أنفسنا لمهمّة. في سنة وفاتها، اشتبهت القاضية بواترونو، المسؤولة عن مراقبة الأعمال الإرهابية، في أنّ أخوين إيطاليّين يخطّطان لهجوم إرهابيّ. ومثلما تذكرُ قصّة أوغسطين ترولييه ذلك، كانت معتادةً على إجراء التحقيقات بنفسها، مثل جنديّ غير نظاميّ، بعيدًا عن أجهزة الشرطة، بل وتتنقّل شخصيًّا إذا ما دعَت الحاجة إلى ذلك. في ذلك اليوم، داخل ورشة الأخوين، وقع استقبالها بزخّات رصاص مندفعة من مدفع رشّاش، هي ومساعدها الوفيّ ميشان. لقد مات كلاهما على الفور.

كانت مراسم الجنازة عظيمةً ومأسويّةً في آنٍ. لقد كانت صورتا الموظفيْن الموضوعتان فوق نعشيهما -كان النّعشان محاطان بالعلم البلجيكي- تنظران إلينا ونحن نشارك في المراسم، ونصلّي ونغنّي ونبكي. شخصيًّا، بلغ حزني ذروتهُ في اللّحظة التي أشار وزير العدل فيها إلى أنّ السيّد ميشان ترك وراءه ثلاثة أطفال.

أصلُ الآن إلى النقطة التي قد تعدّونها هذيانًا منّي... في قصّته، يحدّثنا أوغسطين ترولييه عن الموتى الذين يراهم من خلال الأحياء ويتساءل عمّا إذا كان هو أيضًا لديه ميّت يرافقه.

في عدّة مناسباتٍ، أعتقد أنّه رأى «الميّت» الخاصّ به، مرّة في شخص السيّد فرسيني، الأرمل الذي رافق نعش زوجته إلى ساحة شارل الثاني، ومرّة أخرى، في شخص الرّجل الذي يملكُ عينيْ ذئب، ذلك الذي كان يراقبه.

وبيأسٍ، كان يلاحظُ في كلّ مرّةٍ أن الأمر يتعلّق بأشخاص حقيقيين، وليس بشبحٍ خاصّ كان يمكنُ أن يرصّع وحدته كصبيّ يتيم. ولكن ألا

يمكنُ أن تكون القاضية بواترونو «الميّت» الخاصّ به؟ إنّها تظهرُ دوْمًا في اللّحظات الحرجة، ولا تحدّث غيره قطّ، ولا تشارك في أيّ لقاءٍ جماعيّ وتتمكّن من الالتحاقِ به في كلّ مخابئه، حتّى عندما لا تعرف الشرطة أين يختبئ.

ثمّة فكرتان استخلصتهما من قراءتي الثانية تدعّمان هذه الفرضيّة.

يخبرنا أوغسطين تروليبه أنّ الإنسانَ إذا لم يدرك وجود ميّت يحرسهُ، وَقَعَ ضحيّة تلاعبه، وفي هذه الحالة، ينتزعُ الميّت منه حرّيته ويصبح قدره. وهكذا تبيّن أنّ مومو كان يقودهُ أخاه حسين بصورةٍ مأسويّةٍ. ألا تلعب القاضية بواترونو هذا الدور مع أوغسطين؟

إنّها تضايقه كي يجري تحقيقًا حول الربّ وحول علاقة الإرهابيّين بالربّ. لولاها لما كان اقترب من الشخصيّة التي تحملُ اسمك ولا تعاطى العقار المخدّر ولا تحادث مع «العين الكبيرة» ولا قضى نحبه، ربّما، في طابق المسرح السفليّ...

ثمّ مع أوفيليا، ابنة السيّد بيغارد، نعرفُ أنّ بعض الموتى يجهلون أنّهم موتى. وبسبب الطريقة المفاجئة التي اغتيلت بها، ألا يمكنُ افتراض أنّ القاضية بواترونو لم تر نفسها ميّتة؟ وفي تلك الحالة، تواصلُ تطوافها في عالمنا عنيدةً، مصممّة، متعنّتةً ومتشبّثةً بمهمّتها.

ومع ذلك، هل ستبدون اعتراضًا لو تساءلتُ عن العلاقة بين القاضية بواترونو وأوغسطين تروليبه؟ فَلِكَيْ يفرض ميّت نفسه على إنسانٍ حيّ، لا بدّ من وجود رابطٍ فريد بينهما.

ها هو المكان الذي تصيبني فيه بعض الذكريات بالخوف...

في عام وفاتها، سرت شائعة حول القاضية بواترونو. في تلك الفترة، كنتُ قد أغلقتُ أذنيّ عنها ولكنّي أعيدها اليوم عليك كما هي. لقد ادّعى البعض أنّ القاضية بواترونو كانت على علاقة مع المفتّش الشاب تيرليتي -كان رجلاً وسيمًا للغاية- وأنّ هذه العلاقة السريّة -لأنّه كان متزوّجا- أثمرت طفلاً ولد عن طريق الخطإ. هنا، أصبحت المعلومات متضاربةً: فحسب البعض، أجهضت القاضية في الشهر الثالث، أمّا بالنّسبة إلى البعض الآخر، فإنّها وضعت رضيعها تحت اسم مستعارٍ قبل أن تسلّمه للسّلطات. ولقد فسّر المغتابون هذا التصرّف بطموح القاضية التي لم تكن تنوي كبح صعودها المهنيّ أو بغياب حسّ الأمومة لديها أو بالفضيحة التي كان سيثيرها هذا الأمر حتمًا داخل عائلة تيرليتي. ولأنّها أقامت في البرازيل، موفدةً في مهمّة، لمدّة ثلاثة أشهر، لم يلاحظ أحدٌ حملها أو مخاضها، لذلك كان من اليسير أن يتمّ اختلاق كلّ شيء، وتكاثرت الشّائعات، فضلاً عن الكراهية المتزايدة التي كانت تحملها نحو تيرليتي... اليوم، أعتقد أنّ هناك شخصًا واحدًا يعرفُ الحقيقة، إنّه المفتّش نفسه. ولكنّ هذا المتحفّظ -وزيرَ النّساء الخطير بالمناسبة- موهوبٌ في دفع الآخرين إلى الاعتراف بالحقيقة أكثر من الاعتراف بحقيقته هو.

لقد خطَرت لي فكرةٌ وأنا أقرأ قصّة أوغسطين ترولييه: ألا يكونُ هو الابن الذي تخلّت عنه القاضية، هذا الابن النّكرة الذي بُذر في أحشائها في ليلة خطيئةٍ جمعتها بالحصان الجامح تيرليتي؟ مرّةً أخرى، هو وحده يعلمُ ذلك.

ولكن من سيسأله عن الأمر؟ لقد علمنا للتوّ أنّ هذا المفتّش

المسكين يعاني، بعد أربعين عامًا من التدخين، سرطانًا خطيرًا في الرّئة، وأنّه من المرجّح أن يودي المرض بحياته قريبًا هو وأسراره، وهنا أخشى أن يظلّ هذا الطفلُ المحتملُ لغزًا سواء كان ميّتًا أو مهجورًا.

ثمّة نقطةٌ أخيرة تتعلّق بالسيّد ميشان. فسواء أدركت القاضية بواترونو أنّها قضَت برفقة ميشان تحت رصاص المجرمين الإيطاليين أو لا، فإنّها ربّما كانت تشعرُ بالذّنب من سلوكها معه. لقد كانت تسخر منه وتزدريه وتهينه، ولعلّ ما عانته من الرّجال الأقوياء جعلها تنتقمُ من رجلٍ ضعيفٍ. هل أجرؤ على قول هذا؟ يبدو لي أنّ السيّد ميشان هو «الميّت» الخاصّ بالقاضية بواترونو، إنّه أسفها وندمها، وذاك الذي يطاردها إنّما هو مصيرهُ الذي لم يكتمل لتجرّه مثل كرةٍ إلى الأبد.

يبدو أنّي أضعتُ طريقي... اغفروا لي خوضي في هذه الفرضيّات، عزيزي السيّد شميت. وأنا أعرضها عليكم، أشعرُ أنّي أتحرّرُ من المنطق. ومع ذلك، من غيركم سيفهمني؟ ألسنا نعيشُ في زمنٍ أفلت فيه أشخاصٌ كثيرون من العقلانيّة الضيّقة؟ أحيانًا نحو الأفضل...وأحيانًا أخرى نحو الأسوإ؟ أنا التي لطالما اعتقدتُ أنّي مارستُ إرادتي الحرّة، أرتجفُ الآن لفكرة أنّ موتانا هم قدرنا إذا لم نحرّر أنفسنا منهم.

وفي انتظار أن ألقي عليكم التحيّة عندما تستقبلكم السيّدة القاضية، أرسل إليكم، سيّدي، فائق عبارات الاحترام والإعجاب الذي أحمله منذ سنواتٍ لإبداعكم.

إليان بيتبول

مايا شميت لوكام

باريس، 28 مارس 2060

أبي بالتبنّي، إريك إيمانويل شميت، كان سيبلغُ من العمر مائة عام هذا اليوم. وأنا أعجزُ عن التّفكير فيه دون أن أشعر بالحنين، أنا التي دخلتْ مرحلةَ شيخوختها، كنتُ أتمنّى لو أنّه لا يزال بيننا، وإن كنت أعرف أنّه سيهرب لِمَقْته الاحتفال بأعياد الميلاد. إنّ الإصدار الجديد لأعماله الكاملة الذي تنجزهُ منشورات «ألبين ميشال» المحترمة، احتفاءً بهذه المناسبة، ينشد الكمال. ولهذا طُلب منّي أن أحقّق في قضيّة «الرّجل الذي كان يرى من خلال الوجوه»، الصّادر في العام 2026، تحت اسم أوغسطين تروليبه، بعد عشر سنواتٍ من موجة الهجمات الإرهابيّة التي ضربت شارلوروا، بلجيكيا وفرنسا.

في تلك الفترة، دافع البعض عن فكرة أنّ النص لم يكتبه أوغسطين تروليبه، بل إريك إيمانويل شميت نفسه، الذي أصدر على الفور تصويبًا أشار فيه إلى أنّه تلقّى هذا النصّ عبر البريد قبل أن يحيله إلى القضاء -نمتلك الدّليل على ذلك- وأنّه لم يكن مؤلّفه بأيّ حال من الأحوال.

لم تقنع ردّة فعله المتشكّكين كثيرًا، فأيّ رجل كاذبٍ كان سيقولُ الشيء نفسه. لقد راقب محقّقون حقوق التأليف، آملين أن يقعوا على ما يشير إليه، إلاّ أنّ كلّ الأموال أرسلت إلى ميتم شارلوروا الذي أمضى أوغسطين تروليبه فيه سنواته الأولى. لقد نامت القضيّة ولم يوقظها سوى بعض المؤتمرات الجامعيّة.

عندما ناقشته حولها، قدّم لي الأطروحة نفسها مرفقة بابتسامة

شجّعتني على أن أشكّ فيه. وخلال حياته، لم أُفلح مطلقًا في إخراجهِ من حالة الغموض هذه. اليوم، وبالتأمّل في الماضي، لا أزال أشعرُ بالحيرة. فأنا أميلُ إلى أن أنسب بعض الجملِ -تلك الصّيغ المقتضبة التي تكشفُ بقدر ما تخفي- إلى والدي بالتبنّي. لكنّي أتساءلُ، وأنا أعثرُ على الخصائص الفنيّة التي تذكّرني بكتاباته، كيف يمكنُ أن يكون الأمرُ خلاف ذلك؟ فأوغسطين ترولييه، مثلما ادّعى أبي، كان قد قرأ كلّ مؤلّفات شميت، واستلهم منها بل وقلّدها.

أمّا بالنّسبة إلى الأفكار المطروقة، فهي تتبنّى أفكار والدي عن الإله والأديان والعلاقة بين العنف والمقدّس، والهويّة الهاربة ولغز السّلوك. إنّ الفلسفة التي يكشفها اللّقاء مع «العين الكبيرة» تشبهُ فلسفته، تلك المتعصّبة للإنسانيّة. فسواء آمن البشر بالرّب أم لم يؤمنوا، فإنّهم يفلتون منه لأنّهم يظلّون أحرارًا. والأمر متروك لهم لإخصاب حرّيتهم التي لن يكون لها وجودٌ إذا لم يستخدموها.

في النّهاية، البشر مسؤولون عن البشر سواءً كانت السّماء ممتلئةً أو فارغة. بل أكثر من ذلك: إنّ البشر مسؤولون عن الربّ. إنّهم هم من يقدرُون على نكرانه أو فهمه، هم من يقدرُون على سماعه أو صمّ آذانهم عن كلماته، هم من يقدرون على قراءته بصورةٍ جيدةٍ أو سيّئةٍ، وممارسة الحسّ النّقدي، وتعظيم الذّكاء الموجود في الكتب المقدّسة، وخططها ونواياها أو الاحتفاظ بقشورها.

وكي نتوصّل إلى العيش بانسجامٍ معًا، حتى لو كنّا مختلفين، كان شميت يقول لأصدقائه الملحدين أو المنتمين إلى عقائد مختلفة: «على الربّ أن يكون أفضل ما في الإنسان. وسواء آآمنّا به أم لا، فدعونا

نترك الأمر يحدث». عندما أفصل جملة «العين الكبيرة» تلك التي تقول «أنا أتألّمُ لحال الإنسان» عن البقيّة، أفكّر في الجملة الأخرى التي كان يردّدها على مسامعي: «أنا أتألّمُ لحال الإنسان لأنّي أؤمن به». إنّ أحد دفاتره يحتوي على هذه الفكرة: «لقد اعتقدتُ طويلاً أنّ الربّ يرفعُ من شأن الإنسان حتّى تفطّنتُ إلى أنّ على الإنسان أوّلاً أن يرفع من شأن الربّ». كان يطلق على الأصوليّين اسم «محتجزي الرّهائن»، وهو لا يعني بهذا عمليّات الاختطاف التي يقوم بها الإرهابيّون فقط ولكن أيضًا مصادرة الربّ من أجل غاياتٍ شرّيرةٍ. ومثلما يظهره اللّقاء مع «العين الكبيرة»، فإنّ الدّيانات، هذه التي تبرّدُ النّار، تنحو بشكلٍ يكادُ يكون طبيعيًّا نحوِ الأصوليّة إذا لم يجدّدها الذكاءُ والتّحليل والنّقاش والمقارنة. العقلُ بالنّسبة إليه، لم يكن أبدًا عدوًّا للدّين بل حليفه الأقوى.

وبينما عثَر أبي بالتبنّي على الإيمان في الصّحراء، أكّد لي أنّه إذا ما كانت هذه النّعمة قد غيّرَت حيَاته، فإنّها لم تفسد إنسانيّتهُ، باستثناء الثّقب الذي أحدثتهُ في سقفها، لتجعله أكثر انفتاحًا وتسامحًا وأقلّ نرجسيّةً كإنسان.

بيد أنّ هذه التوافقات الجوهريّة بين أبي بالتبنّي وأوغسطين تروليبه لا تقدّمُ ما يحسمُ أبوّة هذا العمل لأنّها هي روح الأخوّة التي قرّبت بينهما، مثلما صرّحَا بذلك.

وأمام غياب أيّ عناصر حاسمةٍ، عدتُ إلى أرشيف العائلة ونبشتُ الرّسائل والبريد الإلكتروني واليوميّات. لقد كانت فكرة إجراء لقاءٍ بين الربّ وكاتب صدرت له ثلاثة كتب فكرةً استثنائيّة، تداعبُ أبي

بالتبنّي منذ زمنٍ طويل. كانت الفكرة تعجبهُ وتسحره إلى حدّ أنّه كان يدورُ حولها. إلاّ أنّه في العام 2015، اعترف في مذكّراته بتخلّيه عنها لأنّه يرغب في تكريس وقته للرّوايات لا للمقالات الفلسفيّة.

ثمّة تفصيل يدفعني اليوم إلى الاعتقاد في أنّه لم يكن مسؤولاً عن هذه الصّفحات. اسمحوا لي أن أخبركم هنا بأحد أسرار «الوصفة الشميتيّة»: لو نقوم بدراسة كلّ رواياته الكبيرة في تلك الفترة، فسنجدها دوْمًا تنتهي بسؤال. وغالبا مّا كان يقولُ لي شميت: «السّؤال، هذا هو توقيعي».

في البداية، نتردّدُ في تحديد الموضع الذي تنتهي عنده الرّواية. هل تنتهي عند فصول القصّة الواحدة والعشرين؟ أم عند رسالة كاتبة المحكمة التي أضيفت في الملحق؟ ثمّ إنّ العمل لا ينتهي، في الحالتين، بسؤال. لهذا السّبب أعلنُ عن رفضي نسبته إلى أبي بالتبنّي.

ومع ذلك، لقد تأثّرت جدًّا عندما عثرتُ عليه في هذه الصّفحات مثلما عثرتُ أيضًا على شخصي وإن بشكلٍ عابر. بالنّسبة إليّ، لا أحتفظُ بالكثير من الذكريات عن تلك السّنوات ولا أتذكّر بالمرّة شخصًا اسمه أوغسطين تروليبه. لقد كان كثير من النّاس يمرّون على غيرمانتي، ممثّلين وموسيقيّين ومخرجين ومصمّمين وباحثين وصحافيّين حتّى ضاعت ملامحه بين وجوه الآخرين.

إنّ ما يربكني أيضًا في هذه الرّواية الفريدة التي ألّفها رجلٌ مجهولٌ هو ذلك التّساؤل حول الهويّة، ذلك التّساؤل الذي يجسّده موتى يرافقون الأحياء، ويؤثّرون فيهم، يواسونهم وينتقدونهم. ودائما ما عدّ شميت هذا التّساؤل مهمًّا. من يتكلّم عندما نتكلّم؟ ربّما نكون نحن...

رُبّما آباؤنا... ربّما المجتمع... ربّما الربّ. هل نحنُ مؤلّفو أعمالنا؟ مؤلّفو حياتنا؟ هل سنصلُ يوما مّا إلى الحريّة الحقيقيّة؟

وتبعًا لذلك، فإنّ السّؤال الذي تطرحهُ الأجيال اللاّحقة حول «الرّجل الذي كان يرى من خلال الوجوه» يعكسُ الهاجس الذي سيطر على أبي بالتبنّي: «من يكتبُ عندما أكتبُ؟».

يرى من خلال الوجوه

«يرى من خلال الوجوه» لإريك إيمانويل شميت، روايةٌ تستحقُّ بامتياز أن توسمَ برواية التخومِ الغريبة، ذلك أنّها تُشكّل منطقةَ اشتباكٍ حرّة بين الفلسفة والدّين والتصوّفِ والإعلامِ، في قالبٍ بوليسيّ يمزجُ الواقعيّ بالغريب، دونَ أن يخلَّ ذلك بالحبكة الروائيّة التي يوشكُ معها القارئُ على الركضِ بين الفصول.

صحفيٌّ متدرّبٌ يعاني الجوع والحرمان والتشرّد، ومُحتَقرٌ من الجميع، ولكنّه يملك في الآنِ نفسه موهبةً خاصّةً هي رؤية الموتى، لا سيّما أولئك الموتى الذين يحرّضونَ الأحياء ويطاردونهم.

تحدث عمليّة إرهابيّة تهزّ مدينة شارلوروا، يكونُ فيها بطل القصّة، ذلك الذي يرى الموتى، شاهدًا وحيدًا على عبثيّة العنف والإرهابِ المتستّرِ بالدّينِ، قبل أن يحملَ القارئ في رحلة تحقيقه الصحافيّ، يرافقهُ في ذلك الأحياء والأمواتُ على حدّ سواء، تصلُ ذروتهُ مع ذلك اللّقاءِ الذي يحلمُ به كلّ البشر...لقاء الأسئلة المتداعية في بشريّتها والأجوبة التي تعيدُ توجيهَ بوصلةِ البشرِ نحو تلك الحقيقة الغريبة: هل عرفنا الله حقًّا؟

وليد أحمد الفرشيشي

مسكلياني